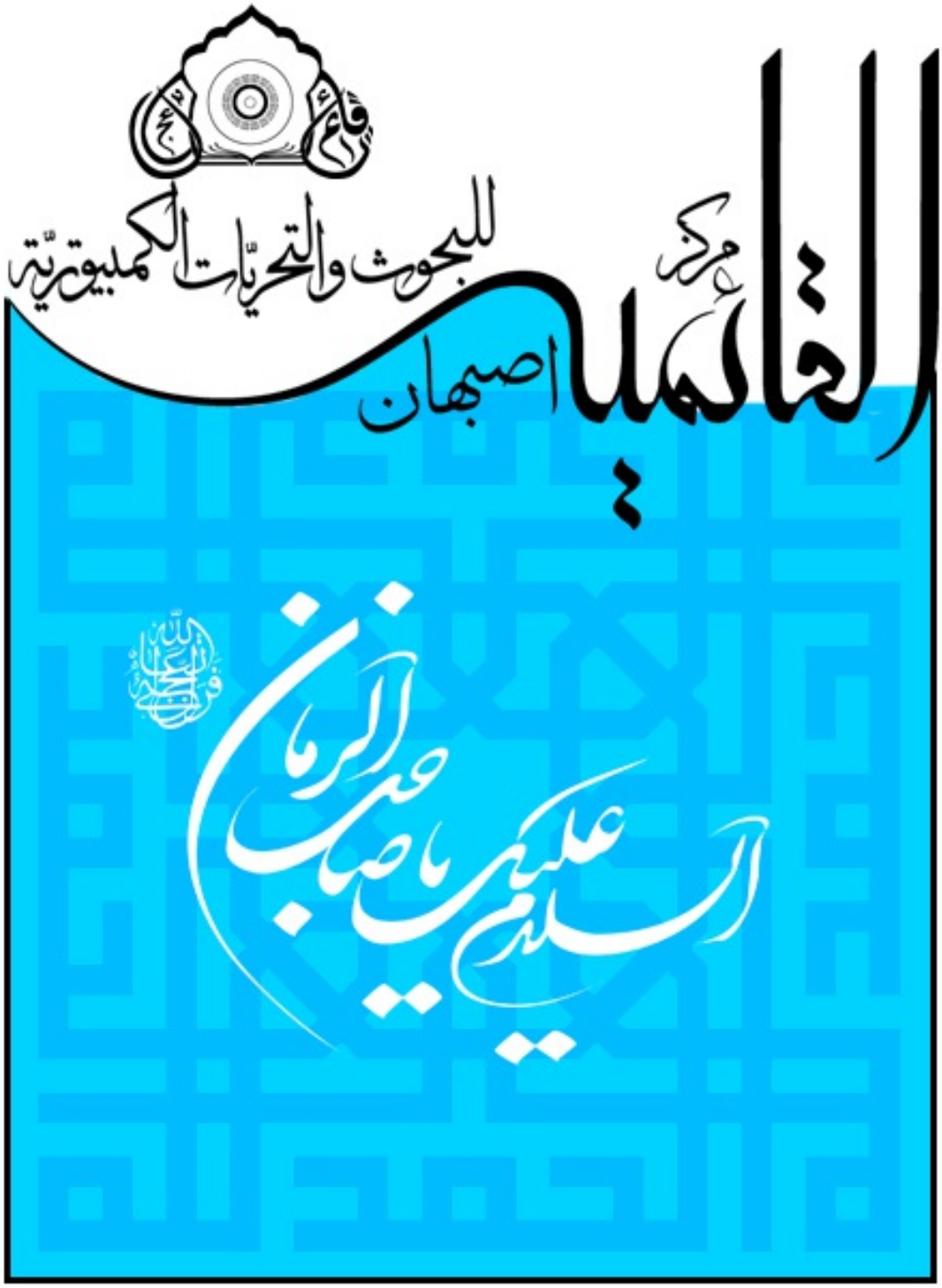

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

الوحي المحمدي

تأليف

الشيخ محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

المتوفى ١٣٥٤هـ

دار الكتب العلمية

بسم الله الرحمن الرحيم

الوحى المحمدى

كاتب:

محمدرشيد رضا

نشرت فى الطباعة:

وزارة الاوقاف، المجلس الاعلى للشئون

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
الوحی المحمدی ----- ۱۴
اشارة ----- ۱۴
علی سبیل التقدیم ----- ۱۴
مقدمة الطبعة الأولی ----- ۱۶
اشارة ----- ۱۶
ارتقاء البشر المادی، و هبوطهم الأدبی، و حاجتهم إلی الدین: ----- ۱۶
الحجب الثلاثة بین حقیقة الإسلام و شعوب الإفرنج: ----- ۱۷
الأسباب العائقة عن فهم الأجانب للقرآن: ----- ۱۸
(أولها): جهل بلاغة القرآن ----- ۱۸
(ثانیها): قصور ترجمات القرآن و ضعفها ----- ۱۹
(ثالثها): أسلوب القرآن المخالف لجمیع أسالیب الکلام ----- ۲۰
(رابعها): الإسلام لیس له دولة و لا جماعات ----- ۲۰
نتیجة هذه المقدمات: ----- ۲۱
بیان هذا الکتاب لحقیقة الإسلام بما تقوم به الحجة علی جمیع الأنام ----- ۲۱
فاتحة الطبعة الثانیة ----- ۲۲
دعوة الناس إلی الإسلام عامة و أهل الکتاب خاصة ----- ۲۲
دعوة الوحی المحمدی فی هذه الآیات: ----- ۲۲
رواج الکتاب و ترجمته ببعض لغات: ----- ۲۶
الفصل الأول فی تحقیق معنی الوحی و النبوة و الرسالة و حاجة البشر إلیها و أصولها و عدم إغناء العقل و العلم الکسبی عنها «۱» ----- ۲۶
تعریف الوحی لغة و شرعا: ----- ۲۶
النبی معناه لغة و شرعا و الفرق بین الرسول و غیره ----- ۲۸
حاجة البشر إلی الرسالة و أصول أدیان الرسل الأساسیة ----- ۲۸

عصمة الأنبياء ----- ۲۹
العقل و العلم البشرى لا يغنيان عن هداية الرسل ----- ۳۱
الفصل الثانى فى إقامة الحجة على مثبتى الوحى المطلق فى إثبات نبوة محمد صلّى اللّه عليه و سلم ----- ۳۲
اشارة ----- ۳۲
تعريف الوحى و النبوة و الأنبياء عند النصارى ----- ۳۳
بعض ما يرد على نبوتهم من تعريفها ----- ۳۴
و أما كلامهم فى النبوة و الأنبياء فيؤخذ منه ما يأتى: ----- ۳۴
امتياز نبوة محمّد على نبوة من قبله فى موضوعيها و الموازنة بينه و بين موسى و عيسى (ع. م) ----- ۳۵
صد الكنيسة عن الإسلام ----- ۳۷
الآيات و العجائب (أى الخوارق) و إثبات النبوة عندنا و عندهم «۱» ----- ۳۹
العجائب و ما للمسيح منها ----- ۳۹
بحث فى عجائب المسيح عليه السلام: ----- ۴۰
آية نبوة محمّد العقلية العلمية و سائر آياته الكونية ----- ۴۲
تأثير العجائب فى الأفراد و الأمم: ----- ۴۳
ثبوت نبوة محمد بنفسها و إثباتها لغيرها: ----- ۴۴
درس علماء الإفرنج للسيرة المحمدية و شهادتهم بصدقه صلّى اللّه عليه و سلم ----- ۴۵
الفصل الثالث فى شبهة منكرى عالم الغيب على الوحى الإلهى و تصويرهم لنبوة محمّد صلّى اللّه عليه و سلم بما يسمونه الوحى النفسى ----- ۴۵
اشارة ----- ۴۶
شبهة على الوحى ----- ۴۶
جواب المنار ----- ۴۷
تفصيل الشبهة و دحضها بالحجة ----- ۴۹
اشارة ----- ۴۹
المقدمة الأولى: لشبهة الوحى النفسى دعوى الأخذ عن بحيرا الراهب ----- ۴۹
المقدمة الثانية: دعوى الأخذ عن ورقة بن نوفل ----- ۵۰

المقدمة الثالثة: دعوى انتشار اليهودية و النصرانية فى بلاد العرب ----- ۵۰
المقدمة الرابعة: حديث إسلام سلمان الفارسى ----- ۵۱
المقدمة الخامسة: رحلتا الشتاء و الصيف لتجار قريش ----- ۵۱
المقدمة السادسة: ما قيل من وجود يهود و نصارى بمكة ----- ۵۱
المقدمة السابعة: ما زعمه من سبب نشوء محمّد صلّى اللّه عليه و سلم أميا و ما استفاد من رحلاته التجارية ----- ۵۱
المقدمة الثامنة: تصوير مجامع قريش بمكة و شأن محمد فيها ----- ۵۲
المقدمة التاسعة: موت أبناء محمد و ما أثاره فى نفسه ----- ۵۲
المقدمة العاشرة: ضعف الوثنية فى العرب، و تعبد محمد فى الغار و سببها بزعم درمنغام ----- ۵۴
نتيجة تلك المقدمات العشر ----- ۵۴
باب كيف كان بدء الوحى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم ----- ۵۶
بسط ما يصورون به الوحى النفسى لمحمد صلّى اللّه عليه و سلم ----- ۶۰
تفنيد تصويرهم للوحى النفسى و إبطاله من وجوه ----- ۶۱
القول الحق فى استعداد محمد صلّى اللّه عليه و سلم للنبوة و الوحى ----- ۶۵
الأمثال النورانية لفطرة محمد صلّى اللّه عليه و سلم و روحه، و وحيه، و كتاب اللّه تعالى و دينه ----- ۶۷
آية اللّه الكبرى القرآن العظيم القرآن الكريم، القرآن الحكيم، القرآن المجيد، الكتاب العزيز الذى: (لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل مز
الفصل الرابع فى إعجاز القرآن بأسلوبه و بلاغته، و تأثيره و ثورته ----- ۷۰
أسلوب القرآن فى تركيبه المزجى: ----- ۷۰
الثورة و الانقلاب الذى أحدثه القرآن فى الأمة العربية فسائر الأمم ----- ۷۲
اعتبار الموازنة بين تأثير القرآن فى العرب و التوراة فى بنى إسرائيل ----- ۷۳
اشارة ----- ۷۳
المسلمون أرحم البشر بهداية القرآن: ----- ۷۴
فعل القرآن فى أنفس الأمة العربية و إحداثها به أكبر ثورة عالمية ----- ۷۶
فعل القرآن فى أنفس مشركى العرب ----- ۷۷
فعل القرآن فى أنفس المؤمنين ----- ۷۹

الفصل الخامس فی مقاصد القرآن فی تربیة نوع الإنسان و حکمة ما فیه من التکرار فی الهدایة و إعجازه بالبیان ---- ۸۱
اشارة ---- ۸۱
المقصد الأول من مقاصد القرآن فی بیان حقیقة أرکان الدین الثلاثة التی دعا إلیها الرسل و ضل فیها أتباعهم ---- ۸۱
اشارة ---- ۸۱
الرکن الأول للدین الإیمان بالله تعالی ---- ۸۲
الرکن الثانی للدین: عقیدة البعث و الجزاء ---- ۸۵
اشارة ---- ۸۵
البعث الإنسانی جسمانی روحانی ---- ۸۷
الرکن الثالث للدین: العمل الصالح ---- ۸۹
اشارة ---- ۸۹
سنّة القرآن فی تهذیب الأخلاق و صلاح الأعمال و الفرق بینها و بین کتب الفلسفة و الآداب ---- ۹۰
سنّة القرآن فی الإرشاد إلی العبادات ---- ۹۲
ترجیح فضائل القرآن علی الإنجیل ---- ۹۳
شبهة فلسفیة علی عمل الخیر لمرضاة اللّه تعالی ---- ۹۴
المقصد الثانی من مقاصد القرآن: بیان ما جهل البشر من أمر النبوة و الرسالة و وظائف الرسل ---- ۹۵
اشارة ---- ۹۵
۱- بعثة الرسل فی جمیع الأمم و وظائفهم: ---- ۹۵
۲- أطوار النصاری و ما انتهوا إلیه فی الدین: ---- ۹۶
۳- مسألة الشفاعة: ---- ۹۷
۴- الإیمان بجمیع الرسل و عدم التفرقة بینهم: ---- ۹۷
بحث فی الآیات الکونیة التی أید اللّه بها رسله و ما یشبه بعضها من الکرامات، و ما یشتبه بها من خوارق العادات و ضلال الماديين و الخرافيين فيها
اشارة ---- ۹۸
آیات اللّه تعالی فی خلقه نوعان: ---- ۹۹
سنن اللّه فی عالم الشهادة و عالم الغیب: ---- ۹۹

الغیب قسمان حقیقی و إضافی: ۱۰۰
الخوارق الحقیقیة و الصوریة عند الأمم ۱۰۰
الفرق بین المعجزة و الکرامة ۱۰۱
الکافرون بالآیات صنفان: مکذبون و مشرکون، و علاج کل منهما ۱۰۳
علاج خرافات تصرف الأولیاء فی الکون: ۱۰۴
المنکرون للمعجزات و شبهة الخوارق الکسبیة علیها ۱۰۴
اشارة ۱۰۴
أعجوبة من خوارق الهنود ۱۰۴
المعجزات قسمان: تکوینیة، و روحانیة تشبه الکسبیة ۱۰۶
عبادة بعض الناس للمسیح و للأولیاء دون موسی ۱۰۷
ختم النبوة و انقطاع الخوارق بها و معنی الکرامات ۱۰۹
لا یمکن إثبات معجزات الأنبیاء إلا بالقرآن ۱۱۰
الإیمان بالقدر و السّنن العامة و آیات اللّه الخاصة ۱۱۱
الخطر علی البشر من ارتقاء العلم بدون الدین: ۱۱۳
المقصد الثالث من مقاصد القرآن إکمال نفس الإنسان من الأفراد و الجماعات و الأقوام ۱۱۳
اشارة ۱۱۳
۱- الإسلام دین الفطرة: ۱۱۴
۲- الإسلام دین العقل و الفکر: ۱۱۵
۳- الإسلام دین العلم و الحکمة و الفقه: ۱۱۶
اشارة ۱۱۶
الحکمة و الفقه ۱۱۸
۴- الإسلام دین الحجة و البرهان: ۱۱۸
۵- الإسلام دین القلب و الوجدان و الضمیر: ۱۱۹
۶- منع التقلید و الجمود علی اتباع الآباء و الجدود: ۱۲۰

اشارة ----- ۱۲۰
دحض شبهة، و إقامة حجة ----- ۱۲۱
۷- الحرية الشخصية فی الدين بمنع الإكراه و الاضطهاد و رئاسة السيطرة: ----- ۱۲۱
المقصد الرابع من مقاصد القرآن الإصلاح الإنسانی الاجتماعی السياسی الوطنی بالوحدات الثمانی ----- ۱۲۲
اشارة ----- ۱۲۲
الأصل الأول ----- ۱۲۲
الأصل الثانی: ----- ۱۲۳
الأصل الثالث: ----- ۱۲۳
الأصل الرابع: ----- ۱۲۳
الأصل الخامس: ----- ۱۲۳
الأصل السادس: ----- ۱۲۴
الأصل السابع: ----- ۱۲۴
الأصل الثامن: ----- ۱۲۴
المقصد الخامس من مقاصد القرآن «و تقرير مزايا الإسلام العامة فی التكاليف الشخصية من الواجبات و المحظورات» و نلخص أهمها بالإجمال فی عشر
الأولی ----- ۱۲۷
الثانية ----- ۱۲۷
الثالثة ----- ۱۲۷
الرابع ----- ۱۲۷
الخامسة ----- ۱۲۸
السادسة ----- ۱۲۸
السابعة ----- ۱۲۸
الثامنة ----- ۱۲۹
التاسعة ----- ۱۲۹
العاشرة ----- ۱۲۹

المقصد السادس من مقاصد القرآن بیان حکم الإسلام السیاسی الدولی: نوعه، و أساسه، و أصوله العامة ----- ۱۲۹
اشارة ----- ۱۲۹
القاعدة الأساسیة الأولی للحکم الإسلامی ----- ۱۳۰
أصول التشریع فی الإسلام ----- ۱۳۲
قواعد الاجتهاد من النصوص ----- ۱۳۲
العدل و المساواة فی الإسلام نصوص القرآن فی إیجاب العدل المطلق و المساواة فیه و حظر الظلم ----- ۱۳۳
حظر الظلم فی الإسلام الشواهد علی حظر الظلم و مفاسده و عقابه: ----- ۱۳۴
قواعد مراعاة الفضائل فی الأحکام و المعاملات ----- ۱۳۴
المقصد السابع من مقاصد القرآن: الإرشاد إلی الإصلاح المالی ----- ۱۳۵
تمهید: ----- ۱۳۵
القطب الأول: القاعدة العامة فی المال؛ کونه فتنة و اختبارا فی الخیر و الشر ----- ۱۳۵
القطب الثانی: ذم طغیان المال و غروره و صده عن الحق و الخیر ----- ۱۳۷
القطب الثالث: ذم البخل بالمال و الکبریاء به و الریاء فی إنفاقه ----- ۱۳۸
القطب الرابع: مدح المال و الغنی بکونه من نعم اللّه و جزائه علی الإیمان و العمل الصالح ----- ۱۳۸
القطب الخامس: ما أوجب اللّه من حفظ المال من الضیاع بالإسراف و الاقتصاد فیه ----- ۱۴۰
القطب السادس: (إنفاق المال فی سبیل اللّه) آیة الإیمان و الوسیلة لحیاة الأمة و عزة الدولة و سعادة الإنسان ----- ۱۴۱
القطب السابع: فی الحقوق المفروضة و المندوبة فی المال و الإصلاح المالی فی الإسلام ----- ۱۴۳
المقصد الثامن من مقاصد القرآن إصلاح نظام الحرب و دفع مفاسدها و قصرها علی ما فیه الخیر للبشر نظرة عامة فی فلسفة الحرب و السلم و المعاهدا
اشارة ----- ۱۴۴
أعجوبة القرآن فی فساد معاهدات الزمان: ----- ۱۴۵
أهم قواعد الحرب و السلام فی دین الإسلام، و شواهدها من القرآن ----- ۱۴۵
اشارة ----- ۱۴۵
القاعدة الأولی: فی الحرب المفروضة علی الأعیان ----- ۱۴۵
القاعدة الثانیة: فی الغرض من الحروب و نتیجتها ----- ۱۴۶

القاعدة الثالثة: إيثار السلم على الحرب ----- ۱۴۷
القاعدة الرابعة: الاستعداد التام للحرب لأجل الإرهاب المانع منها ----- ۱۴۸
القاعدة الخامسة: الرحمة فی الحرب ----- ۱۴۸
القاعدة السادسة: الوفاء بالمعاهدات و تحریم الخیانة فیها ----- ۱۴۸
القاعدة السابعة: الجزیة و کونها غایة للقتال لا علة ----- ۱۴۹
اشارة ----- ۱۴۹
حکمة الجزیة و سببها و ما تسقط به: ----- ۱۵۰
المقصد التاسع من مقاصد القرآن إعطاء النساء جمیع الحقوق الإنسانیة و الدینیة و المدنیة ----- ۱۵۰
المقصد العاشر من مقاصد القرآن تحریر الرقبة ----- ۱۵۴
اشارة ----- ۱۵۴
هدایة الإسلام فی تحریر الرقیق و أحکامه ----- ۱۵۵
اشارة ----- ۱۵۵
الطریقة الأولی منع الإسلام جمیع ما کان علیه الناس من استرقاق الأقویاء للضعفاء بکلّ وسیلة من وسائل البغی و العدوان، ----- ۱۵۵
الطریقة الثانیة: ما شرعه لتحریر الرقیق الموجود وجوبا و ندبا ----- ۱۵۷
اشارة ----- ۱۵۷
النوع الأول من أحکام الرق و وسائل تحریره اللازبة و فیه عشر مسائل ----- ۱۵۷
النوع الثانی من وسائل تحریر الرقیق الموجود: الکفارات ----- ۱۵۹
النوع الثالث من وسائل إلغاء الرق الموجود ----- ۱۵۹
النوع الرابع منها العتق الاختیاری لوجه الله تعالی (أی ابتغاء مرضاته و مثوبته) ----- ۱۶۰
علاوة فی عتق غیر المسلم ----- ۱۶۰
الوصیة بالمماالیک ----- ۱۶۱
خلاصة البحث فی تحریر الدلالة علی إثبات الوحی و حجة الله به علی جمیع الخلق ----- ۱۶۱
الخاتمة فی تجدید التحدی بتعالیم الوحی المحمدی، و دعوة شعوب الحضارة إلی الدین الإسلامی ----- ۱۶۲
اشارة ----- ۱۶۲

نتیجة التحدی بالوحی المحمدی: دعوة شعوب المدنیة: أوروبا و أمریکا و الیابان، بلسان علمائها إلی الإسلام لإصلاح فساد البشر المادی و تمتیعه بالسلا

علوم البشر لا تستقل بهدایتهم لأنهم لا یدینون إلا لوحی ربهم ---------- ۱۶۵

الرجاء فی العلماء المستقلین دون السیاسیین: ---------- ۱۶۶

معجزات القرآن الطبیعیة و الفلکیة: ---------- ۱۶۶

فهرس الموضوعات ---------- ۱۶۷

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ---------- ۱۷۰

الوحی المحمدی

اشارة

نام کتاب: الوحی المحمدی

سرشناسه : رضا، محمدرشید

عنوان و نام پدیدآور : الوحی المحمدی/ تالیف محمدرشید رضا

تاریخ وفات مؤلف: ۱۳۵۴ ق

مشخصات نشر : قاهره : وزارة الاوقاف، المجلس الاعلی للشئون ، ۱۴۲۰ق = ۲۰۰۰م = ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری : ص ۳۲۳

موضوع : قرآن -- وحی

رده بندی کنگره : BP۲۲۰/۳/ر۶و۳ ۱۳۷۹

شماره کتابشناسی ملی : م۸۰-۳۶۸۲۴

زبان: عربی

تعداد جلد: ۱ نوبت چاپ: اوّل

علی سبیل التقدیم

بسم اللّه الرّحمن الرحیم

صاحب هذا الکتاب (الوحی المحمدی) الشیخ الجلیل/ محمد رشید رضا؛ واحد من الرموز الشوامخ الذین دافعوا عن الإسلام و تبنّوا قضایا أمتنا المسلمة فی زمن کان فیه الزحف الاستعماری لا- یکتفی باستیطان أرض المسلمین و إنما کان یعمل بقواه کلّها علی استیطان الأفئدة و العقول من خلال «الغزو الثقافی» لصرف أعین الأمة عن التطلع إلی الخلاص من غزاتها و القدرة علی الشفاء من علتها و أدوائها و علی رأسها الأمیة الطاغیة و الظلمة المطبقة علی الأفکار و العقول.

و من ثم کان دور هذه الصفوة المجاهدة التی کانت تمثلها مدرسة المصلحین العظیمین جمال الدین الأفغانی و الإمام محمد عبده، و من تتلمذ علیهما من أمثال صاحب الکتاب کان دور هذه الصفوة عظیم الأثر فی إیقاظ وعی الأمة بما تحمله دینها من أسباب الخلاص و عوامل النهوض، ثم بما ینبغی أن تکون علیه مسلکها فی مواجهة مکاید الغازین من الخارج و مضار المتخلّفین و الجاهلین بحقیقة التدین من فقراء الفکر و محدودی الرؤیة ممن ینسبون إلی العلم فی الداخل.

و کان القیام بهذه المهام الکبار بحاجة إلی رجال أولی عزم و قوة، و ذوی ثقافة جامعة و بصر مستنیر یتیح لهم الرؤی النفاذ إلی حقائق الأحداث و الأمور.

و من هنا کان للتکوین الثقافی الشامل و المتجدد لصاحب هذا الکتاب «الشیخ محمد رشید رضا» عاملا مؤثرّا فی تحدید الموقع الذی قام علیه فی خدمة المسلمین و الإسلام.

ولد الشیخ فی: «القلمون» من أعمال طرابلس الشام فی عام ۱۲۸۲ ه ۱۸۶۵ م.

و فیها و فی طرابلس أخذ یدرس و یتعلم.

ثم رحل إلی مصر فی العقد الثالث من عمره (۱۳۱۵ ه) حیث تتلمذ و لازم أستاذه الإمام محمد عبده و کانا قد التقیا قبل ذلک فی «بیروت».

الوحی المحمدی، ص: ۴

و هنا کان إصداره لمجلة «المنار» ذات المکانة و التأثیر الثقافی الرفیع فی کلّ مکان عرفت فیه فی دیار الإسلام. حیث ضمّها آراءه الإصلاحیة التی کانت ثمرة ناضجة لعلاقته بالأستاذ الإمام، و لاهتماماته الواسعة لقضایا المسلمین و الإسلام، و لا سیما اهتماماته بالإصلاح الدینی الذی کان أستاذه الشیخ محمد عبده هو الرائد له فیها، و کان إطارها العام هو تخلیص مناهج التعلیم الأزهری من الحشود من الحواشی و التقاریر و غیرها مما یعطل ملکات الطلاب و یقف بهم عند مجرد الاستظهار و الحفظ.

و ظل الرجل یتدخل بین دیار الإسلام و غیرها العربیة حتی استقر به المطاف فی وطنه الثانی مصر حتی لقی ربه.

أما عن هذا الکتاب فهو رسالة إلی الأمة المسلمة یشرح فیها المؤلف أسباب عجز المسلمین عن إبلاغ روعة الإسلام إلی العالم علی الوجه الذی یحقق اقتناع غیر المسلمین بالإسلام، ثم یؤدی إلی دخولهم فیه.

و القضیة فعلا- کانت و ستبقی محل الاهتمام و التساؤل لأنها هی القضیة المحوریة للدعوة و الدعاة .. و سبب التساؤل هو أنه علی الرغم من کثرة و تعدد المؤسسات و الهیئات التی تعمل فی حقل الدعوة الإسلامیة إلّا أنّ القوی المعادیة للإسلام لا تزال ممتلکة للتفوق فی إحداث التأثیر المعاکس فی الإساءة إلی الإسلام و فی تنفیر غیر المسلمین منه و هنا تکون التساؤلات:

هل السبب فی ذلک وفرة الإمکانات المادیة و التقنیة التی تعطیهم من مساحة بث دعاواهم و اتهاماتهم للإسلام ما لا تجده المؤسسات الإسلامیة؟

و ربما کان هذا- فعلا- أحد الأسباب لکنه لیس کلّ الأسباب و لا أهمها، لأنّ الأسباب الحقیقیة هی فینا نحن المسلمین فهی أسباب داخلیة أکثر منها خارجیة.

ففی الجانب العقیدی البحت- جانب التعریف بالإسلام عقیدة و شریعة- تطفو الخلافات الفقهیة المتصلة بفروع الشریعة .. و تطفو لتتخذها بعض الهیئات و المؤسسات لتعرضها و ترکز علیها و کأنها هی أصل الإسلام الأمر الذی یفقد الدعوة رکنها الأهم الذی ینبغی أن یقدم إلی الناس و یتم التعریف به.

الوحی المحمدی، ص: ۵

لیس هذا فحسب بل إنه یتحرک له أثرا سلبیا بالغ الإساءة إلی الإسلام و المسلمین بالصورة التی یترکها لدی غیر المسلم من أنهم عاجزون عن الاتفاق علی موقف واحد و صورة موحدة لعقیدتهم و تشریعاتهم .. و من ناحیة أخری فإن أخطر و أهم أسباب تصورنا و عدم استجابة الآخرین لمعطیات شریعتنا هو أوضاعنا الداخلیة فی أنحاء العالم الإسلامی الذی عانی من التمزق و العجز و التخلف، بینما جوهر الإسلام و صریح القرآن یدعوان إلی الوحدة، و إلی القوة و إلی التقدم، و هی المبادئ التی قامت علیها الدولة فی عصر النبوة و الراشدین، و عصور ازدهار الدولة المسلمة التی شرّقت و غرّبت فیما وراء ما بین المحیط و الخلیج وصولا إلی آسیا الوسطی و بلاد ما وراء النهر و تحت حکم دام قرونا فی الأندلس حتی جنوب فرنسا.

و هی الفترة التاریخیة التی ازدهرت فیها حضارة الإسلام و أفرزت الشوامخ الکبار من علماء المسلمین فی کل فروع المعرفة و الذین کان عطاؤهم هو المحرک و المؤثّر الأکبر فی النهضة الأوروبیة فی العصور الوسطی.

و مما هو جدیر بالتسجیل أن یکون هذا هو ما قال به حکیم الشرق، و باعث النهضة السید جمال الدین الأفغانی، و الأستاذ الإمام الشیخ محمد عبده. و ما سجّله الشیخ رشید رضا فی مقدمة الطبعة الأولی لهذا الکتاب.

الأمر الذی یؤکد حقیقة بالغة الأهمیة فی کیفیة استعادة دور و مکانة الإسلام فی العلم، لیس اعتمادا علی مجرد التبلیغ بل أهم منه هو أن تکون حال المسلمین فی الداخل صورة صحیحة و صادقة عن الإسلام حتی یصدق المدعون ما ندعوهم إلیه.

و هنا نصل إلی الباعث الدافع للشیخ رشید رضا علی تألیف هذا الکتاب. و هو الإسهام فی تصفیة و توضیح حقیقة الإسلام التی ینبغی أن یلتقی حولها المسلمون- کل المسلمین- علی اختلاف مشاربهم فی کل مکان من العالم.

و بعد فإن ذلک العصر الذی ازدان بهؤلاء الشوامخ من المصلحین و کبار المفکرین کان و سیبقی رجاله و أعلامه نعم القدوة و الأسوة لأبناء الأمة فی هذا الزمن الذی تزحف فیه القوی

الوحی المحمدی، ص: ۶

المعادیة للإسلام علی أرضنا و أهلینا، و تزحف فیه قبل ذلک و بعده علی العقول و القلوب بهذا القدر الهائل من الغزو الفکریّ.

الأمر الذی یوجب علی الجمیع رعاة و رعایا أن یکونوا علی مستوی المسئولیة فی مواجهة المخاطر، و اللّه من وراء القصد و هو دائما حسبی.

نائب رئیس المجلس «أ. د/ عبد الصبور مرزوق»

الوحی المحمدی، ص: ۷

مقدمة الطبعة الأولی

اشارة

بسم اللّه الرّحمن الرّحیم

قال اللّه تعالی: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَ الْمَلائِکَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (۱۸) إِنَّ الدِّینَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْیاً بَیْنَهُمْ وَ مَنْ یَکْفُرْ بِآیاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِیعُ الْحِسابِ (۱۹) فَإِنْ حَاجُّوکَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِیَ لِلَّهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ وَ قُلْ لِلَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ وَ الْأُمِّیِّینَ أَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَیْکَ الْبَلاغُ وَ اللَّهُ بَصِیرٌ بِالْعِبادِ (۲۰) [آل عمران: ۱۸- ۲۰].

ارتقاء البشر المادی، و هبوطهم الأدبی، و حاجتهم إلی الدین:

إن من المعلوم الیقینی الثابت بالحواس أن علوم الکون المادیة تثب فی هذا العصر وثوبا یشبه الطفور، و تؤتی من الثمار الیانعة بتسخیر قوی الطبیعة للإنسان ما صارت به الدنیا کلها کأنها مدینة واحدة، و کأنّ أقطارها بیوت لهذه المدینة، و کأنّ شعوبها عشائر و فصائل لأمة واحدة فی هذه البیوت (الأقطار) یمکنهم أن یعیشوا فیها إخوانا متعاونین، سعداء متحابین، لو اهتدوا بالدین.

و إنّ من المعلوم الیقینی أیضا أن البشر یرجعون القهقری فی الآداب و الفضائل علی نسبة عکسیة مطّردة لارتقائهم فی العلوم المادیة و استمتاعهم بثمراتها، فهم یزدادون إسرافا فی الرذائل، و جرأة علی اقتراف الجرائم، و افتنانا فی الشهوات البهیمیة، و نقض میثاق الزوجیة، و قطیعة وشائج الأرحام، و عقوق الوالدین، و نبذ هدایة الأدیان، حتی کادوا یفضّلون الإباحة المطلقة علی کل ما یقید الشهوات من دین و أدب و عرف و عقل بل رجع بعضهم إلی عیشة العری فی أرقی ممالک أوروبا و أمریکا علما و حضارة، کما یعیش بعض بقایا الهمج السذج فی غابات إفریقیة و بعض جزائر البحار النائیة عن العمران.

و إنّ من المعلوم الیقینی أیضا أنّ الدول الکبری لشعوب هذه الحضارة أشدّ جنایة علیهم و علی الإنسانیة من جنایتهم علی أنفسهم- بإغرائها أضغان التنافس بینهم، و باستعمالها جمیع ثمرات العلوم و منافع الفنون فی الاستعداد للحرب العالمة التی تدمر فی أشهر أو أیام معدودة صروح العمران التی شیّدتها العصور الکثیرة، و تفنی الملایین فیها من غیر المحاربین

الوحی المحمدی، ص: ۸

کالنساء و الأطفال و الشیوخ، و بصرفها معظم ثروات شعوبها فی هذه السبل، و فی سبیل ظلمهم للشعوب الضعیفة التی ابتلیت بسلطانها، و سلبها لثروتهم و حریتهم فی دینهم و دنیاهم. فالعالم البشریّ کلّه فی شقاء من سیاسة هذه الدول الباغیة الخبیثة الطویّة. و کل ما عقد

من المؤتمرات لدرء أخطارها لم يزد نارها إلا استعارا، و لو حسنت نياتها و أنفقت هذه الملايين التى تسلبها من مكاسب شعوبها و غيرهم فى سبيل الإصلاح الإنسانى العام لبلغ البشر بها أعلى درجات الثراء و الرخاء.

كل ما ذكر معلوم باليقين، فهو حق واقع ما له من دافع.

و إن من المعلوم من استقراء تاريخ هذه الحضارة المادية أن هذه الشرور كانت لازمة لها، و نمت بنمائها، فكان هذا برهانا على أنّ الفنون و العلوم البشرية المحضة غير كافية لجعل البشر سعداء فى حياتهم الدنيا، فضلا عن سعادتهم فى الحياة الآخرة، و إنما تتم السعادة لهم بهداية الدين، فالإنسان مدنّى الطبع، و متديّن بالطبع، أو بالفطرة كما يقول الإسلام.

من أجل ذلك فكّر بعض عقلاء أوروبا و غيرهم فى اللجوء إلى هداية الدين و أنه هو العلاج لأدواء هذه الحضارة المادية و الترياق لسمومها، و تمنوا لو يبعث فى الغرب أو فى الشرق نبىّ جديد بدين جديد يصلح اللّه بهدايته فسادها، لأنّ الأديان المعروفة لهم لا تصلح لهذا العصر و قد فسر حال جميع أهلها «۱»، و كان من يسمون دينهم دين المحبة، مصداقا لقول اللّه تعالى: فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ [المائدة: ۱۴].

بيد أنّ هؤلاء المفكرين لا يعرفون حقيقة دين القرآن، و هو الدين الإلهى العام، و المانع لهم من معرفته ثلاثة حجب تحول دون النظر الصحيح فيه، و عدم فهمهم للقرآن كما يجب أن يفهم، فأما الحجب دونه فهذا بيانها بالإيجاز.

الحجب الثلاثة بين حقيقة الإسلام و شعوب الإفرنج:

(الحجاب الأول): الكنيسة؛ أو الكنائس التى عادته منذ بلغتها دعوته، و طفقت تصوره بصور مشوهة باطلة، بدعاية عامة فيها من افتراء الكذب و أقوال الزور و البهتان ما لم يعهد مثله فى أهل ملة من البشر فى زمن من الأزمان، و ألفت فى ذلك من الكتب و الرسائل، و الأغانى و الأناشيد و القصائد، ما يعرف بطلانه كل مؤرخ مطلع على الحقائق، ثم إنها جعلت تشويهه و وجوب معاداته ركنا من أركان التربية و التعليم فى جميع مدارسها و المدارس

---

(۱) أول من نقل لنا هذا الرأى جريدة السياسة منذ سنين ثم تكرر نقله.

الوحى المحمدى، ص: ۹

التى يتولى خريجوها تعليم الناس فيها؛ فما من أحد يتعلم فيها من أتباعها إلا- و هو يعتقد أن جميع المسلمين أعداء للمسيح و المسيحيين كافة. فيجب عليه عداوتهم ما استطاع.

و الحق الواقع أن الإسلام هو صديق المسيحية المتمم لهدايتها، و أن محمدا صلّى اللّه عليه و سلم هو الفارقليط روح الحق الذى بشر به المسيح عليه السلام «۱».

(الحجاب الثانى): رجال السياسة الأوروبية؛ فإنهم ورثوا عداوة الإسلام من الكنيسة و تلقوا مفترياتها فى الطعن عليه بالقبول، و ضاعف هذه العداوة له و الضراوة بحرية طمعهم فى استعباد شعوبه و استعمار ممالكهم.

و إذا كان رجال الدين قد ملئوا الدنيا كذبا و افتراء على الإسلام- و من أسس الدين الصدق و قول الحق و الحب و الرحمة و العدل و الإيثار- فأى شىء يكثر فعله على رجال السياسة و أساس بنائها الكذب، و أقوى أركانها الجور و الظلم و العدوان، و القسوة و الإثرة و الخداع؟ و هو ما نراه بأعيننا و نسمع أخباره بآذاننا كلّ يوم فى المستعرات الأوروبية بل نحن نعلم أنّ سبب افتراء رجال الدين على الإسلام هو السياسة لا الدين نفسه، و أن قاعدتهم المشهورة (الغاية تبرّر الوسيلة) سياسية لا إنجيلية، فما كان لدين أن يبيح الجرائم و الرذائل باتخاذها وسيلة لمنفعة أهله و إن كانت دينية.

(الحجاب الثالث): سوء حال المسلمين فى هذه القرون الأخيرة؛ فقد فسدت حكوماتهم و شعوبهم، و استحوذ عليهم الجهل بحقيقة

دینهم و مصالح دنیاهم، حتی صاروا حجة لأعدائهم فیهما علی أنه لا خیر فیهم و لا فی دینهم، و أمکن هؤلاء الأعداء أن یفتنوا بهذه الحجة الداحضة أکثر من یتخرج فی مدارسهم السیاسیة الإلحادیة، و الدینیة التنصیریة، من أبناء ملتهم أو جلدتهم و من غیرهم، حتی نابت المسلمین أنفسهم أیضا، و هم یختارون من هذه النابتة الأفراد التی تتولی أعمال الحکومة و التعالیم فی مدارسها فی کل قطر خاضع لنفوذ دولهم الفعلی بأی اسم من أسمائه. من فتح و امتلاک و حمایة و احتلال و انتداب أو لنفوذهم السیاسی و التعلیمی، کما فعلوا فی بلاد الترک و إیران، لتساعدهم علی هدم کل شیء إسلامی فیها من اعتقاد و أدب و تشریع.

و قد کان السید جمال الدین الأفغانی- حکیم الإسلام و موقظ الشرق- یری أن هذا الحجاب أکثف الحجب الحائلة بین شعوب أوروبا الحرة و الإسلام، و نقل لی الثقة عنه أنه

---

(۱) راجع آخر الفصل ۱۵ و أوائل (۱۶: ۱۲- ۱۴) من إنجیل یوحنا.

الوحی المحمدی، ص: ۱۰

قال: «إذا أردنا أن ندعو أحرار أوروبا إلی دیننا فیجب علینا أن نقنعهم أولا أننا لسنا مسلمین، فإنهم ینظرون إلینا من خلال القرآن هکذا- و رفع کفیه و فرج بین أصابعهما- فیرون وراءه أقواما فشا فیهم الجهل و التخایل و التواکل ... فیقولون لو کان هذا الکتاب حقّا مصلحا لما کان أتباعه کما نری».

لا ننکر أن بعض أحرار الإفرنج قد عرفوا من تاریخ الإسلام ما لم یعرفه أکثر المسلمین، فانصفوا فیما کتبوا عنه من تواریخ خاصة، و من مباحث عامة فی العلم و الحضارة و الدین، و أن منهم من اهتدی به عن بصیرة و بینة؛ و لکن ما کتبه هؤلاء کلهم لم یکن مبینا لحقیقته کلها، و لم یطلع علیه إلا القلیل من شعوبهم، و کان جل تأثیره فی أنفس من اطلعوا علیه أن بعض الناس أخطئوا فی بیان تاریخ المسلمین فانتقد علیهم آخرون، فهو لم یهتک الحجب الثلاثة المضروبة بینهم و بین حقیقة الإسلام.

و أما عدم فهمهم للقرآن کما یجب- و أعنی به الفهم الذی تعرف به حقیقة إعجازه و تشریعه و أدبه و إصلاحه، و کونه هو دین اللّه الأخیر الکامل الذی لا یحتاج البشر معه إلی کتاب آخر و لا إلی نبی آخر- فلعله أربعة أسباب خاصة، وراء تلک الحجب العامة و هی:

الأسباب العائقة عن فهم الأجانب للقرآن:

(أولها): جهل بلاغة القرآن

جهل بلاغة اللغة العربیة التی بلغ القرآن فیها ذروة الإعجاز فی أسلوبه و نظمه و تأثیره فی أنفس المؤمنین و الکافرین به جمیعا، فأحدث بذلک ما أحدث من الثورة الفکریة و الاجتماعیة فی العرب، و الانقلاب العام فی البشر- کما شرحناه فی هذا الکتاب- و قد کان من إکبار الناس لهذه البلاغة أن جعلها أکثر علماء المسلمین موضوع تحدّی البشر بالقرآن دون غیرها من وجوه إعجازه، و جعلوا عجز العربی الخالص عن معارضته بها، ثم عجز المولدین الذین جمعوا بین ملکة العربیة العملیة و ملکة فلسفتها من فنون النحو و البیان، هو الحجة الکبری علی نبوة محمد صلّی اللّه علیه و سلم، و قد فقد العرب الملکتین منذ قرون کثیرة إلا أفرادا متفرقین منهم، فما القول فی غیرهم؟ فعلماء المسلمین فی هذه القرون یحتجّون بعجز أولئک و لا یدّعون أنهم یدرکون سرّ هذا الإعجاز أو یذوقون طعمه؛ بل قال بعض علماء النظر المتقدمین منهم: إن الإعجاز واقع غیر معقول السبب، فما هو إلا أن اللّه تعالی صرف النّاس عن معارضته بقدرته. و الصواب أن منهم من حاول المعارضة فعجزوا، إذ ظنوا أن إعجازه بفواصل الآیات التی تشبه السجع فقلدوها فافتضحوا، و من متأخری هؤلاء

الوحی المحمدی، ص: ۱۱

من ادعی النبوة کمسیح الهند القادیانی الدجال، و من ادعی الألوهیة (کالبهاء) و قد أخفی أتباع هذا کتابه الملقب بالأقدس؛ لئلا یفتضحوا به بین الناس و أضعف منه و أسخف بیان أستاذه الباب.

(ثانیها): قصور ترجمات القرآن و ضعفها

أنّ ترجمات القرآن التی یعتمد علیها علماء الإفرنج فی فهم القرآن کلها قاصرة علی أداء معانیه التی تؤدیها عباراته العلیا و أسلوبه المعجز للبشر، و هی إنما تؤدی بعض ما یفهمه المترجم له منهم إن کان یرید بیان ما یفهمه، و إنه لمن الثابت عندنا أن بعضهم تعمّدوا تحریف کلمه عن مواضعه، علی أنه قلما یکون فهمهم تاما صحیحا، و یکثر هذا فیمن لم یکن به مؤمنا، بل یجتمع لکل منهم القصوران کلاهما: قصور فهمه، و قصور لغته، و قد اعترف لی و لغیری بهذا مستر (محمد) مارمادیوک بکتل الذی ترجمه بالإنکلیزیة و جاء مصر منذ ثلاث سنوات «۱» فعرض علی بعض علماء العربیة المتقدمین للغة الإنکلیزیة ما رأی أنه عجز عن أداء معناه منه، و صحح بمساعدتهم ما ذا کرههم فیه «۲».

و اعترف بذلک قبله الدکتور (ماردریس) المستشرق الفرنسی الذی کلفته وزارتا الخارجیة و المعارف الفرنسیتان لدولته ترجمة ۶۲ سورة من السور الطوال و المئین و المفصل التی لا- تکرار فیها ففعل، فقد قال فی مقدمة ترجمته التی صدرت سنة ۱۹۲۶ ما معناه بالعربیة:

«أمّا أسلوب القرآن فإنه أسلوب الخالق جلّ و علا، فإنّ الأسلوب الذی ینطوی علی کنه الکائن الذی صدر عنه هذا الأسلوب لا یکون إلا- إلهیا، و الحق الواقع أن أکثر الکتّاب ارتیابا و شکّا قد خضعوا لسلطان تأثیره (فی الأصل- لتأثیر سحره- یعنی تأثیره الذی یشبه السحر فی کونه لا یعرف له سبب عادی) و أن سلطانه علی ثلاث مائة ملیون من المسلمین المنتشرین علی سطح المعمورة لبالغ الحد الذی جعل أجانب «المبشرین» یعترفون بالإجماع بعدم إمکان إثبات حادثة واحدة محققة ارتد فیها أحد المسلمین عن دینه إلی الآن «۳».

ذلک أن هذا الأسلوب الذی طرق فی أول عهده آذان البدو «۴» کان نثرا جد طریف،

---

(۱) هذا بالنسبة للطبعة الأولی.

(۲) و لا تزال ترجمته ناقصة و بلغنی أنه سیصححها مرة أخری.

(۳) ما یسمع من تنصر بعض المسلمین، ما هو إلا إکراه لبعض العوام الجاهلین أو استمالة لبعض الفقراء منهم بالمال أو تربیة لبعض الأطفال.

(۴) یعنی العرب الذین تغلب علیهم البداوة حتی فی حواضرهم کمکة و یثرب.

الوحی المحمدی، ص: ۱۲

یفیض جزالة فی اتساق نسق، متجانسا مسجعا، لفعله أثرا عمیقا فی نفس کلّ سامع یفقه العربیّة. لذلک کان من الجهد الضائع غیر المثمر أن یحاول الإنسان أداء تأثیر هذا النثر البدیع «الذی لم یسمع بمثله» بلغة أخری، و خاصة اللغة الفرنسیة الضیقة (التی لا سعة فیها للتعبیر عن الشعور) المرثة «۱» «التی لا تتنازل عن حقوقها» و القاسیة. و زد علی ذلک أن اللغة الفرنسیة و مثلها جمیع اللغات العصریة لیست لغة دینیة، و ما استعملت قط للتعبیر عن الألوهیة» أ ه.

ثم تکلم عن عنایته هو مدة تسع سنوات متتالیة بمحاولة نقل شیء من القرآن إلی اللغة الفرنسیة علی شرط المحافظة علی بلاغة الأصل، و تساءل هل أمکنه التغلب علی هذه الصعوبة أم لا؟ یعنی أنه یشک فی ذلک.

(ثالثها): أسلوب القرآن المخالف لجميع أساليب الكلام

إن أسلوب القرآن الغريب المخالف لجميع أساليب الكلام العربى و غيره، و طريقته فى مزج العقائد و المواعظ و الحكم و الأحكام و الآداب بعضها ببعض فى الآيات المتفرقة فى الصور- و هو ما بيّنا سببه و حكمته فى هذا الكتاب- و قد كان حائلا دون جمع كبار علماء المسلمين من المفسرين و غيرهم لكلّ نوع من أنواع علومه و مقاصده فى باب خاص به. كما فعلوا به فى آيات الأحكام العملية من العبادات و المعاملات. دون القواعد و الأصوب الاجتماعية و السياسية و المالية التى يرى القارئ نموذجها فى هذا الكتاب. إذ لم يكونوا يشعرون بالحاجة إليها كما نشعر فى هذا العصر.

و قد عنى بعض الإفرنج «۲» بوضع كتاب باللغة الفرنسية جمع فيه آيات القرآن بحسب معانيها، و وضع كلا منها فى باب أو أبواب خاصة بقدر فهمه، و لكنه أخطأ فى كثير من هذه المعانى و قصر فى بعض مما علمه، و ما جهله منها عظيم، ذلك بأن أخذ القواعد و الأصول العامة «۳» من هذه الآيات يتوقف على العلم بسيرة النبى صلّى اللّه عليه و سلم و سنته فى بيان القرآن و تنفيذه لشرعه، و آثار خلفائه و علماء أصحابه من بعده، كما يعلم من يراجع فى ذلك الكتاب الآيات الدالة على ما بيناه فى كتابنا هذا من مقاصد القرآن بالاختصار، و ما فصلناه منها فى تفسير المنار.

---

(۱) مؤنث المرث كتعب: الصبور على الخصام الذى لا يتنازل عن حقه.

(۲) هو المستشرق العلامة المسيو جول لا بوم.

(۳) أى لا يكفى فى فهمها العلم بمتن اللغة العربية و قواعدها و بلاغتها و فقهها.

الوحى المحمدى، ص: ۱۳

(رابعها): الإسلام ليس له دولة و لا جماعات

أن الإسلام ليس له دولة تقيم القرآن و سنة رسوله صلّى اللّه عليه و سلم بالحكم و تتولّى نشره بالعلم، و لا جماعات دينية تتولى بحمايتها الدعوة إليه بالحجة، و ليس لأهله مجمع دينى علمى يرجع إليه فى بيان معانى القرآن و هدايته فى سياسة البشر و مصالحهم العامة التى تتجدد لهم بتجدد الحوادث و مخترعات العلوم و الفنون و فيما يتعارض بين العلوم و نصوص الدين، فيرجع إليها علماء الإفرنج فى استبانة ما خفى عليهم من نصوصهما.

و أعجب من هذا و أغرب أنّ المسلمين أنفسهم قد تركوا من بعد خير القرون الأولى أخذ دينهم من القرآن المنزل و من بيان الرسول صلّى اللّه عليه و سلم له كما أمره اللّه تعالى فيه بقوله: وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [النحل: ۴۴]، و ما زالوا يهجرون الاهتداء بهما حتى استغنوا عنهما استغناءا تامّا بأخذ عقائدهم من كتب المتكلّمين، و أخذ أحكام عباداتهم و معاملاتهم عن كتب علماء المذاهب غير المجتهدين، و هذه الكتب لا تقوم بها حجة اللّه تعالى على البشر، و لا سيما أهل هذا العصر الذى ارتقت فيه جميع العلوم العقلية و التشريعية، حتى صار المسلمون منا، يأخذون عنهم العلم كما كان أجدادهم يأخذون عنّا، بل فيها من آراء المتكلمين و الفقهاء، و روايات الكذابين و الضعفاء ما قد يعدّ حجة على الإسلام و أهله، كما أنّ سوء حال المسلمين فى فشو الجهل فى شعوبهم، و الفساد و الانحلال فى حكوماتهم، قد اتخذ حجة على دينهم، فصاروا فتنة للذين كفروا به «۱».

و إذا كان هذا حال المسلمين فى فهم القرآن و هدايته، فكيف يكون حال الشعوب التى نشأت على أديان أخرى ألفتها، و لها رؤساء يربونهم عليها و يصدونهم عن غيرها؟ و دول حربية قد عادت الإسلام منذ بضع قرون، بما لو وجهوه إلى جبال لاندكت و زالت من الوجود، و لكنه دين اللّه الحىّ القيوم، فهو باق ما دام البشر فى الأرض لا يزول أو يزولون أجمعون.

هـذه أظهر الأسـباب لخفاء حقيقة الإسـلام الكاملة على علماء الحضارة العصـرية من الأجانب و المسـلمين أيضا و تمنيهم لو يبعث نبيّ جديد بهداية إلهية عامة كافية لإصلاحهم.

---

(۱) أى صـاروا منفرين للكـافرين عن الإسـلام و صـادين عنه لئلا- يكونـوا مثلهم، و اقرأ قوله تعـالى: رَبَّنـا لا- تَجْعَلْنـا فِتْنَـةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا [الممتحنة: ۵].

الوحى المحمدى، ص: ۱۴

و لما كان الإسـلام هو دين الإنسانيـة العام الـدائم الجامع لكلّ ما تحتاج إليه جميع الشـعوب من الهدايـة الدينية و الدنيوية، وجب على العقلاء الأحرار، و العلماء المسـتقلين الـذين يتألمون من المفاسد المادية التى تفاقم شـرها فى هذا العهد أن يعنوا بهتك تلك الحجب التى تحجبهم عن النظر فيه، و إزالـة الموانع التى تعوقهم عن فهم حقيقته، و أن يـدعوا جميع الشـعوب إلى أخوته، و تكميـل الحضـارة الإنسانية بهدايته.

نتيجة هذه المقدمات:

بيان هذا الكتاب لحقيقة الإسلام بما تقوم به الحجة على جميع الأنام

أما بعـد فإنّنى أقـدم لهم هـذا الكتاب الـذى صـنفته فى إثبات (الوحى المحمدى) و كون القرآن كلام اللّه عزّ و جلّ، و كونه مشـتملا على جميع ما يحتاج إليه البشـر من الإصـلاح الـدينى و الاجتماعى و السياسـى و المالى و الحربى، و قـد أطلت فى بيان هذه المقاصـد الأساسـية بعض الإطالـة؛ لأنها مثار جميع الفتن و المفاسد التى يشـكو منها عقلاء هذا العصـر، و أما توفية هذا الموضوع حقّه فلا يكون إلا فى سفر كبير أو أسفار يجمع فيها مقاصد القرآن كلها مع بيان حاجة البشر إليها فى أمور معاشهم و معادهم، و هو ما أبينه فى تفسير المنار بإجمال قواعد كل سورة و أصولها فى آخر تفسيرها، بعد بيانها بالتفصيل فى شرح آياتها.

على أننى لم أكتب هـذا البحث أول وهلـة لهـذا الغرض، و إنما بدأت منه بفصل اسـتطرادى لتفسـير آية: أَ كانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ [يونس: ۲] إلـخ، من أول سورة يونس بينت به الـدلائل القطعية على أنّ القرآن وحى من اللّه تعالى كان محمد صـلّى اللّه عليه و سـلم يعجز كغيره من مثله بعلمه و لغته و تأثيره، و أنه ليس وحيا نفسيا نابعا من نفسه كما يزعم بعض الباحثين من الإفرنج و غيرهم، و أنه أعمّ و أكمل و أثبت من كلّ وحى كان قبله، و أن حجّته قائمة على المؤمنين بالوحى التشريعى و على غيرهم.

ثم بـدا لى فى أثناء كتابته أن أجرّده فى كتاب خاص أدعو به شـعوب الحضارة المادية من الإفرنج و اليابان إلى الإسـلام بتوجيهه أولا إلى علمائهم الأحرار. حتى إذا اهتدوا به تولوا دعوة شعوبهم و دولهم إليه بلغاتهم، و لهذا زدت فيه على ما كتبته فى التفسير، و وضعت له الخاتمة التى صرحت فيها بالدعوة و جعلتها هى المقصودة بالذات منه.

الوحى المحمدى، ص: ۱۵

و لو أنّنى قصدت هذا منذ بدأت بالكتابة لوضـعت له ترتيبا آخر يغنينى عن بعض ما فيه من الاسـتطراد و التكرار بتحقيق كل مسألة فى موضـعها، على أن بعض التكرار متعمـد فيها، و لكننى كتبته فى أوقات متفرقـة، و حالات بؤس و عسـرة، لا أراجع عنـد موضوع منه ما قبله، و لا- أعتمـد إلا- على مـا أتـذكره من القرآن نفسه على صـعوبة اسـتحضار المعـانى المتفرقـة فى سوره، و إلا بعض الأحاديث فى مواضـعها من كتبها لتخريجها و الثقة بصـحتها، و إنى أحيل القارئ له فى كل إجمال على مراجعة تفسـير المنار فى تفصـيله، و فى كل إشكال على مراجعة محرره.

محمد رشـيد رضا منشـئ مجلة المنار و حررت هذه المقدمة فى ليلة ذكرى المولد المحمدى من شـهر ربيع الأول سنة ۱۳۵۲ ه (و هى

علی الأرجح عند المحدثین التاسع من هذا الشهر- و نشر الکتاب فی الیوم ۱۲ منه- و هو یوم المولد النبوی المشهور).

***

الوحی المحمدی، ص: ۱۷

فاتحة الطبعة الثانیة

دعوة الناس إلی الإسلام عامة و أهل الکتاب خاصة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ إِنَّا أَوْحَیْنا إِلَیْکَ کَما أَوْحَیْنا إِلی نُوحٍ وَ النَّبِیِّینَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَوْحَیْنا إِلی إِبْراهِیمَ وَ إِسْماعِیلَ وَ إِسْحاقَ وَ یَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ عِیسی وَ أَیُّوبَ وَ یُونُسَ وَ هارُونَ وَ سُلَیْمانَ وَ آتَیْنا داوُدَ زَبُوراً (۱۶۳) وَ رُسُلًا قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَیْکَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَیْکَ وَ کَلَّمَ اللَّهُ مُوسی تَکْلِیماً (۱۶۴) رُسُلًا مُبَشِّرِینَ وَ مُنْذِرِینَ لِئَلَّا یَکُونَ لِلنَّاسِ عَلَی اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَ کانَ اللَّهُ عَزِیزاً حَکِیماً (۱۶۵) لکِنِ اللَّهُ یَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَیْکَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلائِکَةُ یَشْهَدُونَ وَ کَفی بِاللَّهِ شَهِیداً (۱۶۶) إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالًا بَعِیداً (۱۶۷) إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ یَکُنِ اللَّهُ لِیَغْفِرَ لَهُمْ وَ لا لِیَهْدِیَهُمْ طَرِیقاً (۱۶۸) إِلَّا طَرِیقَ جَهَنَّمَ خالِدِینَ فِیها أَبَداً وَ کانَ ذلِکَ عَلَی اللَّهِ یَسِیراً (۱۶۹) یا أَیُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَکُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّکُمْ فَآمِنُوا خَیْراً لَکُمْ وَ إِنْ تَکْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ کانَ اللَّهُ عَلِیماً حَکِیماً (۱۷۰) یا أَهْلَ الْکِتابِ لا تَغْلُوا فِی دِینِکُمْ وَ لا تَقُولُوا عَلَی اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِیحُ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ کَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلی مَرْیَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَیْراً لَکُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلهٌ واحِدٌ سُبْحانَهُ أَنْ یَکُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ کَفی بِاللَّهِ وَکِیلًا (۱۷۱) لَنْ یَسْتَنْکِفَ الْمَسِیحُ أَنْ یَکُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَ لَا الْمَلائِکَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَ مَنْ یَسْتَنْکِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَ یَسْتَکْبِرْ فَسَیَحْشُرُهُمْ إِلَیْهِ جَمِیعاً (۱۷۲) فَأَمَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَیُوَفِّیهِمْ أُجُورَهُمْ وَ یَزِیدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ أَمَّا الَّذِینَ اسْتَنْکَفُوا وَ اسْتَکْبَرُوا فَیُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِیماً وَ لا یَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِیًّا وَ لا نَصِیراً (۱۷۳) یا أَیُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَکُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّکُمْ وَ أَنْزَلْنا إِلَیْکُمْ نُوراً مُبِیناً (۱۷۴) فَأَمَّا الَّذِینَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ اعْتَصَمُوا بِهِ فَسَیُدْخِلُهُمْ فِی رَحْمَةٍ مِنْهُ وَ فَضْلٍ وَ یَهْدِیهِمْ إِلَیْهِ صِراطاً مُسْتَقِیماً [النساء: ۱۶۳- ۱۷۵]

الوحی المحمدی، ص: ۱۸

ذکر (الوحی المحمدی) فی آیات متفرقة من السور المکیة التی کانت تتلی علی منکری وحی النبوة من العرب الذین کانوا أقوی البشر استعدادا لهدایة هذا الوحی إذا عقلوه و آمنوا به، لأنه لم یکن عندهم من التقالید الدینیة المسیطرة علی القلوب و الإرادات، و لا من أمشاج الفلسفة البشریة الشاغلة للعقول و الأفکار، و لا من الاستبداد السیاسی و الاستعباد الروحانی السالبین لاستقلال الأفراد و الجماعات ما یصرفهم عن فقهه و تدبره و الاهتداء به، أو یأفکهم عن الدعوة إلیه و حمایته، و الجهاد بالأموال و الأنفس فی سبیل إقامته.

دعوة الوحی المحمدی فی هذه الآیات:

ثم ذکر فی هذه الآیات من هذه السورة المدنیة [النساء] بما لم یذکر بمثلها فی تفصیله و عموم الخطاب و خصوصه، فخاطب فی أولها محمدا رسول اللّه و خاتم النبیین صلّی اللّه علیه و سلم ثم وجه الخطاب فی بعضها إلی الناس کافة، و فی بعض آخر إلی أهل الکتاب خاصة. فبدأ خطاب النّاس کافة بأنه قد جاءهم (الرسول) الکامل الذی بشر به الأنبیاء و الرسل، و النبی الأعظم الذی کانت تنتظره الأقوام و الأمم، و لذلک ذکر معرفا بأداة التعریف «۱» و أنه جاءهم بالحق من ربهم، و هو الحق المحض الذی جهله المشرکون، و اختلف فیه الکتابیون، فضلوا فی هدایة أنبیائهم و رسلهم، و کفّر بعضهم بعضا، و لعن بعضهم بعضا، و کتب الفریقین واحدة، و قد بین

لهم ذلک فی الآیات التی قبل هذه الآیات مباشرة، و أهمها الخلاف فی رسولهم النبی الروحانی المصلح المسیح عیسی ابن مریم علیه السلام، ثم أعاد ذکره و نهاهم عن الغلو فیه فی هذه الآیات، و هی مشتملة علی المسائل العشر الآتیة:

(الأولی) أن اللّه تعالی أوحی إلی محمد صلّی اللّه علیه و سلم کما أوحی إلی نوح أول رسول أرسله إلی الأمم و قص علیه خبره فی السور المکیة و إلی النبیین من بعده، فوحیه إلیه کوحیه إلیهم، أی مثله فی جنسه و موضوعه و الغرض منه، فهو لیس بدعا من الرسل و لا أولهم، و لکنه خاتم الرسل المکمل لهدایتهم، و خص بالذکر منهم أشهر أنبیاء بنی إسرائیل المعروفین عند أهل الکتاب المجاورین له فی الحجاز و ما حوله، و قد کانت دعوته صلّی اللّه علیه و سلم بلغت الیهود و النصاری جمیعا فیها، و المراد بالأسباط الأنبیاء من سلالة أبناء یعقوب، عمم ثم خصص.

---

(۱) کان الیهود ینتظرون ثلاثة من الأنبیاء و المصلحین، المسیح و إیلیاء و النبی المطلق الذی بشر به موسی و من بعده. و من أدلة ذلک ما جاء فی الفصل الأول من إنجیل یوحنا و ملخصه: أنه لما ظهر یوحنا المعمدان (و هو یحیی ابن زکریا علیهما السلام)؛ و صار یعمد الناس فی نهر الأردن، أرسلوا إلیه وفدا لیعرفوا أی الثلاثة هو فسألوه: أ أنت المسیح؟ قال: لا. قالوا: أ أنت إیلیا؟ قال: لا. قالوا: أ أنت النبی؟ قال: لا. «۲۵ فسألوه و قالوا له: فما بالک تعمد الناس إذا کنت لست المسیح و لا إیلیا و لا النبی؟ إلخ فذکروا النبی معرفا، و لو قالوا: له أ أنت نبی بالتنکیر؟ لما قال لا.

الوحی المحمدی، ص: ۱۹

(الثانیة) أن للّه تعالی رسلا آخرین منهم من قصّ علیه خبرهم فی السور المکیة إجمالا کقوله فی سورة الأنعام بعد قصة إبراهیم مع أبیه و قومه: وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ یَعْقُوبَ کُلًّا هَدَیْنا وَ نُوحاً هَدَیْنا مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَیْمانَ وَ أَیُّوبَ وَ یُوسُفَ وَ مُوسی وَ هارُونَ وَ کَذلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ (۸۴) وَ زَکَرِیَّا وَ یَحْیی وَ عِیسی وَ إِلْیاسَ کُلٌّ مِنَ الصَّالِحِینَ (۸۵) وَ إِسْماعِیلَ وَ الْیَسَعَ وَ یُونُسَ وَ لُوطاً وَ کُلًّا فَضَّلْنا عَلَی الْعالَمِینَ (۸۶) وَ مِنْ آبائِهِمْ وَ ذُرِّیَّاتِهِمْ وَ إِخْوانِهِمْ وَ اجْتَبَیْناهُمْ وَ هَدَیْناهُمْ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ (۸۷) ذلِکَ هُدَی اللَّهِ یَهْدِی بِهِ مَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ لَوْ أَشْرَکُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما کانُوا یَعْمَلُونَ (۸۸) أُولئِکَ الَّذِینَ آتَیْناهُمُ الْکِتابَ وَ الْحُکْمَ وَ النُّبُوَّةَ فَإِنْ یَکْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَکَّلْنا بِها قَوْماً لَیْسُوا بِها بِکافِرِینَ (۸۹) أُولئِکَ الَّذِینَ هَدَی اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِکْری لِلْعالَمِینَ (۹۰) [الأنعام: ۸۴- ۹۰]، و تفصیلا فی سور الأعراف و هود و یوسف و طه و الطواسین (الشعراء و النمل و القصص) و ما دونهن، و منهم من لم یقص علیه خبرهم من أنبیاء سائر الأمم لعدم العبرة لقومه و لجیرانهم بقصصهم، و عدم ظهور إقامة الحجة بها علیهم، و ربما کان ذکر بعضها فتنة لبعضهم یدعون أنها أسماء مخترعة، و قد جاء فی بعض السور أنّه تعالی أرسل فی کل أمة رسولا.

و تری هذا فی موضع آخر من هذا الکتاب بشواهده، و هو حجة علی أهل الکتاب الذین یحصرون فضل اللّه علی البشر بالنبوة فیهم.

(الثالثة) أنّ وظیفة جمیع الرسل تعلیم النّاس ما به یصلح حالهم، و یستعدون لمآلهم بطریق التبشیر لمن آمن و أصلح عملا بحسن الثواب، و إنذار من کفر و أفسد عملا- بالعقاب و حکمة ذلک أن لا یکون للناس علی اللّه حجة بجهلهم ما یجب علیهم من أصول الإیمان، و ما تصلح به الأنفس و تتزکّی من صالح الأعمال، فتستعد لسعادة الدنیا بقدرها، و سعادة الآخرة من بعدها. و قد فصلنا فی هذا الکتاب وجه الحاجة إلی هدایتهم، و عجز البشر عن الاستقلال بمعرفتها بعقولهم.

(الرابعة) شهادة اللّه تعالی و شهادة ملائکته بصحة هذا الوحی له صلّی اللّه علیه و سلّم، و أورد هذه الشهادة مفتتحة بقوله لکِنِ اللَّهُ یَشْهَدُ و هو استدراک علی إنکار معلوم من قرینة حال الکفار به صلّی اللّه علیه و سلّم من المشرکین و أهل الکتاب و مما حکاه من قبل عن المشرکین من الإنکار و المطالبة بالآیة أو الآیات، کما تراه فی سورتی الأنعام و یونس و غیرهما ثم ما حکاه قریبا فی هذه السورة [النساء] عن الیهود بقوله: یَسْئَلُکَ أَهْلُ الْکِتابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَیْهِمْ کِتاباً مِنَ

الوحی المحمدی، ص: ۲۰

السَّماءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسى أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ فَقالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً [النساء: ۱۵۳] إلخ، فهو تعالى يقول له: إن أولئك المشركين ينكرون وحى اللّه إليك و إلى غيرك، و إنّ هؤلاء الجاحدين يكتمون الشهادة بنبوتك و بشارة أنبيائهم بها لكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ [النساء: ۱۶۶] إلخ.

فأما شهادته تعالى فقد بينها بيانا مستأنفا لوقوعها جوابا لسؤال مقدر، و هو قوله: (أنزله بعلمه) أى أنزل هذا القرآن الذى أوحاه إليك متلبسا بعلمه الخاص الذى لا تعلمه أنت و لا قومك من تشريع و حكم و آداب و عبر و أخبار غيب سابقة و حاضرة و آتية، بأسلوب معجز للبشر. و هو ما يفصله هذا الكتاب بالشواهد من السور العديدة، و أما شهادة الملائكة له فما أخبر به تعالى من نزول الروح الأمين جبريل عليه السلام بهذا القرآن، و ما أيده به يوم الفرقان يوم التقى الجمعان فى غزوة بدر، و كذا غزوتا الأحزاب و حنين، و فى أحوال أخرى.

هذه الشهادة من اللّه بهذا القرآن الذى لا يمكن أن يكون إلّا من اللّه حقّ لا ريب فيه، و هى أظهر من شهادة يوحنا (يحيى) للمسيح- عليهما السلام- إذا روى يوحنا أنه قال: (۵:

۱۳ إن كنت أشهد لنفسى فليست شهادتى حقا ۳۲ الذى يشهد لى هو آخر و أنا أعلم أن شهادته التى يشهدها لى هى حق ۳۳ أنتم أرسلتم إلى يوحنا فشهد للحق)، و كذلك هى أظهر و أقوى من شهادة المسيح لنفسه فيما رواه يوحنا أيضا، إذ دعا اليهود إلى اتباع النور الذى جاء به (۸: ۱۳). فقال له الفرّيسيون: أنت تشهد لنفسك شهادتك ليست حقّا ۱۴ فأجاب يسوع و قال لهم: (و إن كنت أشهد لنفسى فشهادتى حق)، و قد صدق عليه السلام فى أن شهادته لنفسه حق، و لكن لا تقوم بها الحجة على الخصم، و أما شهادة اللّه تعالى لنبيه فى القرآن فهى حجّة على كلّ أحد يعجز عن الإتيان بمثله، فهى إذن حجة على كل أحد.

(الخامسة) الإخبار فى الآيات ۱۶۷- ۱۶۹ بحال الكفار الذين يتعدى ضررهم إلى غيرهم من الناس، بصدّهم النّاس عن سبيل اللّه و هى الإسلام، و بظلمهم لأنفسهم و للناس، و كون جزاؤهم بحسب سنة اللّه فى أنفس البشر و نظام الاجتماع أن يظلوا سائرين على طريق الباطل و الشر و الموصلة إلى عذاب جهنّم. إذ لا يغفر اللّه تعالى لهم إلا بتزكية أنفسهم بالإيمان و العمل الصالح الذى يهدى إليه الوحى، و قد صاروا بضلالهم فى أشد البعد عنه خلافا لما يقوله الكفار من نيل المغفرة بجاه الشفعاء الشخصى مع بقاء الأنفس على

فسادها، و ظلمات ظلمها و جهلها، و هو ما سرى إلى أهل الكتاب من المشركين، إلا أن بعض النصارى خصّوه بالمسيح و بعضهم جعلوه عاما لجميع القديسين.

(السادسة) مخاطبة جميع الناس (فى الآية ۱۷۰) بأن هذا الرسول محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم قد جاءهم بالحق من ربهم حقّا محضا غير مشوب بالآراء و الأهواء البشرية، و لا بالتقاليد الكهنوتية «۱» التى زادها رؤساء الأديان على ما جاءهم به الرسل الأولون فلم يعد يعرف أحد ما هو من اللّه تعالى و ما هو منهم، فإن يؤمنوا بما جاءهم به هذا الرسول يكن خيرا لهم، و إن يكفروا فاللّه غنى عنهم.

(السابعة) نداؤه أهل الكتاب (فى الآية ۱۷۱) بالنهى عن الغلو فى الدين، و عن قول غير الحق على اللّه تعالى، و بيانه لهم حقيقة المسيح الذى غالى اليهود منهم فى الكفر به و تكذيبه، و الطعن فى صيانة أمه الطاهرة، و غالى النصارى فيه فجعلوه ربا و إلها، و أنه قد جاءهم بالحق فيه، و هو أنه بشر روحانى خلق بكلمة اللّه التكوينية و هى إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [يس: ۸۲]، و بنفخ روح القدس فى أمه الطاهرة، و بتأييد هذا الروح له فى سائر أحوال نبوته، و أن روحه عليه السلام قدّيسه من اللّه تعالى لا حظّ للشيطان فيها، و النصارى يقررون أن الأرواح قسمان: طاهرة قديسة، و نجسة شيطانية، و التمييز بينهما مزية تحدث بها زعيمهم بولس فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثيوس.

(الثامنة) أمره تعالى أهل الكتاب بعد ما ذكر من حقيقة أمر المسيح أن يؤمنوا بما جاء به خاتم النبيين من الإيمان الصحيح باللّه، و توحيده و الإيمان برسله، و نهيهم عن التثليث الوثنى الهندى، و عن اتخاذ الولد للّه عزّ و جلّ، وع للّه بأنه المالك لكلّ ما فى السموات

و الأرض، أی کل العالم، و لو کان له ولـد لکان ولـده مثله لا ملکه، و لکان محتاجا کاحتیاج الإنسان إلی ولده سبحانه هو الغنی عن کل ما سواه کما هو مبین فی الآیات الکثیرة الواردة فی هذا المعنی «۲».

(التاسعة) إنباؤهم فی الآیـة (۱۷۲) بـأنّ المسیح لـن یستنکف، أی لن یـأبی أنفـة و استکبارا عن أن یکـون عبـدا لله، و لا ـ الملائکة المقربون- و هم أفضل الملائکـة و أعلاهم منزلـة عنـده تعالی- أن یکونوا عبیـدا له، فإنه ما تم فی الوجود إلا رب واحد کل من عداه عبید له،

---

(۱) الکهنوتیـة: نسـبة إلی الکهنوت، و هی کلمـة دخیلـة من اصـطلاح النصاری و الیهود و الوثنیین معناها وظیفـة الکاهن، و هو الـذی یتولی بعض التقالید الدینیة المختلفة عند کل منهم.

(۲) راجع سورة یونس، الآیة: ۶۸، و آخر سورة مریم و غیرهما.

الوحی المحمدی، ص: ۲۲

فالمؤمنون الـذین یؤمنون بربوبیته و یعملون الصالحات تعبـدا له یوفیهم أجورهم، و یزیـدهم علیها ثوابا و نعیما، فضـلا منه و إحسانا، و الـذین یسـتنکفون و یسـتکبرون عنهـا یعـذبهم عـذابا ألیما، و لا یجـدون لهم من دونه- أی غیره- ولیّا یتولی أمورهم و یغفر لهم، و لا نصـیرا ینصـرهم بشـفاعة و لا فدیة و لا غیرها، فلا یغرنهم ما یدعیه الرؤساء الذین اسـتعبدوهم من أنّ خلاصهم و سعادتهم یکونان من غیر أنفسهم.

(العاشـرة) نـداؤه للناس کافة فی الآیتین (۱۷۴، ۱۷۵) مبشـرا لهم بـأنه قـد جـاءهم البرهان العلمی العقلی من ربهم، و أنزل علیهم النور السـاطع، و هو القرآن المبین لجمیع الحقائق، فلا ینبغی لأحـد منهم أن یصـغی بعـدها إلی تقلیـد الرؤساء و الکهنـة الـذین اسـتعبدوهم لرئاسـتهم و أهوائهم، و أثبت لهم أن الإیمـان به، و الاعتصـام بحبله المـتین، و الـدخول فی النور المبین، هو الـذی یخرجهم من شـقاء الدنیا و یدخلهم فی رحمة خاصة، و فضل عظیم، یمتازون بهما علی غیرهم من البشـر، و یهدیهم بإرشاده و فیض نوره صـراطا مستقیما من العلم و العمل، و الحق و العدل و الفضل، یکونون به سعداء الدنیا و الآخرة.

هذا مضـمون الوحی الإلهی المنزل علی محمد رسول اللّه و خاتم النبیین المبین فی هذه الآیات، ظهر نوره فاهتدت به العرب، و حملته إلی شـعوب العجم بالتبلیغ له بالعلم و العمل، فاهتدی به السواد الأعظم ممن بلغتهم دعوته من الملیین الکتابیین، و المجوس و الوثنیین، و الهمج المعطلین، لأنه دین البشـر أجمعین. و قاومته الدول الدینیة من نصرانیة و مجوسیة و وثنیة، فنصره اللّه علیهم کلهم کما وعدهم حتی أظهره علی الـدین کله، و لا یزال ینصـره و ینشـره بعـد ترک دوله لدعوته، و إعراضـهم عن هدایته. و ما نزل بهم من عقوبته لهم کما أوعـدهم، و لو ثبتوا علی إقامته لعم نوره العالم، و لاستراح البشـر من هذه العداوات الجنسـیة و الوطنیة و السیاسـیة، و لو لقی غیره من الأدیان مثل ما لقی من البغی و العدوان حوار مع الأستاذ بن لأصبح فی خبر کان.

ثم إن حاجـة الأمم قـد اشـتدت فی عصـرنا هـذا إلی هـدایته، حتی أشـدها إمعانـا فی عـداوته، و لجاجـا فی نکـایته، و جهلا بحقیقته، فأخرجت هـذا الکتاب من هدایـة القرآن، لتجدیـد دعوته بما یناسب ضـرورة هـذا الزمان، و لو أننی حین شـرعت فی کتابة مباحثه فی المرة الأولی، أردت أن یکون کتابا مسـتقلا فی تجدید الدعوة إلی الإسـلام، لافتتحته بهذه الآیات، و إن سبق لی تفسیرها المفصل فی آخر سورة النساء، ثم لنشرت بعض ما طویت من وجوه إعجازه، و لفصلت ما أجملت من مقاصد إصلاحه، و لبسطت ما قبضت من

الوحی المحمدی، ص: ۲۳

دلائله. و لاجتنبت فیه الإحالـة فی بسط ما طوی و تفصـیل ما أجمل، علی أجزاء تفسـیر المنار المطول، التی اختصـرت جل المقاصـد و شواهـدها منهـا، لأنهـا مما یشـغل القارئین للکتاب، و ربما کان أکثرهم لا یقتنون تلک الأجزاء، و لـذلک انتقـد هـذه الإحالـة و بعض الاختصار فیه بعض من قرأه قولا و کتابة بحق، و کنت أسبقهم إلی ذلک.

رواج الکتاب و ترجمته ببعض لغات:

لقد راج هذا الکتاب أضعاف ما رجونا، و نال من ثناء رجال العلوم الدینیة و رجال المعارف المدنیة العصریة فوق ما قدرنا، حتی قال کاتب مدنی شهیر إنه لم یر کتابا عربیّا نشر فی هذا العصر و کان له من حسن القبول عند جمیع أصناف القراء- حتی الذین لا یعنون بأمر الدین- مثل ما کان لهذا الکتاب (الوحی)، و قد صدق قوله، فإنه لم یمر علی بدء نشره ثلاثة أشهر إلا و قد کادت تنفذ نسخه، حتی قللنا من بیعه لتجار الکتب بالجملة، لئلا تنفذ قبل التمکن من إعادة طبعه منقحا، مبسوطا مفصلا.

و قد استأذننی بعض المستنیرین و محبی الإصلاح الإسلامی من الشعوب الإسلامیة بترجمته باللغات الغربیة و الشرقیة المختلفة، فأذنت لإمام جامع و کنج و محرر مجلة الإسلام (ریفیو إسلامیک) فی لندن و داعیة الإسلام فیها بترجمته باللغة الانکلیزیة و نشره فی أوروبا و أمریکا مترجما «۱»، و أذنت أیضا بترجمته باللغات الأوردیة و الترکیة و الفارسیة و الصینیة، و سأذکر ما یکون من أمر هذه الترجمات فی المقال الذی أجعله تصدیرا لهذه الطبعة (الثانیة).

و لقد کنت علی ما أسمع و ما أقرأ من تقریظه و إطرائه أحرص علی العلم بما یراه أولو العلم و الرأی من انتقاده، و سألت کثیرا عن هذا و لم اسألهم عن ذاک، و بعد هذا کله شرعت فی إعداده لهذه الطبعة الثانیة له.

***

(۱) بلغنی أنه ترجم بعض الفصول و المباحث و لم یترجم الکتاب کله.

الوحی المحمدی، ص: ۲۵

الفصل الأول فی تحقیق معنی الوحی و النبوة و الرسالة و حاجة البشر إلیها و أصولها و عدم إغناء العقل و العلم الکسبی عنها «۱»

تعریف الوحی لغة و شرعا:

قال فی الأساس: أوحی إلیه و أو رمی إلیه بمعنی، و وحیت إلیه و أوحیت إذا کلمته بما تخفیه عن غیره؛ و أوحی اللّه إلی أنبیائه: وَ أَوْحی رَبُّکَ إِلَی النَّحْلِ [النحل: ۶۸].

و قال الراغب: أصل الوحی الإشارة السریعة، و لتضمن السرعة قیل «أمر وحی». و ذلک یکون بالکلام علی سبیل الرمز و التعریض، و قد یکون بصوت مجرد عن الترکیب، و بإشارة ببعض الجوارح و بالکتابة. و قد حمل علی ذلک قوله تعالی عن زکریا: فَخَرَجَ عَلی قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ فَأَوْحی إِلَیْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُکْرَةً وَ عَشِیًّا [مریم: ۱۱] إلخ، أی: أشار إلیهم و لم یتکلم. و الوحی بتشدید الیاء السریع، و من وحی الإیماء بالجوارح قول الشاعر:

نظرت إلیها نظرة فتحیرت‌دقائق فکری فی بدیع صفاتها

فأوحی إلیها الطرف أنی أحبهافأثر ذاک الوحی فی وجناتها فالقول الجامع فی معنی الوحی اللغوی: أنه الإعلام الخفی السریع الخاص بمن یوجه إلیه بحیث یخفی علی غیره. و منه الإلهام الغریزی کالوحی إلی النحل، و إلهام الخواطر بما یلقیه اللّه فی روع الإنسان السلیم الفطرة الطاهر الروح کالوحی إلی أم موسی، و منه ضده و هو وسوسة الشیطان، قال تعالی: وَ إِنَّ الشَّیاطِینَ لَیُوحُونَ إِلی أَوْلِیائِهِمْ لِیُجادِلُوکُمْ [الأنعام:

۱۲۱]، و قال: وَ کَذلِکَ جَعَلْنا لِکُلِّ نَبِیٍّ عَدُوًّا شَیاطِینَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ یُوحِی بَعْضُهُمْ إِلی بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً [الأنعام: ۱۱۲]، و وحی اللّه تعالی إلی أنبیائه قد روعی فیه المعنیان الأصلیان لهذه المادة، و هما: الخفاء و السرعة. فهذا معنی المصدر، و یطلق علی متعلقه و هو ما وقع به الوحی، أی: اسم المفعول، و هو ما أنزله تعالی علی أنبیائه و عرفهم به من أنباء الغیب و الشرائع و الحکم، و منهم من أعطاه کتابا، أی: تشریعا یکتب و منهم من لم یعطه.

(۱) هذا الفصل من زیادات الطبعة الثانیة فی أولها.

الوحی المحمدی، ص: ۲۶

و اللّه تعالی یوحی إلی ملائکته ما یأمرهم بفعله کقوله: إِذْ یُوحِی رَبُّکَ إِلَی الْمَلائِکَةِ أَنِّی مَعَکُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِینَ آمَنُوا [الأنفال: ۱۲]، و یوحی إلی ملک الوحی ما یوحیه الملک إلی الرسول کقوله: فَأَوْحی إِلی عَبْدِهِ ما أَوْحی [النجم: ۱۰]، أی: أوحی إلی عبده جبریل علیه السلام ما أوحی جبریل إلی محمد صلّی اللّه علیه و سلم.

و قال شیخنا الأستاذ الإمام فی رسالة التوحید بعد تعریف الوحی لغة: «و قد عرفوه شرعا أنه إعلام اللّه تعالی لنبی من أنبیائه بحکم شرعی و نحوه»، أما نحن فنعرفه علی شرطنا بأنه: عرفان یجده الشخص من نفسه مع الیقین بأنه من قبل اللّه بواسطة أو بغیر واسطة، و الأول بصوت یتمثل لسمعه أو بغیر صوت. و یفرق بینه و بین الإلهام بأن الإلهام: وجدان تستیقنه النفس و تنساق إلی ما یطلب من غیر شعور منها من أین أتی. و هو أشبه بوجدان الجوع و العطش و الحزن و السرور.

هذا التعریف یشمل أنواع الوحی الثلاثة الواردة فی قول اللّه عزّ و جلّ: وَ ما کانَ لِبَشَرٍ أَنْ یُکَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْیاً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ یُرْسِلَ رَسُولًا فَیُوحِیَ بِإِذْنِهِ ما یَشاءُ إِنَّهُ عَلِیٌّ حَکِیمٌ [الشوری: ۵۱] فالوحی هنا: إلقاء المعنی فی القلب، و قد یعبر عنه بالنفث فی الرّوع- و هو بالضم: القلب و الخلد و الخاطر، و الکلام من وراء حجاب: هو أن یسمع کلام اللّه من حیث لا یراه کما سمع موسی علیه السلام النداء من وراء الشجرة، و أما الثالث: فهو ما یلقیه ملک الوحی المرسل من اللّه إلی رسول اللّه فیراه متمثلا بصورة رجل، أو غیر متمثل، و یسمعه منه أو یعیه بقلبه.

و تعبیره یشمل- قبل التفرقة بینه و بین الإلهام- ما یسمیه بعضهم بالوحی النفسی و هو الإلهام الفائض من استعداد النفس العالیة، و قد أثبته بعض علماء الإفرنج لنبینا صلّی اللّه علیه و سلم کغیره، فقالوا: إن محمدا یستحیل أن یکون کاذبا فیما دعا إلیه من الدین القویم و الشرع العادل و الأدب السامی، و صوره من لا- یؤمنون بعالم الغیب منهم أو باتصال عالم الشهادة به بأن معلوماته و أفکاره و آماله ولدت له إلهاما فاض من عقله الباطن أو نفسه الخفیة الروحانیة العالیة علی مخیلته السامیة، و انعکس اعتقاده علی بصره فرأی الملک ماثلا له، و علی سمعه فوعی ما حدثه الملک به.

فصار الخلاف بیننا و بین هؤلاء فی کون الوحی الشرعی من خارج نفس النبی نازل علیها من السماء کما نعتقد، لا من داخلها فائضا منها کما یظنون، و فی وجود ملک روحانی مستقل نزل من عند اللّه علیه صلّی اللّه علیه و سلم کما قال عزّ و جلّ: وَ إِنَّهُ لَتَنْزِیلُ رَبِّ الْعالَمِینَ (۱۹۲) نَزَلَ

الوحی المحمدی، ص: ۲۷

بِهِ الرُّوحُ الْأَمِینُ (۱۹۳) عَلی قَلْبِکَ لِتَکُونَ مِنَ الْمُنْذِرِینَ (۱۹۴) بِلِسانٍ عَرَبِیٍّ مُبِینٍ [الشعراء: ۱۹۲- ۱۹۵] و فی تخیل الملک بزعمهم.

و سنشرح هذا الزعم و نبسط شبهاته و نبطلها، و نثبت أنّ هذا القرآن وحی من اللّه تعالی ینزل من فوق السموات العلی، لا یمکن أن یکون فائضا فی هذه الأرض من نفس محمد صلّی اللّه علیه و سلم و هو موضوع کتابنا هذا.

و أعلم أیها القارئ أن تقسیم المتکلمین کلام اللّه تعالی إلی نفسی قدیم قائم بذاته سبحانه لیس بحرف و لا صوت و لا ترتیب و لا لغة، و کلام لفظی هو المنزل علی الأنبیاء علیهم السلام، و منه الکتب الأربعة، و خلافهم فی کونه مخلوقا أو غیر مخلوق هو اصطلاح کله فلسفة و آراء نظریة مبتدعة، لم یرد به کتاب و لا سنة و هو تعرض للبحث التحلیلی لذات اللّه تعالی و صفاته، و مثار للوسواس الشیطانی فیه فاجتنبه، و استعذ باللّه منه، و حسبک أن تؤمن بأن الکلام صفة کمال تتعلق بکل ما یتعلق به العلم، إلا أن تعلق العلم عبارة عن انکشاف المعلومات للعالم، و تعلّق الکلام عبارة عن کشف العالم ما شاء من علمه لمن شاء، و أن اللّه تعالی متصف بکمال العلم و التعلیم، و کمال الکلام و التکلیم، و أن هذا و غیره مما وصف به نفسه فی کتابه لا ینافی کمال تنزیهه تعالی عما لا یلیق به من

نقائص عباده و لا یقتضی مماثلته لهم فیما وهبهم من کمال، فإن الاشتراک فی الأسماء لا یقتضی الاشتراک فی المسمیات، و أسماء الأجناس المقولة بالتشکیک فی الممکنات تختلف من وجوه کثیرة منها النقص و الکمال، فکیف بها إذا کانت مشترکة بین الخالق و المخلوقات؟ فذاته تعالی أکمل من ذواتهم، و وجوده أعلی من وجودهم، و صفاته أسمی من صفاتهم، و هو أعلم، و رسوله أعلم منهم بصفاته و أفعاله، فعلیک أن تؤمن بما صح عنهما من إثبات و نفی، و من غیر زیادة و لا نقص، بلا تعطیل و لا تمثیل و لا تأویل، و لیس علیک و لا لک أن تحکم رأیک و عقلک فی کنه ذاته و لا صفاته، و لا فی کیفیة مناداته و تکلیمه لرسله، و لا فی کنه ما هو قائم به، و ما یصدر عنه، و علی هذا کان أصحاب الرسول و علماء التابعین، و أئمة الحدیث و الفقه، قبل ظهور بدعة المتکلمین.

الوحی المحمدی، ص: ۲۸

النبی معناه لغة و شرعا و الفرق بین الرسول و غیره

النبیء فی اللغة العربیة: وصف من النبأ، و هو الخبر المفید لما له شأن مهم، و یصح فیه معنی الفاعل و المفعول، لأنه منبئ عن اللّه و منبأ منه، و النبی بالتشدید أکثر استعمالا، أبدلت الهمزة فیه یاء، أو هو: من النبوة و هی الرفعة و الشرف. و یطلق عند أهل الکتاب علی الملهم الذی یخبر بشیء من أمور الغیب المستقبلة. و قیل إن معنی أصل مادته فی العبرانیة القدیمة: المتکلم بصوت جهوری مطلقا، أو فی الأمور التشریعیة، و هو عندنا: من أوحی اللّه إلیه وحیا، فإن أمره بتبلیغه کان رسولا، فکل رسول نبی، و ما کان نبی رسولا، فقوله تعالی: ما کانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِکُمْ وَ لکِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خاتَمَ النَّبِیِّینَ [الأحزاب:

۴۰] یدل علی انقطاع النبوة و الرسالة معا بعد محمد صلّی اللّه علیه و سلم، فکل من ادعی أو یدعی الوحی الشرعی من اللّه تعالی بعده فهو کاذب مضل، و قد ادعی النّبوة کثیرون فظهر کذبهم، و لم یأت أحد ادعی النبوة بعد محمد صلّی اللّه علیه و سلم بشیء من الإصلاح الدینی الذی یحتاج إلیه البشر، بل رأینا کتبهم و أقوالهم طافحة بمدح أنفسهم و اللغو فی إطرائها و دعاویها الباطلة، التی یراد بها إخضاع العوام لهم و استعبادهم إیاهم، کالذی نعهد فی الدجالین من مدعی الولایة و معرفة الغیب و التصرف الروحانی فی نفع الناس و ضرهم. و یدحض هذا و أمثاله ما بینه اللّه فی کتابه الحق من وظائف الرسل کافة، و خاتم النبیین خاصة، کما نراه فی موضعه من هذا الکتاب، و کذا ما علم بالتواتر من شمائله و أخلاقه صلّی اللّه علیه و سلم من التواضع و کراهة الدعوی و الإطراء و النهی عنه.

و یری قارئ هذا الکتاب فیه أن ما جاء به صلّی اللّه علیه و سلم من کتاب اللّه و ما بینه به من سننه کاف شامل لکل ما یحتاج إلیه البشر من هدایة الدین لا یحتاجون إلی غیره.

الوحی المحمدی، ص: ۲۹

حاجة البشر إلی الرسالة و أصول أدیان الرسل الأساسیة

وجه حاجة البشر إلی هدایة الأنبیاء علیهم السلام فی الجملة أن موضوع رسالتهم المقصود بالذات أو بقصد الأول ثلاثة أمور لا تستقل معارفهم المکتسبة بحواسهم و عقولهم بها، و لا یذعنون فیها إلا لأمر ربهم و خالقهم.

(أحدها) الإیمان بالغیب، و رأسه توحید اللّه و صفاته و آیاته الدالة علی کماله و تنزهه عن النقص، و ما یجب من عبادته و شکره و ذکره الذی هو علی ما تتزکی به النفس، و تتطهر من أدران مساویها، و تصل إلی الکمال المستعدة له بفطرتها. و یلیه الإیمان بملائکته و ما یناط بهم من الوحی، و النظام فی الخلق و الأمر، و یجب الوقوف فی ذلک عند ما ورد به النص.

و مما أخبر به الأنبیاء من أمر عالم الغیب (الجن و الشیاطین) و أن ما یجده الناس فی أنفسهم من خواطر السوء، و تقویة دواعی الشر و الباطل فهو من وسواس الشیاطین، و حکمة إعلامهم بذلک إرشادهم إلی محاسبة أنفسهم علی خواطرها، و التمییز بین حقها و باطلها، و خیرها و شرها، فهو أکبر معین لهم علی تربیتها و تزکیتها- و قد وضحناه بالدلائل فی تفسیرنا- و ضربنا له المثل بعوالم الجنّة المادیة

التی تسمی بالمیکروبات، و کون تأثیرها فی الأجسام کتأثیر الشیاطین فی الأرواح، و قد مر علی البشر الألوف الکثیرة من السنین و هم یجهلونها علی ما لها من التأثیر العظیم فی صحتهم و أمراضهم، و طعامهم و شرابهم، حتی کشفوها فی هذا العصر، و لو حاسب الناس أنفسهم علی خواطرهم السوأی اتقاء لوسوسة الشیاطین کما یتقون میکروبات الأمراض لحفظ أبدانهم لکان تأثیر هذه التقوی لحفظ الأنفس من الشر و الفساد أعظم من تأثیر تلک الوقایة فی حفظ الأجساد من الأمراض.

و قد کشف بعض الماديين فی القرن الثامن عشر أن للبشر أرواحا مستقلة کما أخبرهم الأنبياء، و وجدوا وسيلة لإدراک بعض الجنة غير المادية، و هو ما يعتقدون أنه من أرواح الموتی و الراجح عندنا أن أکثرها من أرواح شياطينهم، و لا يتسع هذا الفصل لبيان الحق فی هذه المسألة التی لا تزال موضع الخلاف بين الناس، و إنما المراد هنا تعريف موضوع الرسالة بالإجمال.

الوحی المحمدی، ص: ۳۰

المشهور: أن أرقی البشر عقلا و رأيا فی شئون العالم رجال السياسة الدولية فی الغرب، و إنک لتجد غاية سياستهم أن يسخروا ثروة شعوبهم و نتائج علومها و فنونها لعداوة بعضهم لبعض، و إعدادها للتقتيل و التدمير. أ ليست هذه السياسة الشيطانية مصداقا لقول اللّه تعالی فيهم: تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلی أُمَمٍ مِنْ قَبْلِکَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۶۳) وَ ما أَنْزَلْنا عَلَيْکَ الْکِتابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِی اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ هُدیً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [النحل: ۶۳، ۶۴].

(ثانيها) ما يجب اعتقاده من البعث بعد الموت و الحساب، و الجزاء علی الإيمان و الأعمال، و هو أکبر البواعث- بعد الإيمان باللّه و معرفته- علی اتباع ما شرعه من اتباع الحق، و إقامة العدل، و أعمال البر و الخير، و الصدود عن أضدادها.

(ثالثها) وضع حدود و أصول للأعمال التشريعية المشار إليها لا مجال للآراء و الأهواء فيها، لتکون جامعة للکلمة، مانعة من التفرقة، متبعة فی السر و العلانية.

و جملة القول: أن تهذيب البشر بالدين مبنی علی الإيمان بالغيب و الوقوف فيه عند خبر الأنبياء عليهم السلام، و لا يمکن تهذيبهم بالعلوم المادية الکسبية وحدها و هو ما نکرر بيانه فی هذا الکتاب.

الوحی المحمدی، ص: ۳۱

عصمة الأنبياء

إذا کان إرسال الأنبياء إلی البشر لأجل هدايتهم إلی تزکية أنفسهم بما تصلح به أحوالهم فی دنياهم، و يستعدون به الحياة أعلی من هذه الحياة الدنيا فی نشأة أخری، فلا يتم هذا الغرض و لا تتحقق هذه الحکمة إلا إذا کان هؤلاء الأنبياء أهلا لأن يقتدی بهم فی أعمالهم و سيرتهم، و التزام الشرائع و الآداب التی يبلغونها عن ربهم، و من ثم قال علماؤنا بوجوب عصمة الأنبياء من المعاصی و الرذائل، و بالغ بعضهم فيها حتی قالوا بعصمتهم من الذنوب الصغائر کالکبائر قبل النبوة و بعدها، و خصّ بعضهم العصمة من الصغائر بما کان باعثه الخسة و الدناءة.

و أهل الکتاب لا يقولون بهذه العصمة، و کتبهم المقدسة ترمی بعض کبار الأنبياء بکبار الفواحش المنافية لحسن الأسوة، بل المجرئة علی الشرور و المفاسد.

و النصاری منهم يجعلون معاصی الأنبياء دليلا علی عقيدتهم و هی أن المسيح هو المعصوم وحده لأنه رب و إله، و لأنه هو المخلص للناس من العقاب علی الخطيئة اللازبة اللازمة لکل ذرية آدم بالوراثة له، و أنه لا شفيع و لا مخلص لهم غيره؛ لأن المخطئ لا يخلص المخطئين و هو منهم، و هذه العقيدة و ثنية مخالفة لدين الأنبياء و کتبهم و للعقل، و مطابقة للأديان الوثنية الهندية و غيرها.

بيد أنّ کتب العهدين القديم و الجديد المقدسة عندهم المحرفة فی اعتقادنا لا تشهد لهم برمی جميع أنبيائها بالذنوب فضلا عن المعاصی التی هی أشد من الذنوب، فإن يوحنا المعمدان (هو يحيی بن زکريا عليهما السلام) لم يوصم بخطيئة قط. بل شهدت له

أناجیلهم بما یدل علی أنه کان أعظم من المسیح فی عصمته، ففی إنجیل لوقا (۱: ۶۵ إنه یکون عظیما أمام الرب، و خمرا و مسکرا لا یشرب، و من بطن أمه یمتلئ بروح القدس) و فیه «کانت ید الرب معه»، و قال المسیح فیه: «متی ۱۱: ۱۱ الحق أقول لکم إنه لم یقم بین المولدین من النساء أعظم من یوحنا المعمدان»، ثم قال فیه: «۱۸ جاء یوحنا لا یأکل و لا یشرب فیقولون فیه شیطان ۱۹ و جاء ابن الإنسان یأکل و یشرب فیقولون: هو ذا إنسان أکول، و شریب خمر، محب للعشارین و الخطاة».

الوحی المحمدی، ص: ۳۲

بل شهدت الأناجیل أن المسیح علیه السلام أهان أمه و إخوته و لم یسمح لهم بلقائه، و قد استأذنوا علیه لیکلموه، و علل ذلک بأنهم مخالفون لمشیئة أبیه کما تراه فی آخر الفصل الثانی عشر من إنجیل متی و آخر الثالث من مرقس بالمعنی. و عبارة لوقا (۸: ۲۰ فأخبروه قائلین: أمک و إخوتک واقفون خارجا یریدون أن یروک ۲۱ فأجاب و قال لهم أمی و إخوتی هم الذین یسمعون کلمة اللّه و یعملون بها)، نعم إن إخوته لم یکونوا یؤمنون به کما هو مصرح به فی موضع آخر، و لکن هل کانت أمه کذلک؟ و هل یجازیها هذا الجزاء؟ و اللّه تعالی یوصی بالإحسان بالوالدین حتی المشرکین و یفضل أمّ السید المسیح علی نساء العالمین.

و إهانة الأم ذنب فی جمیع الشرائع و الآداب، کما أن المبالغة فی شرب الخمر ذنب حتی فی الشرائع التی لم تحرمها مطلقا، و جاء فی هذه الأناجیل أن الشیطان استولی علیه أربعین یوما یجربه و یدعوه إلی عبادته، کما تراه فی أول الفصل الرابع من إنجیل متی. و کذا فی غیره من الأناجیل. و نحن نبرئه من کل ذلک.

و شهدت الأناجیل أیضا بأنّ یوحنا کان یعمد الناس للتوبة و مغفرة الخطایا و أنه عمد المسیح نفسه، و بأن أباه زکریا و أمه الیصابات «و کان کلاهما بارین أمام اللّه سالکین فی جمیع وصایا الرب و أحکامه بلا لوم» (لوقا ۱: ۶) و هذه شهادة بالعصمة التامة.

و هنالک أنبیاء آخرون شهدت لهم نبوات العهد القدیم بالبر و لم ینسب إلی أحد منهم أدنی خطیئة، و آدم عند ما ارتکب الخطیئة لم یکن نبیا مرسلا إلی أحد و لا- کان معه قوم یسیئون الاقتداء به. و کان قد نسی النهی عن الأکل من الشجرة، و إنما کانت مثلا لاستعداد جنس البشر للمعصیة کالطاعة، نسیانا أو عمدا، و لکون المعصیة تعالج بالتوبة فیغفرها اللّه تعالی، و قد کان ابناه قابیل و هابیل مثلا لکل من الاستعدادین، و شهد الکتاب عندهم لهابیل بأنه کان بارا لم یرتکب خطیئة، و هو لم یکن نبیا.

جاء القرآن و هو المهیمن علی جمیع الکتب الإلهیة بما لخصناه من الحق فی مسألة آدم و شهد لمن قص علینا خبرهم من أنبیاء اللّه و رسله أنهم کانوا من الصالحین الذین یقتدی بهم فی البرّ و التقوی، کقوله فی سورتهم: وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً یَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَ أَوْحَیْنا إِلَیْهِمْ فِعْلَ الْخَیْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِیتاءَ الزَّکاةِ وَ کانُوا لَنا عابِدِینَ [الأنبیاء: ۷۳]، و قال فیهم بعد ذکر أشهرهم: أُولئِکَ الَّذِینَ هَدَی اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ [الأنعام: ۹۰].

و أما قوله لخاتمهم و مکمل هدایتهم: إِنَّا فَتَحْنا لَکَ فَتْحاً مُبِیناً (۱) لِیَغْفِرَ لَکَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ

الوحی المحمدی، ص: ۳۳

مِنْ ذَنْبِکَ وَ ما تَأَخَّرَ [الفتح: ۱، ۲] إلخ، و قوله: وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِکَ وَ لِلْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُؤْمِناتِ [محمد: ۱۹]، فالذنب فیه جاء علی أصل معناه اللغوی المشتق من ذنب الدابة، و هو کل عمل له عاقبة ضارة أو منافیة للمصلحة، أو لما هو أولی و أنفع، و یدخل فیه الاجتهاد فی الرأی المباح شرعا کإذن النبی صلّی اللّه علیه و سلم لمن استأذنه من المنافقین فی التخلف عن غزوة تبوک و عاتبه اللّه علیه بقوله: عَفَا اللَّهُ عَنْکَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّی یَتَبَیَّنَ لَکَ الَّذِینَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْکاذِبِینَ «۱» [التوبة: ۴۳]، و إنما المعصیة للأنبیاء من معصیة اللّه بمخالفة وحیه إلیهم، إذ لو عصوه لکان أتباعهم مأمورین من اللّه بالمعصیة لأنه أمرهم باتباعهم، و قال تعالی فی نبینا صلّی اللّه علیه و سلم: لَقَدْ کانَ لَکُمْ فِی رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ کانَ یَرْجُوا اللَّهَ وَ الْیَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَکَرَ اللَّهَ کَثِیراً [الأحزاب: ۲۱].

---

(۱) تراجع المسألة فی تفسیر هذه الآیة من الجزء العاشر- تفسیر المنار ص ۴۶۴.

الوحی المحمدی، ص: ۳۴

العقل و العلم البشری لا یغنیان عن هدایة الرسل

(فإن قیل) إن الإیمان بالغیب و وجود الرب غریزی فی الفطرة البشریة کما حققتم، أو إلهام من إلهاماتها یلقی فی روع أفرادها عند نمو إدراکهم، و أن بعض الحکماء المفکرین قد ارتقوا فی معارفهم العقلیة إلی حیث أقاموا البراهین علی وجود واجب الوجود و علمه و حکمته، و وجوب تعظیمه و شکره و عبادته، و قد قرر بعضهم بقاء النفس بعد الموت و خلودها فی نعیم مقیم أو عذاب ألیم، و وضعوا للناس أصول الفضائل و التشریع و الآداب التی تصلح بها الإنسانیة و روابط الاجتماع.

(قلت) نعم لکل ذلک أصل یثبته التاریخ الماضی، و یشهده العصر الحاضر. و لکن بین هدایة الأنبیاء و حکمة الحکماء و علومهم فروقا فی مصدر کل منهما، و فی الثقة بصحته، و فی الإذعان لحقیته، و فی تأثیره فی أنفس جمیع طبقات المخاطبین.

فحکمة الحکماء و علومهم آراء بشریة ناقصة، و ظنون لا تبلغ من عالم الغیب إلا أنه موجود مجهول، و هی عرضة للتخطئة و الخلاف، و لا یفهمها إلا فئة مخصوصة من الناس، و ما کل من یفهمها یقبلها، و لا کل من یقبلها و یعتقد صحّتها یرجّحها علی هواه و شهواته، إذ لا سلطان لها علی وجدان العالم بها، فلا یکون لها تأثیر الإیمان و إسلام الإذعان و التعبد، لأن النوع البشری یأبی طبعه و غریزته أن یدین و یخضع خضوع التعبد لمن هو مثله فی بشریته و إن فاقه فی علمه و حکمته، و إنما یدین لمن یعتقد أن له سلطانا غیبیا علیه بما یملکه من القدوة علی النفع و الضر بذاته، دون الأسباب الطبیعیة المبذولة لجمیع الناس بحسب سنن الکون و نظامه.

و اضرب لهذا مثلا: إنه کان للفیلسوف الرئیس ابن سینا خادم متعلم معجب بعلومه و فلسفته، و کان یعجب منه کیف یدین بملة محمد صلّی اللّه علیه و سلم و یتبعه و هو فی رأیه أعلم منه و أرقی، و کان یکاشفه بذلک فیعرض عنه أو یوبّخه، فاتفق أن کانا فی مدینة أصفهان فی لیلة شدیدة البرد کثیرة الثلج، فأیقظ الرئیس خادمه فی وقت السّحر و طلب منه ماء لیتوضأ به، فاعتذر بشدة البرد و بقاء اللیل، ثم أیقظه الرئیس فی وقت أذان الصبح و طلب منه الماء فاعتذر بشدة البرد، حتی قال المؤذن: أشهد أن محمدا رسول الله. قال الرئیس لخادمه:

اسمع ما ذا یقول المؤذن؟ قال: إنه یقول أشهد أن محمدا رسول اللّه. قال الرئیس: الآن قد

الوحی المحمدی، ص: ۳۵

آن لی أن أبین لک ضلالک القدیم، إنک خادمی لا عمل لک غیر خدمتی، و إنک أشدّ الناس إعجابا بی و إجلالا و تعظیما لی؟ حتی إنک تفضلنی علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم، و تنکر علیّ أن أؤمن به و أتبعه، و أنک علی هذا تخالف أمری فی أهون خدمة أطلبها منک فی داخل الدار معتذرا بشدة البرد، و إن هذا المؤذن الفارسی یخرج من بیته قبل الفجر و یصعد هذه المنارة و هی أشد مکان فی البلد بردا، حتی إذا لاح له الفجر أشاد فی أذنه بذکر محمد العربی بعد مرور أربعة قرون و نیف علی بعثته، إیمانا و إذعانا و تعبدا و احتسابا. فتأمل هذا و تدبره فی نفسک یظهر لک الفرق بین سلطان النبوة علی الناس و سلطان العلم و الفلسفة.

فمن أعظم مزایا هدایة الوحی الدینیة علی العلمیة الکسبیة أن جمیع طبقات المؤمنین بها یذعنون لها بالوازع النفسی التعبدی، فبذلک تکون عامة ثابتة لا مجال للخلاف و التفرق فیها ما دام الفهم لها صحیحا و الإیمان بها راسخا، و لذلک نری الشعوب التی ساء فهمها للدین، و تزلزل إیمانها به أو زال، لا ینفعها من دونه علوم العلماء، و لا حکمة الحکماء، و قد ارتقت العلوم و الحکمة فی هذا العصر، و عم انتشارهما بما لم یعرف مثله فی عصر آخر، و هم لا یذعنون فی أنفسهم لإرادة ملک أو أمیر، و لا لرأی عالم نحریر، و لا فیلسوف شهیر، و لا مخترع خبیر، بل صاروا إلی فوضی فی الأخلاق و الآداب و الاجتماع، و استباحة الأموال و الأعراض و کذا الدماء لم یعهد لها فی البشر نظیر. صارت بها الأمم و الدول عرضة لفتنة فی الأرض و فساد کبیر.

أکثر البشر المؤمنون بوجود اللّه و علمه و حکمته، و المثقفین بالتعلیم العصری یؤمنون بوحدانیته، و لم یبق للشرک به تعالی بقیة إلا

فی جهال المتبعین لتقالید الأدیان المنسوبة إلی الأنبیاء علیهم الصلاة و السلام، و ما هی من أدیانهم فی شیء. بل هی هادمة لأساسها الأعظم و هو التوحید المطلق، فکان فشو الشرک بعبادة الأنبیاء و القدیسین و ما ترتب علیه و اقترن به من الخرافات و فساد الأخلاق من أکبر الشبهات علی صحة هذه الأدیان و المنفرات عن اتباعها و صار أکثر البشر إما مؤمنین بالأنبیاء دائنین بالخرافات، و إمّا کافرین بهم منکرین أن الدین وحی من اللّه تعالی، و تعین إرجاع الفریقین إلی هدایة الدین الصحیح و ما هو إلا دین الإسلام.

إن الدین الذی ینتمی إلیه أکثر شعوب الحضارة فی هذا العصر هو النصرانیة، و إنما سبب بقائه فیهم أن دولهم قد جعلته من نظام حیاتهم الاجتماعیة، و لکنه لم یبق له سلطان روحی إلا فی قلوب النساء و العوام الخرافیین، و قد جاءتنا الأنباء قبل طبع هذا الفصل بأن

الوحی المحمدی، ص: ۳۶

زعماء الشعب الألمانی و هو أرقی شعوب الأرض علما و فنا و حضارة قد ثار علی هذا الدین ثورة جدیدة یرید بها هدم أساسه من کتب العهد القدیم، و تنقیح تعالیم العهد الجدید و جعل ما یبقون منه وطنیا ألمانیا خاصا بالجنس الآری الهندی الفارسی الأصل و البراءة من کل ما هو سام منه، و ما أنبیاؤهم و رسلهم و مسیحهم و معبودهم إلا من السامیین. بل یریدون تقدیس شهداء الحرب و عظماء أسلافهم الألمانیین، و إنّ هذه إلا وثنیة کوثنیة الیابانیین. تذکی سعیر العداوة بینهم و بین سائر الأوروبیین.

فلا سبیل إلی إنقاذ البشر فی هذا العصر إلا إثبات الوحی المحمدی الموحّد لإنسانیتهم، المزکی لأنفسهم، و المکمّل لفطرتهم. الذی فیه السعادة الدنیویة و الأخرویة لهم فی جملتهم، و قد بینا فی هذا الکتاب أنّ محمدا رسول اللّه و خاتم النبیین. و هو المرسل إلی کافة الناس رحمة للعالمین، و أنه هو الذی أکمل اللّه به الدین، و أزال العصبیات الجنسیّة و الوطنیّة.

لتوحید الأخوة الإنسانیة، فاتباعه هو الترياق المجرّب لهذه السموم الروحیة الاجتماعیة القاتلة. راجین أن یفتح اللّه تعالی به أبواب الهدی لکل من یعقله و یتدبره من مستقلی الفکر، و طالبی معرفة الحق، و إصلاح الخلق المعنیین بقول اللّه عزّ و جلّ: یا أَهْلَ الْکِتابِ قَدْ جاءَکُمْ رَسُولُنا یُبَیِّنُ لَکُمْ کَثِیراً مِمَّا کُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْکِتابِ وَ یَعْفُوا عَنْ کَثِیرٍ قَدْ جاءَکُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ کِتابٌ مُبِینٌ (۱۵) یَهْدِی بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَ یُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَی النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ یَهْدِیهِمْ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ (۱۶) [المائدة: ۱۵، ۱۶].

***

الوحی المحمدی، ص: ۳۷

الفصل الثانی فی إقامة الحجة علی مثبتی الوحی المطلق فی إثبات نبوة محمد صلّی اللّه علیه و سلم

اشارة

إن من اطّلع علی الکتب المقدسة عند أهل الکتاب من الیهود و النصاری المعبر عنها بکتب العهدین القدیم و الجدید، و علی القرآن و کتب السنة و السیرة المحمدیة- من أحرار الفکر و مستقلی العقل- علم علما وجدانیّا أنه لا یستطیع أحد أن یؤمن إیمانا علمیا بأن تلک الکتب وحی من اللّه، و أن الذین کتبوها أنبیاء معصومون فیما کتبوه ثم لا- یؤمن بأن القرآن وحی من اللّه، و أن محمدا نبیّ معصوم فیما بلغه عن اللّه تعالی. کما لا یستطیع فقیه أن ینکر فقه أبی حنیفة و الشافعی، و لا نحوی أن یجحد نحو سیبویه و ابن جنّی، و لا شاعر أن ینفی شاعریة الرضی و البحتری، و قل مثل ذلک فی الطبیب و الفیلسوف و الریاضی و الفلکی- کل منهم مع أئمة علمه، و فی کلّ إنسان صحیح الحواس فی المدرکات الحسیة، فالبصیر لا یستطیع أن یکابر حسه فیفضل نور القمر و الکواکب علی ضوء الشمس، أن نور السراج علی نور النهار، و للّه در البوصیری حیث قال:

اللّه أکبر إنّ دین محمدو کتابه أقوی و أقوم قیل

لا تذکروا الکتب السوالف عندهطلع الصباح فأطفأ القندیلا قد صرح بهذا المعنی علماء الإفرنج الذین نشئوا فی النصرانیة، و أحاطوا بها

علما و خبرا، ثم عرفوا الإسلام معرفة صحيحة و لو غير تامة.

كتب الأستاذ أدوار مونتيه المستشرق مدرس اللغات الشرقية فى مدرسة جنيف الجامعة فى مقدمة ترجمته الفرنسية للقرآن ما ترجمته بالعربية:

«كان محمّد نبيّا صادقا كما كان أنبياء بنى إسرائيل فى القديم، كان مثلهم يؤتى رؤيا و يوحى إليه و كانت العقيدة الدينيّة و فكرة وجود الألوهية متمكنتين فيه كما كانتا متمكنتين فى أولئك الأنبياء أسلافه فتحدّث فيه كما كانت تحدث فيهم ذاك الإلهام النفسىّ، و هذا التضاعف فى الشخصية، اللذين يحدثان فى العقل البشرى المرائى و التجليات و الوحى و الأحوال الروحية التى من بابها» أ ه.

الوحى المحمدى، ص: ۳۸

فهذا العالم الأوروبى المستقل الفكر يقول: إن كل ما كان به أنبياء بنى إسرائيل أنبياء كان ثابتا لمحمد، و نحن نقول: إنّ جميع خصائص النبوة التى كانت فيه هى أكمل شكلا و موضوعا و أصح رواية و أبعد عن الشبهات كما سنوضحه، و أما ما فسر به هذه الخصائص فهو التعليل الذى يعلل به الماديون الوحى المطلق، و سنتكلم عليه فى الفصل الثالث.

و لخص هذا العالم خبير نزول الوحى على محمد صلّى اللّه عليه و سلم من كتب إسلامية مذعنا لصحة روايتها، و فصّلها بعده العالم المستشرق الفرنسى أميل درمنغام «۱» فى كتابه (حياة محمد) مذعنا لصحة الرواية و لموضوعها. شارحا لتأثير نبوته فى إصلاح البشر متمنيا الاتفاق بين المسلمين و النصارى، آسفا للشقاق بينهم.

و إننا ننقل هنا تعريف الوحى و النبوّة و الآيات (العجائب) عن أحد علماء الإفرنج الجامعين بين العلوم العصرية و الدينية و التواريخ، و هو الدكتور «جورج بوست» الشهير مؤلف كتاب (و قاموس الكتاب المقدس) بالعربية ليبنى عليها الباحث المستقلّ العقل حكمه فى نبوة أنبياء بنى إسرائيل و وحيهم، و نبوة محمد رسول اللّه و خاتم النبيين، و الوحى الذى أنزل عليه.

---

(۱) يكتب هذا الاسم فى مجلة السياسة (درمنجيم)، بالجيم المصرية حيث ينشر فيها كتابه (حياة محمد) مترجما بالعربية، و إنما اخترنا كتابته بالغين لكتاب جاءنا من المؤلف بالعربية، كتب فيه إمضاءه (إميل درمنغام) و نشرناه فى الجزء الأول من مجلد المنار الثلاثين.

الوحى المحمدى، ص: ۳۹

تعريف الوحى و النبوة و الأنبياء عند النصارى

جاء فى تفسير كلمة «وحى» من قاموس الكتاب المقدس المطبوع فى الطبعة الأمريكانية فى بيروت سنة ۱۹۸۴ ما نصه مع حذف أكثر رموز الشواهد.

و تستعمل هذه اللفظة للدلالة على نبوة خاصة بمدينة أو شعب، و جاء فى (جزء ۱۲: ۱۰) «هذا الوحى هو الرئيس» أى أنه لآية للشعب و على العموم يراد بالوحى الإلهام.

و على ذلك يقال: «إن كل الكتاب هو موحى به من الله» و الوحى بهذا المعنى هو حلول روح اللّه فى الكتّاب الملهمين و ذلك على أنواع:

۱- إفادتهم بحقائق روحية أو حوادث مستقبلة لم يكن يمكنهم التوصل إليها إلا به.

۲- إرشادهم إلى تأليف حوادث معروفة أو حقائق مقررة و التفوه بها شفاها أو تدوينها كتابة بحيث يعصمون من الخطأ. فيقال: «تكلم أناس اللّه القديسون مسوقين من الروح القدس، و هنا لا يفقد المتكلم أو الكاتب شيئا من شخصيته، و إنما يؤثر فيه الروح الإلهى بحيث يستعمل ما عنده من القوى و الصفات وفق إرشاده تعالى، و لهذا نرى فى كل مؤلف من الكتّاب الكرام ما امتاز به من المواهب الطبيعية و نمط التأليف و ما شابه ذلك و فى شرح هذا التعليم دقة، و قد اختلف العلماء فيما أوردوه من شرحه، غير أن جميع

المسیحیین یتفقون علی أن اللّه قد أوحی لأولئک الکتّاب لیدونوا إرادته و یفیدوا الإنسان ما یجب علیه من الإیمان و العمل لکی ینال الخلاص الأبدی» أ ه.

و جاء فی تفسیر «نبی. أنبیاء. نبوة» منه ما نصه:

«النبوة لفظة تفید الإخبار عن الله، و عن الأمور الدینیة، و لا سیّما عمّا سیحدث فیما بعد، و سمی هارون نبیا لأنه کان المخبر و المتکلم عن موسی نظرا لفصاحته (خروج ۷: ۱) أما أنبیاء العهد القدیم فکانوا ینادون بالشریعة الموسویة، و ینبئون بمجیء المسیح، و لما قلت رغبة الکهنة و قل اهتمامهم بالتعلیم و العلم فی أیام صموئیل أقام مدرسة فی الرامة و أطلق علی تلامذتها اسم بنی الأنبیاء فاشتهر من ثم صموئیل بإحیاء الشریعة و قرن اسمه باسم موسی و هارون فی مواضع کثیرة من الکتاب، و تأسست أیضا مدارس أخری للأنبیاء فی بیت إیل و أریحا و الجلجال و أماکن أخری، و کان رئیس المدرسة النبویة یدعی أبا أو سیدا، و کان یعلم فی هذه المدارس تفسیر التوراة و الموسیقی و الشعر، و لذلک کان الأنبیاء شعراء و أغلبهم کانوا یرنمون و یلعبون علی آلات الطرب، و کانت الغایة من هذه المدارس أن یرشح الطلبة فیها لتعلیم الشعب. أما معیشة الأنبیاء و بنی الأنبیاء فکانت ساذجة للغایة، و کثیر منهم کانوا متنسکین أو طوافین یضافون عند الأتقیاء.

الوحی المحمدی، ص: ۴۰

و یظهر أن کثیرین من الذین تعلّموا فی تلک المدارس لم یعطوا قوة علی الأنباء بما سیأتی. إنما اختص بهذه الخصوصیة أناس منهم کان اللّه یقیمهم وقتا دون آخر حسب مشیئته، و یعدهم بتربیة فوق العادة لواجباتهم الخطیرة علی أن بعض الأنبیاء الملهمین کان یختصهم اللّه بوحیه و لم یتعلموا من قبل و لا دخلوا تلک المدارس، کعاموس مثلا فإنه کان راعیا و جانی جمیز «۱».

«أما النبوة فکانت علی أنواع مختلفة کالأحلام و الرؤی و التبلیغ، و أحیانا کثیرة کان الأنبیاء یرون الأمور المستقبلة بدون تمییز أزمنتها فکانت تقترن فی رؤاهم الحوادث الرقیبة العهد مع البعیدة. کاقتران نجاة الیهود من الأشوریین بخلاص العالم بواسطة المسیح، و کانتصار اسکندر ذی القرنین بإتیان المسیح، و کاقتران انسکاب الروح القدس یوم الخمیسین بیوم الحشر، و من هذا القبیل اقتران خراب أورشلیم بحوادث یوم الدینونة. و قد أرسل اللّه الأنبیاء الملهمین لیعلنوا مشیئته و لیصلحوا الشئون الدینیة، و علی الأخص لیخبروا بالمسیح الآتی لتخلیص العالم، و کانوا القوة العظیمة الفعالة فی تعلیم الشعب و تنبیههم و إرشادهم إلی سبیل الحق، و کان لهم دخل عظیم فی الأمور السیاسیة» أ ه بنصه.

بعض ما یرد علی نبوتهم من تعریفها

أما تفسیر الإلهام بحلول روح اللّه فی روح الملهم فهو تحکم للنصاری لا یعرفه و لا یعترف به أنبیاء بنی إسرائیل و لا علماؤهم، و لا یمکنهم إثباته و لا دفع ما یرد علیه من وقوع التعارض و التناقض و الخلق فیما کتبه أولئک الملهمون، و ما خالفوا فیه الواقع، و قد أشار إلی ذلک بقوله: «إن فی شرح ذلک التعلیم دقة، و أن العلماء اختلفوا فی شرحه» إلخ، و من حلّ فیه روح اللّه صار إلها، إذ المسیح لم یکن إلها عند النصاری إلا بهذا الحلول، فکیف یقع فی مثل ما ذکر و یتخلف وحیه أو یخالف الواقع؟

و أما کلامهم فی النبوة و الأنبیاء فیؤخذ منه ما یأتی:

۱- إن أکثر أنبیاء بنی إسرائیل کانوا یتخرجون فی مدارس خاصة بهم یتعلمون فیها تفسیر شریعتهم التوراة، و الموسیقی و الشعر، و أنهم کانوا شعراء و مغنیین و عازفین علی آلات الطرب، و بارعین فی کل ما یؤثر فی الأنفس و یحرک الشعور و الوجدان، و یثیر رواکد الخیال، فلا غرو أن یکون عزرا و نحمیا من أعظم أنبیائهم ساقیین من سقاة الخمر لملک بابل (اؤرتحششتا) و مغنیین له، و أن یکونا قد استعانا بتأثیر غنائمهما فی نفسه علی سماحه لهما بالعودة بقومهما إلی وطنهما و إقامة دینهما فیه.

(۱) أی کانت له حرفتان هما راعی المواشی و قطف ثمر الجمیز لأصحابه.

الوحی المحمدی، ص: ۴۱

فالنبوة علی هذا کانت صناعة تعلم موادها فی المدارس، و یستعان علی الإقناع بها بالتخیلات الشعریة، و الإلهامات الکلامیة، و المؤثرات الغنائیة و الموسیقیة و المعلومات المکتسبة، فأین هی من نبوة محمد الأمی الذی لم یتعلم شیئا، و لم یقل شعرا، و قد جاء مفردا بأعظم مما جاءوا به کلّهم أجمعون مجتمعا؟

۲- إن کثیرا من هؤلاء الأنبیاء و أولادهم کانوا متنسّکین أو طوّافین علی الناس یعیشون ضیوفا عند الأتقیاء المحبّین لرجال الدین. کما هو المعهود من دراویش المتصوفة أهل الطرق فی المسلمین، و من المعلوم أن هؤلاء المحبین یقبلون من رجال التنسک کل ما یقولون، و یسلمون لهم کل ما یدعون، و یذیعون عنهم کل ما یقبلون منهم، و من غیر هؤلاء الکثیرین من الأنبیاء من نقلت عنهم کتبهم المقدسة بعض کبائر المعاصی، و إن من أخبار الصوفیة و النسّاک و السیّاح عند المسلمین من تفضل سیرتهم سیرة هؤلاء الأنبیاء فی کتبهم، فکیف یصح أن یرتفع أحد منهم إلی درجة محمد صلّی اللّه علیه و سلم فی نشأته الفطریة و معیشته من کسبه، و کونه لم یکن عالة علی الناس فی شیء قبل النبوة و لا بعدها؟

۳- أشهر أنواع نبوتهم الأحلام و الرؤی المنامیة و التخیلات المبهمة، و کلها تقع لغیرهم، و قد کانت الرؤیا الصادقة مبدأ نبوة محمّد صلّی اللّه علیه و سلم قبل وحی التشریع الذی کان له صور أعلی منها سنبینها بعد «۱»؛ و الرؤی صور حسیة فی الخیال تذهب الآراء و الأفکار فی تعبیرها مذاهب شتی، قلما یعرف تأویل الصادق منها غیر الأنبیاء کرؤیا ملک مصر التی عبرها یوسف علیه السلام، و رؤیاه و هو فی صغره.

۴- إن نبوة الإخبار عن الأمور المستقبلة- و هی التی یستدلون بها علی کونهم مخبرین عن اللّه تعالی- کانت أحیانا کثیرة بدون تمییز أزمنتها و لا حوادثها، فکان بعضها یختلط ببعض، فلا یکاد یظهر المراد منها إلا بعد حملها علی شیء واضح بعد وقوعه، کما یعهد فی کل عصر من أخبار العرافین و المنجمین. بله الروحانیین المکاشفین، و منها ما ظهر خلافه کما أشار إلیه و لم یشرحه، و لکن التاریخ شرحه.

و کان أعظم نبوات هؤلاء الأنبیاء إخبارهم عن المسیح (مسیا) و ملک إسرائیل و لا یزال الیهود ینتظرونها «۲»، ثم إخبار المسیح نفسه عن خراب العالم و مجیء الملکوت لأجل دینونة العالم، و أنه لا ینقضی الجبل الذی خاطبه حتی یکون ذلک کله، و قد مرت أجیال کثیرة و لم یکن من ذلک شیء.

(۱) قد بینتها فی الفصل الأول الذی زدته فی هذه الطبعة الثانیة أیضا.

(۲) أی ینتظرون صدق هذه النبوة.

الوحی المحمدی، ص: ۴۲

امتیاز نبوة محمّد علی نبوة من قبله فی موضوعیها و الموازنة بینه و بین موسی و عیسی (ع. م)

أنی تضاهی تلک الأخبار (النبوات)- و هی کما علمت- أنباء القرآن الکثیرة بالمغیّبات کالذی بیناه فی خلاصة تفسیر سورة براءة (التوبة) مما وقع من المنافقین، و ما هو فی سورة الفتح، و قد وقع فی عهد النبی صلّی اللّه علیه و سلم. و فی غیرهما کقوله تعالی فی أول سورة الروم: الم (۱) غُلِبَتِ الرُّومُ (۲) فِی أَدْنَی الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَیَغْلِبُونَ (۳) فِی بِضْعِ سِنِینَ [الروم: ۱- ۴]، و قوله: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَیَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِی الْأَرْضِ [النور: ۵۵]، و أین هی من إنباء النبی صلّی اللّه علیه و سلم أصحابه

بأنهم سیفتحون بعده بلاد الشام و بلاد فارس و مصر، و یستولون علی ملکی کسری و قیصر. حتی أنه سمی کسری عصره باسمه کما رواه البخاری عن عدی بن حاتم إلخ «۱»؟.

هذا ما یقال بالإجمال فی أحد موضوعی النبوة و هو الإخبار عما سیکون فی مستقبل الزمان، فما جاء به محمد صلّی اللّه علیه و سلم منها فی وحی القرآن و غیره أظهر و أوضح و أبعد عن احتمال التأویل، و أعصی علی إنکار المرتابین، و یزید علیه ما جاء به من أنباء الغیب الماضیة، و سأورد ما یتأول به الجاحدون للنبوة فی بیان بطلان شبهتهم.

و أما الموضوع الثانی للنبوة و هو الأهم الأعظم، أی عقائد الدین و عباداته و آدابه و أحکامه، فالنظر فیه من وجهین:

(أحدهما) ما ذکروه من کونه لا یمکن أن یصل إلیه عقل من جاء به و فکره و لا علومه و معارفه الکسبیة، فیتعین أن یکون بوحی من اللّه.

(و ثانیهما) أن یکون ما فیه من هدایة الناس و صلاح أمورهم فی دینهم و دنیاهم أعلی فی نفسه من معارف البشر فی عصره، فیتعین أن یکون وحیا.

فأما الأول؛ الخاص بشخص الرسول، فإنّ العاقل المستقلّ للفکر إذا عرف تاریخ محمد صلّی اللّه علیه و سلم و تاریخ أنبیاء بنی إسرائیل علیهم السلام فإنه یری أنّ محمدا صلّی اللّه علیه و سلم قد نشأ أمیا لم یتعلم القراءة و لا الکتابة، و أنّ قومه الذین نشأ فیهم کانوا أمیین وثنیین جاهلین بعقائد الملل

---

(۱) سأورد طائفة من هذه الأنباء بالغیب فی ملحقات هذا الکتاب أو الجزء الثانی منه.

و تواریخ الأمم و علوم التشریع و الفلسفة و الأدب، حتی إن مکة عاصمة بلادهم و قاعدة دینهم و مثوی کبرائهم و رؤسائهم، و مثابة الشعوب و القبائل للحج و التجارة فیها و المفاخرة بالفصاحة و البلاغة فی أسواقها التابعة لها لم یکن یوجد فیها مدرسة و لا کتاب مدون قط، فما جاء به من الدین التام الکامل، و الشرع العام العادل، لا یمکن أن یکون مکتسبا، و لا أن یکون مستنبطا بعقله و فکره کما بیناه من قبل، و سندفع ما یرد من الشبهة علیه بعد (فی الفصل الثالث).

و یری تجاه هذا أن موسی (ع. م) أعظم أولئک الأنبیاء فی علمه و عمله، و فی شریعته و هدایته قد نشأ فی أعظم بیوت الملک لأعظم شعب فی الأرض و أرقاه تشریعا و علما و حکمة و فنا و صناعة، و هو بیت فرعون مصر، و رأی قومه فی حکم هذا الملک القوی القاهر مستعبدین مستذلین، تذبّح أبناؤهم و تستحیی نساؤهم، تمهیدا لإبادتهم و محوهم من الأرض، ثم إنه مکث بضع سنین عند حمیة فی مدین و کان نبیا- أو کاهنا کما یقولون- فمن ثم یری منکرو الوحی أن ما جاء به موسی من الشریعة الخاصة بشعبه لیس بکثیر علی رجل کبیر العقل عظیم الهمة، ناشئ فی بیت الملک و التشریع و الحکمة إلخ.

ثم ظهر فی أوائل القرن المیلادی أنّ شریعة التوراة موافقة فی أکثر أحکامها لشریعة حمورابی العربی ملک الکلدان الذی کان قبل موسی معاصرا لإبراهیم صلّی اللّه علیه و سلم، و قد قال الذین عثروا علی هذه الشریعة من علماء الألمان فی حفائر العراق أنه قد تبین أن شریعة موسی مستمدة منها لا وحی من اللّه تعالی «۱»، و أقل ما یقوله مستقل الفکر فی ذلک: إنه إن لم تکن التوراة مستمدة منها فلا تعد أحق منها بأن تکون وحیا من اللّه تعالی، و لم ینقل أن حمورابی ادعی أن شریعته وحی من اللّه تعالی.

ثم یری الناظر أن سائر أنبیاء العهد القدیم کانوا تابعین للتوراة متعبدین بها، و أنهم کانوا یتدارسون تفسیرها فی مدارس خاصة بهم و بأبنائهم مع علوم أخری، فلا یصح أن یذکر أحد منهم مع محمّد ذکر موازنة و مفاضلة، و یری أیضا أن یوحنا المعمدان الذی شهد المسیح بتفضیله علیهم کلهم لم یأت بشرع و لا بنبإ غیبی- بل أن عیسی علیه السلام و هو أعظمهم قدرا، و أعلاهم ذکرا، و أجلاهم أثرا، لم یأت بشریعة جدیدة، بل کان تابعا لشریعة التوراة مع نسخ قلیل من أحکامها، و إصلاح روحی و أدبی لجمود الیهود المادی

علی ظواهر ألفاظها، فأمکن لجاحدی الوحی أن یقولوا إنه لا یکثر علی رجل مثله زکی الفطرة، ذکی

---

(۱) قد شرحنا هذه المسألة فی المجلد الثالث من المنار، و ذکرنا خلاصتها فی تفسیر الآیة ۳۰ من سورة براءة (التوبة) و هی التاسعة فتراجع فی المنار سنة ۱۳۲۱ هجریة، أو الصفحة ۳۴۸ من الجزء العاشر من التفسیر.

الوحی المحمدی، ص: ۴۴

العقل، ناشئ فی حجر الشریعة الیهودیة، و المدنیة الرومانیة و الحکمة الیونانیة، غلب علیه الزهد و الروحانیة أن یأتی بتلک الوصایا الأدبیة «۱».

و نحن المسلمین لا نقول هذا و لا ذاک، و إنما یقولها المادیون الملحدون و العقلیون، و ألوف منهم ینسبون إلی المذاهب النصرانیة.

و أما الوجه الثانی؛ و هو عقائد الدین و عباداته و آدابه و أحکامه، فلا یرتاب العقل المستقل الفکر غیر المقلد لدین من الأدیان أنّ عقائد الإسلام من توحید اللّه و تنزیهه عن کل نقص، و وصفه بصفات الکمال، و الاستدلال علیها بالدلائل العقلیة و العلمیة الکونیة، و من بیان هدایة رسله، و من عباداته و آدابه المزکیة للنفس المرقیة للعقل، و من شریعة العدل، و حکمه الشوری المرقی للاجتماع البشری. کل ذلک أرقی مما فی التوراة و الأناجیل و سائر کتب العهد القدیم و الجدید، بل هو الإصلاح الذی بلغ به دین اللّه أعلی الکمال، و یشهد بهذا علماء الإفرنج، و قد شرحناه من وجهة نظرنا و وجهة نظرهم فی مواضع من المنار و التفسیر «۲»، و سیأتی بیانه.

و من نظر فی قصص آدم و نوح و إبراهیم و لوط و إسحاق و یعقوب و یوسف من سفر التکوین، و سیرة موسی و داود و سلیمان و غیرهم من الأنبیاء فی سائر أسفار العهد القدیم، ثم قرأ هذه القصص فی القرآن یری الفرق العظیم فی الاهتداء بسیرة هؤلاء الأنبیاء العظام.

ففی أسفار العهد القدیم یری وصف اللّه تعالی بما لا یلیق به من الجهل و الندم علی خلق البشر و الانتقام منهم، و وصف الأنبیاء أیضا بما لا یلیق بهم من المعاصی مما هو قدوة سوأی، من حیث یجد فی قصص القرآن من حکمة اللّه تعالی و رحمته و عدله و فضله و سننه فی خلقه، و من وصف أنبیائه و رسله بالکمال، و أحاسن الأعمال، ما هو قدوة صالحة و أسوة حسنة ترید قارئها إیمانا و هدی، فأخبار الأنبیاء فی کتب العهدین تشبه بستانا فیه کثیر من الشجر و العشب و الشوک، و الثمار و الأزهار و الحشرات، و أخبارهم فی القرآن تشبه العطر المستخرج من تلک الأزهار، و العسل المشتار من جنی الثمار، و یری فیه ریاضا أخری جمعت جمال الکون کلّه.

و ندع هنا ذکر ما کتبه علماء الإفرنج الأحرار فی نقد هذه الکتب و الطعن فیها، و من أخصرها و أغربها کتاب (أضرار تعلیم التوراة و الإنجیل) لأحد علماء الإنکلیز «۳»؛ و ما فیها من مخالفة العلم و العقل و التاریخ، و القرآن خال من مثل ذلک.

---

(۱) علی أن منهم من یعزو جلها إلی کونفوشیوس المشرع الصینی و إلی غیره من الحکماء الذین کانوا قبل المسیح علیه السلام.

(۲) آخرها (ص ۳۵۹ ج ۱۰ تفسیر المنار) و سنفرد له ملحقا من علاوات هذه الطبعة.

(۳) هو تشارلس واطس و طبع فی مطبعة (واطس و شرکائه فی لندن) و ترجم إلی العربیة بمطبعة الموسوعات فی مصر سنة ۱۳۱۹ ه- ۱۹۰۱ م.

الوحی المحمدی، ص: ۴۵

صد الکنیسة عن الإسلام

إن رجال الکنیسة لم یجدوا ما یصدون به أتباعها عن الإسلام بعد أن رأوه قد قضی علی الوثنیة و المجوسیة، و کاد یقضی علی النصرانیة فی الشرق، ثم امتد نوره إلی الغرب.

إلا تأليف الكتب و نظم الأشعار و الأغانى فى ذم الإسلام و نبيه و كتابه بالإفك و البهتان، و فحش الكلام، الذى يدل على أن هؤلاء المتديّنين أكذب البشر، و أشدّهم عداوة للحقّ و الفضيلة فى سبيل رياستهم التى يتبرأ منها المسيح عليه صلوات اللّه و سلامه.

و قد كان أتباعهم يصدقون ما يقولون و يكتبون، و يتهيجون بما ينظمون و ينشدون، حتى إذا ما اطلع بعضهم على كتب الإسلام، و رأوا المسلمين و عاشروهم ففضحوهم أقبح الفضائح كما ترى فى كتاب (الإسلام خواطر و سوانح) للكونت دى كاسترى، و كما ترى فى الكتاب الفرنسى الذى ظهر فى هذا العهد باسم (حياة محمد) للمسيو درمنغام و هذان الكاتبان الفرنسيان من طائفة الكاثوليك اللاتين، و قد صرحا كغيرهما بأن كنيستهما هى البادئة بالظلم و العدوان، و الإفك و البهتان، و اعترفا بأدب المسلمين فى الدفاع «۱».

---

(۱) قال مسيو درمنغام فى كتابه «حياة محمد» ما ترجمته العربية بقلم الدكتور محمد حسين بك هيكل: «لما نشبت الحرب بين الإسلام و المسيحية اتسعت هوة الخلاف و سوء الفهم بطبيعة الحال و ازدادت حدة، و يجب أن يعترف الإنسان بأن الغربيين كانوا السابقين إلى أكبر الخلاف. فمن المجادلين البيزنطيين الذين أوقروا الإسلام احتقارا من غير أن يكلفوا أنفسهم- فيما خلا جان داماسين- مؤنة دراسته، و لم يحارب الكتاب و النظامون (يعنى الشعراء) مسلمى الأندلس إلّا بأسخف المثالب، فقد زعموا محمدا لص نياق (أى إبل) و زعموه متهالكا على اللهو، و زعموه ساحرا، و زعموه رئيس عصابة من قطاع الطرق، بل زعموه قسا رومانيا مغيظا إن لم ينتخب لكرسى البابوية ... و حسبه بعضهم إلها زائفا «يقرب له عباده الضحايا البشرية» و أن جبير دنوجن نفسه و هو رجل جد ليذكر أن محمدا مات فى نوبة سكر بين (كذا) و أن جسده وجد ملقى على كوم من الروث و قد أكلت منه الخنازير، و ذلك ليفسر السبب الذى من أجله حرم الخمر و حرم لحم ذلك الحيوان ... و ذهبت الأغنيات إلى حد أن جعلت محمدا صنما من ذهب، و جعلت المساجد الإسلامية برابى (معابد أصنام) ملأى بالتماثيل و الصور. و قد تحدث واضع أغنية أنطاكية حديث من رأى صنم (ماهوم) مصنوعا من ذهب و من فضة خالصين و قد جلس فوق فيل على مقعد من الفسيفساء، و أما أغنية رولان التى تصور فرسان شارلمان يحطمون الأوثان الإسلامية فتزعم أن مسلمى الأندلس يعبدون ثالوثا مكونا من ترفاجان و ماهوم (و يعنون به محمدا عليه السلام) و أبولون. و تحسب

الوحى المحمدى، ص: ۴۶

لما ظهرت طائفة البروتستان و غلب مذهبها فى شعوب الأنجلو سكسون و الجرمان، و كان الفضل فى دعوتهم الإصلاحية لما انعكس على أوروبا من نور الإسلام، لم يتعفف قسوسهم و دعاتهم (المبشرون) عن افتراء الكذب، و لا تجمّلوا فيه بشىء من النزاهة و الأدب.

و الذى نراه فى هذا العصر من مطاعنهم و افترائهم و سوء أدبهم أشد مما نراه من غيرهم، و لكن الذين أنصفوا الإسلام من أحرار علمائهم أصرح قولا، و لعلهم أكثر من اللاتين عددا، و كذلك الذين اهتدوا به، و سبب ذلك أن الحرية و الاستقلال فى تربيتهم أقوى، و سيكونون هم الذين ينشرون الإسلام فى أوروبا و الولايات المتحدة الأمريكية ثم فى سائر العالم كما جزم العلامة برناردشو الإنكليزى فى كتاب الحياة الزوجية (و اشتهر عنه هذا و نقلته صحف الأقطار الإسلامية).

«قصة محمد» أن الإسلام يبيح للمرأة تعدد الأزواج، و قد ظلت حياة الأحقاد و الخرافات قوية متشبثة بالحياة، فمنذ رودلف دلوهيم إلى وقتنا الحاضر قام نيكولا دكيز، و وفيفس، و مراتشى، و هو تنجر، و ببلياتلار، و يريد و غيرهم فوصفوا محمدا بأنه دجال و الإسلام بأنه مجموعة من الهرطقات (الكفر) كلها، و أنه من عمل الشيطان، و المسلمين بأنهم وحوش، و القرآن بأنه نسيج من السخافات أ. ه. المراد منه على كثرته، و إبهام فى ترجمته، و هو قليل من إسرافهم و تراجع ترجمة كتاب (الإسلام خواطر و سوانح) العربية لأحمد فتحى زغلول.

الوحى المحمدى، ص: ۴۷

الآیات و العجائب (أی الخوارق) و إثبات النبوة عندنا و عندهم «۱»

بقی الکلام فی مسألة العجائب التی بنیت علی أساسها الکنائس النصرانیة علی اختلاف مذاهبها، و فیما یدّعونه من تجرد محمّد صلّی اللّه علیه و سلم من لباسها. و هی قد أصبحت فی هذا العصر حجّة علی دینهم لا له، و صادة للعلماء العقلاء عنه لا مقنعة به. و لو لا حکایة القرآن لآیات اللّه التی أیّد بها موسی و عیسی علیهما السلام لکان إقبال أحرار الإفرنج علیه أکثر، و اهتداؤهم به أعم و أسرع؛ لأن أساسه قد بنی علی العقل و العلم و موافقة الفطرة البشریة.

و تزکیة أنفس الأفراد، و ترقیة مصالح الاجتماع، و أما آیته التی احتج بها علی کونه من عند اللّه تعالی فهی القرآن، و أمیة محمّد صلّی اللّه علیه و سلم، فإنما هی آیة علمیة تدرک بالعقل و الحس و الوجدان:

کفاک بالعلم فی الأمی معجزةفی الجاهلیة و التأدیب فی الیتم و أما تلک العجائب الکونیة فهی مثار شبهات و تأویلات کثیرة فی روایتها و فی صحتها، و فی دلالتها، و أمثال هذه الأمور تقع من أناس کثیرین فی کل زمان، و المنقول منها عن صوفیة الهنود و المسلمین أکثر من المنقول عن العهدین العتیق و الجدید، و عن مناقب القدیسین، و هی من منفّرات العلماء عن الدین فی هذا العصر، و سنبین ما جاء به الإسلام فیها من القول الفصل.

---

(۱) سیأتی تفصیل آخر فی تحقیق مسألة الخوارق و أنواعها، و الفرق بین آیات الأنبیاء و الرسل و غیرها کالکرامات و الخصائص الروحیة.

العجائب و ما للمسیح منها

جاء فی تعریف العجائب و أنواعها من قاموس الکتاب المقدس ما نصه:

«و عجیبة: حادثة تحدث بقوة إلهیة خارقة مجری العادة الطبیعیة لإثبات إرسالیة من جرب علی یده أو فیه. و العجیبة الحقیقیة هی فوق الطبیعة لا ضدّها، تحدث بتوقیف نوامیس الطبیعة لا بمعاکستها، و هی إظهار نظام أعلی من الطبیعة یخضع له النظام الطبیعی، و لنا فی فعل الإرادة مثال یظهر لنا حقیقة أمر العجائب إذ بها ترفع الید، و بذلک نوقف ناموس الثقل «۱»، و یتسلط اللّه علی قوی الطبیعة و یرشدها و یمد مدارها و یحصره لأنها عوامل لمشیئته، و یناط فعل العجائب باللّه وحده أو بمن سمح له بذلک.

و إذا آمنا بالإله القادر علی کلّ شیء لم یعسر علینا التسلیم بإمکان العجائب، و کانت العجیبة الأولی خلیقة الکون من العدم بإرادته تعالی، أما المسیح فأقنومة عجیبة أدبیة عظیمة، و عجائبه لم تکن إلا إظهار هذا الأقنوم و أعماله، و إذا آمنا بالمسیح ابن اللّه العدیم الخطیة لم یعسر علینا تصدیق عجائبه. أما الشیطان فعجائبه کذابة».

«و لا بد من العجائب لتعزیز الدیانة؛ فکثیرا ما یستشهد المسیح بعجائبه لإثبات لاهوته و کونه المسیح، و کان یفعلها لتمجید اللّه و لمنفعة نفوس الناس و أبدانهم، و کان یفعلها ظاهرا أما جماهیر أصحابه و أعدائه و لم ینکرها أعداؤه غیر أنهم نسبوها لیعلزبول «۲»، و سواء امتحناها بالشهادة من الخارج و بمناسبتها إلی إرسالیته الإلهیة التی ظهرت لکل من کان خالیا من الغرض صحیحة. فإذا لم نسلم بصحتها التزمنا أن نقول إن مقرریها کذابون، الأمر الذی لا یسوغ ظنه بالمسیح و الرسل «۳».

---

(۱) أی سنة جاذبیة الثقل التی تقتضی سقوط الأجسام إلی مرکز الأرض ..

(۲) أی أن الشیطان و الأناجیل تثبت العجائب للشیطان کما صرح به آنفا، بل یبالغون فی عجائبه و تصرفه فی العالم، و من أسمائه

عندهم: إله هذا الدهر، قال فی قاموس الکتاب المقدس: (قلنا فی شخصیته نفس البراهین التی لنا فی شخصیة الروح القدس و الملائکة) «راجع ص ۶۵۰ ج ۱» و تعجب من أهل هذا الدین.

(۳) هذا استدلال غیر منطقی و لا تقوم به الحجة علی المنکر، و لا یحتاج إلیه المعترف المقلد و حاصله: إما أن نسلم بصحة هذه العجائب، و أما أن نقول إن رواتها کاذبون، لکن کذب رواتها لا یسوغ أن یظن بالمسیح و الرسل فثبت أنها صحیحة، و المنکر یسوغ کذب الناقلین لها، و له أن یسلم الشرطیة المنفصلة و یمنع الاستثناء و یعده مصادرة، إذ جعل کلا من ثبوت کونه مسیحا من الله و کونهم رسلا متوقفا علی صدقها، و صدقها متوقفا علی ثبوت ذلک و هذا دور محال.

الوحی المحمدی، ص: ۴۹

«و بقیت قوة العجائب فی عصر الرسل، و لما امتدت الدیانة المسیحیة زال الاضطرار إلیها «۱»، و لا یلزمنا الآن سوی العجائب الأدبیة الحاصلة من هذه الدیانة مع الشواهد الداخلیة علی صحتها، غیر أنه یمکن للّه تعالی أن یحددها فی أی وقت شاء» ا. ه.

ثم وضع المؤلف جدولا أحصی فیه عجائب العهد القدیم من خراب سدوم و عموریة علی قوم لوط إلی خلاص یونان (یونس) بواسطة حوت، فبلغت ۶۷ عجیبة، و قفی علیه بجدول العجائب المقرونة بحیاة المسیح، من الحبل به «بفعل الروح القدس» إلی (الصعود إلی السماء) فبلغت ۳۷، و عزز الجدولین بثالث فی (العجائب التی جرت فی عصر الرسل)، أی الذین بثوا دعوة المسیح من تلامیذه و غیرهم من (انسکاب الروح القدس یوم الخمیسین) إلی (شفاء أبی بوبلیوس «۲» و غیره) فکانت عشرین، و قد صرح بأن یوحنا المعمدان لم یرد فی الکتاب أنه صنع عجائب.

بحث فی عجائب المسیح علیه السلام:

أقول: إن ۲۷ من عجائب المسیح المذکورة: شفاء مرضی، و مجانین لا بستهم الشیاطین، و ثلاث منها إقامة موتی عقب موتهم، و ما بقی فمسألة الحبل له، و تحویله الماء إلی خمر و سحب الشبکة فی بحر الجلیل، و إشباع خمسة آلاف مرة، و أربعة آلاف مرة أخری، و ضرب التینة العقیمة بما أیبسها، و قیامة المسیح، و صید السمک و الصعود. و إننا نلخص روایة الأناجیل لأهمها و هو إحیاء الموتی، و نذکر ما یقوله فیها منکرو العجائب.

المیت الأول: شاب من مدینة نابین کان محمولا فی جنازة و أمه تبکی، فاستوقف النعش و قال له: أیها الشاب لک أقول قم. فجلس و ابتدأ یتکلم فدفعه إلی أمه، فأخذ الجمیع خوف و مجّدوا اللّه قائلین: قد قام فینا نبی عظیم و افتقد اللّه شعبه (لوقا ۷: ۱۱- ۱۶).

الثانی: صبیة ماتت فقال له أبوها و کان رئیسا: ابنتی الآن ماتت، لکن تعال فضع یدک علیها فتحیا. فجاء بیت الرئیس و وجد المزمرین یضجون، فقال لهم: «تنحوا فإن الصبیة لم تمت، لکنها نائمة، فضحکوا علیه، فلما أخرج الجمع دخل و أمسک بیدها فقامت الصبیة» متی (۹: ۱۸- ۲۴).

---

(۱) هذا مذهب البروتستانت، و یلزمهم أن عجائب الشیطان بقیت بدون معارض، و أما الکاثولیک فیدعون وجودها فی کل عصر.

(۲) هو رئیس جزیرة کان مریضا فرقاه بولص و صلی له فشفی (أعمال ۲۸).

الوحی المحمدی، ص: ۵۰

فمنکرو العجائب یقولون: إن کلا من الشاب و الشابة لم یکونا قد ماتا بالفعل، و إن کثیرا من الناس فی کل زمان قد قاموا من نعوشهم، بل من قبورهم بعد أن ظنّ النّاس أنهم ماتوا. و لذلک تمنع الحکومات المدنیة دفن المیت إلا بعد أن یکتب أحد الأطباء شهادة بثبوت موته ثبوتا عملیّا فنیّا- و للمؤمنین بالآیات أن یجزموا أیضا بأن الصبیّة لم تکن میتة أخذا بظاهر قوله علیه السلام: «لم تمت و لکنها نائمة»، یعنی أنها أغمی علیها فظنّوا أنها ماتت و هی لم تمت.

و أما الثالث: فهو ليعازر حبيبه و أخو مرثا و مريم حبيبته: مرض فی قريتهم (بيت عنيا) فأرسلتا إلى المسيح قائلين: هو ذا الذی تحبه مريض، فمكث يومين و حضر فوجد أنه مات منذ أربعة أيام، فلاقته مرثا و قالت: يا سيد لو كنت هنا لم يمت أخی، ثم دعت أختها مريم، فلما رأته خرت عند رجليه قائلة كما قالت مرثا، و كانوا قد ذهبوا إلى القبر للبكاء، فلما رآها تبكی و اليهود الذين جاءوا معها يبكون (انزعج بالروح و اضطرب) و قال: أين وضعتموه؟ فدلوه عليه، فبكی و انزعج فی نفسه و جاء إلى القبر، و كان مغارة و قد وضع عليه حجر، فأمر برفع الحجر فرفعوه (و رفع يسوع عينيه إلى فوق و قال: أيها الأب أشكرك لأنك سمعت لی، و أنا علمت أنك فی كل حين تسمع لی، و لكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك أرسلتنی) و لما قال هذا صرخ بصوت عظيم: «ليعازر، هلم خارجا» فخرج الميت و يداه و رجلاه مربوطتان بأقمطة، و وجهه ملفوف بمنديل، فقال لهم يسوع حلّوه و دعوه يذهب» ا. ه.

ملخصا من الفصل ۱۱ من إنجيل يوحنا.

أ تدری أيها القارئ ما يقول منكرو العجائب و الآيات فی هذه القصة على تقدير صحة الرواية؟ إننی سمعت طبيبا سوريّا بروتستنتيا يقول: إنها كانت بتواطؤ بينه و بين حبيبته و حبيبه لإقناع اليهود بنبوته- و حاشاه عليه السلام.

و إنما ننقل هذا لنتبين أن النصارى لا يستطيعون إقامة البرهان فی هذا العصر على نبوة المسيح فضلا عن ألوهيته بهذه الروايات التی تدل على النبوة و تنفی الألوهية كما فهم الذين شاهدوها. لأنه ليس لها أسانيد متصلة إلى كاتبيها، و لا دليل على عصمتهم من الخطأ فی روايتها، دع قول المنكرين باحتمال الاحتيال و التلبيس أو المصادفة فيها، أو عدهم إياها على تقدير ثبوتها من فلتات الطبيعة «۱».

---

(۱) و قد نقل مثلها عن بعض صوفية المسلمين و الهندوس فإن كذبوا المقولة القديمة فمنها ما رواه من شاهده من أهل عصرنا.

الوحی المحمدی، ص: ۵۱

و إذا كان أعظمها هو إحياء الميّت يحتمل ما ذكروا من التأويل، فما القول فی شفاء المرضى و إخراج الشياطين الذی يكثر وقوع مثله فی كل زمان، و الأطباء كلهم يقولون إن ما يدعيه العوام من دخول الشياطين فی أجساد الناس ما هو إلا- أمراض عصبية تشفی بالمعالجة أو بالوهم و الاعتقاد، و دونها مسألة الخمر و السمك و يبس التينة «۱».

---

(۱) خلاصة عجينة التينة أنه جاع و هو خارج من بيت عنيا إلى أورشليم مع تلاميذه فرأى شجرة تين مورقة فجاءها لعله يجد فيها شيئا يأكله فلم يجد فيها شيئا «لأنه لم يكن وقت التين فلعنها قائلا لها: «لا يأكل أحد منك ثمرا بعد إلى الأبد»، و لما رجعوا من أورشليم رأوا التينة قد يبست فقال له بطرس: يا سيدی انظر التينة التی لعنتها قد يبست إلخ (مرقس: ۱۱: ۱۱- ۱۴) فأجابهم بما خلاصته: إن هذه آية الإيمان و أن كل مؤمن يقول لأی شیء «كن» و هو يؤمن أنه يكون فإنه يكون و لو كان أمرا للجبل أن يزول من مكانه».

و فی هذه العجيبة نظر من ثلاث جهات: (الأولى): أن منكر الآيات يقول إنه يجوز أن تكون التينة يبست بسبب مادی فی أثناء وجود المسيح و تلاميذه فی أورشليم.

(الثانية): أن الروحيين من فلاسفة الهندوس و غيرهم يقولون إن كل من كان روحانيا قوی الإرادة يكون له مثل هذا التأثير فهو من خواص النفس، و هذا بمعنى قول المسيح لهم فی تأثير الإيمان، و هو ينافی أن يكون بتأييد من الله خارق للعادات الكسبية الدالة على أن من جرت على يده على الحق.

(الثالثة): أن الناس ينقلون مثل هذا فی كل زمان، و من ذلك ما نقلته جريدة المقطم فی عددها الذی صدر بتاريخ ۴ رمضان من عامنا هذا (۱۳۵۲) الموافق ۲۱ من ديسمبر ۱۹۳۳ مترجما عن كتاب لطبيب اسمه الكسندر كان فی بلدية لندن له منصب معروف فی مستشفى الأمراض النفسية أنه ألف كتابا فی الشهر الماضی اسمه (العالم غير المنظور) تكلم فيه عن التنويم المغناطيسی و السحر الأسود و غيرهما من (علوم الغيب)، ذكر فيه رحلته إلى الهند و التبت و ما رأى فيها من المناظر المدهشة (و منها شجرة تين تذبل بأمر

رجل، و جثة فقدت الحياة مدة سبع سنوات تعاد إليها الحياة).

ثم نقل عن هذا الكتاب فی تفصيل عجيبتی إماتة التينة و إحياء الإنسان نبأ قاض إنكليزی اسمه مكردی أنذره أنه سيقتل قبل مرور سبع سنين برصاص بندقية تطلق عليه بأمره و كان الأمر كذلك، و أن المؤلف سمع هذا الخبر من «اللاما» أی كاهن التبت الأكبر ثم قال المقطم ما نصه بعد العنوان:

إماتة الصوفی الهندی للتينة كالمسيح و يتكلم الطبيب فی كتابه عن صديقه (البروفسور ...) و يقول عنه إنه يزور سريره كل ليلة و عمره مائة سنة و لكن منظره منظر رجل ابن أربعين. و قد صحبه مرة إلی شجرة تين فخاطبها صاحبها بعد قائلا: لقد أحسنت و قاومت عواصف الحياة و سليت نفسی و شفيتها. و قد آن وقت رحيلك عن عالم الغرور و العدم هذا فموتی الآن و لا تعودی إلی الحياة مرة أخری. قال الطبيب فذبلت التينة حالا و سمح لی بفحصها أنا و غيری لنتأكد موتها.

و قص حكاية الرجل الذی أعيدت إليه حياته إليه فقال:

إحياء اللاما كاهن التبت للميت

«كان اللاما الكبير علی عرشه فدخل عليه جوق من الرهبان يحملون المشاعل فجلسوا فی حلقه واسعة

الوحی المحمدی، ص: ۵۲

....

و هم يتمتمون أغنية. فصلی اللاما و فی تلك الدقيقة دخل ثمانية يحملون تابوتا من حجر فأنزلوه و رفعوا غطاءه فرأينا شخصا منظره ميت فسمح لی بفحصه فلم أشعر بنبضه و لا بخفقان قلبه و كان باردا كالحجر و عيناه عينا رجل انقضی عليه يوم كامل و هو ميت و وضعت مرآة علی فمه و أنفه فلم يظهر عليها أثر تنفسه. ثم لفظ اللام كلمات فرأينا الميت يفتح عيناه، ثم جلس فی تابوته فساعده راهبان علی الوقوف و المشی فدنا من اللاما و انحنی و عاد إلی نعشه و هو لا يزحزح بصره عن (أعظم الحكماء) ثم لم تمض دقائق قليلة حتی عاد و لا حياة فيه. فلم أدر أ كان ميتا حقيقة أم فی غيبوبة؟ فقرأ اللاما أفكاری فقال لی إن الرجل كان ميتا مدة سبع سنوات أخری. و أن عمره مئات من السنين و قد يحيا إلی الأبد إذا صح أن نعد هذا حياة».

(يقول محمد رشيد): و فی هذا الكتاب عجائب أخری ذكر بعضها فی المقطم و ذكر أن المجلس البلدی مزله عن وظيفته عقابا له عليه. و أنا قد سمعت فی صغری حكاية مشهورة عند أهل بلدنا عن رجل معتقد اسمه الشيخ محمد العصافيری أنه نظر إلی شجرة تين و قال مسكينة مسكينة تموت، فلم تلبث أن عراها الذبول حتی يبست.

و جملة القول: أن حكايات العجائب كثيرة فی كل زمان و سيأتی تحقيق القول فيها.

الوحی المحمدی، ص: ۵۳

آية نبوة محمّد العقلية العلمية و سائر آياته الكونية

إن ما رواه المحدثون بالأسانيد المتصلة تارة، و المرسلة «۱» أخری من الآيات الكونية التی أكرم اللّه تعالی بها رسوله محمدا صلّی اللّه عليه و سلم و هی أكثر من كلّ ما رواه الإنجيليون و أبعد عن التأويل، و لم يجعلها برهانا علی صحة الدين، و لا أمر بتلقينها للناس.

ذلك بأن اللّه تعالی جعل نبوة محمد و رسالته قائمة علی قواعد العلم و العقل فی ثبوتها و فی موضوعها؛ لأن البشر قد بدءوا يدخلون بها فی سن الرشد و الاستقلال النوعی الذی لا يخضع عقل صاحبه فيه لا تباع من تصدر عنهم أمور عجيبة مخالفة للنظام المألوف فی سنن الكون، بل لا يكمل ارتقاؤهم و استعدادهم العقلی مع هذا الخضوع، بل هو من موانعه، فجعل حجة نبوة خاتم النبيين عين موضوع نبوته، و هو كتابه المعجز للبشر بهدايته و بعلومه، و بإعجازه اللفظی و المعنوی، و بأنباء الغيب الماضية و الحاضرة و الآتية فيه

«۲»؛ لیربی البشر علی الترقی فی هذا الاستقلال، إلی ما هم مستعدّون له من الکمال.

هذا الفصل بین النبوات الخاصة الماضیة، و النبوة العامة الباقیة، قد عبّر عنه النبیّ صلّی اللّه علیه و سلم بقوله: «ما من الأنبیاء من نبی إلا و قد أعطی من الآیات ما مثله آمن علیه البشر، و إنما کان الذی أوتیته وحیا أوحاه اللّه إلیّ، فأرجو أن أکون أکثرهم تابعا یوم القیامة». متفق علیه من حدیث أبی هریرة- رضی اللّه عنه.

و قصّ اللّه تعالی علینا فی کتابه: أن المشرکین اقترحوا الآیات الکونیة (العجائب) علی رسوله، فاحتج علیهم بالقرآن فی جملته، و بما فیه من أخبار الرسل و الکتب السابقة التی لم یکن یعلمها هو و لا- قومه، و بهدایته و بعلومه و بإعجازه، و عدم استطاعة أحد و لا جماعة و لا- العالم کله علی الإتیان بمثله: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلی أَنْ یَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا- یَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ کانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِیراً [سورة الإسراء: ۸۸]، و سیأتی تفصیله.

---

(۱) الروایة المرسلة للحدیث هی التی لم یذکر فیها اسم الصحابی الذی رفعه إلی النبی صلّی اللّه علیه و سلم.

(۲) قد بیّنا ذلک فی تفسیر آیة التحدیث من سورة البقرة من بضعة وجوه. و سنزیده بیانا فی هذا الکتاب.

و إنما موضوعنا هنا بیان الفرق بین نبوة نبینا صلّی اللّه علیه و سلم و نبوة من قبله.

الوحی المحمدی، ص: ۵۴

و أما ما أکرمه اللّه تعالی به من الآیات الکونیة فلم یکن لإقامة الحجة علی نبوته و رسالته، بل کان من رحمة اللّه تعالی و عنایته به و بأصحابه فی الشدائد، کنصرهم علی المعتدین من الکفار الذین یفوقونهم عددا و عتادا و استعدادا بالسلاح و الطعام، و ناهیک بغزوة بدر و النصر فیها، ثم بغزوة الأحزاب إذ تألب المشرکون و الیهود علی المسلمین و أحاطوا بمدینتهم فردهم اللّه بغیظهم لم ینالوا خیرا و کفی اللّه المؤمنین شر القتال.

من تلک الآیات: شفاء المرضی، و إبصار الأعمی، و إشباع العدد الکثیر من الطعام القلیل فی غزوة الأحزاب و فی غزوة تبوک، کما وقع للمسیح علیه السلام.

و منها: تسخیر اللّه السحاب لإسقاء المسلمین؛ و تثبیت أقدامهم التی کانت تسیح فی الرمل ببدر، و لم یصب المشرکین من غیثها شیء. و مثل ذلک فی غزوة تبوک إذ نفذ ماء الجیش فی الصحراء و الحر شدید حتی کانوا یذبحون البعیر و یخرجون الفرق من کرشه لیعتصروه و یبلّوا به ألسنتهم علی قلة الرواحل معهم، و کان یقل من یجد من عصارته ما یشربه شربا، فقال أبو بکر: یا رسول اللّه إنّ اللّه عودک فی الدعاء خیرا فادع لنا، فرفع یدیه فدعا، فلم یرجعهما حتی کانت السّماء قد سکبت لهم ما ملئوا ما معهم من الروایا، و لم تتجاوز عسکرهم «۱».

تأثیر العجائب فی الأفراد و الأمم:

لقد کانت آیات المرسلین حجة علی الجاحدین المعاندین، استحقّوا بجحودها عذاب اللّه فی الدنیا و الآخرة، و لم یؤمن بها ممن شاهدوها إلا المستعدون للإیمان بها.

إن فرعون و قومه لم یؤمنوا لآیات موسی، و إن أکثر بنی إسرائیل لم یعقلوها «۲»، و قد اتخذوا العجل و عبدوه بعد رؤیتها و رؤیة غیرها فی بریة سیناء. و قال الیهود فی المسیح:

لو لا- أنه رئیس الشیاطین لما أخرج الشیطان من الإنسان. و قالوا إن إبلیس أو بعلزبول «۳» یفعل أکثر من فعله، و ما کان أکثرهم مؤمنین. و قال المنافقون و قد رأوا بأعینهم سحابة واحدة فی إبان القیظ قد مطرت عسکر المؤمنین وحده عند دعاء النبی صلّی اللّه علیه و سلم: إننا مطرنا بتأثیر النوء لا بدعائه.

(۱) رواه ابن جریر، و ابن خزیمة، و ابن حبان، و الحاکم و صححه، و ابن مردویه، و أبو نعیم، و البیهقی فی کتابیهما «دلائل النبوة» و الضیاء فی الأحادیث المختارة و الروایا جمع روایة و هو البعیر الذی یحمل علیه الماء، و کذا غیره من الدواب.

(۲) قال تعالی: فَما آمَنَ لِمُوسی إِلَّا ذُرِّیَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلی خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ أَنْ یَفْتِنَهُمْ [یونس: ۸۳]. الذریة: صغار النسل، و المتبادر أن تنکیرها هاهنا للتقلیل.

(۳) بعلزبول: من أسماء الشیطان عندهم.

الوحی المحمدی، ص: ۵۵

و قد کان أکثر من آمن بتلک الآیات إنما خضعت أعناقهم، و استخدمت أنفسهم لما لا یعقلون له سببا، و قد انطوت الفطرة علی کل ما لا یعرف له سبب، فالآتی به مظهر للخالق سبحانه، إن لم یکن هو الخالق نفسه، و کان أضعاف أضعافهم یخضع مثل هذا الخضوع نفسه للسحرة و المشعوذین و الدجالین و لا یزالون کذلک.

و قد نقلوا عن المسیح علیه السلام أنه سیأتی بعده مسحاء کذبة، و أنبیاء کذبة، و یعطون آیات عظیمة و عجائب حتی یضلوا لو أمکن المختارین أیضا (متی ۲۴: ۲۴) و قد ذکر فی قاموس الکتاب المقدس عدد کثیر منهم، و أسماء بعضهم و أقول: إن منهم القادیانی الذی ظهر من مسلمی الهند، و تذکر صحف الأخبار ظهور هندی آخر یرید إظهار عجائبه فی أمریکا فی هذا العام و نقلوا عن المسیح أنه قال: «الحق أقول لکم: لیس کل نبی مقبولا- فی وطنه» و جعل القاعدة لمعرفة النبی الصادق تأثیر هدایته فی الناس لا الآیات و العجائب فقال:

«من ثمارهم تعرفونهم» و لم یظهر بعده- و لا قبله- نبی کانت ثماره الطیبة فی هدایة البشر کثمار محمّد صلّی اللّه علیه و سلم و لا أحد یصدق علیه قوله فی إنجیل یوحنا (۱۶: ۱۲ إن لی أمورا کثیرة أیضا و لکن لا- تستطیعون أن تحتملوا الآن. و أما متی جاء ذاک «أی البارقلیط» روح الحق فهو یرشدکم إلی جمیع الحق) إلخ، و ما جاء بعده نبی أرشد الناس إلی جمیع الحق فی الدین؛ من توحید، و تشریع، و حکمة، و تأدیب: غیر محمد رسول اللّه و خاتم النبیین.

و من استقرأ تواریخ الأمم علم أنّ أهل الملل الوثنیة أکثر اعتمادا علی العجائب من أهل الأدیان السماویة، و رأی الجمیع ینقلون منها عمن یعتقدون قداستهم من الأولیاء و القدیسین، أکثر مما نقلوا عن الأنبیاء المرسلین، و رأی أن أکثر المصدقین بها من الخرافین.

ثبوت نبوة محمد بنفسها و إثباتها لغیرها:

و جملة القول: أن نبوة محمّد صلّی اللّه علیه و سلم قد ثبتت بنفسها، أی بالبرهان العلمی و العقلی الذی لا ریب فیه، لا بالآیات و العجائب الکونیة. و إن هذا البرهان قائم ماثل للعقول و الحواس فی کل زمان، و أنه لا یمکن إثبات آیات النبیین السابقین إلا بثبوت نبوته صلّی اللّه علیه و سلم و هذا القرآن الذی جاء به، فالحجة الوحیدة علیها فی هذا الطور العلمی الاستقلالی من أطوار النوع البشری هو شهادته لها. فإن الکتب التی نقلها لا یمکن إثبات عزوها إلی من عزیت إلیهم، إذ لا یوجد نسخ منها منقولة عنهم باللغات التی کتبوها بها لا تواترا و لا آحادا، و لا یمکن إثبات عصمتهم من الخطأ فیما کتبوه علی اختلافه، و تناقضه، و تعارضه، و لا إثبات صحة التراجم التی نقلت بها، کما قلنا آنفا و بیناه بالتفصیل مرارا.

الوحی المحمدی، ص: ۵۶

إن الکتاب الإلهی الوحید الذی نقل بنصه الحرفی تواترا عمن جاء به بطریقتی الحفظ و الکتابة معا هو القرآن، و أن النبیّ الوحید الذی نقل تاریخه بالروایات المتصلة الأسانید حفظا و کتابة هو محمد صلّی اللّه علیه و سلم، فالدین الوحید الذی یمکن أن یعقله العلماء المستقلون فی الفهم و الرأی و یبنوا علیه حکمهم، هو الإسلام.

و أما خلاصة ما يمكن الاعتراف به من الأديان السابقة لثبوت قضاياه الإجمالية بالتواتر المعنوى، فهو أنه وجد فى جميع أمم الحضارة القديمة دعاة إلى عبادة اللّه تعالى وحده، و إلى العمل الصالح، و إلى ترك الشرور و الرذائل، منهم أنبياء مبلغون عن اللّه تعالى مبشرين و منذرين، كما أنه وجد فيهم حكماء يبنون إرشادهم على الاحتجاج بما ينفع الناس و يرضهم بحكم العقل و التجربة، و وجد فى جميع ما نقل عن الفريقين أمور مخالفة للعقل و لما ينفع الناس، و أمور خاصة بأقوامهم و بزمانهم، و خرافات ينكرها العقل و ينقضها العلم.

و إذا كان الإسلام و نبيّه هو الدين الوحيد الذى عرفت حقيقته و تاريخه بالتفصيل؛ فإننا نذكر هنا شبهة علماء الإفرنج الماديين و مقلدتهم عليه، بعد مقدمة فى شهادتهم الإجمالية له، تمهيدا لدحض الشبهة، و نهوض الحجة، فنقول:

درس علماء الإفرنج للسيرة المحمدية و شهادتهم بصدقه صلّى اللّه عليه و سلم

درس علماء الإفرنج تاريخ العرب قبل الإسلام و بعده على طريقتهم فى النقد و التحليل، و درسوا السيرة النبوية المحمدية و فلوها فليا و نقشوها بالمناقيش، و قرءوا القرآن بلغته و قرءوا ما ترجمه به أقوامهم، و كانوا على علم محيط بكتب العهدين القديم و الجديد، و تاريخ الأديان و لا سيما الديانتين اليهودية و النصرانية. و ربما كتبه المتعصّبون للكنيسة من الافتراء على الإسلام و النبىّ و القرآن مما أشرنا إلى بعضه آنفا، فخرجوا من هذه الدروس كلّها بالنتيجة الآتية:

«إن محمدا كان سليم الفطرة، كامل العقل، كريم الأخلاق، صادق الحديث، عفيف النفس، قنوعا بالقليل من الرزق، غير طموح بالمال، و لا جنوح إلى الملك، و لم يعن بما كان يعنى به قومه من الفخر، و المباراة فى تحبير الخطب و لا قرض الشعر، و كان يمقت ما كانوا عليه من الشرك و خرافات الوثنية، و يحتقر ما يتنافسون فيه من الشهوات البهيمية، كالخمر و الميسر و أكل أموال النّاس بالباطل، و بهذا كله و بما ثبت من سيرته و يقينه بعد النبوة جزموا بأنه كان صادقا فيما ادعاه بعد استكمال الأربعين من سنّه من رؤية ملك الوحى، و إقرائه إياه هذا القرآن، و إنبائه بأنه رسول من اللّه لهداية قومه فسائر الناس».

الوحى المحمدى، ص: ۵۷

و زادهم ثقة بصدقه أن كان أول الناس إيمانا به و اهتداء بنبوته أعلمهم بدخيلة أمره و أولهم: زوجته خديجة المشهورة بالعقل و النبل و الفضيلة، و مولاه زيد بن حارثة الذى اختار أن يكون عبدا له على أن يلحق بوالده و أهل بيته و يكون معهم حرا، ثم إن كان الذين آمنوا به من أعظم العرب حرية و استقلالا فى الرأى و لا سيما أبى بكر و عمر «۱».

فأما المؤمنون باللّه و ملائكته، و بأن للبشر أرواحا خالدة من هؤلاء الإفرنج فقد آمنوا بنبوة محمد صلّى اللّه عليه و سلم على علم و برهان، و هم يزيدون عاما بعد عام، بقدر ما يتاح لهم من العلم بالإسلام، و أما الماديون فلم يكن لهم بد من تفسير لهذه الحادثة أو الظاهرة التى لا ريب فيها صحّتها و ثبوتها، و تصويرها بالصورة العلمية التى يقبلها العقل، الذى لا يؤمن صاحبه بما وراء المادة أو الطبيعة من عالم الغيب.

قدحوا زناد الفكر، و استوروا به نظريات الفلسفة، فلاح لهم منه سقط أبصروا فى ضوئه الضئيل الصورة الخيالية التى أجملها الأستاذ «مونتيه» فى عبارته التى نقلناها عنه آنفا، و فصلها «أميل درمنغام» و غيره بما نشرحه هاهنا (فى الفصل الثالث من هذا الكتاب).

***

(۱) سننقل طائفة من شهادات العلماء الأحرار فى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

الوحى المحمدى، ص: ۵۹

الفصل الثالث فى شبهة منكرى عالم الغيب على الوحى الإلهى و تصويرهم لنبوة محمّد صلّى اللّه عليه و سلم بما يسمونه الوحى

النفسی

اشارة

خلاصة رأی هؤلاء المادیین: أن الوحی إلهام کان یفیض من نفس النبی الموحی إلیه لا من الخارج، ذلک أن منازع نفسه العالیة و سریرته الطاهرة، و قوة إیمانه باللّه و بوجوب عبادته و ترک ما سواها من عبادة وثنیة و تقالید وراثیة ردیئة، یکون لها فی جملتها من التأثیر ما یتجلی فی ذهنه و یحدث فی عقله الباطن الرؤی و الأحوال الروحیة فیتصور ما یعتقد وجوبه إرشادا إلهیا نازلا علیه من السماء بدون وساطة، أو یتمثل له رجل یلقنه ذلک یعتقد أنه ملک من عالم الغیب، و قد یسمعه یقول ذلک، و إنما یری و یسمع ما یعتقده فی الیقظة، کما یری و یسمع مثل ذلک فی المنام الذی هو مظهر من مظاهر الوحی عند جمیع الأنبیاء، فکل ما یخبر به النبی کلام ألقی فی روعه، أو عن ملک ألقاه علی سمعه، فهو خبر صادق عنده.

یقول هؤلاء المادیون: نحن لا نشکّ فی صدق محمد فی خبره عما رأی و سمع و إنما نقول: إنّ منبع ذلک من نفسه، و لیس فیه شیء جاء من عالم الغیب الذی یقال إنه رأی عالم المادة و الطبیعة، الذی یعرفه جمیع النّاس؛ فإنّ هذا (الغیب) شیء لم یثبت عندنا وجوده، کما أنّه لم یثبت عندنا ما ینفیه و یلحقه بالمحال، و إنما تفسیر الظواهر غیر المعتادة بما عرفنا و ثبت عندنا دون ما لم یثبت.

و یضربون مثلا لهذا الوحی: قصة «جان دارک» الفتاة الفرنسیة التی قررت الکنیسة الکاثولیکیة قداستها بعد موتها بزمن، و هذا التصویر الذی یصوّرون به ظاهرة الوحی قد سرت شبهته إلی کثیر من المسلمین المرتابین الذین یقلدون هؤلاء المادیین فی نظریاتهم المادیة أو یقتنعون بها.

و إننی أفتتح الکلام فی إبطال هذه الصورة الخیالیة بالکلام علی (جان دارک) فقد ألقی إلی سؤال عنها نشرته مع الجواب عنه فی صفحة ۷۸۸ من المجلد السادس من المنار (سنة ۱۳۲۱) و هذا نصه:

الوحی المحمدی، ص: ۶۰

شبهة علی الوحی

حضرة الأستاذ الرشید: عرضت لی شبهات فی وقوع الوحی (و هو أساس الدین) فعمدت إلی رسالة التوحید للشیخ محمد عبده- حیث وقع اختیاری علیها- و قرأت فیها بابی (حاجة البشر إلی الوحی) و (إمکان الوحی) فوجدت الکلام وجیها معقولا، غیر أنّ الحاجة إلی شیء لا تستلزم وقوعه، و کذا إمکانه و عدم استحالته عقلا لا یقتضی حصوله، ثم ما ذکر بعد من أن حالة النبی و سلوکه بین قومه و قیامه بجلائل الأعمال و بوقوع الخیر للناس علی یدیه و هو دلیل نبوته و تأیید بعثته، فلیس شیئا؛ فإنه قد یکون (کون) النبی حمید السیرة فی عشیرته، صادقا فی دعوته- أعنی معتقدا فی نفسه- سببا فی نهوض أمته، و لا یکون کلّ ذلک مدعاة إلی الاعتقاد به، و التسلیم به.

و قد حدث بفرنسا فی القرن الخامس عشر المیلادی إذ کانت مقهورة للإنکلیز أن بنتا تدعی (جان دارک) من أجمل النساء سیرة و أسلمهن نیة، اعتقدت- و هی فی بیت أهلها بعیدة عن التکالیف السیاسیة- أنها مرسلة من عند اللّه لإنقاذ وطنها و دفع العدو عنه، و صارت تسمع صوت الوحی، فأخلصت فی الدعوة للقتال، و توصّلت بصدق إرادتها إلی رئاسة جیش صغیر، و غلبت به العدو فعلا، ثم ماتت عقب نصرتها میتة الأبطال من الرجال إذ خذلتها قومها، و وقعت فی ید عدوها، فألقوها فی النّار حیّة، فذهبت تارکة فی صحائف التاریخ اسما یعبق نشره و تضوع ریاه، و هی الآن موضع إجلال القوم و إعظامهم؛ فلقد تیسرت لهم النهضة بعدها، و جروا فی العلم و الرقی بعیدا.

فهل یجزم لذلک أن تلک البنت نبیة مرسلة؟ ربما تذهبون إلی أن عملها لا یذکر مقارنا بما أتت به الرسل و ما وصل للناس من الخیر

بسببهم، فأقول: هل هناك من ميزان نزن به الأعمال النافعة لنعلم إن كانت وصلت إلى الدرجة التى يجب معها أن نصدق دعوة صاحبها؟ و هل لو ساعدت الصدف (كذا) رجلا على أن يكون أكبر الناس فعلا، و أبقاهم أثرا، و اعتقد برسالة نفسه لوهم قام (عنده) يفضى بنا ذلك إلى التيقن من رسالته؟.

أظن أن هذا كله- مضافا لغيره- يدعو إلى الترجيح و لا يستلزم اليقين أبدا على أننى أنتظر أن تجدوا فى قولى هذا خطأ تقنعوننى به أو تزيدوننى إيضاحا، ينكشف به الحجاب،

الوحى المحمدى، ص: ۶۱

و تنالون به الثواب، هذا و إنى أعلم من فئة مسلمة ما أعلمه من نفسى و لكنّهم يتحفظون فى الكتمان، و يسألون الكتب خشية سؤال الإنسان، و لكننى لا أجد فى السؤال عارا، و كل عقل يخطئ و يصيب، يزل و يستقيم.

(أحد قرائكم)

جواب المنار

لقد سرنا من السائل أنه على تمكن الشبهة من نفسه لم يذعن لها تمام الإذعان فيسترسل فى تعدى حدود الدين إلى فضاء الأهواء و الشبهات التى تفسد الأرواح و الأجسام، بل أطاع شعور الدين الفطرى، و لجأ إلى البحث فى الكتب، ثم السؤال ممن يظن فيهم العلم، بما يكشف الشّبهة، و يقيم الحجّة، و إن كثيرا من الناس لينصرفوا عن طلب الحق عند أول قزعة من الشبهة تلوح فى فضاء أذهانهم، لأنّهم شبّوا على حبّ التمتع و الانغماس فى اللذة، و يرون الدين صادا لهم عن الانهماك و الاسترسال فيها، فهم يحاولون إماتة شعوره الفطرى، كما أمات النشوء فى الجهل برهانه الكسبى.

أرى السائل نظر من رسالة التوحيد فى المقدمات و وعاها، و لكنه لم يدقق النظر فى المقاصد و النتائج، لذلك نراه مسلما المقدمات دون النتيجة مع اللزوم بينهما، فإذا هو عاد إلى مبحث (حاجة البشر إلى الرسالة) و تدبره و هو مؤمن بالله، و أنه أقام الكون على أساس الحكمة البالغة و النظام الكامل، فإننى أرجو له أن يقتنع، ثم إننى آنست منه أنه لم يقرأ مبحث (وقوع الوحى و الرسالة) أو لعله قرأه و لم يتدبره، فإنه لم يذكر البرهان على نفس الرسالة و يبنى الشبهة عليه، و إنما بناها على جزء من أجزاء المقدمات، و هى القول فى بعض صفات الرسل عليهم السلام، و إننى أكشف له شبهته أولا فأبين أنها لم تصب موضعها، ثم أعود إلى رأى فى الموضوع.

إنّ (جان داركَ) التى اشتبه عليه أمرها بوحى الأنبياء لم تقدم بدعوة إلى دين أو مذهب تدعى أن فيه سعادة البشر فى الحياة و بعد الموت كما هو شأن جميع المرسلين، و لم تأت بآية كونية و لا علمية لا يعهد مثلها من كسب البشر تتحدى بها الناس ليؤمنوا بها، و إنما كانت فتاة ذات وجدان شريف هاجه شعور الدين، و حركته مزعجات السياسة فتحرك، فنفر،

الوحى المحمدى، ص: ۶۲

فصادف مساعدة من الحكومة، و استعدادا من الأمة للخروج من الذلّ الذى كانت فيه، و كان التحمس الذى حركته سببا للحملة الصادقة على العدو و خذلاته. و ما أسهل حماسة أهل فرنسا بمثل هذه المؤثرات و بما هو أضعف منها، فإن نابليون الأول كان يسوقهم إلى الموت مختارين بكلمة شعرية يقولها ككلمته المشهورة عند الأهرام.

و أذكّر السائل الفطن بأنّه لم يوافق الصواب فى إبعاد الفتاة عن السياسة و مذاهبها فقد جاء فى ترجمتها من دائرة المعارف العربية (للبستانى) ما نصه:

«كانت متعودة الشغل خارج البيت كرعى المواشى و ركوب الخيل إلى العين و منها إلى البيت، و كان الناس فى جوار دومرى (أى بلدها) متمسكين بالخرافات و يميلون إلى حزب أورليان فى الانقسامات التى مزقت مملكة فرنسا، و كانت «جان داركَ» تشترك فى الهياج السياسى و الحماسة الدينية، و كانت كثيرة التخيل و الورع، تحب أن تتأمل فى قصص العذراء و على الأكثر فى نبوة كانت

شائعة فی ذلک الوقت، و هی أن إحدی العذاری ستخلص فرنسا من أعدائها، و لما کان عمرها ۱۳ سنة کانت تعتقد بالظهورات الفائقة الطبیعیة و تتکلم عن أصوات کانت تسمعها و رؤی کانت تراها، ثم بعد ذلک ببضع سنین خیل لها أنها قد دعیت لتخلص بلادها و تتوج ملکها، ثم وقع البرغنیور تعدیا علی القریة التی ولدت فیها، فقوی ذلک اعتقادها بصحة ما خیل لها».

ثم ذکر بعد ذاک توسله إلی الحکام و تعیینها قائدة لجیش ملکها، و هجومها بعشرة آلاف جندی ضباطهم ملکیون علی عسکر الإنکلیز الذین کانوا یحاصرون أورلیان، و أنها دفعتهم عنها حتی رفعوا الحصار فی مدة أسبوع، و ذلک سنة ۱۴۲۹، ثم ذکر أنها بعد ذلک زالت أخیلتها الحماسیة، و لذلک هوجمت فی السنة التالیة ۱۴۳۰ فانکسرت و جرحت و أسرت.

فمن ملخص القصة، یعلم أن ما کان منها إنما هو تهیج عصبی سببه التألم من تلک الحالة السیاسیة التی کان یتألم منها من نشأت بینهم مع معونة التحمس الدینی و الاعتقادات بالخرافات الدینیة التی کانت ذائعة فی زمنها، و هذا شیء عادی معروف السبب، و هو من قبیل الذین یقومون باسم المهدی المنتظر کمحمد أحمد السودانی، و الباب الإیرانی (و کذا البهاء و القادیانی)، بل الشبهة فی قصتها أبعد من الشبهة فی قصة هذین الرجلین، و إن کانت أسباب النهضة متقاربة، فإنّ هذین کانا کأمثالهما یدعوان إلی شیء (ملفق) یزعمان أنه إصلاح للبشر فی الجملة.

الوحی المحمدی، ص: ۶۳

أین هذه النوبة العصبیة القصیرة الزمن، و المعروفة السبب، التی لا دعوة فیها إلی علم و لا إصلاح اجتماعی، إلا المدافعة عن الوطن عند الضیق التی هی مشترکة بین الإنسان و الحیوان الأعجم التی لا حجّة تدعمها، و لا معجزة تؤیدها. التی اشتعلت بنفخة، و طفئت بنفخة؟.

أین هی من دعوة الأنبیاء التی بیّن الأستاذ الإمام إنها حاجة طبیعیة من حاجات الاجتماع البشری، طلبها هذا النوع بلسان استعداده فوهبها له المدبر الحکیم (الذی أعطی کلّ شیء خلقه ثمّ هدی) فسار الإنسان بذلک إلی کماله، فلم یکن أدنی من سائر المخلوقات الحیة النامیة، بل أرقی و أعلی؟ و أین دلیلها من أدلة النبوّة؟ و أین أثرها من أثر النبوة؟.

إن الأمم التی ارتقت بما أرشدها إلیه تعلیم الوحی إنما ارتقت بطبیعة ذلک التعلیم و تأثیره. و إن فرنسا لم ترتق بإرشاد (جان دارک) و تعلیمها، و إنما مثلها مثل قائد انتصر فی واقعة فاصلة بشجاعته، و بأسباب أخری لیست من صنعه، و استولت أمته بسبب ذلک علی بلاد رقتها بعلوم علمائها، و حکمه حکمائها، و صنع صناعها، و لم یکن القائد یعرف من ذلک شیئا و لم یرشد إلیه، فلا یقال إن ذلک القائد هو الذی أصلح تلک البلاد، و عمّرها و مدّنها، و إن عدّ سببا بعیدا فهو شبیه بالسبب الطبیعی، کهبوب ریح تهیج البحر فیغرق الأسطول و تنتصر الأمة.

أین حال تلک الفتاة التی کانت کبارقة خفت (أی ظهرت و أو مضت) ثم خفیت و صیحة علت و لم تلبث أن خفتت، و من حال شمس النبوّة المحمدیة التی أشرقت فأنارت الأرجاء، و لا یزال نورها متألق السناء؛ أمی یتیم قضی سن الصبا و شرخ الشباب هادئا ساکنا لا یعرف عنه علم و لا تخیل، و لا وهم دینی و لا شعر و لا خطابة، ثم صاح علی رأس الأربعین بالعالم کلّه صیحة؛ إنکم علی ضلال مبین، فاتبعون أهدکم الصّراط المستقیم، فأصلح و هو الأمی أدیان البشر؛ عقائدها و آدابها و شرائعها، و قلب نظام الأرض فدخلت بتعلیمه فی طور جدید؟.

لا جرم أنّ الفرق بین الحالین عظیم، إذا أنعم النظر فیه العاقل الحکیم، و لا سعة فی جواب سؤال کهذا لتقریر الدلیل علی النبوة بالتفصیل، و إنما أحیل السائل علی التأمل فی بقیة بحث النبوة فی رسالة التوحید، و مراجعة ما کتبناه أیضا من الأمالی الدینیة فی المنار، و لا سیّما الدرس الذی عنوانه (الآیات البیّنات، علی صدق النّبوات) و إن کان یصدق علی

الوحی المحمدی، ص: ۶۴

رسالة التوحید المثل «کلّ الصّید فی جوف الفرا «۱»»، فإن بقیت عنده شبهة فالأولی أن یتفضل بزیارتنا لأجل المذاکرة الشفاهیة فی

الموضوع؛ فإن المشافهة أقوى بيانا، و أنصع برهانا، و نحن نعاهده على أن نكتم أمره و إن أبى فليكتب إلينا ما يظهر له من الشبهة على ما فى الرسالة و الأمالى من الاستدلال على وقوع النبوة بالفعل، و عند ذلك نسهب فى الجواب بما نرجو أن يكون مقنعا، على أن المشافهة أولى كما هو معقول، و كما ثبت لنا بالتجربة مع كثير من المشتبهين و المرتابين. أ. ه. جوابنا فى المنار «۲».

هذا و إن ما بينه الأستاذ الإمام فى إثبات وقوع الوحى لا يستطيع أحد فهمه حقّ الفهم، و هو يؤمن بوجود اللّه العلى الحكيم الفاعل المختار إلّا أن يقبله و يذعن له، فإنه بين أن الوحى و الرسالة بالمعنى الذى قرره لازم عقلى لعلمه تعالى و حكمته و كونه هو (الذى أعطى كلّ شىء خلقه ثمّ هدى)، و لا يفهمه حقّ الفهم إلا من أوتى نصيبا من علم الاجتماع و حكمة الوجود و سننه و أصول العقائد، و نصيبا آخر من بلاغة اللغة العربية، و أن نبوة محمد صلّى اللّه عليه و سلم و رسالته يمكن إثباتها بما دون هذه الفلسفة و البلاغة، و هو ما قهر عقول علماء الإفرنج على تصديق دعوته، و حمل الماديين على تصويرها بما نبسطه فيما يأتى و نقفى عليه بإثبات بطلانه.

تفصيل الشبهة و دحضها بالحجة

اشارة

قد فصل (أميل درمنغام) الشبهة التى أجملها مونتيه بما لم نر مثله لغيره من كتاب الإفرنج، حتى اغتر بكلامه كثير من المسلمين، و أنه لحسن الثناء و لكنه يسرّ حسوا فى ارتغاء، فإن كان حكيمنا السيد/ جمال الدين قال لبعض مجادلى النصرانية: «إنكم فصلتم قميصا من رقاع العهد القديم و ألبستموها للمسيح عليه السلام». فنحن نقول لهم: «إنكم فصلتم قميصا آخر مما استنبطتم من تاريخ الإسلام لا من نصوصه، و حاولتم خلعها على محمد صلّى اللّه عليه و سلم». و إننى أشرح هذه الشبهة بأوضح مما كتبه درمنغام، و ما بلغنى عن كل أحد منهم، ثم أكر عليها بالنقض و الدحض، و أبدأ بمقدماتها و هى عشر:

---

(۱) الفراء- بفتح الفاء مقصورا- اسم لحمار الوحش و هو خير ما يصاد لكبره و كثرة لحمه و جودته، و أصل المثل أن ثلاثة رجال خرجوا للصيد فاصطاد أحدهم أرنبا و الآخر ظبيا، و اصطاد الثالث حمارا وحشيا، فقال لهما و قد أعجب بما أصاب (كل الصيد فى الفرا) أى كل ما يصاد يصغر دونه، كأنه يغيب فى جوفه.

(۲) الظاهر أن ذلك السائل قد اقتنع بجوابنا إذ لم يكتب لنا بعده شيئا، و كذلك الأستاذ فقد رضى به و أعجبه.

الوحى المحمدى، ص: ۶۵

المقدمة الأولى: لشبهة الوحى النفسى دعوى الأخذ عن بحيرا الراهب

قالوا: إن محمدا لقى بحيرا الراهب فى مدينة بصرى بالشّام، و قالوا: إنه كان نسطوريا من أتباع آريوس فى التوحيد، و ينكر ألوهية المسيح و عقيدة التثليث، و أن محمد لا بد أن يكون على علم من عقيدته، و قالوا فى بحيرا أيضا: إنه كان عالما فلكيا منجما، و حاسبا ساحرا. و إنه كان يعتقد أن اللّه ظهر له و أنبأه بأن سيكون هاديا لآل إسماعيل إلى الدين المسيحى، بل سمعنا من بعض الرهبان أنه كان معلما لمحمد و مصاحبا له بعد رسالته، و أن محمدا ما حرم الخمر إلا لأنه قتل أستاذه بحيرا و هو سكران. و أسرفوا فى هذه الافتراء و البهتان، و كل ما عرفه المسلمون من رواة السيرة النبوية أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم لما خرج مع عمه أبى طالب إلى الشام و هو ابن تسع سنين و قيل ۱۲ سنة رآه هذا الراهب مع قريش و رأى سحابة تظلله من الشمس، و ذكر لعمه أنه سيكون له شأن، و حذره من اليهود و فى المسألة روايات بمعناها ضعيفة الأسانيد، إلا رواية للترمذى ليس فيها اسم بحيرا و فيها غلط فى المتن و ليس فى شىء من تلك الروايات أنه صلّى اللّه عليه و سلم سمع من بحيرا شيئا من عقيدته أو دينه.

المقدمة الثانية: دعوى الأخذ عن ورقة بن نوفل

قالوا: إن ورقة بن نوفل كان من منتصرة العرب العلماء بالنصرانية و أحد أقارب خديجة- يوهمون القارئ أنه صلّى اللّه عليه و سلم أخذ عنه شيئا من علم أهل الكتاب- و الذى صحّ من خبر ورقة هذا، هو ما رواه الشيخان فى الصحيحين، و غيرهما من أن خديجة أخذته صلّى اللّه عليه و سلم عقب إخباره إياها بما رآه فى حراء إلى ورقة هذا و أخبرته خبره، و كان شيخا قد عمى، و لم يلبث بعد ذلك أن توفى، و لم ينقل أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم رأى قبل ذلك، (و سأذكر نص الحديث فى آخر هذا المبحث)، و قد استقصى المحدثون و المؤرخون كل ما عرف عن ورقة هذا مما صح سنده، و مما لم يصح له سند كدأبهم فى كل ما له علاقة بالنبى صلّى اللّه عليه و سلم و الإسلام، فلم يذكر أحد منهم أنه عرف عنه دعوة إلى النصرانية أو كتابة فيها، و إنما ورد فى بعضها أنه قال حين علم من خديجة خبر محمّد: إنه هو النبيّ المنتظر الذى بشرّ به المسيح عيسى ابن مريم، و فى بعضها، أنه عاش حتى رأى بلالا يعذّبه المشركون ليرجع عن الإسلام، و لكن هذه الرواية

الوحى المحمدى، ص: ۶۶

شاذة مخالفة لحديث عائشة الصحيح أنه كان عند بدء الوحى أعمى و لم ينشب (أى لم يلبث) أن مات، و قد كان تعذيب بلال بعد إظهار دعوة النبوة و دخول الناس فيها، و كان هذا بعد بدء الوحى بثلاث سنين.

و أميل درمنغام قد غلط فيما نقله عن خبر فترة الوحى لاختلاط الروايات عليه فيها، و عدم اطلاعه على ما دوّن فى كتب الحديث منها، و إنما كان هم المحدثين فى خبر ورقة أن يعلموا أ كان صحابيا أم لا؟ فإنّ الصحابىّ هو من لقى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم بعد البعثة مؤمنا به، و لو بلغهم عنه أى شىء من علمه بالتوراة أو الإنجيل غير ما ذكروه لنقلوه.

المقدمة الثالثة: دعوى انتشار اليهودية و النصرانية فى بلاد العرب

ذكروا ما كان من انتشار اليهودية و النصرانية فى بلاد العرب قبل الإسلام، و من تنصر بعض فصحاء العرب و شعرائهم، كقس بن ساعدة الأيادى، و أمية بن أبى الصلت و إشادة هؤلاء بما كانوا يسمعون من علماء أهل الكتاب عن قرب ظهور النبى الذى بشر به موسى و عيسى و غيرهما من الأنبياء، و قد نشرنا بعض بشاراتهم من التوراة و الأناجيل و كتب النبوات بنصوصها المعتمدة عندهم فى تفسير قوله تعالى: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ [الأعراف: ۱۵۷] و لكن لم يثبت أنه صلّى اللّه عليه و سلم سمع منها شيئا.

فأما قس فقد مات قبل البعثة. و روى أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم رآه قبل البعثة بزمن طويل يخطب الناس فى سوق عكاظ على جمل له احمر و قيل أورق، بكلام له مونق، قال فيه: «إن للّه دينا خيرا من دينكم الذى أنتم عليه و نبيا قد أظلكم زمانه، و أدرككم آوانه، فطوبى لمن أدركه فاتبعه، و ويل لمن خالفه». و الروايات فى هذا ضعيفة، (بل بعضها موضوع و بعضها منقطع)، و تعددها قد يدل على أن لها أصلا، و لو حفظ من كلامه شىء بسند صحيح لبينوه قطعا.

و أما أمية بن أبى الصلت الثقفى فهو شاعر مشهور، قال أبو عبيدة: اتفقت العرب على أن أمية أشعر ثقيف، و قال الزبير بن بكار: حدّثنى عمّى قال كان أمية فى الجاهلية نظر الكتب و قرأها، و لبس المسوح تعبدا، و كان يذكر إبراهيم و إسماعيل و الحنفية، و حرم الخمر،

الوحى المحمدى، ص: ۶۷

و تجنّب الأوثان، و طمع فى النبوة؛ لأنه قرأ فى الكتب أن نبيا يبعث بالحجاز، فرجا أن يكون هو، فلما بعث النبى صلّى اللّه عليه و سلم حسده فلم يسلم، و هو الذى رثا قتلى بدر المشركين بالقصيدة التى أولها:

ما ذا ببدر و العقنقل من مرازبة جحاجح و فى المرآة عن ابن هشام أنه كان آمن بالنبى صلّى اللّه عليه و سلم، فقدم الحجاز ليأخذ ماله

من الطائف و یهاجر، فعلم بغزوة بدر و قتلی صناديد قريش فيها، فجدع آنف ناقته و شقّ ثوبه و بكى لأن فيهم ابنى خاله، و عاد إلى الطائف و مات فيها، و صحّ أنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم استنشد الشريد بن عمرو من شعره فأنشده فقال: «كاد أن يسلم» و المعروف أنه كان حنيفيا على ملّة إبراهيم و لم يتنصره، و لم يلق النبى صلّى اللّه عليه و سلم قبل النبوة و لا بعدها و من شعره:

كلّ دين يوم القيامة عند الله إلّا دين الحنيفة زور

المقدمة الرابعة: حديث إسلام سلمان الفارسى

كان سلمان الفارسى رضى اللّه عنه فارسيا مجوسيا فتنصر على يد بعض الرهبان و صحب غير واحد من عبادهم، و سمع منهم أو من آخرهم بقرب ظهور النبى الذى بشر به عيسى و الأنبياء من العرب، فقصد بلاد العرب و بيع لبعض يهود يثرب ظلما و عدوانا و لم ير النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم إلا بعد الهجرة فأسلم و كاتب سيده (أى اشترى نفسه منه) و فى قصته روايات متعارضة و هذا هو المراد منها لدرمنغام و غيره.

المقدمة الخامسة: رحلتا الشتاء و الصيف لتجار قريش

ذكروا ما كان من رحلة تجار قريش فى الشتاء إلى اليمن، و فى الصيف إلى الشام و اجتماعهم بالنصارى فى كل منهما كلما مروا بدير أو صومعة للرهبان، و كان هؤلاء النصارى يتحدثون بقرب ظهور نبى من العرب.

الوحى المحمدى، ص: ۶۸

المقدمة السادسة: ما قيل من وجود يهود و نصارى بمكة

زعم درمنغام أنه كان بمكة نفسها أناس من اليهود و النصارى، و لكنهم كانوا عبيدا و خدما و كان رؤساء قريش لا يسمحون لهم أن يسكنوا فى مكّة حرمهم المقدس الخاص بوثنيتهم و أصنامهم، بل كان هؤلاء يسكنون فى أطراف مكة (فى المنازل البعيدة عن الكعبة المتاخمة للصحراء)، و كانوا يتحدثون بقصص عن دينهم لا تصل إلى مسامع رؤساء قريش و عظمائهم، أو ما كانوا يحفلون بها لسماع أمثالها فى رحلاتهم الكثيرة، و لكنه ذكر أن أبا سفيان عتب على أمية بن أبى الصلت كثرة تكريره لما يذكره الرهبان من هذا الأمر.

فهذه مقدمات يذكرها كتاب الإفرنج لتعليل ما ظهر به محمّد صلّى اللّه عليه و سلم من دعوى النبوة يعنون أنه سمع ما سمع من أخبارها فتعلّقت نفسه به، على طريقتهم فى الاستنباط، و ما يسمونه النقد التحليلى، و يقرنون بها مقدمات أخرى فى وصف حالته النفسية و العقلية، و حالة قومه و ما استفاده منها من تأثير و عبرة. فنلخصها مضمومة إلى ما قبلها، مع الإلمام بنقدها.

المقدمة السابعة: ما زعمه من سبب نشوء محمّد صلّى اللّه عليه و سلم أميا و ما استفاد من رحلاته التجارية

قال درمنغام فى كفالة أبى طالب لمحمد بعد وفاة جده: «إنه لم يكن غنيا فلم يتح له تعليم الصبى الذى بقى أميا طوال حياته (يوهم القارئ أن أولاد الموسرين بمكة كانوا يتعلّمون، كأن هناك مدارس يعلم فيها النشء بالأجور كمدارس بلاد الحضارة و هذا باطل لا أصل له) ثم قال: و لكنه كان يستصحبه و إياه فى التجارة فيسير و القوافل خلال الصحراء يقطع هذه الأبعاد المتنائية، و تحدق عيناه الجميلتان بمدين و وادى القرى و ديار ثمود، و تستمع أذناه المرهفتان إلى حديث العرب و البادية عن هذه المنازل و حديثها و ماضى نبئها، و يقال إنه فى إحدى هذه الرحلات إلى الشام التقى بالراهب بحيرا فى جوار مدينة بصرى، و أن الراهب رأى فيه علامات النبوة على ما تدله عليه أنباء كتبه، و فى الشام عرف محمد أحبار الروم و نصرانيتهم و كتابهم، و مناوأة الفرس من عباد النار لهم، و انتظار الوقيعة بهم».

کل ما ذکره درمنغام هنا هو من مخترعات خیاله، و مبتدعات رأیه، ألبسه حلة من طراز

الوحی المحمدی، ص: ۶۹

البیان الإفرنسی، إلا مسألة بحیرا الراهب فأصلها ما ذکرنا، و کأنه لم یحفل بإثباتها، لما یعلمه من مفتریات رجال الکنیسة فیها.

فمحمد صلّی اللّه علیه و سلم لم یذهب مع عمّه إلی التجارة فی الشام إلا و هو طفل- کما تقدم- و قد أعاده إلی مکة قبل إتمام رحلته، ثم سافر إلیها فی تجارة خدیجة و هو شاب مرة واحدة، و لم یتجاوز سوق مدینة بصری فی المرتین، و القوافل التی تذهب إلی الشام لم تکن تمر بمدین و هی فی أرض سیناء، و لم تکن هذه القوافل تضیّع شیئا من وقتها للبحث مع العرب أو الأعراب فی طریقها عن أنبائها و التاریخ القدیم لبلادها، و لم یعرف عن تجارها أنهم کانوا یعنون بلقاء أحبار النصاری و مباحثتهم فی دینهم و کتبهم، فمن أین جاء لدر لدرمنغام أن محمدا هو الذی کان یشتغل فی تلک التجارة بالبحث عن الأمم و التواریخ و الکتب و الأدیان، و یعنی بلقاء رؤسائها و البحث معهم کما یفعل رواد العلم و التاریخ، و جواسیس السیاسة من الإفرنج فی هذا العصر إنما اخترع هذا لأنه لا یستطیع تعلیل ما جاء فی القرآن من قصص الرسل إلا به، و کذلک الأنباء بغلب الروم للفرس کما سیأتی. و سنری ما نفند به تعلیله و تحلیله، علی تقدیر صحة ما زعمه کله.

المقدمة الثامنة: تصویر مجامع قریش بمکة و شأن محمد فیها

ثم ذکر درمنغام أن العرب- و لا سیما أهل مکة- کانوا یصرفون معظم أوقاتهم بعد ما یکون من تجارة أو حرب فی الاستمتاع بالذات من السکر و التسری و غیر ذلک، و أنّ التاریخ یشهد بأن محمدا کان یراهم و لم یکن یشارکهم فی ذلک، لا لفقره و ضیق ذات یده، بل لما صوره بقوله «لکن نفس محمد کانت شغوفا بأن تری و أن تسمع و أن تعرف، و کأن حرمانه من التعلیم الذی کان یعلمه أنداده جعله أشد للمعرفة شوقا، و بها تعلقا، کما أن النفس العظیمة التی تجلت فیه من بعد ذلک آثارها، و ما زال یغمر العالم سلطانها، کانت فی توقها إلی الکمال ترغب عن هذا اللّهو الذی یطمح إلیه أهل مکة، إلی نور الحیاة المتجلی من کل مظاهر الحیاة لمن هداه الحق إلیها لاستکناه ما تدل هذه المظاهر علیه، و ما تحدث الموهوبون به، لعله یرید الملهمین.

هذا الخبر من مخترعات خیال درمنغام، فمحمد لم یکن شغوفا بأن یری ما یفعله فسّاق قومه من فسق و فجور، و لا أن یسمع ذلک، و لا کان یتحرّی أن یعرفه، و قد ثبت عنه أنه

الوحی المحمدی، ص: ۷۰

لم یحضر سمرهم و لهوهم إلا مرتین ألقی اللّه علیه النوم فی کل منهما، حتی طلعت الشمس فلم یر و لم یسمع شیئا، و قد بطل بهذا ما علل به الخبر علی ما فیه من المدح المتضمن لدسیستین: (إحداهما): أن أنداده من قریش کانوا متعلمین و کان هو محروما مما لقنهم آباؤهم من العلم، و کان حرمانه هذا یزیده شغفا بالبحث و الاستطلاع. (و الثانیة): أن نفسه کانت بسبب هذا تزداد طموحا إلی نور الحیاة المتجلی فی جمیع مظاهرها لاستکناه ما تدل علیه المظاهر.

فهذه مدحة غرضه منها تعلیل ما انبثق فی نفسه صلّی اللّه علیه و سلم بعد ذلک من الوحی، و سنری بطلان تعلیله.

المقدمة التاسعة: موت أبناء محمد و ما أثاره فی نفسه

ثم ذکر درمنغام مسألة أبناء النبی صلّی اللّه علیه و سلم القاسم، و الطیّب، و الطاهر، و هو یشک فی وجودهم، و یقول إن تکنیته بأبی القاسم لا تدلّ علی وجود ولد له بهذا الاسم، و إنه إن صحّ أنهم ولدوا فقد ماتوا فی المهد، هذا زعم و وهم، و الحق أنه ولد له غلام سماه القاسم و کنی به و أنه مات طفلا. و قیل عاش إلی أن رکب الدابة فهذا متواتر. ثم ولد له آخر سماه عبد اللّه، و الصحیح أنّ الطیّب و الطاهر لقبان له لا اسمان لغلامین آخرین کما قیل «۱»، و لکن درمنغام قد کبر مسألة موت هؤلاء الأولاد الذین یشک فی

وجودهم تكبيرا، و بنى عليها حكما، و أثار وهما، قال بعد أن زعم أن محمدا تبنى زيد بن حارثة؛ لأنه لم يطق على الحرمان من البنين صبرا:

«فمن حق المؤرخ أن يجعل هذا الحادث؛ بل الحوادث الثلاثة التى أصابت محمدا فى بنيه ما هى جديرة بأن تتركه فى حياته و فى تفكيره من أثر، و الأمر كذلك بنوع خاص إن كان محمدا أميا، فلم تكن المضاربات الجدلية (كذا) لتصرفه عن التأثر بعبر الحوادث و دروسها، و حوادث أليمة- كوفاة أبنائه- جديرة بأن تستوقف تفكيره، و أن تصرفه كل واحد منها إلى ما كانت خديجة تتقرّب به إلى أصنام الكعبة، و تنحر لهبل و اللات و العزّى

---

(۱) وقع فى الطبعتين السابقتين أنهما كانا لقبين للقاسم و هو سهو. و حكمة موتهما ثم موت ولده إبراهيم الذى ولدته له ماريّة القبطية أنه لو ترك ولدا ذكرا لفتن بعض الناس بعبادته و عبادة ذريته بأشد مما فتنوا ببعض ذرية بنته فاطمة- رضى اللّه عنها-.

الوحى المحمدى، ص: ۷۱

و مناة الثالثة الأخرى، تريد أن تفتدى نفسها من ألم الثكل، فلا تفيد القربان و لا تجدى النحور».

قال: «و الأمر كان كذلك، لا ريب أن كانت عبادة الأصنام قد بدأت تتزعزع فى النفوس تحت ضغط النصرانية الآتية من الشام منحدرة إليها من الروم، و من اليمن متخطية إليها من خليج العرب (البحر الأحمر) من بلاد الحبشة».

غرض درمنغام من تكبير المصيبة بموت الأبناء المشكوك فى ولادتهم عنده، هو أن يجعلها مسوغة لما اختلقه من توسل خديجة إلى الأصنام بالقرابين لينقذوها من مصيبة الثكل ثم يستنبط من ذلك زعزعة إيمانها بعلها بعبادتها التى كان سببها تأثير النصرانية فى مكة و غيرها من بلاد العرب، ثم ليجعل ذلك من الأسباب التحليلية لتعليل الوحى لمحمّد صلّى اللّه عليه و سلم.

و الحق أنه ما تبنى زيدا إلا لأنه أثر أن يكون عبدا له على أن يكون حرا مع والده و عمه عند ما جاءا مكة لافتدائه بالمال فقال لهما: «ادعوه فخيّروه فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء»، ثم دعاه فسأله عن أبيه و عمه فعرفهما، فقال له: «فأنا من قد علمت و قد رأيت صحبتى لك فاخترنى أو اخترهما» فقال زيد: ما أنا بالذى أختار عليك أحدا، أنت منّى بمكان الأب و العم، فقالا: ويحك يا زيد أ تختار العبودية على الحرية و على أبيك و عمك و أهل بيتك؟

قال: قد رأيت من هذا الرجل شيئا ما أنا بالذى أختار عليه أحدا. فلما رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم ذلك أخرجه إلى الحجر فقال: «أشهدوا أن زيدا ابنى يرثنى و أرثه»، فلما رأى ذلك أبوه و عمه طابت أنفسهما. فدعى زيد: ابن محمّد، حتى جاء اللّه بالإسلام. رواه ابن سعد و نحوه فى سيرة ابن اسحاق.

هذا و إنّ محمدا لم يكن جزوعا عند موت ولده و لا غيره، بل كان أصبر الصابرين، و إنّ خديجة لم تيأس بموت القاسم من اللّه أن يمنّ عليها بولد آخر، و لم تنحر للأصنام شيئا، و إن اللات كانت صخرة فى الطائف تعبدها ثقيف و لم تكن من أصنام قريش، و العزّى كانت شجرة ببطن نخلة تعبدها قريش و كنانة و غطفان، و مناة كان صنما فى قديد لبنى هلال و هذيل و خزاعة. و قد كان ما ذكره من ضعف الوثنية فى ذلك العهد- و زعم أن سببه انتشار النصرانية- جديرا بأن يمنع خديجة- و هى من أعقل العرب و أسلمهم فطرة و أقربهم إلى الحنيفية ملة إبراهيم- أن تهاجر إلى الأصنام لتنحر لها و تتقرب إليها لترزقها غلاما «۱»،

---

(۱) إن قريشا لم تكن تعتقد أن الأصنام تخلق و لا ترزق، و لا تضر و لا تنفع، إنما كانوا يقولون إنها تشفع لهم عند الله.

الوحى المحمدى، ص: ۷۲

فإن لم يمنعها عقلها و فطرتها فأجدر ببعلها المصطفى أن يمنعها من ذلك و هو عدو الوثنية و الأصنام من طفولته- كما يعترف درمنغام- و لكن اتباع الهوى ينسى صاحبه ما لم يكن لينساه لولاه.

المقدمة العاشرة: ضعف الوثنية فی العرب، و تعبد محمد فی الغار و سببها بزعم درمنغام

زعم درمنغام أن ما ذکره من تغلغل النصرانية فی بلاد العرب أوجد فيها حالة نفسية أدت إلی زيادة إمعانهم فيما کانوا يسمونه فی الجاهلية التحنث أو التحنف، و زعمه هذا له أصل و لکنه زاد فيه و کبره و فرع عليه قوله:

«و کان محمّد يجد فی التحنث طمأنينة لنفسه أن کان له بالوحدة شغف، و أن کان يجد فيها الوسيلة إلی ما برح شوقه يشتد إليه من نشدان المعرفة و استلهام ما فی الکون من أسبابها، فکان ينقطع کل رمضان طول الشهر فی غار حراء بجبل أبی قبيس مکتفيا بالقليل من الزاد يحمل إليه ليمضی أياما طويلة بالغار فی التأمل و العبادة بعيدا عن ضجة الناس و ضوضاء الحياة».

و أقول: إنّ روايات المحدثين تفيد أنه حبّب إليه الخلاء و الوحدة و التحنّث فی غار حراء فی العام الذی جاءه فيه الوحی، و کان هو يحمل الزاد، و ما کان أحد يحمله إليه، و ما ذکره ابن إسحاق من تعبده فيه فی شهر رمضان کل سنة إنما کان فی زمن فترة الوحی کما سيأتی. و لم يکن فی أعوام و لا شهور قبله.

و أما قوله: إنه کان يتوسّل بذلک إلی ما اشتد شوقه إليه من المعرفة و ابتغاء الإلهام مما فی الکون من أسبابها، فهو مما يخطر فی بال الباحث فی حياة رجل صدر عنه عقب هذه الخلوة ما صدر من علم و معرفة و إصلاح، و إرشاد إلی النظر و التفکير فی آيات السموات و الأرض، و لکن لم يرو عنه صلّی اللّه عليه و سلم أنه کان يقصد ذلک و يبتغيه، و لا روی عن أصحابه و أترابه الذين کانوا يعرفون سيرته الطاهرة و آمنوا به کأبی بکر و عثمان و عميه حمزة و العباس، و لا عن ربيبه و صفيه و ابن عمه علیّ، و لا حبه و مولاه زيد بن حارثة- رضی اللّه عنهم-، و التحقيق فی ذلک کله ما تراه فی المباحث الآتية:

الوحی المحمدی، ص: ۷۳

نتيجة تلک المقدمات العشر

هنا وصل درمنغام إلی آخر المقدمات التی تتصل بالنتيجة المطلوبة له، فأرخی لخياله العنان، و نزع من جواده اللجام، و نخسه بالمهماز، فعدا به سبحا، و جمح به جمحا، و أورت حوافره له قدحا فأثارت له نقعا و أذن لشاعريته الفرنسية فی بريق لمعها، و ظلمة نقعها، أن تصف محمدا عند ذلک الغار، بما تحدثه فی نفسه مشاهد نجوم الليل و ما تسفعه به شمس النهار، و ما تخيل إليه أنه کان يراه فی قنة الجبل من صحاری و قفار، و خيام و آبار، و ما ثم خيام و لا آبار، و من رعاة تهشّ علی غنمها حيث لا أشجار، حتی ذکر البحار علی بعد البحار، و سيذکر موج البحر أيضا، و نسی أن يصف الفلک المواخر فيه، و ما يعرض لها فی حالة الرهو و الريح الطيبة، و حالة العواصف و الأمواج المصطخبة، فکل منهما فی القرآن، و لم يکن رآه محمد من جبل حراء.

قد أتقن هذا الفرنسی التخيل الشعری، و لکنه لم يوافق به الوصف الموضعی.

ثم قال مصورا لما يبتغيه محمد صلّی اللّه عليه و سلم من مشاهداته المزعومة:

«و هذه النجوم فی ليالی صيف الصحراء کثيرة شديدة البريق حتی ليحسب الإنسان أنه يسمع بصيص ضوئها، و کأنه نغم نار موقدة».

«حقا! إنّ السّماء لشارات للمدرکين، و فی العالم غيب کلّه. و لکن أ لا يکفی أن يفتح الإنسان عينيه ليری، و أن يرهف أذنه ليسمع؟ ليری حقا؟ و ليسمع الکلم الخالد؟ لکنّ النّاس عيونا لا ترى و آذانا لا تسمع. أما هو فيحسب (!!) أنه يسمع و يری. و هل تحتاج لکی تسمع ما وراء السماء من أصوات إلا إلی قلب خالص و نفس مخلصة و فؤاد ملئ إيمانا؟».

«و محمّد فی ريب من حکمة الناس، فهو لا يريد أن يعرف إلا الحقّ الخالص، الذی لا يأتيه من بين يديه و لا من خلفه باطل، و هو يستطيع العيش إلا بالحقّ، و الحق ليس فيما يری حوله، فحياة القرشيين ليست حقا، و ربا المرابين، و نهب البدو، و لهو الخلعاء و کل ما إلی ذلک لا شیء من الحق فيه، و الأصنام المحيطة بالکعبة ليست حقا، و هبل الإله الطويل الذقن الکثير العطور و الملابس ليس إلها

حقا».

«إذن فأين الحقّ و ما هو؟».

«و ظل محمّد يتردّد على حراء فى رمضان من كلّ عام سنوات متواليهٔ، و هناك كان يزداد

الوحی المحمدی، ص: ۷۴

به التأمل ابتغاء الحقيقـهٔ حتى لكان ينسـى نفسه، و ينسـى طعامه، و ينسـى كلّ ما فى الحياهٔ لأن هـذا الـذى يرى فى الحياهٔ ليس حقا. و هنـاك كـان يقلب فى صـحف ذهنه كمـل مـا وعى فيزداد عما يزاول الناس من ألوان الظن رغبـهٔ و اوزارا، و هو لم يكن يطمع فى أن يجد فى قصـص الأحبار و فى كتب الرهبان الحق الذى ينشد، بل فى هذا الكون المحيط به: فى السماء و نجومها و قمرها و شمسها، و فى الصـحراء ساعـات لهيبهـا المحرق تحت ضوء الشـمس البـاهرهٔ اللألاء و ساعات صـفوها البـديع، إذ تكسوها أشـعّهٔ القمر أو أضواء النجوم بلباسها الرطب الندى. و فى البحر و موجه! و فى كلّ ما وراء ذلك مما يتصل بالوجود، و تشمله وحدهٔ الوجود- فى هذا الكون كـان يلتمس الحقيقـهٔ العليا ابتغاء إدراكها. كان يسـمو بنفسه ساعات خلوته ليتصل بهـذا الكون و ليخترق شـغاف الحجب إلى مكنون سره».

(قال درمنغام): «فلما كانت سنهٔ ۶۱۰ أو نحوها كانت الحالهٔ النفسـيهٔ التى يعانيها محمد على أشدها. فقد أبهظت عاتقه العقيدهٔ بأن أمرا جوهريا ينقصه و ينقص قومه، و أن الناس نسوا هذا الأمر الجوهرى و تشبث كل بصنم قومه و قبيلته، و خشى النّاس الجنّ و الأشباح و البوارح. و أهملوا الحقيقـهٔ العليا، و لعلهم لم ينكروها، و لكنهم نسوها نسـيانا هو موت الروح. و قـد خلصت نفس محمـد من كلّ هذه الآراء التافههٔ، و من كلّ القوى التى تخضع لقوهٔ غيرها، و من كل كائن ليس مظهرا للكائن الواحد.

و لقـد عرف أن المسـيحيين فى الشام و مكـهٔ لهم دين أوحى به! و أن أقواما غيرهم نزلت عليهم كلمهٔ اللّه، و أنهم عرفوا الحق و وعوه أن جاءهم علم من أنبياء أوحى إليهم به. كلما ضل الناس بعثت السـماء إليهم نبيا يهـديهم إلى الصـراط المسـتقيم و يذكرهم بالحقيقهٔ الخالـدهٔ، و هـذا الدين الذى جاء به الأنبياء فى كل الأزمان دين واحد، و كلما أفسده النّاس جاءهم رسول من السـماء يقوّم عوجهم. و قد كان الشّعب العربىّ يومئذ فى أشد تيهاء الضلال.

أ فما آن لرحمهٔ اللّه أن تظهر فيهم مرهٔ أخرى و أن تهديهم إلى الحقّ؟».

«و تزايدت رغبهٔ محمّد عن الاجتماع بالناس، و وجد فى وحدهٔ غار حراء مسرهٔ تزداد كل يوم عمقا، و جعل يقضى الأسابيع و معه قليل من الزاد، و روحه تزداد بـالصوم و السـهر و الإدمـان على تقليب فكرته صـقالا و حـدّهٔ، و نسـى النهار و الليل و الحلم و اليقظـهٔ و جعل يقضـى الساعـات الطوال جاثيا فى الغار، أو مسـتلقيا فى الشـمس، أو سائرا بخطوات واسـعهٔ فى طرق الصـحراء الحجريـهٔ و كأنه يسـمع الأصوات تخرج من خلال أحجارها تناديه مؤمنهٔ برسالته!».

الوحی المحمدی، ص: ۷۵

«و قضـى سـتّهٔ أشهر فى هذه الحال حتى خشى على نفسه عاقبهٔ أمره، فأسر بمخاوفه إلى خديجهٔ فطمأنته و جعلت تحدّثه بأنه الأمين، و أن الجن لا يمكن أن تقترب منه، و فيما هو يوما نائم بالغار جاءه ملك فقال له: أقرأ. قال: «ما أنا بقارئ» و كان هذا أول الوحى و أول النبوّهٔ».

«و هنا تبدأ حياهٔ حدهٔ روحيهٔ قويهٔ غايهٔ القوهٔ. حياهٔ تأخذ بالأبصار و الألباب، و لكنها حياهٔ تضـحيهٔ خالصهٔ لوجه اللّه و الحق و الإنسانيهٔ» أ. ه.

أقول: إنّ كلّ ما هنا من خبر أو جله غير صحيح، و لو صحت لكان ما استنبطه منها مما يخطر بالبال، و لكن الوحى المحمدى فوق كل استنباط و كل احتمال، فمن أين علم هذا الإفرنسى أن محمدا نسى الليل و النهار، و الحلم و اليقظهٔ؟ و أنه كان يقضى الساعات الطوال جاثيا فى الغار أو مستلقيا فى الشمس ... إلخ و إنه قضى ستهٔ أشهر فى هذا الحال؟.

قد افترى فى الأخبار «۱» ليستنبط منها أنه صار صلوات اللّه عليه مقلوبا على عقله، غائبا عن حسه، غارقا فى بحر لجى من خياله. أثمر له انبثاق ذلك الوحى العالى من نفسه، و تجليه لبصره و سمعه.

و إننى أبدأ الردّ عليه و على أمثاله بنقل أصحّ الروايات فى خبر تحنثه فى الغار الليالى ذوات العدد- من شهر رمضان فى تلك السنة لا فيما قبلها- لتفنيد أخيلته و شعرياته، و إبطال نتيجة مقدماته، و للاستغناء بها عما نقله من الخلط فى صفة الوحى من الفصل الذى بعد هذا من كتابه. ذلك ما رواه الشيخان البخارى و مسلم فى صحيحيهما، و هذا نص رواية البخارى رضى اللّه عنه فى كتابه الجامع الصحيح.

---

(۱) أى افترى فى أثنائها ما ليس له أصل من روايات السيرة و لم يفترها كلها، كما أنه لم يعرف الصحيح الضعيف، و فسرها بما وافق رأيه فى سبب ذلك الوحى العظيم الذى يعترف بعظمته و حكمته.

الوحى المحمدى، ص: ۷۶

باب كيف كان بدء الوحى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم

افتتح الحافظ البخارى هذا الباب، بل الكتاب كله بروايته لحديث: «إنما الأعمال بالنيات» ثم قال:

حدّثنا عبد اللّه بن يوسف قال أخبرنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين رضى اللّه عنها أن الحارث بن هشام رضى اللّه عنه سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقال: يا رسول اللّه كيف يأتيك الوحى «۱»؟ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس «۲» و هو أشده علىّ، فيفصم «۳» عنى و قد وعيت عنه ما قال، و أحيانا يتمثل لى الملك رجلا «۴» فيكلمنى فأعى ما يقول، قالت عائشة رضى اللّه عنها:

---

(۱) للوحى معنى عام يطلق على صور من الإعلام الخفى الخاص الموافق لوضع اللغة منها: الرؤيا الصادقة، و النفث فى الروع، و الإلهام، و إلقاء الملك، و له معنى خاص هو أحد الأقسام الثلاثة للتكليم الإلهى الوارد فى قوله تعالى: وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ [الشورى: ۵۱]، و هذا الحديث فيه وصف القسم الأول و ذكر الثالث، و أما الثانى و هو الكلام الإلهى من وراء حجاب بدون وساطة، فقد ثبت للنبى صلّى اللّه عليه و سلم فى ليلة الإسراء و المعراج و لموسى عليه الصلاة و السلام، و غير هذه الثلاثة من الوحى العام لا يعد من كلام الله تعالى التشريعى، و الرؤيا الصادقة و الإلهام ما وقع و يقع لغير الأنبياء.

(۲) المراد من التشبيه: أنه صوت كصلصلة الحديد المتصلة المتداركة التى تسمع من الجلاجل و نحوها ليس بكلام مؤلف من الحروف، و الأقرب أن سببه وجود الملائكة و إن لم ير أحدا منهم فى حال سماعه. و كانت هذه الحالة أشد الحالتين عليه، لأنهما كما قال الحكيم ابن خلدون: انسلاخ من البشرية الجسمانية و اتصال بالملكية الروحانية، و الحالة الأخرى عكسها، لأنها انتقال الملك من الروحانية المحضة إلى البشرية الجسمانية.

(۳) يفصم- على وزن يضرب: ينفك و ينجلى.

(۴) أى يظهر بصفة رجل و مثاله: و ذلك أن الملك روح عاقل مريد له قوة التصرف فى المادة فهو يأخذ من مادة الكون الصورة التى يريدها، و أن علم الكيمياء فى هذا العصر يقرب إلى التصور هذا التصور بما ثبت فيه من تحول مادة من الكثافة إلى الطاقة و ما بينهما بقوة الحرارة و أقواها الحرارة الكهربائية، و الملك يتصرف فى الكهربائية كما يشاء. و قد شرحنا هذا المعنى فى تفسير قوله تعالى: وَ لَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ [الأعراف: ۱۴۳]، راجع ص ۱۶۲- ۱۶۷ ج ۹ تفسير.

الوحی المحمدی، ص: ۷۷

(و لقد رأیته ینزل علیه الوحی فی الیوم الشدید البرد فیفصم عنه و إن جبینه لیتفصد عرقا «۱»).

حدّثنا یحیی بن بکیر، قال حدّثنا اللیث عن عقیل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبیر عن عائشة أم المؤمنین أنها قالت: أول ما بدئ به رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم من الوحی الرؤیا الصالحة فی النوم «۲»، فکان لا یری رؤیا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إلیه الخلاء، و کان یخلو بغار حراء فیتحنث فیه «۳»- و هو التعبد- اللیالی ذوات العدد قبل أن ینزع إلی أهله و یتزود لذلک، ثم یرجع إلی خدیجة فیتزود لمثلها، حتی جاءه الحق «۴» و هو فی غار حراء فجاءه الملک فقال: «أقرأ، قال: ما أنا بقارئ «۵»، قال: فأخذنی فغطّنی «۶» حتی بلغ منّی

---

(۱) کان من هذه الشدة علیه ما قاله العلامة ابن القیم فی زاد المعاد: حتی أن راحلته لتبرک به إلی الأرض إذا کان راکبها، و لقد جاءه مرة کذلک و فخذه علی فخذ زید بن ثابت، فثقلت علیه حتی کادت ترضها أ. ه.

(۲) أکثر الرؤی أضغاث أحلام لها أسباب تثیرها فی خیال النائم، و الرؤیا الصالحة نوع من انکشاف الحقائق للنفس المستعدة لإدراکها بما یکون وقت النوم من صفائها بعد اشتغالها بمدرکات الحواس و ما تثیرها من الخواطر و الأفکار، و رؤیا الأنبیاء قبل وحی التشریع تمهید و تأنیس للنفس تقوی استعدادها لتلقی الکلام الإلهی.

(۳) أصل التحنث؛ اتقاء الحنث أی الذنب، أو مقلوب التحنف و هو اتباع الحنیفیة ملة إبراهیم، و هو روایة ابن هشام. و قوله: و هو التعبد، جملة تفسیریة لراوی الحدیث و هو ابن شهاب الزهری فهو مدرج فی الحدیث، و اللیالی ظرف متعلق بیتحنث.

(۴) و فی روایة «فجاءه الحق»؛ أی بغته و لم یکن ینتظره، و المراد به الوحی الصریح الذی هو کلام اللّه تعالی، و هذه الروایة الثابتة فی الصحیحین صریحة فی أن هذا کان فی الیقظة، و فی سیرة ابن هشام عن ابن إسحاق أن جبریل جاءه فی المنام، و هی من مراسیل عبید بن عمیر و هو ثقة و له صحبة، و لکن روایة الصحیحین المسندة المرفوعة هی المعتمدة و جمع بعضهم بین الروایتین بأنه رآه أولا فی المنام فاستقرأه ثم رآه فی الیقظة، و لو وقع هذا فی المنام لزال خوفه و رعبه صلّی اللّه علیه و سلم بعد الیقظة و لم یذهب إلی خدیجة یرجف فؤاده.

(۵) الظاهر: أن الأمر بالقراءة أمر تکوین لا تکلیف- أی کن قارئا- و لذلک قال له فی الثالثة: (اقرأ باسم ربک) أی کن قارئا باسمه و من قبله و بأقداره إیاک علی القراءة، لا بحولک و قوتک، فهو یعلم أنک أمی لا یتعلق کسبک و استطاعتک بالقراءة، أما و قد شاء ربک- الذی خلق- خلق الإنسان من علق، و هو الحیوان المنوی أو أول ما تتحول إلیه نطفة الزوجیة بعد العلوق، فجعله بشرا سویا و یبصر و یعقل- أن یجعلک قارئا لما یوحیه إلیک لتقرأه علی الناس فأنت تکون قارئا.

(۶) فسروا الغط بالضم الشدید الضاغط فقالوا: أی ضمنی و عصرنی، و فی روایة الطبری للحدیث: «و أصل معناهما الغمس فی الماء و ضیق النفس، و فسره بعضهم بالخنق و هو مبالغة لا تلیق هنا. و حکمة هذا الغط تقویة روحانیة النبی صلّی اللّه علیه و سلم حتی یقوی علی الاتصال بالملک و الفهم منه.

الوحی المحمدی، ص: ۷۸

الجهد، ثم أرسلنی فقال: أقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذنی فغطّنی الثانیة، حتی بلغ منّی الجهد، ثم أرسلنی فقال: أقرأ فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذنی فغطّنی الثالثة. ثم أرسلنی فقال: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ الَّذِی خَلَقَ (۱) خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ (۲) اقْرَأْ وَ رَبُّکَ الْأَکْرَمُ «۱» [العلق: ۱- ۳]»، فرجع بها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم یرجف فؤاده، فدخل علی خدیجة بنت خویلد رضی اللّه عنها فقال: «زمّلونی زمّلونی» فزمّلوه حتی ذهب عنه الروع، فقال لخدیجة و أخبرها الخبر: «لقد خشیت علی نفسی «۲»» فقالت خدیجة: کلا و اللّه ما یخزیک اللّه أبدا «۳» إنک لتصل الرحم، و تحمل الکل، و تکسب المعدوم، و تقری الضیف، و تعین علی نوائب الحق.

فانطلقت به- خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة- و كان امرأ تنصر فى الجاهلية، و كان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء اللّه أن يكتب «۴»، و كان شيخا كبيرا قد عمى، فقالت له خديجة: يا ابن

---

(۱) اختصره هنا و زاد فى التفسير الَّذِی عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (۴) عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ.

(۲) اختلف العلماء فى خوفه صلّى اللّه عليه و سلم على نفسه فقيل: خشى الجنون، و أن يكون ما رآه من الجن. و قد أنكره و رده القاضى أبو بكر بن العربى، و وافقه الحافظ حجر و لكن الحافظ قال: إنه روى من عدة طرق (أقول) و هو الظاهر مما أجابته به خديجة. و استشكل بأن الوحى يكون مقترنا بعلم قطعى بأنه من اللّه و أن الملقن له من الملائكة، و أجيب بأن هذا العلم الضرورى يحصل باستعراف الملك له و إعلامه إياه بذلك عند تلقينه الأمر بالتبليغ، و إنما كان ظهور الملك له هذه المرة لأجل الإيناس و الإعداد لتلقى وحى الأحكام، و الأمر فيه بالقراءة للتكوين لا للتكليف، و إلا كان من تكليف ما لا يطاق. و قيل: إنه خاف على نفسه الموت أو الهلاك و هو قريب، ثم أقوال أخرى متكلفة. و هو على كل حال يدل على أنه صلّى اللّه عليه و سلم لم يفهم من هذه الرؤيا أنه صار نبيا، و لا أن الذى رآه هو ملك الوحى جبريل عليه السلام، و يؤيد ذلك مسألة ورقة.

(۳) الخزى: اسم معناه الذل و الهوان. و أخزاه أذله و أهانه. و الكل: (بفتح الكاف) المتعب، و من هو عالة على غيره، و حمله: إعطاؤه راحلة يركبها أو حمل أثقاله، و تكسب بفتح التاء، و ضمها لغة و رواية، و المعدوم المفقود (قيل) و لا يظهر معناه إلا بتكلف و قال الخطابى: الصواب المعدم و هو الفقير الفاقد لما يكفيه أ. ه.

لكن الرواية «المعدوم» و هو وصف لمحذوف، و تكسب الثلاثى من الكسب يتعدى بنفسه إلى مفعولين حذف أولهما، و المعنى: و تجعل المحتاج العاجز عن الكسب كاسبا للشىء المعدوم الذى يفقده ببذله له أو بمساعدته على كسبه، و الإعانة على نوائب الحق كلمة جامعة لكل أعمال البر و النجدة و المروءة فيما عدا الباطل. و ما رغب خديجة فى التزوج به صلّى اللّه عليه و سلم إلا هذه الفضائل التى أحاطت بها خبرا بمعاشرته الزوجية؛ و لذلك عد بعض علماء الإفرنج إيمانها به أصح شهادة له.

(۴) و فى رواية البخارى فى كتاب التفسير من صحيحه: يكتب من الإنجيل بالعربية، و فى معناها رواية

عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخى ما ذا ترى؟ فأخبره رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بخبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس «۱» الذى نزّل اللّه على موسى، ليتنى فيها جذعا «۲»، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أو مخرجى هم؟» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى، و إن لم يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا ثم لم ينشب «۳» ورقة أن توفى و فتر الوحى «۴».

قال ابن شهاب: و أخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد اللّه الأنصارى قال و هو يحدث عن فترة الوحى فقال فى حديثه: «بينما أنا ماش إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء و الأرض، فرعبت منه فرجعت فقلت زملونى فأنزل اللّه تعالى: يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (۱) قُمْ فَأَنْذِرْ إلى قوله: وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ [المدثر: ۱- ۵]، فحمى الوحى و تتابع «۵» أ. ه.

مسلم: فكان يكتب الكتاب العربى. و لا تنافى بين الروايات إذ كان يعرف اللغتين. و ورقة ابن عم خديجة، و أما قولها له: اسمع من ابن أخيك فهو من باب التوقير لسنه و استعطاف الرحم. و كذا قوله للنبى صلّى اللّه عليه و سلم يا ابن أخى، و ما زال يستعمل فى خطاب أولاد الأقرباء و الأصدقاء.

(۱) الناموس: فى اللغة صاحب السر، و المراد بن أمين الوحى جبريل، و قوله: «نزل الله على موسى» و لم يقل و عيسى؛ لأن الشبه بين

الوحی إلی موسی و محمد علیهما السلام أتم؛ لأن کلا منهما أوتی شریعة تامة مستقلة فی عباداتها و معاملاتها و سیاستها و قوتها العسکریة، و عیسی علیه السلام کان تابعا لشریعة التوراة و ناسخا لبعض الأحکام التی یقتضیها الإصلاح و مبشرا بالنبی الذی یأتی من بعده بالشرع الکامل العام الدائم و هو محمد رسول الله و خاتم النبیین، و فی بعض الروایات الضعیفة: أن ورقة قال: «ناموس عیسی»، و فی روایة أخری حسنة الإسناد فی دلائل النبوة لأبی نعی: أن خدیجة جاءت ورقة وحدها أولا فذکرت له الخبر فقال لها: إن کنت صدقتنی إنه لیأتیه ناموس عیسی الذی لا یعلمه بنو إسرائیل أبناءهم أ. ه. و الناموس واحد علی کل حال. و لکن روایة الصحیحین: «فانطلقت به» تدل علی التعقیب أی أنها ذهبت به عقب تحدیثها بما رأی و علیها المعول، و ما خالفها مرسل مروی بالمعنی الذی فهمه عبید بن عمیر و من دونه.

(۲) قوله: لیتنی فیها جذعا: الجذع بفتحتین خلاف المسن من البهائم و اشتهرت استعارته للشاب من الناس. و الإخراج: النفی من الوطن.

(۳) لم ینشب- بفتح الشین المعجمة- أی: لم یلبث بعد هذا أن توفی و لم ینل ما یتمناه من إدراک زمن تبلیغ الرسالة لینصر النبی صلّی اللّه علیه و سلم، و لکن فی سیرة ابن إسحاق و تبعه غیره أن ورقة کان یمر ببلال و هو یعذب، و مقتضاه أنه أدراک زمن البعثة و اضطهاد المشرکین للمؤمنین. و المعتمد ما فی الصحیح من أنه توفی عقب هذا الحدیث بقلیل.

(۴) فتر الوحی: انقطع مؤقتا لیعود- و کانت فترة الوحی ثلاث سنین- و هی ما بین بدئه بأمر جبریل له بالقراءة و بین نزول أول سورة المدثر التی أمر فیها بإنذار الناس.

(۵) أی اتصلت مدة التبلیغ کلها و هی عشرون سنة و لکنه کان نجوما متفرقة حسب الحاجة، فتارة تنزل

الوحی المحمدی، ص: ۸۰

و أقول: أخرج البخاری حدیث جابر فی تفسیر سورة المدثر من طرق فی بعضها: أن أولها هو أول ما أنزل مطلقا و فی البعض الآخر أنها من حدیث النبی صلّی اللّه علیه و سلم عن فترة الوحی کالتی هنا، و قد عبّر صلّی اللّه علیه و سلم عن رعبه من رؤیة الملک بقوله: (فجئثت منه رعبا) و فی روایة أخری: (فجئثت منه حتی وهیت إلی الأرض)، أی فزعت و خفت و هو بضم الجیم و کسر الهمزة بالبناء للمفعول.

هذا هو المعتمد عند المحدثین فی أول ما نزل من القرآن، و المشهور أنه نزل بعد أول المدثر سورة المزمل تامة و بعدها بقیة سورة المدثر؛ و قال مجاهد: أول ما نزل سورة (ن و القلم) و هو غلط، و روی عن علیّ کرم اللّه وجهه أن أول ما نزل سورة الفاتحة و اعتمده شیخنا فی توجیه کونها فاتحة الکتاب، و یمکن أن یراد أنها أول سورة تامة نزلت بعد بدء الوحی بالتمهید التکوینی، ثم بالأمر بالتبلیغ الإجمالی، و تلاها فرض الصلاة و نزول سورة المزمّل أو نزلتا فی وقت واحد.

و سیأتی کلام آخر فی فترة الوحی و أول ما نزل بعده.

السورة دفعة واحدة- و تارة تنزل الآیات المتفرقة، و قد یکون بین ذلک فترات قصیرة، کالذی ورد فی سبب نزول سورة الضحی. و قد اختلط الأمر فی هذا علی درمنغام فظن أنها هی التی نزلت بعد فترة الوحی، و المروی أنه نزل قبلها بضع سور. و کان سبب نزولها کما فی الصحیحین من حدیث جندب بن سفیان أن النبی صلّی اللّه علیه و سلم اشتکی (أی وجع) فلم یقم لیلتین أو ثلاثا (أی إلی تهجده و تلاوته) فقالت: امرأة: یا محمد إنی لأرجو أن یکون شیطانک قد ترکک، لم أره قربک منذ لیلتین أو ثلاث. فأنزل اللّه عز و جل: وَ الضُّحی (۱) وَ اللَّیْلِ إِذا سَجی (۲) ما وَدَّعَکَ رَبُّکَ وَ ما قَلی [الضحی: ۱- ۳] أ. ه. تقرأ «ودعک» بالتشدید و التخفیف و معناهما واحد و هو الترک، و القلی بالکسر و القصر: البغض، أی ما ترکک ربک و ما أبغضک، و هذه المرأة أم جمیل امرأة أبی لهب و بنت أبی سفیان کما رواه الحاکم عن زید بن أرقم، و کان هذا بعد نزول سورة (تبت یدا أبی لهب)، و روی ابن جریر من طریقین مرسلین

أن جبریل أبطأ علی النبی صلّی اللّه علیه و سلم، فجزع جزعا شدیدا، فقالت خدیجة: إنی أری ربک قد قلاک مما یری من جزعک، فنزلت- و معارضة روایة الصحیحة بهاته الروایة المرسلة تسقط اعتبارها، و إن جمع الحافظ بن حجر بینهما بأن خدیجة قالت ما قالت توجعا، و حمالة الحطب قالته شماتة.

الوحی المحمدی، ص: ۸۱

بسط ما یصورون به الوحی النفسی لمحمد صلّی اللّه علیه و سلم

ها أنا ذا قد بسطت جمیع المقدمات التی استنبطوها من تاریخ محمّد صلّی اللّه علیه و سلم و حالته النفسیة و العقلیة، و حالة قومه و وطنه، و ما تصوروا أنه استفاده من أسفاره، ما کان من تأثیر خلواته و تحنثه و تفکره فیها، و قفیت علیها بأصحّ ما رواه المحدثون فی الصحاح من صفة الوحی و کیف کان بدؤه و فترته، ثم کیف أمر نبیه صلّی اللّه علیه و سلم بتبلیغه و دعوة الناس إلی الحق، و کیف حمی و تتابع؟.

و أبین الآن کیف یستنبطون من ذلک أن هذا الوحی قد نبع من نفس محمد و أفکاره بتأثیر ذلک کله فی وجدانه و عقله، بما لم أر و لم أسمع مثله فی تقریبه إلی العقل، ثم أقفی علیه بما ینقضه من أساسه بأدلة العقل و النقل و التاریخ و الصحیح من وصف حالته صلّی اللّه علیه و سلم فأقول:

یقولون (أولا): إن عقل محمد الهیولانی- أو ما یسمونه فی عصرنا بالعقل الباطن- قد أدرک بنوره الذاتی بطلان ما کان علیه قومه من عبادة الأصنام، کما أدرک ذلک أفراد آخرون من الأقوام.

و نقول: آمنا و صدّقنا.

(ثانیا): أن فطرته الزکیة قد احتقرت ما کانوا یتنافسون فیه من جمع الأموال بالربا و القمار.

و نقول: آمنا و صدّقنا.

(ثالثا): إن فقره و فقر عمه (أبی طالب) الذی کفله صغیرا حال دون انغماسه فیما کانوا یسرفون فیه من الاستمتاع بالشهوات؛ من السکر و التسری و عزف القیان.

و نقول الصحیح: إنه ترک ذلک احتقارا له لا عجزا عنه.

(رابعا): إنه طال تفکره فی إنقاذهم من ذلک الشرک القبیح، و تطهیرهم من تلک الفواحش و المنکرات.

و نقول: لا مانع من ذلک.

الوحی المحمدی، ص: ۸۲

(خامسا): أنه استفاد من أسفاره و ممن لقیه فیها، و فی مکة نفسها من النصاری کثیرا من المعلومات عن النبیین و المرسلین الذین بعثهم اللّه فی بنی إسرائیل و غیرهم فأخرجوهم من الظلمات إلی النور.

و نقول: إنّ هذا لم یصح عندنا و لا یضرنا.

(سادسا): أنّ تلک المعلومات لم تکن کلّها مقبولة فی عقله لما عرض للنصرانیة من الوثنیة بألوهیة المسیح و أمه، و غیر ذلک و بما حدث فیها من البدع.

و نقول: هذا مبنی علی ما قبله، فهو معقول غیر منقول.

(سابعا): إنه کان قد سمع أنّ اللّه سیبعث نبیا مثل أولئک الأنبیاء من العرب فی الحجاز قد بشر به عیسی المسیح و غیره من الأنبیاء، و أن هذا علق بنفسه فتعلق رجاؤه بأن یکون هو ذلک النبی الذی آن أوانه.

و نقول: إن هذا استنباط لهم مما قبله غیر صحیح و سیأتی ما فیه.

(ثامنا): و هو نتیجة ما تقدم: أنه توسل إلی ذلک بالانقطاع إلی عبادة اللّه تعالی و التوجه إلیه فی خلوته بغار حراء فقوی هنالک إیمانه، و سما وجدانه، فاتسع محیط تفطره، و تضاعف نور بصیرته، فاهتدی عقله الکبیر إلی الآیات البیّنات فی ملکوت السموات و الأرض علی وحدانیة مبدع الوجود، و سر النظام الساری فی کلّ موجود، بما صار به أهلا لهدایة الناس و إخراجهم من الظلمات إلی النور، و ما زال یفکر و یتأمل، و ینفعل و یتململ، و یتقلّب بین الآلام و الآمال، حتی أیقن أنه هو النبیّ المنتظر، الذی یبعثه اللّه لهدایة البشر، فتجلّی له هذا الاعتقاد فی الرؤی المنامیة ثم قوی حتی صار یتمثل له الملک یلقنه الوحی فی الیقظة.

و أما المعلومات التی جاءته فی الوحی فهی مستمدة الأصل من تلک الینابیع التی ذکرناها، و مما هداه إلیه عقله و تفکره فی التمییز بین ما یصح منها و ما لا یصح، و لکنها کانت تتجلّی له نازلة من السماء، و أنها خطاب الخالق عزّ و جلّ بواسطة الناموس الأکبر ملک الوحی جبریل روح القدس علیه السلام، الذی کان ینزل علی موسی بن عمران، و عیسی ابن مریم و غیرهما من النبیین علیهم السلام.

و قال أحد ملاحدة المصریین: إن سولون الحکیم الیونانی وضع قانونا و شریعة لقومه فلیس بدعا فی العقل أن یضع محمد شریعة أیضا، و سأبین فساد هذا الرأی أیضا.

الوحی المحمدی، ص: ۸۳

تفنید تصویرهم للوحی النفسی و إبطاله من وجوه

(الوجه الأول): إن أکثر المقدمات التی أخذوا منها هذه النتیجة هی آراء متخیّلة، أو دعاوی باطلة، لا قضایا تاریخیة ثابتة، کما بیناه عند ذکرها، و إذا بطلت المقدمات بطل لزوم النتیجة لها.

مثال ذلک: زعمهم أن محمدا صلّی اللّه علیه و سلم سمع من نصاری الشام خبر غلب الفرس و ظهورهم علی الروم؛ لیوهموا النّاس أنّ ما جاء فی أول سورة الروم من الإنباء بالمسألة، و بأن الروم سیغلبون الفرس بعد ذلک؛ هو مستمد مما سمعه صلّی اللّه علیه و سلم من نصاری الشام، و هذا مردود بدلائل التاریخ و العقل؛ فأما التاریخ فإنه یحدثنا بأن ظهور الفرس علی الروم کان فی سنة ۶۱۰ م و ذلک بعد رحلة محمد الأخیرة إلی الشام بأربع عشر سنة و قبل بدء الوحی بسنة. ثم إن التاریخ أنبأنا أنّ دولة الروم کانت مختلة معتلّة فی ذلک العهد بحیث لم یکن أحد یرجو أن تعود لها الکرّة و الغلب علی الفرس، حتی أن أهل مکة أنفسهم هربوا بالخبر، و راهن أبو بکر أحدهم علی ذلک و أجازه النبی صلّی اللّه علیه و سلم فربح الرهان «۱»، و أما العقل فإنه یحکم بأن مثل محمد فی سمو إدراکه المتفق علیه لا- یمکن أن یجزم بأن الغلب سیعود للروم علی الفرس فی مدة بضع سنین، لا- من قبل الرأی و لا- من الوحی النفسی المستمد من الأخبار غیر الموثوق بها، و قد صحّ أن انتصار الروم وقع سنة ۶۲۲ م، و کان وحی التبلیغ للنبی صلّی اللّه علیه و سلم سنة ۶۱۴ م، فإذا فرضنا أنّ سورة الروم نزلت فی هذه السنة یکون النصر قد حصل بعد ثمانی سنین، و إن کان فی السنة الثانیة تکون المدة سبع سنین، و هو المعتمد فی التفسیر، و البضع یطلق علی ما بین الثلاث و التسع.

و الحکمة فی التعبیر عن هذا النبأ بقوله تعالی: غُلِبَتِ الرُّومُ (۲) فِی أَدْنَی الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَیَغْلِبُونَ (۳) فِی بِضْعِ سِنِینَ [الروم: ۲- ۴]، و لم یقل بعد سبع أو ثمان

---

(۱) فی القصة روایات من طرق، فیها خلاف فیما قدروا فیه البضع و هو فی الأصل من ۳- ۹ فقیل خمس و قیل ست، و لام النبی صلّی اللّه علیه و سلم أبا بکر علی تحدیده، و قد أبهمه الله تعالی، و فی بعضها أنهم أخطئوا الأجل الأول فأمر النبی صلّی اللّه علیه و سلم بأن یمادوهم فی الأجل و یزایدوهم فی الرهن ففعلوا و رضی المشرکون. و کان الذی تولی قمارهم ابن خلف فأظهر الله الروم علی الفرس عند انتهائه علی رأس السبع من قمارهم الأول.

الوحی المحمدی، ص: ۸۴

مثلا- هی إفادة أن الغلب یکون فی الحرب الممتدة فی هذه المدة، و أنباء الوحی و العبر لا- تکون بأسلوب التاریخ یحدد الوقائع بالسنین، و لیس فی وعود القرآن الکثیرة للمسلمین بالنصر و غیره من أنباء الغیب ذکر السنین و لا الشهور، فهذه الآیة فریدة فی بابها.

و مثال آخر: ما زعموا من مروره صلّی اللّه علیه و سلم فی رحلته إلی الشام بأرض مدین و حدیثه مع أهلها، الذی أرادوا به أن یجعلوه أصلا لما جاء فی القرآن من أخبارها و الخبر باطل کما أشرنا إلیه عند نقلنا إیاه فی المقدمات، و لو صحّ لما کان من المعقول أن یعتمد محمد علی ما سمعه فی الطریق من أناس مجهولین لا یوثق بمعرفتهم و لا یصدقهم فیجعله أصلا للوحی الذی جاءه فی قصة موسی و قصة شعیب علیهما السلام.

(الوجه الثانی): لو کان النبیّ صلّی اللّه علیه و سلم تلقی عن علماء النصاری فی الشام شیئا أو عاشرهم لنقل ذلک أتباعه الذین لم یترکوا شیئا علم عنه أو قیل فیه- و لو لم یثبت- إلا و دونوه و وکلوا أمر صحته أو عدمها إلی إسناده و ما علم من سیرة رواته.

(الوجه الثالث): لو وقع ما ذکر لاتخذه أعداؤه من کبار المشرکین شبهة یحتجون بها علی أنّ ما یدعیه من الوحی قد تعلّمه فی الشام من النصاری، فإنهم کانوا یوردون علیه ما هو أضعف و أسخف من هذه الشبهة، و هو أنه کان فی مکة قین (حداد) رومیّ یصنع السیوف و غیرها، فکان النبی صلّی اللّه علیه و سلم یقف عنده أحیانا یشاهد صنعته فاتهموه بأنه یتعلم منه، فرد اللّه علیهم بقوله: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ یَقُولُونَ إِنَّما یُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِی یُلْحِدُونَ إِلَیْهِ أَعْجَمِیٌّ وَ هذا لِسانٌ عَرَبِیٌّ مُبِینٌ [النحل: ۱۰۳].

(الوجه الرابع): نصوص القرآن صریحة فی أنه صلّی اللّه علیه و سلم لم یکن یعرف شیئا من أخبار الرسل و قصصهم قبل الوحی، و هم متفقون معنا علی أنه صلّی اللّه علیه و سلم لم یکن یکذب علی أحد فضلا عن الکذب علی اللّه عزّ و جلّ، کما اعترف بذلک أعدی أعدائه أبو جهل، کما أنهم متفقون معنا علی قوة إیمانه باللّه عزّ و جلّ و یقینه بکل ما أوحاه إلیه.

و من الشواهد علی ذلک: قوله تعالی عقب قصة موسی فی مدین و ما بعدها من سورة القصص: وَ ما کُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِیِّ إِذْ قَضَیْنا إِلی مُوسَی الْأَمْرَ وَ ما کُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِینَ (۴۴) وَ لکِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَیْهِمُ الْعُمُرُ وَ ما کُنْتَ ثاوِیاً فِی أَهْلِ مَدْیَنَ تَتْلُوا عَلَیْهِمْ آیاتِنا وَ لکِنَّا کُنَّا مُرْسِلِینَ [الآیتان: ۴۴، ۴۵]، و قوله بعد قصة نوح من سورة هود: تِلْکَ مِنْ أَنْباءِ الْغَیْبِ

الوحی المحمدی، ص: ۸۵

نُوحِیها إِلَیْکَ ما کُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُکَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِینَ [الآیة: ۴۹]، و نحوه فی أواخر سورة یوسف بعد قصته: ذلِکَ مِنْ أَنْباءِ الْغَیْبِ نُوحِیهِ إِلَیْکَ وَ ما کُنْتَ لَدَیْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ یَمْکُرُونَ [الآیة: ۱۰۲].

و من الشواهد التی لم یکن یعرفها أحد من أهل الکتاب قوله تعالی بعد قصة زکریا و ولادة مریم و کفالته لها، فیتوهم أنه مأخوذ عنهم: ذلِکَ مِنْ أَنْباءِ الْغَیْبِ نُوحِیهِ إِلَیْکَ وَ ما کُنْتَ لَدَیْهِمْ إِذْ یُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَیُّهُمْ یَکْفُلُ مَرْیَمَ وَ ما کُنْتَ لَدَیْهِمْ إِذْ یَخْتَصِمُونَ [آل عمران: ۴۴].

الأقلام: جمع قلم تطلق علی الأزلام و الأقداح التی کانوا یلقونها لضرب القرعة لإزالة الخلاف فیما یتنازعون فیه، و علی أقلام الکتابة، و تکون القرعة بأوراق تخلط بها کما هو المعهود فی عصرنا، و المعنی أنهم اختصموا و تنازعوا فی کفالة مریم و تربیتها عنایة بأمرها فأصابت القرعة زکریا علیه و علیها السلام، کما قال تعالی فی أول قصتها.

(الوجه الخامس): أنه لم یرد فی الأخبار الصحیحة و المرفوعة «۱» أن محمدا صلّی اللّه علیه و سلم کان یرجو أن یکون هو النبی المنتظر الذی یتحدث عنه بعض علماء الیهود و النصاری قبل بعثته، و لو روی عنه شیء من ذلک لدوّنه المحدثون لأنهم ما ترکوا شیئا بلغهم عنه إلا و دوّنوه، کما رووا مثله عن أمیة بن أبی الصلت، بل صرح القرآن المجید بأنه لم یکن یرجو هذا و لا یؤمله، قال تعالی: وَ ما کُنْتَ تَرْجُوا أَنْ یُلْقی إِلَیْکَ الْکِتابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّکَ [القصص: ۸۶]، أی لکن ألقی إلیک رحمة من ربک بک و بالناس کلهم لا کسب لک فیه بعلم و لا عمل، و لا رجاء، و لا أمل، فهذا تأکید و تکمیل الشاهد الأول من الوجه الرابع.

(الوجه السادس): أن حدیث بدء الوحی الذی أثبته الشیخان فی الصحیحین، و غیرهما من المحدثین صریح فی أنه صلّی اللّه علیه و

سلم لما رأى الملك أول مرة و لم تجد زوجته خديجة بنت خويلد العاقلة المفكرة وسيلة يطمئن بها على نفسه، و تطمئن هى عليه إلا استفتاء أعلم العرب بهذا الشأن و هو ابن عمها ورقة بن نوفل الذى كان تنصر، و قرأ كتب اليهود و النصارى.

(الوجه السابع): لو كانت النبوة أمرا كان يرجوه محمد و يتوقعه، و كان قد تم استعداده له باختلائه و تعبده فى الغار، و ما صوروا به حاله فيه من الفكر المضطرب، و الوجدان الملتهب، و القلب المتقلب، حتى إذا كمل استعداده. تجلّى له رجاؤه و اعتقاده، بما تم به مراده، لظهر عقب ذلك كل ما كانت تنطوى عليه نفسه الوثّابة، و فكرته الوقّادة، فى سورة

---

(۱) الحديث المرفوع فى اصطلاح المحدثين ما صرح الصحابى بأنه من قول النبى صلّى اللّه عليه و سلم.

أو سور من أبلغ سور القرآن، فى بيان أصول الإيمان، و توحيد الديان، و اجتثاث شجرة الشرك و عبادة الأوثان، و تشريع الأحبار و الرهبان، و اتخاذ الولد للرحمن، و إنذار رءوس الكفر و الطغيان، ما سيلقون فى الدنيا من الخزى و النكال، و فى الآخرة من عذاب النار كسور المفصل و لا- سيما (ق و القرآن المجيد)، و الذاريات، و الطور، و النجم و القمر، ثم الحاقة و النبأ، أو فى سورة أو أكثر من السور الوسطى التى تقرعهم بالحجج، و تأخذهم بالعبر، و تضرب لهم المثل، بسنن اللّه فى الرسل، كسور الأنبياء و الحج و المؤمنون.

و لكنه ظل ثلاث سنين لم يتل فيها على الناس سورة و لم يدعهم إلى شىء و لا تحدث إلى أهل بيته و لا أصدقائه بمسألة من مسائل الإصلاح الدينى الذى توجهت إليه بزعمهم نفسه، و لا من ذم خرافات الشرك الذى ضاق به ذرعه. إذ لو تحدث بذلك لنقلوه عنه، و ناهيك بألصق الناس به، خديجة و علىّ و زيد بن حارثة فى بيته و أبى بكر الصديق الذى عاشره طول عمره- فهذا السكوت وحده فى فترة الوحى برهان قاطع على بطلان ما صوروا به استعداده للوحى الذاتى الذى زعموه، و استمداده لعلومه من التلقى الذى اختلقوه و الاختبار الذى توهموه.

(الوجه الثامن): أن ما نقل من ترتيب نزول الوحى بعد هذه الفترة الطويلة جاء موافقا لما كان يتجدّد من الوقائع و الحوادث الطارئة، دون ما زعموا من الأمور السابقة، فقد نزل ما بعد صدر سورة المدثر ردا على قول الوليد بن المغيرة المخزومى الذى قاله فى القرآن؛ فقد أراده أبو جهل أن يقول فيه قولا يبلغ قومه أنه منكر له، و أنه كاره له، بعد أن علم أنه تحرى استماعه من محمّد صلّى اللّه عليه و سلم و أعجب به، قال له الوليد: و ما ذا أقول؟ فو اللّه ما فيكم رجل أعلم بالشعر، لا برجزه و لا بقصيدة منى، و لا بأشعار الجنّ، و اللّه ما يشبه الذى يقول شيئا من هذا، و و اللّه إن لقوله لحلاوة، و إن عليه لطلاوة، و إنه لمنير أعلاه، مثمر أسفله «۱»، و إنه ليعلو و ما يعلى، و أنه ليحطم ما تحته. قال أبو جهل: لا- يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، فقال: دعنى حتى أفكر، فلما فكّر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره من غيره، فنزلت الآيات: ذَرْنِى وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (۱۱) وَ جَعَلْتُ لَهُ مالًا مَمْدُوداً [المدثر: ۱۱، ۱۲ إلى ۳۰]. رواه الحاكم عن ابن عباس بإسناد صحيح على شرط البخارى.

و قد نزلت سورة اقرأ فسورة ن و القلم، فسورة المزمل قبل سورة المدثر، و نزل بعدها أكثر من ثلاثين سورة من قصار المفصل و أوساطه ليس فيها شىء مما زعموا أنه تلقاه أو شاهده

---

(۱) و فى رواية: و إن أعلاه لمثمر، و إن أسفله لمغدق.

فى الأسفار، و لا مما وصفوا من أفكاره فى الغار، فليراجع ترتيب نزول السور فى كتاب الإتقان من شاء.

(الوجه التاسع): إن هذه المعلومات المحمدية التى تصورها هؤلاء المحللون لمسألة الوحى قليلة المواد ضيقة النطاق عن أن تكون مصدرا لوحى القرآن.

و إن القرآن لأعلی و أوسع و أکمل من کل ما کان یعرفه مثل بحیرا، و نسطور، و کل نصاری الشام و نصاری الأرض و یهودها. دع الأعراب الذین کان یمرّ بهم النبی صلّی اللّه علیه و سلم بالطریق إلی الشام أو حضرهم.

و أن القرآن نزل مصدقا لکتب أهل الکتاب من حیث کونها فی الأصل من وحی اللّه إلی موسی و عیسی و داود و سلیمان و غیرهم، و نزل أیضا مهیمنا علیها؛ أی: رقیبا و حاکما کما نصت علیه الآیة (۴۸) من سورة المائدة و مما حکم به علی أهلها من الیهود و النصاری أنهم أوتوا نصیبا من الکتاب «۱»، أی: لا- کله و نسوا حظا آخر منه و أنهم حرفوا کلمه عن مواضعه «۲»، و بین کثیرا من المسائل الکبری مما خالفوا و اختلفوا فیه من العقائد و الأحکام و الأخبار «۳»، و مثل هذه الأحکام العلیا علیهم، لا یمکن أن تکون مستمدة من أفراد من الرهبان أو غیر الرهبان، أفاضوها علی محمد فی رحلته التجاریة إلی الشام. سواء أ کان عند بعضهم بقیة من التوحید الموسوی و العیسوی الذی کان یقول به آریوس و أتباعه أم لا؟

و سواء أ کان لدی بعضهم بقیة من الأناجیل التی حکمت الکنیسة الرسمیة بعد قانونیتها (أبو کریف) کإنجیل طفولة المسیح و إنجیل برنابا أم لا؟ فمحمد لم یعقد فی الشام و لا فی مکة مجمعا مسیحیا کمجامع الکنیسة للترجیح بین الأناجیل و المذاهب المسیحیة و یحکم بصحة بعضها دون بعض.

إنّ وقوع مثل هذا منه فی تلک الرحلة مما یعلم واضعو هذه الأخبار ببداهة العقل مع عدم النقل أنه محال عادة، و علی فرض وقوعه یقال: کیف یمکن أن یحکم بین تلک الأناجیل و تلک المذاهب برأیه فی تلک الخلسة التجاریة للنظر فیها و یأمن علی حکمه الخطأ؟ و قد صحّ عنه أنه قال لأصحابه فی شأن أهل الکتاب: «لا تصدّقوهم و لا تکذّبوهم «۴»»،

---

(۱) النساء: ۴۴- ۵۱.

(۲) المائدة: ۱۳- ۱۴.

(۳) آل عمران: ۷۵، النساء: ۴۶، المائدة: ۱۳، ۱۴.

(۴) رواه البخاری بهذا اللفظ، و أحمد و البزار من حدیث جابر بلفظ: «لا تسألوا أهل الکتاب عن شیء فإنهم لن یهدوکم و قد ضلوا، و إنکم إما أن تکذبوا بحق أو تصدقوا بباطل، و الله لو کان موسی بین أظهرکم ما حل له إلا اتباعی» و سببه أن عمر کتب شیئا من التوراة عن الیهود فعلم النبی صلّی اللّه علیه و سلم فغضب و قاله.

الوحی المحمدی، ص: ۸۸

یعنی فیما سکت عنه القرآن لئلا یکون ما کذبوهم فیه مما حفظوا أو یکون ما صدقوهم به مما نسوا حقیقته أو حرفوا أو بدلوا.

(الوجه العاشر): أن ما فی القرآن ما هو مخالف للعهدین العتیق و الجدید، و هو مما لا یعلم إلی الآن أن أحدا من الیهود و النصاری قال به، کمخالفة سفر الخروج فیمن تبنت موسی، ففیه أنها ابنة فرعون و فی القرآن أنا امرأته، و فیما فیه من عزو صنع العجل الذی عبده بنو إسرائیل إلی هارون علیه السلام بعزوه إیاه إلی السامری و إثباته لإنکار هارون علیهم فیه، و غیر ذلک. الوحی المحمدی ۸۸

تفنید تصویرهم للوحی النفسی و إبطاله من وجوه ..... ص : ۸۳

ما جاء به محمد أکبر و أعظم من کل ما فی الکتب الإلهیة ما صحّ منها و ما لم یصح کما سنبینه.

رویدکم أیها المفتاتون «۱» الذین یقولون ما لا- یعلمون، إنّ وحی القرآن أعلی مما تزعمون، و أکبر مما تتصورون و تصورون، و إنّ محمدا أقل علما کسبیا مما تدعون و أکمل استعدادا لتلقی کلام اللّه عن الروح القدس مما تستکبرون.

و إذا کان وحی القرآن أعلی و أکمل من جمیع ما حفظ عن أنبیاء اللّه و رسله، لأنه الخاتم لهم، المکمّل لشرائعهم الخاصة الموقوتة، فأجدر به أن یکون أکمل مما وضعه (سولون) الفیلسوف الیونانی الذی شبه محمدا بأحد ملاحد عصرنا فی مصرنا، مع بعد الشبه بین أمی نشأ بین الأمیین، و فیلسوف نشأ فی أمة حکمة، و تشریع و دولة و سیاسة، و دخل فی کل أمور الأمة و الدولة کسولون هذا «۲».

(۱) یقال افتات فلان إذا سبق بفعل شیء و استبد له و لم یؤمر فیه من هو أحق منه بالأمر فیه لأنه أعلم به و أجدر بتحقیقه، و یقال: فلان لا یفتات علیه، أی لا یتداخل أحد فی أموره بدون أمره و إذنه. و أصله الهمز. فیقال: افتات علیه أیضا.

(۲) سولون: أحد فلاسفة الیونان السبعة فی القرن السابع قبل المسیح و والدته؛ من أبناء بستاروتس آخر ملوک أثینا، و کان من رجال المال و رجال الحرب، و تولی فی بلاده بعض الأعمال الإداریة و العسکریة و قیادة الجیش. و قد انتخب فی سنة ۹۴۵ ق. م (أرخونا) أی رئیسا علی الأمة بإجماع أحزابها کلهم؛ و قلدوه سلطة مطلقة لتغییر ما شاء من نظم البلاد و قانونها الذی وضعه (زراکوت) من قبله، فوضع لهم نظاما جدیدا قررت الحکومة و الأمة اتخاذه دستورا متبعا عشر سنین. فسولون کان فی قانونه منقحا و مجددا لقانون أعظم أمة من أمم الحکمة و الحضارة نشأ فیها، فکان متعلما و فیلسوفا و حاکما و قائدا و رئیسا.

أ فیقاس علیه محمد صلّی اللّه علیه و سلم الأمی الذی لم یقرأ سطرا و لم یر کتابا، و لا تولی عملا إداریا و لا سیاسیا؟ ثم إن ما جاء به لم یکن قانونا موضعیا منقحا لقوانین أخری قبله، بل کان إصلاحا لجمیع البشر فی عقائدهم و آدابهم و أحکامهم و سیاستهم و حروبهم الخ؟ انظر أیها القارئ إلی شبهات ملاحدة المسلمین علی دینهم و نبیهم الذی هو مناط شرفهم و فخرهم علی الأمم!!

الوحی المحمدی، ص: ۸۹

القول الحق فی استعداد محمد صلّی اللّه علیه و سلم للنبوة و الوحی

التحقیق فی صفة حال محمد صلّی اللّه علیه و سلم من أول نشأته، و إعداد اللّه تعالی إیاه لنبوته و رسالته:

هو أنه خلقه کامل الفطرة؛ لیبعثه بدین الفطرة، و أنه خلقه کامل العقل الاستقلالی الهیولانی لیبعثه بدین العقل المستقل و النظر العلمی، و أنه کمل بمعالی الأخلاق، لیبعثه متمما لمکارم الأخلاق، و أنه بغّض إلیه الوثنیة و خرافات أهلها و رذائلهم من صغر سنه، و حبب إلیه العزلة حتی لا تأنس نفسه بشیء یتنافسون فیه من الشهوات و اللذات البدنیة، أو منکرات القوة الوحشیة، کسفک الدماء، و البغی علی النّاس، أو المطامع الدنیئة کأکل أموال الناس بالباطل- لیبعثه مصلحا لما فسد من أنفس الناس، و مزکیا له بالتأسی به، و جعله المثل البشری الأعلی، لتنفیذ ما یوحیه إلیه من الشرع الأعلی.

فکان من عفته أن سلخ من سنی شبابه و فراغه خمسا و عشرین سنة مع زوجته خدیجة کانت فی عشر منها کهلة نصفا أم أولاد، و فی ۱۵ منها عجوزا یائسة من النسل، فتوفیت فی الخامسة و الستین و هی أحبّ الناس إلیه، و ظلّ یذکرها و یفضّلها علی جمیع من تزوّج بهن من بعدها، حتی عائشة بنت الصدیق علی جمالها و حداثتها و ذکائها، و کمال استعدادها للتبلیغ عنه، و مکانة والدها العلیا فی أصحابه، و ظلّ طول عمره یکره سفک الدماء و لو بالحقّ، فکان علی شجاعته الکاملة، یقود أصحابه لقتال أعداء اللّه و أعدائه المعتدین علیه و علیهم، لأجل صدّهم عن دینه، و لکنه لم یقتل بیده إلا رجلا واحدا منهم (هو أبیّ بن خلف) کان موطنا نفسه علی قتله صلّی اللّه علیه و سلم فهجم علیه و هو مدجج بالحدید من مغفر و درع، فلم یجد صلّی اللّه علیه و سلم بدا من قتله فطعنه فی ترقوته من خلال الدرع و المغفر فقتله، و ظل طول عمره ثابتا علی أخلاقه من الزهد و الجود و الإیثار، فکان بعد ما أفاء اللّه علیه من غنائم المشرکین و الیهود یؤثر التقشف و شظف العیش علی نعمته، مع إباحة شرعه لأکل الطیّبات و نهیه عن ترکها تدینا، و کان یرفع ثوبه و یخصف نعله، مع إباحة دینه للزینة و أمره بها عند کلّ مسجد و کان یساعد أهل بیته علی خدمة الدار.

أکمل اللّه استعداده الفطری الوهبی «لا الکسبی» للبعثة بإکمال دین النبیین، و المرسلین.

و التشریع الکافی الکافل لإصلاح جمیع البشر إلی یوم الدین، و جعله حجّة علی جمیع العالمین بأن أنشأه کأکثر قومه أمیا، و صرفه فی أمیته عن اکتساب أی شیء من علوم البشر

الوحی المحمدی، ص: ۹۰

من قومه العرب الأمیین، و من أهل الکتاب حتی إنه لم یجعل له أدنی عنایة بما یتفاخر به قومه من فصاحة اللسان، و بلاغة البیان، من شعر و خطابة، و مفاخرة و منافرة «۱»، إذ کانوا یؤمون أسواق موسم الحج و أشهرها عکاظ «۲» من جمیع النواحی لإظهار بلاغتهم و براعتهم، فکان ذلک أعظم الأسباب لارتقاء لغتهم، و اتساع معارفهم، و کثرة الحکمة فی شعرهم، فکان من الغریب أن یزهد محمد صلّی اللّه علیه و سلم فی مشارکتهم فیه بنفسه و فی روایته لما عساه یسمعه منه، و قد سمع بعد النبوة زهاء مائة قافیة من شعر أمیة بن الصلت فقال: «إن کاد لیسلم» و قال: «آمن شعره و کفر قلبه»، و قال: «إنّ من البیان لسحرا و إن من الشعر حکما». رواه أحمد و أبو داود من حدیث ابن عباس، و أما قوله «إن من البیان لسحرا» فقد رواه مالک و أحمد و البخاری و أبو داود و الترمذی من حدیث ابن عمر قلنا: إن اللّه تعالی جعل استعداد محمّد صلّی اللّه علیه و سلم للنبوة و الرسالة فطریا و إلهامیا لم یکن فیه شیء من کسبه بعلم و لا عمل لسانی و لا نفسی، و أنه لم یرو عنه أنه کان یرجوها .. کما روی عن أمیة ابن أبی الصلت. بل أخبر اللّه عنه أنه لم یکن یرجوها کما تقدّم و لکن روی عن خدیجة رضی اللّه عنها أنها لما سمعت من غلامها میسرة أخبار أمانته و فضائله و کراماته، و ما قاله بحیرا الراهب فیه. تعلّق أملها بأن یکون هو النبی الذی یتحدّثون عنه، و لکن هذه الروایات لا یصل شیء منها إلی درجة المسند الصحیح کحدیث بدء الوحی الذی أوردناه آنفا، فإن قیل: إنه یقویها حلفها باللّه أنّ اللّه تعالی لا یخزیه أبدا. قلنا: إنها عللت ذلک بما ذکرته من فضائله و رأت أنها فی حادة إلی استفتاء ابن عمها ورقة فی شأنه.

و أما اختلاؤه صلّی اللّه علیه و سلم و تعبده فی الغار عام الوحی فلا شک فی أنه کان عملا کسبیا مقویا لذلک الاستعداد السلبی من العزلة و عدم مشارکة المشرکین فی شیء من عباداتهم و لا عاداتهم. و لکنه لم یکن یقصد به الاستعداد للنبوّة. لأنه لو کان لأجلها لاعتقد حین رأی

---

(۱) النافرة: المحاکاة و المفاخرة فی الأحساب و الأنساب.

(۲) کان للعرب فی عهد الجاهلیة أسواق و مجامع فی الحجاز یقصدونها فی موسم الحج للبیع و الشراء، و لإظهار مناقبهم و مجد آبائهم و قبائلهم، أولها عکاظ بالضم (بوزن غراب)، و هی من عمل الطائف علی طریق الیمن. و قال أبو عبید: هی صحراء مستویة لا علم (بفتحتین) بها و لا- جبل، و هی بین نجد و الطائف، و کان یقام فیها السوق نحوا من نصف شهر فی ذی القعدة، ثم یأتون سوق ذی مجنة (بکسر المیم و تشدید النون) و هی دون عکاظ إلی مکة، فیقیمون فیها إلی آخر ذی القعدة، ثم یأتون سوق ذی المجاز و هی أقرب إلی مکة فیقیمون فیها إلی یوم التروية (و هو الذی قبل عرفة الذی هو تاسع ذی الحجة)، و منها یصدرون إلی منی فعرفات.

الملک أن عقب رؤیته حصول مأموله و تحقق رجائه، و لم یخف منه علی نفسه، و إنما کان الباعث لهذا الاختلاء و التحنث اشتداد الوحشة من سوء حال النّاس و الهرب منها إلی الأنس باللّه تعالی و الرجاء فی هدایته إلی المخرج منها، کما بسطه شیخنا الأستاذ الإمام فی تفسیر قوله تعالی من سورة الضحی: وَ وَجَدَکَ ضَالًّا فَهَدی [الضحی: ۷]، و ما یفسره من قوله عزّ و جلّ فی سورة الشوری: وَ کَذلِکَ أَوْحَیْنا إِلَیْکَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما کُنْتَ تَدْرِی مَا الْکِتابُ وَ لَا الْإِیمانُ وَ لکِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِی بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَ إِنَّکَ لَتَهْدِی إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ (۵۲) صِراطِ اللَّهِ الَّذِی لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ أَلا إِلَی اللَّهِ تَصِیرُ الْأُمُورُ [الشوری: ۵۲، ۵۳]، و ألمّ به فی رسالة التوحید إلماما مختصرا مفیدا، فقال:

«من السنن المعروفة أنّ یتیما فقیرا أمیا مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته إلی زمن کهولته، و یتأثر عقله بما یسمعه ممن یخالطه لا سیما إن کان من ذوی قرابته، و أهل عصبته، و لا کتاب یرشده، و لا أستاذ ینبهه، و لا عضد إذا عزم یؤیده، فلو جری الأمر فیه علی جاری السنن لنشأ علی عقائدهم، و أخذ بمذاهبهم إلی أن یبلغ مبلغ الرجال، و یکون للفکر و النظر مجال، فیرجع إلی مخالفتهم، إذا قام له الدلیل علی خلاف ضلالاتهم، کما فعل القلیل ممن کانوا علی عهده «۱».

و لکنّ الأمر لم یجر علی سنته، بل بغضت إلیه الوثنیة من مبدأ عمره، فعاجلته طهارة العقیدة، کما بادره حسن الخلیقة، و ما جاء فی الکتاب من قوله: وَ وَجَدَکَ ضَالًّا فَهَدی لا یفهم منه أنه کان علی وثنیة قبل الاهتداء إلی التوحید، أو علی غیر السبیل القویم، قبل الخلق العظیم، حاشا للّه إن ذلک لهو الإفک المبین، و إنما هی الحیرة تلم بقلوب أهل الإخلاص فیما یرجون للناس من الخلاص، و طلب السبیل، إلی ما هدوا إلیه من إنقاذ الهالکین، و إرشاد الضالین، و قد هدی اللّه نبیه إلی ما کانت تتلمسه بصیرته باصطفائه لرسالته، و اختیاره من بین خلقه لتقریر شریعته» أ. ه.

(أقول) و جملة القول أن استعداد محمد صلّی اللّه علیه و سلم للنبوة و الرسالة عبارة عن جعل اللّه تعالی روحه الکریمة کمرآة صقیلة حیل بینها و بین کل ما فی العالم من التقالید الدینیة و الأعمال الوراثیة و العادات المنکرة، إلی أن تجلّی فیها الوحی الإلهی بأکمل معانیه، و أبلغ مبانیه، لتجدید دین اللّه المطلق الذی یرسل به رسله إلی أقوامهم خاصة بما یناسب حالهم و استعدادهم، و أراد إکمال الدین به فجعله خاتم النبیین، و جعل رسالته عامة دائمة، لا یحتاجون بعدها إلی وحی آخر.

---

(۱) کأمیة بن أبی الصلت و عمرو بن نفیل.

الوحی المحمدی، ص: ۹۲

الأمثال النورانیة لفطرة محمد صلّی اللّه علیه و سلم و روحه، و وحیه، و کتاب اللّه تعالی و دینه

لقد کان محمد صلّی اللّه علیه و سلم فی فطرته السلیمة، و روحه الشریفة، و ما نزل علیها من المعارف العالیة، و ما أشرق فیها من نور اللّه عزّ و جلّ الذی تلوته علیک آنفا من آخر سورة الشوری هو مضرب المثل فی قوله تعالی من سورة النور: اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ کَمِشْکاةٍ فِیها مِصْباحٌ الْمِصْباحُ فِی زُجاجَةٍ الزُّجاجَةُ کَأَنَّها کَوْکَبٌ دُرِّیٌّ یُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَکَةٍ زَیْتُونَةٍ لا شَرْقِیَّةٍ وَ لا غَرْبِیَّةٍ یَکادُ زَیْتُها یُضِیءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُورٌ عَلی نُورٍ یَهْدِی اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ یَشاءُ وَ یَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ وَ اللَّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ (۳۵) [النور: ۳۵].

اللّه أکبر إن دین محمّدو کتابه أقوی و أقوی قیلا

لا تذکروا الکتب السوالف عندهطلع الصباح فأطفأ القندیلا و کما قال فی أول همزیته:

کیف ترقی رقیّک الأنبیاءیا سماء ما طاولتها سماء

لم یساووک فی علاک و قد حال سنی منک دونهم و سناء

إنما مثّلوا صفاتک الناس کما مثّل النجوم الماء

أنت مصباح کلّ فضل فما تصدر إلا عن ضوئک الأضواء أ فرأیت من أنزل اللّه علیه تلک الآیات. التی أشرقت بنورها الأرض و السموات، و ألهمه هذا الدعاء الفیاض بنور اللّه. أ یعقل أن یستمد النور ممن کانوا یعیشون فی ظلمة الوثنیة الهالکة، و فی ظلمات التقالید الکهنوتیة الحالکة. الذین ضرب لهم اللّه المثل بعد مثل النور الذی اقتبسناه من سورة النور بقوله: وَ الَّذِینَ کَفَرُوا أَعْمالُهُمْ کَسَرابٍ بِقِیعَةٍ یَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّی إِذا جاءَهُ لَمْ یَجِدْهُ شَیْئاً وَ وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَ اللَّهُ سَرِیعُ الْحِسابِ (۳۹) أَوْ کَظُلُماتٍ فِی بَحْرٍ لُجِّیٍّ یَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ یَدَهُ لَمْ یَکَدْ یَراها وَ مَنْ لَمْ یَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ (۴۰) [النور: ۳۹- ۴۰].

فارجع أیها الناظر المنصف إلی وجدانک، و تأمل هذه الأمثال الإلهیة، و ما تراه فی سائر هذا الکتاب لعلّ اللّه یتم نور إنصافک، فتکتب کتابا آخر تثبت به الوحی الإلهی المعصوم لمحمّد خاتم النبیین ببلاغتک الفرنسیة، و تدعو قومک إلی الاهتداء بکتابه القویم، و معالجة مفاسد إلحادهم و خیاناتهم لأنفسهم و ظلمهم لغیرهم باتباع صراطه المستقیم.

الوحی المحمدی، ص: ۹۳

هذا ما نراه کافیا لتفنید مزاعم مصوری الوحی النفسی من ناحیة شخص محمد و استعداده، و یتلوه ما هو أقوی دلیلا، و أقوم قیلا، و هو موضوع الوحی الذی هو آیة نبوته الخالدة، و حجته الناهضة، و مصدر جمیع تلک الأنوار الفائضة، و هو: القرآن الکریم.

الوحی المحمدی، ص: ۹۴

آیة اللّه الکبری القرآن العظیم القرآن الکریم، القرآن الحکیم، القرآن المجید، الکتاب العزیز الذی: (لا یأتیه الباطل من بین یدیه و لا من خلفه تنزیل من حکیم حمید)

هو کتاب لا کالکتب، هو آیة لا کالآیات، هو معجزة لا کالمعجزات، هو نور لا کالأنوار، هو سر لا کالأسرار، هو کلام لا کالکلام، هو کلام اللّه الحی القیوم، الذی لیس لروح القدس جبریل الأمین علیه السلام منه إلا نقله بلفظه العربی من سماء الأفق الأعلی إلی هذه الأرض، و لا لمحمّد رسول اللّه و خاتم النبیین صلوات اللّه و سلامه علیه و علی آله منه إلا تبلیغه للناس بلفظه الذی تلقاه عن الروح الأمین، ثم بیانه لهم بالقول و العمل لیهتدوا به، فهو معجز للخلق بلفظه و نظمه و أسلوبه و هدایته و تأثیره و علومه. لم یکن فی استطاعة محمّد صلّی اللّه علیه و سلم أن یأتی بسورة من سوره بکسبه و لا مواهبه. من علومه و معارفه، و فصاحته و بلاغته، و هو صلّی اللّه علیه و سلم لم یکن عالما و لا بلیغا ممتازا إلا به. بل فیه آیات صریحة ناطقة بأنه لم یکن یعلم شیئا من علومه- تقدم بعضها، و بأنه کان یعجز کغیره عن الإتیان بمثله، و هو ما أمره تعالی أن یقوله للناس فی تحدیه إیاهم و استدلاله به علی نبوته، و هو قوله تعالی: وَ إِذا تُتْلی عَلَیْهِمْ آیاتُنا بَیِّناتٍ قالَ الَّذِینَ لا یَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَیْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ ما یَکُونُ لِی أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِی إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما یُوحی إِلَیَّ إِنِّی أَخافُ إِنْ عَصَیْتُ رَبِّی عَذابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ [یونس: ۱۵]، أی: لو شاء اللّه ألّا أتلوه علیکم ما تلوته، و لما أعلمکم هو به، فإنی إنما تلوته علیکم بمشیئته و أمره، فقد أقمت فیکم عمرا طویلا- لم أتل علیکم شیئا، أ فلا تعقلون أنّ من عاش أربعین سنة لم یصدر عنه علم و لا عرفان و لا بلاغة لسان، لا یمکن أن یصدر عنه بعد الاکتهال، ما لم یکن له أدنی نصیب منه فی سن الشباب «۱»؟.

و قد بینت فی الکلام علی آیة التحدی بالقرآن من تفسیر سورة البقرة [۳۲] أهم وجوه الإعجاز اللفظی و المعنوی بالإجمال و الإیجاز، و هی بضعة أنواع «۲».

---

(۱) راجع تفسیر الآیة ص ۳۲۰ من جزء التفسیر الحادی عشر، تری ما یؤید هذا الدلیل العقلی من العلم العصری.

(۲) هی:

۱- أسلوبه و نظمه.

الوحی المحمدی، ص: ۹۵

ثم تکلمت عن التحدی ببلاغته و نظمه فی آیتی یونس [۳۷، ۳۸] و منه دلالتهما علی عجز النبی صلّی اللّه علیه و سلم عن الإتیان بسورة من مثله کغیره، و منه وجه التحدی بعشر سور مثله مفتریات، و وجه الإعجاز فی السور القصیرة، و سأعود إلی هذا فی آخر الکتاب.

و أوجّه الکلام هنا إلی هدایة القرآن بأسلوبه و تأثیره و علومه المصلحة للبشر بما یحتمله المقام من البسط و التفصیل، و هو القدر الذی یعلم منه أن هذه العلوم أهدی من کل ما حفظه التاریخ عن جمیع الأنبیاء و الحکماء، و واضعی الشرائع و القوانین، و ساسة الشعوب و الأمم، و أن إعجازه من هذه الناحیة أقوی البراهین علی کونه وحیا من اللّه تعالی تقوم به الحجة علی جمیع البشر.

فمن کان یؤمن بأن للعالم ربا علیما حکیما مریدا فاعلا مختارا فلا مندوحة له و لا مناص من الإیمان بأن هذا القرآن وحی من لدنه عزّ و جلّ أنزله علی خاتم أنبیائه المرسلین رحمة بهم لیهتدوا به إلی تکمیل فطرتهم، و تزکیة أنفسهم، و إصلاح مجتمعهم من المفاسد

التی کانت عامة لجمیع أممهم، فیکون اتباع محمد فرضا إلهیا عاما کما قال تعالی: قُلْ یا أَیُّهَا النَّاسُ إِنِّی رَسُولُ اللَّهِ إِلَیْکُمْ جَمِیعاً الَّذِی لَهُ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ یُحیِی وَ یُمِیتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِیِّ الْأُمِّیِّ الَّذِی یُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ کَلِماتِهِ وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ [الأعراف: ۱۵۸].

و من کان لا یؤمن بوجود هذا الرب العلیم الحکیم فهذا القرآن حجة ناهضة علی وجوده الحق. بکونه لیس من المعهود فی الخلق. و بما اشتمل علیه من الآیات البینات فی الأنفس و الآفاق. فمن لم یهتد إلی فهمها فلا مندوحة له عن الجزم بأن محمدا أکمل و أفضل و أعلم و أحکم من کل من عرف فی هذا العالم من الحکماء الهادین المهدیین، و یکون الواجب بمقتضی العقل أن یعترف له هؤلاء بأنه أفضل البشر علی الإطلاق. و أولاهم بالاتباع. و لا غرو فقد اعترف له بهذا کثیر من علماء الشرق و الغرب، سنورد بعض شهاداتهم بعد.

۲- بلاغته.

۳- ما فیه من علم الغیب الماضی و الحاضر و الآتی.

۴- سلامته من الاختلاف بأنواعه.

۵- ما فیه من العلوم الدینیة و التشریع.

۶- عجز الزمان عن نقض شیء منه بما تجدد فیه من العلوم.

۷- اشتماله علی مسائل کثیرة لم تکن معروفة فی عصر نزوله للبشر. و یتلو هذه الأنواع وجوه دلالتها علی نبوة محمد صلّی اللّه علیه و سلم و تفسیر الآیة فی الجزء الأول من تفسیر المنار (ص ۲۲۸- ۲۹۱).

الوحی المحمدی، ص: ۹۶

بل رأینا بعض المنصفین من الواقفین علی السیرة المحمدیة الذین یفهمون القرآن فی الجملة یعتقدون أنّ ما وجد و لن یوجد مثله فی المستقبل: و منهم الأستاذ ولیام موید الانکلیزی المشهور «۱»، و منهم ذلک الفیلسوف الطبیب السوری الکاثولیکی النشأة. المادی الکهولة الذی رأی فی مجلة المنار بعض المناقب المحمدیة فکتب إلینا کتابا نشرناه فی الجزء الأول من المجلد الحادی عشر سنة ۱۳۳۶ هذا نصه:

مکتوب الدکتور شبلی شمیل المادی فی تفضیل محمد صلّی اللّه علیه و سلم علی جمیع البشر إلی غزالی عصره السید محمد رشید رضا صاحب المنار:

«أنت تنظر إلی محمد کنبی، و تجعله عظیما، و أنا أنظر إلیه کرجل و أجعله أعظم، و نحن و إن کنا فی الاعتقاد (الدینی أو المبدأ الدینی) علی طرفی نقیض فالجامع بیننا العقل الواسع، و الإخلاص فی القول، و ذلک أوثق بیننا لعری المودة».

الحق أولی أن یقال

دع من محمّد فی سدی قرآنهما قد نحاه للحمة الغایات

إنی و إن أک قد کفرت بدینهل أکفرنّ بمحکم الآیات

أو ما حوت فی ناصع الألفاظ منحکم روادع للهوی و عظات

و شرائع لو أنهم عقلوا بهاما قیدوا العمران بالعادات

نعم المدبّر و الحکیم و إنّهربّ الفصاحة مصطفی الکلمات

رجل الحجا رجل السیاسة و الدهابطل حلیف النصر فی الغارات

ببلاغة القرآن قد غلب النهیو بسیفه أنحی علی الهامات

من دونه الأبطال فی کل الوری‌من سابق أو حاضر أو آت و المؤمنون بهذه الحقیقة من أحرار مفکّری الشعوب کلّها کثیرون کما قلنا، و لکن الجاحدین لوجود رب مدبر للعالمین قلیلون، و أن محمدا صلّی اللّه علیه و سلم لحجة علیهم فیما شهدوا له به

---

(۱) قال السیر ولیام موید فی کتابه (حیاة محمد) بعد أن ذکر طائفة من صفاته صلّی اللّه علیه و سلم: و بالاختصار فإنه مهما ندرس حیاة النبی محمد صلّی اللّه علیه و سلم نجدها علی الدوام عبارة عن کتلة فضائل مجسمة مع نقاء سریرة و خلق عظیم، و ستبقی تلک الفضائل عدیمة النظیر علی الإطلاق فی جمیع الأزمان فی الماضی و فی الحاضر و فی المستقبل.

الوحی المحمدی، ص: ۹۷

و عزوه إلی استعداده و کسبه، و أسنده هو إلی وحی ربه مع ما علم بالضرورة من صدقه الفطری المطبوع.

و لکن شبلی شمیل کان یزعم أنه نسج قرآنه من سدی الحکمة و لحمة الدین لیقبله جمهور الناس، و قد بطل هذا الزعم بما بسطناه فی هذا الکتاب و أثبتنا به نبوته صلّی اللّه علیه و سلم و هو یتضمن الحجة علی وجود الرب تعالی بل هو مجموعة حجج عقلیة و طبیعیة، علی الألوهیة و علی النبوة.

و سنری أیها القارئ بسط هذه الحجة فی خاتم هذا الکتاب، و أمهد السبیل لها بفصلین فی إعجاز القرآن للخلق، من وجهین هما أوجه و أقوی مما ألف فیه علماؤنا المصنفات الممتعة و أحراها بإقناع أهل هذا العصر المستقلی الفکر، فأقول:

***

الوحی المحمدی، ص: ۹۹

الفصل الرابع فی إعجاز القرآن بأسلوبه و بلاغته، و تأثیره و ثورته

أسلوب القرآن فی ترکیبه المزجی:

لو أن عقائد الإسلام المنزلة فی القرآن من الإیمان باللّه و صفاته و ملائکته و کتبه و رسله و الیوم الآخر، و ما فیه من الحساب و الجزاء، و دار الثواب و دار العقاب. جمعت مرتبة فی ثلاث سور أو أربع أو خمس مثلا ککتب العقائد المدونة.

و لو أن عباداته من الطهارة و الصلاة و الزکاة و الصیام و الحج و الدعاء و الأذکار وضع کل منها فی بعض سور أیضا مبوّبة مفصّلة ککتب الفقه المصنفة.

و لو أنّ آدابه و حکمه و فضائله الواجبة و المندوبة، و ما یقابلها من الرذائل و الأعمال المحرمة و المکروهة أفردت هی و ما تقتضیه من الترغیب و الترهیب من المواعظ و النذر و الأمثال، الباعثة لشعوری الخوف و الرجاء. فصلت فی عشر سور أو أکثر ککتب الأخلاق و الآداب المؤلفة.

و لو أن قواعده التشریعیة، و أحکامه الشخصیة و السیاسیة و الحربیة و المالیة و المدنیة و حدوده و عقوباته التأدیبیة، رتبت فی عدة سور خاصة بها کأسفار القوانین الوضعیة.

ثم لو أن قصص النبیین و المرسلین و ما فیها من العبر و المواعظ و السنن الإلهیة سردت فی سورها مرتبة کدواوین التاریخ.

لو أن کل ما ذکر و ما لم یذکر من مقاصد القرآن التی أراد اللّه بها إصلاح شئون البشر جمع کل نوع منها وحده کترتیب أسفار التوراة التاریخی التی لا یعلم أحد مرتبها، أو کتب العلم و الفقه و القوانین؛ لفقد القرآن بذلک أعظم مزایا هدایته المقصودة بالقصد الأول من التشریع و حکمة التنزیل، و هو التعبّد به و استفادة کل حافظ للکثیر أو للقلیل من سوره- حتی القصیرة منها- کثیرا من مسائل الإیمان و الفضائل و الأحکام و الحکم المثبتة فی جمیع السور، لأنّ السورة الواحدة لا تحوی فی هذا الترتیب المفروض إلا

مقصدا واحدا من تلک المقاصد، و قد یکون أحکام الطّلاق أو الحیض. فمن لم یحفظ إلا سورة طویلة فی موضوع واحد یتعبّد بها وحدها، فلا شکّ أنه یملّها.

الوحی المحمدی، ص: ۱۰۰

و أما سورة المنزلة بهذا الأسلوب الغریب، و النظم العجیب، فقد یکون فی الآیة الواحدة الطویلة و السورة الواحدة القصیرة، عدة ألوان من الهدایة و إن کانت فی موضوع واحد فتری فی سورتی الفیل و قریش علی قصرهما ذکر مسألتین تاریخیتین قد جعلتا حجة علی مشرکی قریش فیما یجب علیهم من توحید اللّه و عبادته، بما منّ علیهم بعنایته بحفظ البیت الحرام و أمنه و هو مناط عزّهم و فخرهم و شرفهم، و معقل حیاتهم. و محبی تجارتهم و رزقهم.

قلت: إنّ القرآن لو أنزل بأسالیب الکتب المألوفة المعهودة و ترتیبها لفقد أعظم مزایا هدایته المقصودة بالقصد الأول. و أقول أیضا: إنه لو أنزل هکذا لفقد بهذا الترتیب أخص مرات إعجازه المقصود بالدرجة الثانیة.

کلا إنّ کلّ واحدة من المیزتین مقصودة لذاتها. فأولی أن یعبر عن المیزة الأولی بالموضوع و عن الثانیة بالشکل. کاصطلاح المحاکم. فیقال: لو کان القرآن مرتبا مبوبا کما ذکر لکان خالیا من أعظم مزایاه علی غیره من الکتب شکلا و موضوعا.

یعلم هذا و ذاک مما نبینه من فوائد نظمه و أسلوبه الذی أنزله به رب العالمین. العلیم الحکیم الرحیم، و هو مزج تلک المقاصد کلّها بعضها ببعض و تفریقها فی السور الکثیرة الطویلة منها و القصیرة بالمناسبات المختلفة، و تکرارها بالعبارات البلیغة. المؤثّرة فی القلوب المحرکة للشعور النافیة للسآمة و الملل. من المواظبة علی ترتیلها بنغمات نظمه الخاص به و فواصله المتعددة القابلة لأنواع من التغنی و النغم الذی یحرک فی القلوب وجدان الخشوع و خشیة الإجلال للرب المعبود، و العرفان بقدسه و کماله، و الملاحظة لجماله و جلاله و التعرض لتجلی أسمائه و صفاته، و التفکر فی آیات مصنوعاته، و الرجاء فی رضوانه و رحمته، و الخوف من غضبه و عقوبته، و الاعتبار بسننه فی خلقه و القابلة لأنواع أخری من الإلقاء الخطابی فی الترغیب و الترتیب. و التعجیب، و التعجیب، و التکریه و التحبیب، و الزجر و التأنیب، و استفهام الإنکار و التقریر، و التهکم و التوبیخ بما لا نظیر له فی کلام البشر من خطابه و لا شعر، و لا رجز و لا سجع، فبهذا الأسلوب الرفیع فی النظم البدیع و بلاغة التعبیر الرفیع کان القرآن کما ورد فی معنی وصفه أنه لا تبلی جدته، و لا تخلقه کثرة الترديد «۱»؛ و حکمة ذلک و غایته تعلم مما وقع بالفعل، و هاک بیانه بالإجمال:

---

(۱) المعنی المراد من الحدیث هنا أن القرآن لا- تنقضی عجائبه الدالة علی أنه من اللّه تعالی، و لا یمل و یسأم من کثرة التلاوة، و لا یخلق بطول الزمان، و هو من خلق الثوب إذا بلی، و أخلقه أبلاه، و أصح ما ورد

الوحی المحمدی، ص: ۱۰۱

فی هذا ما رواه ابن أبی شیبة فی مصنفه، و محمد بن نصر، و ابن الأنباری فی کتاب المصاحف، و الحاکم فی المستدرک و صححه، و البیهقی من حدیث ابن مسعود مرفوعا إلی النبی صلّی اللّه علیه و سلم. و لفظه: «إن هذا القرآن مأدبة اللّه فأقبلوا من مأدبته ما استطعتم. إن هذا القرآن حبل اللّه و النور المبین، و الشفاء النافع، عصمة لمن تمسک به و نجاة لمن اتبعه. لا یزیغ فیستعتب، و لا یعوج فیقوم، و لا یخلق عن کثرة الرد، فاتلوه فإن اللّه تعالی یأجرکم علی تلاوته بکل حرف عشر حسنات، أما إنی لا أقول (الم) حرف، ألف و لام و میم.

قوله: لا یزیغ فیستعتب؛ معناه لا یمیل عن الحق فیطلب منه العتبی أی الرجوع إلیه.

قال الحاکم: هذا حدیث صحیح الإسناد و لم یخرجاه بصالح بن عمر، أی و لم یخرجه البخاری بسبب ما قیل فی صالح بن عمر فی سنده، و لیس کذلک فإن صالحا قد خرج له مسلم، و إنما ترکاه بسبب شیخه إبراهیم بن مسلم الهجری (بفتحتین) الذی ضعفه

الجمهور، و ما ضعفوه بطعن فی صدقه أو حفظه و إنما وجدوا أنه رفع عدة أحادیث إلی النبی صلّی اللّه علیه و سلم هی موقوفة علی عبد الله بن مسعود، و کذا علی عمر رضی الله عنه. و لکن صرح سفیان بن عیینة بأنه جاء إبراهیم هذا فأعطاه کتبه فصحح له المرفوع و الموقوف بقوله هذا عن النبی صلّی اللّه علیه و سلم، و هذا عن عبد الله بن مسعود، و هذا عن عمر، و الظاهر أن هذا الحدیث مما رفعه سفیان، و لذلک خرجه ابن أبی شیبة و من ذکرنا مرفوعا. و روی نحوه من حدیث علیّ کرم الله وجهه و اعتمده القاضی الباقلانی فی کتابه إعجاز القرآن.

الوحی المحمدی، ص: ۱۰۲

الثورة و الانقلاب الذی أحدثه القرآن فی الأمة العربیة فسائر الأمم

القرآن کتاب أنزله اللّه تعالی علی قلب رجل نشأ علی الفطرة البشریة سلیم العقل صقیل النفس. طاهر الأخلاق، لم تملکه تقالید دینیة، و لا- أهواء دنیویة، لأجل إحداث ثورة و انقلاب کبیر فی العرب فسائر الأمم، یکتسح من العالم الإنسانی ما دنس فطرته من رجس الشرک و الوثنیة. الذی هبط بهذا الإنسان من أفقه الأعلی فی عالم الأرض.

إلی عبادة مثله و ما هو دونه من هذه المخلوقات- و ما أفسد عقله و ذهب باستقلال فکره من البدع الکنسیة، و التقالید المذهبیة، التی أحالت توحید الأنبیاء الأولین شرکا، و حقّهم باطلا، و هدایتهم غوایة- و ما أفسد بأسه، و أذل نفسه، و سلبه إرادته، من استبداد الملوک الظالمین، و الرؤساء القاهرین.

ثورة تحرر العقل البشری و الإرادة الإنسانیة من رقّ المنتحلین لأنفسهم صفة الربوبیة، أو النیابة عن الرب الخالق تعالی فی التحکم و الهیمنة و السیطرة علی قلوب الناس و عقولهم، و التصرف فی إرادتهم و أبدانهم و أموالهم، فیکون بهذا العتق کل امرئ اهتدی به حرّا کریما فی نفسه، عبدا خالصا لربه و إلهه، یوجّه قواه العقلیة و البدنیة إلی تکمیل نفسه و جنسه. مثل هذه الثورة الإنسانیة لا یمکن أن تحدث إلا علی قاعدة القرآن فی قوله تعالی: إِنَّ اللَّهَ لا یُغَیِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّی یُغَیِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ [الرعد: ۱۱].

و کیف یکون تغییر الأقوام لما بأنفسهم من العقائد و الأخلاق و الصفات الثابتة، التی طبعتها علیها العبادات الموروثة و العادات الراسخة؟

هل یکفی فی ذلک قیام مصلح فیهم یضع لهم کتابا تعلیمیّا جافّا ککتب الفنون یقول فیه: إنکم أیها الناس ضالون فاسدون، و مضلّون و مفسدون فاعملوا بهذا الکتاب تهتدوا و تصلحوا، أو قانونا مدنیّا یقول فی مقدمته: نفذوا هذا القانون تحفظ حقوقکم و تعتز أمتکم و تقوی دولتکم؟ أنّی و قد عهد من الناس الفاسدین المفسدین سوء التصرف بکتب أنبیائهم المرسلین، و إهمال قوانین حکمائهم المصلحین، کما فعل أهل الملل الأولون و المسلمون المتأخرون؟

کلا. إنما توضع القوانین للحکومات المنظمة ذات السلطان و القوة التی تکفل تنفیذها.

و أنّی لمحمّد صلّی اللّه علیه و سلم فعل هذا فی الأمة العربیة العاتیة عن کل سیطرة و نظام و قد بعث

الوحی المحمدی، ص: ۱۰۳

بالحجة و البرهان فریدا وحیدا لا عصبة له من قومه و لا سلطان؟ علی أنه جاء بأعدل الأصول التی تبنی علیها أمة قوانینها عند تکوین دولتها فی الأحوال الملائمة لها. جاء لإصلاح الأخلاق و الطباع بالحجة و القیمة و طرق الإقناع و الخضوع لوازع الاعتقاد النفسی دون وازع الحکم القهری. لیغیر الناس ما بأنفسهم بالاختیار، لا بالقوة و الإجبار فیغیر اللّه ما بهم بمقتضی سنته فی نظام الاجتماع و قد نطق القرآن بأن الرسول إنما هو مبلغ و مذکر غیر جبّار علی النّاس و لا مسیطر.

کلا. إنّ هذه الثورة ما کان یمکن أن تحدث إلا بما حدثت به. و هو تأثیر هذا القرآن فی أنفس الأمة العربیة التی کانت أشد الأمم البدویة و المدنیة استعدادا فطریا لظهور الإسلام فیها، کما بیناه فی کتابنا (خلاصة السیرة المحمدیة)، و سنلم به قریبا.

ذلک بأن من طباع البشر فی معرفة الحق و الباطل، و الخیر و الشر، و العمل بمقتضی المعرفة و إن خالف مقتضی الأهواء و الشهوات، و التقالید و العادات، إن مجرد البیان و الإعلام و الأمر و النهی لا یکفی فی الحمل علی التزام الحق و نصره علی الباطل، و لا فی أداء الواجب و من عمل الخیر و ترک الشر إذا عارض المقتضی العلمی لهما ما أشرنا إلیه آنفا من الموانع النفسیة و العلمیة. إلا فی بعض الأفراد من الناس. دون الجماعات و الأقوام. بل مضت سنّة اللّه فی تثبیت الحق و الخیر فی النفس، و صدور آثارهما عنهما بالعمل. أنه یتوقف علی صیرورة الإیمان بهما إذا عانا وجدانیا حاکما علی القلب. راجحا علی ما یخالفه من رغب و رهب، و أمل و ألم، و إنما یکون هذا فی الأحداث بالتربیة العلمیة العملیة، و الأسوة الحسنة لهم فیمن ینشئون بینهم من الوالدین و الأقربین و المعاشرین.

و أما کبار السن فلا سبیل إلی جعل الإیمان بالحقّ المطلق و الخیر العام إذعانا وجدانیا لجمهورهم إلا بالأسلوب الذی نزل به القرآن. بل بالقرآن الممتاز بهذا الأسلوب، فقلب به طباع الکهول و الشبان و أخلاقهم و تقالیدهم و عاداتهم، و حوّلها إلی أضدادها علما و عملا بما لم یعهد له نظیر فی البشر، فکان القرآن آیة خارقة للمعهود من سنن الاجتماع البشری فی تأثیره. بالتبع لکونه آیة معجزة لبشر فی لغته و أسلوبه: کما کان آیة معجزة فی إصلاحه للأمم بهدیه و تعلیمه.

الوحی المحمدی، ص: ۱۰۴

اعتبار الموازنة بین تأثیر القرآن فی العرب و التوراة فی بنی إسرائیل

اشارة

و اعتبر هذا ببنی إسرائیل سلالة النبیین؛ فإن کان ما رأوه بمصر من آیات موسی علیه السلام، ثم ما رأوه فی بریة سیناء و مدة التیه فیها، و من عنایة اللّه تعالی بهم، و من سماعهم کلام اللّه تعالی بآذانهم فی لهیب النار المشتعلة علی ما ترویه توراتهم- و لم یثبت عندنا التکلیم إلا لنبیّهم- لم یتغیر بذلک کله ما کان بأنفسهم من تأثیر الوثنیة المصریة و خرافاتها الراسخة فی قلوبهم، و لا من تأثیر السیاسة الفرعونیة المستبدة فی أخلاقهم، فقد عذّبوا موسی عذابا نکرا، و عاندوه فی کل ما کان یأمرهم به، و عبدوا صنم العجل الذهبی فی أثناء مناجاته لربه. حنینا إلی ما کان من عبادة مستعبدیهم الفرعونیین للعجل (أبیس) حتی وصفهم اللّه فی التوراة بالشعب الصلب الرقبة، و هو کنایة عن البلادة و العناد، و عصل الطباع «۱» المانع من الانقیاد، و ظل ذلک کذلک إلی أن باد ذلک الجیل الفاسد بعد أربعین سنة، و نشأ فیهم جیل جدید ممن کانوا أطفالا عند الخروج من مصر و ممن ولد فی التیه، أمکن أن یعقلوا التوحید و الشریعة، و أن یعملوا بها و یجاهدوا فی سبیلها، و إنما کان ذلک بعد موت موسی علیه السلام.

فأین بنو إسرائیل من أصحاب محمد صلّی اللّه علیه و سلم الذین تربّوا بسماع القرآن و ترتیله و تدبره، فی رسوخهم فی الإیمان و صبرهم علی أذی المشرکین و اضطهادهم إیاها لیفتنوهم عن دینهم، ثم مجاهدتهم لهم عند الإمکان بعد الهجرة، و مجاهدة أعوانهم من أهل الکتاب (الیهود) و تطهیرهم الحجاز و سائر جزیرة العرب من کفر الفریقین فی عهده صلّی اللّه علیه و سلم، و قد کانت مدّة البعثة المحمدیة کلّها عشرین سنة أی نصف مدة التیه، و کان ذهب نصفها فی الدعوة و تبلیغ الدین للأفراد بمکة و النصف الآخر هو الذی تم فیه الانقلاب العربی من تشریع و تنفیذ و جهاد و فتح و تأسیس.

ثم تأمل ما کان من تدفقهم أنفسهم کالسیل الآتی «۲» علی الأقطار من نواحی الجزیرة کلّها، و الظهور علی ملکی قیصر و کسری أعظم ملوک الأرض، و إزالة الشرک و الظلم

---

(۱) أی اعوجاجها مع صلابتها، من عصل الشیء «من باب فرح» إعوج فی صلابة فهو عصل «ککتف» و أعصل و الجمع عصال کسهام.

(۲) الآتی بالتشدید کقوی و الأتاوی: الغریب الذی یأتی من حیث لا یعلم.

الوحی المحمدی، ص: ۱۰۵

منهما، و نشر التوحید و الحق و العدل فیهما، و دخول الأمم فی دین اللّه أفواجا مختارین اهتداء بهم، و عنایتهم بتعلم العربیة بالتبع لعنایتهم بالدین، حتی فتحوا- هم و تلامیذهم- نصف کرة الأرض فی زهاء نصف قرن، و کانوا مضرب المثل فی الرحمة و العدل «۱»، و موضع الحیرة لعلماء الاجتماع و قواد الحرب «۲». و أنی یبلغ الشعب الذی وصف ربه فی کتابه بالشعب المتمرد الصلب الرقبة «۳» درجة الذین وصفهم رب العالمین بقوله تعالی:

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِینَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَی الْکُفَّارِ رُحَماءُ بَیْنَهُمْ تَراهُمْ رُکَّعاً سُجَّداً یَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً [الفتح: ۲۹].

فهذا عمر بن الخطاب أمیر المؤمنین الذی نشأ و شبّ علی الشدة و القسوة فی الجاهلیة حتی قیل: إنه وأد بنتا له، صار بالإسلام من أرحم الرحماء بالناس، حتی أنه یطبخ الطعام هو و زوجته لیلا لامرأة فقیرة فی المخاض و بعلها حاضر لا یساعدهما، و لم یکن یعلم أنه أمیر المؤمنین.

لا جرم أن سبب هذا کلّه تأثیر القرآن بهذا الأسلوب الذی نراه فی المصحف، فقد کان النبی صلّی اللّه علیه و سلم یجاهد به الکافرین کما أمره اللّه بقوله تعالی: فَلا تُطِعِ الْکافِرِینَ وَ جاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً کَبِیراً [الفرقان: ۵۲]، ثم کان به یربی المؤمنین و یزکیهم. کما قال اللّه تعالی: فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ کُنْتَ فَظًّا غَلِیظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِکَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَ شاوِرْهُمْ فِی الْأَمْرِ [آل عمران: ۱۵۹]، و بهدایته و التأسی بمبلغه صلّی اللّه علیه و سلم ربوا الأمم و هذّبوها، و قلّما یقرأه أحد کما کانوا یقرءون، إلا و یهتدی به کما کانوا یهتدون علی تفاوت فی الاستعداد النفسی و اللغوی و اختلاف الزمان لا یخفی.

المسلمون أرحم البشر بهدایة القرآن:

و کیف لا یکون المؤمنون بالقرآن ارحم النّاس و قد امتن اللّه علیهم فی قوله تعالی: یا أَیُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْکُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّکُمْ وَ شِفاءٌ لِما فِی الصُّدُورِ وَ هُدیً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِینَ [یونس: ۵۷]؟، و قد قلنا فی الکلام علی الرحمة من هذه المزایا الأربع للقرآن من تفسیر المنار (جز ۱۱) ما نصه:

---

(۱) قال الفیلسوف الفرنسی غوستاف لوبون فی کتابه «حضارة العرب و الإسلام»: ما عرف التاریخ فاتحا أعدل و لا أرحم من العرب.

(۲) فی مقدمتهم نابلیون بونابرت أشهر قواد الحرب فی العالم و هو الذی قال: «إن العرب فتحوا نصف العالم فی نصف قرن، و صرح بأنه یدین بالإسلام کما تراه فی علاوات کتاب «حاضر العالم الإسلامی» للأمیر شکیب (ص ۲۴ جزء أول طبعة ثانیة).

(۳) راجع آخر الفصل ۳۱ من سفر التثنیة و غیره.

الوحی المحمدی، ص: ۱۰۶

(الرابعة الرحمة للمؤمنین): و هی ما تثمره لهم هدایة القرآن و تفیضه علی قلوبهم من رحمة ربهم الخاصة، و هی صفة کمال من آثارها: إغاثة الملهوف، و بذل المعروف، و کف الظلم، و منع التعدّی و البغی، و غیر ذلک من أعمال الخیر و البر، و مقاومة الشر، و قد وصف اللّه المؤمنین بقوله: رُحَماءُ بَیْنَهُمْ، و بقوله: وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ وَ تَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ.

و هذه الصفات الأربع مرتّبة علی سنّة الفطرة البشریة، فالموعظة هی التعالیم التی تشعر النفس بنقصها و خطر أمراضها الاعتقادیة و الخلقیة، و تزعجها إلی مداواتها و طلب الشفاء منها، و الشفاء تخلیة، یتبعها طلب التحلیة، بالصحة الکاملة، و العافیة التامة، و هو الهدی، و من ثمراته: هذه الرحمة التی لا توجد علی کمالها إلا فی المؤمنین المهتدین، و لا یحرمها إلا الکافرون المادیون. حتی قال بعضهم: إنها ضعف فی القلب. و یجعل صاحبه کالمضطر إلی الإحسان و العطف، و ما هذا القول إلا من فساد الفطرة و قسوة القلب، و فلسفة

الکفر، فلقد کان أشجع الناس و أقواهم بدنا و قلبا، أرحم الناس و أشدهم عطفا و هو سید ولد آدم محمد رسول اللّه و خاتم النبیین. الذی وصفه ربه بما وصف به نفسه من قوله: بِالْمُؤْمِنِینَ رَؤُفٌ رَحِیمٌ، و قوله: وَ ما أَرْسَلْناکَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِینَ و کذلک کان أصحابه رضی اللّه عنهم حتی کان من یوصف بالشدة و القسوة کعمر بن الخطاب رضی اللّه عنه صار من أرحم الناس و سیرته فی ذلک معروفة کما أشرنا إلیه آنفا.

و قد قال صلّی اللّه علیه و سلم: «لا تنزع الرحمة إلا من شقی». رواه أبو داود و الترمذی، و اللفظ له عن أبی هریرة رضی اللّه عنه، و قد صح عنه صلّی اللّه علیه و سلم أنه کان إذا سمع و هو فی الصلاة بکاء طفل تجوز فی صلاته- أی اختصرها و خفّفها- رحمة به و بأمه، و روی ابن اسحاق أن بلالا رضی اللّه عنه مر بصفیة و بابنة عم لها علی قتلی قومهما الیهود بعد انتهاء غزوة خیبر فصکّت ابنة عمها وجهها و حثت علیه التراب و هی تصیح و تبکی، فقال صلّی اللّه علیه و سلم له: «أنزعت الرحمة من قلبک حین تمر بالمرأتین علی قتلاهما». و جاء أعرابی إلیه صلّی اللّه علیه و سلم فقال: إنکم تقبلون أولادکم و ما نقبلهم فقال له صلّی اللّه علیه و سلم: «أو أملک لک «۱» أن نزع اللّه الرحمة من قلبک؟».

رواه البخاری و مسلم من حدیث عائشة رضی اللّه عنها و المراد إنی لا أملک أن أشعرک بما لا تشعر به، لأنّ اللّه نزع الرحمة من قلبک، فأجعلک رحیما. بل کان صلّی اللّه علیه و سلم شدید الرحمة

---

(۱) قوله: «أو أملک» همزته للاستفهام الإنکاری، و الواو مفتوحة و ما بعدها معطوف علی محذوف تقدیره أ تکون هکذا و أملک له من الله شیئا غیره؟ و قوله: «أن نزع» بفتح همزة أن و تقدیر لام التعلیل أو باء السببیة قبلها بأی بأن نزع الرحمة من قلبک.

الوحی المحمدی، ص: ۱۰۷

بالبهائم و الطیر و الحشرات، و طالما أوصی بها و لا سیما صغارها و أمهاتها، و جاءه مرة رجل و علیه کساء فی یده شیء قد التف علیه فقال: یا رسول اللّه إنّنی لما رأیتک أقبلت فمررت بغیضة شجرة فسمعت فیها أصوات فراخ طائر فأخذتهن فی کسائی، فجاءت أمّهنّ فاستدارت علی رأسی، و کشفت لها عنهن فوقعت علیهن فلففتها معهن بکسائی، فهن أولاء معی. قال: «ضعهن». قال: ففعلت فأبت أمهن إلا لزومهن. فقال صلّی اللّه علیه و سلم: «أ تعجبون لرحمة أم الأفراخ بفراخها؟». قالوا: نعم. قال: «و الذی بعثنی بالحق اللّه أرحم بعباده من أم الأفراخ بفراخها، ارجع بهن حتی تضعهن حیث أخذتهن و أمهن معا». فرجع بهن. رواه أبو داود من حدیث عامر الرامی رضی اللّه عنه و روی مالک و البخاری و مسلم و أبو داود من حدیث أبی هریرة مرفوعا حدیثین خلاصتهما أن اللّه غفر لرجل و لامرأة بغی «أی مومس» لأن کلا منهما رأی کلبا قد اشتد العطش به فرحمه و أخرج له الماء من البئر بخفه فسقاه قالوا له: یا رسول اللّه إن لنا فی البهائم أجرا؟ فقال: «فی کلّ کبد رطبة أجر». و رواه أحمد عن عبد اللّه بن عمرو سراقة بن مالک بلفظ: «و فی کل ذات کبد حرّی أجر».

و قال صلّی اللّه علیه و سلم: «الراحمون یرحمهم الرحمن، ارحموا من فی الأرض یرحمکم من فی السماء». رواه الترمذی و أبو داود من حدیث عبد اللّه بن عمر رضی اللّه عنه، و رویناه مسلسلا بالأولیة من طریق أستاذنا الشیخ محمد أبی المحاسن القاوقجی، و قال صلّی اللّه علیه و سلم: «إن للّه مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بین الجن و الإنس و البهائم و الهوام، فیها یتعاطفون، و بها یتراحمون، و بها تعطف الوحوش علی ولدها، و أخّر اللّه تسعا و تسعین رحمة یرحم بها عباده یوم القیامة»- و فی روایة-: «و لو یعلم الکافر بکلّ الذی عند اللّه من الرحمة لم ییأس من الجنة؛ و لو یعلم المؤمن بکلّ ما عند اللّه من العذاب لم یأمن من النار». رواه البخاری و مسلم و الترمذی أ. ه.

*** هذا و لو کان القرآن بأسلوب الکتب العلمیة و القوانین الوضعیة لما کان له ذلک التأثیر الذی غیر ما بأنفس العرب فغیروا به أمم العجم، فکانوا کلهم کما وصفهم اللّه عزّ و جلّ بقوله: کُنْتُمْ خَیْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْکَرِ وَ تُؤْمِنُونَ

بِاللَّهِ وَ لَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتابِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَ أَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ [آل عمران: ۱۱۰]، و لم يكن عند العرب شيء من العلم بسياسة الأمم و إدارتها إلا هذا القرآن، و الأسوة الحسنة

الوحی المحمدی، ص: ۱۰۸

بمبلغه و منقذه الأول عليه الصلاة و السلام، و لن يعود للمسلمين مجدهم و عزهم إلا إذا عادوا إلى هدايته و تجديد ثورته، و لعنة اللّه على من يصدونهم عنه. زاعمين استغناءهم عن العمل به و بسنة مبينه- بكتب مشايخهم الجافة الخاوية من كل ما يحيى الإيمان، و يعلى الهمم و يزكى الأنفس، و يبعث على الجهاد بالأنفس و الأموال.

أما و حق القرآن علينا، و اللّه لم ينزل غيره إلينا، إنه لا يغنينا عن تدبره و الاهتداء به و لا عن فهم سورة واحدة من سوره. جميع ما فى الأرض من الكتب المنزلة، و لا من الكتب المصنفة، و ما فتن الشيطان هذه الأمة بشيء كما فتنهم بصدهم عن تهذيب أنفسهم و تزكيتها بالقرآن و السنة المبينة له، و عن دعوة جميع أهل الملل به إليه، و قد بينا لك الفرق بين تأثيره و تأثير التوراة، و هاك إجمال لما فعله فى الأمة العربية ثم فى العالم.

الوحی المحمدی، ص: ۱۰۹

فعل القرآن فى أنفس الأمة العربية و إحداثها به أكبر ثورة عالمية

تهود أناس من العرب، و تنصّر منهم أناس آخرون من قبل الإسلام بقرون، و كان كل منهم يمدح دينه و يدعو إليه بالطبع. فلم يعاد الجمهور أحدا منهم أو يحتقره لدينه بل كان لزعماء اليهود المستعربين و شعراء النصارى من العرب عندهم مكانتهم اللائقة بهم كأمثالهم من المشركين، و لم يكن لليهودية و لا للنصرانية أدنى صولة فى مكة، و لا خافها رؤساء قريش على زعامتهم الدينية و لا الدنيوية، فلما قام فيهم محمد ابن عبد اللّه يتلو عليهم القرآن باسم اللّه زلزلت الأرض بهم زلزالها، و ثاروا عليه ثورتهم الصغرى، ثم ثارت الأمة به و معه ثورتها الكبرى، و هى التى بدلت الأرض، و القلوب غير القلوب، و العقول غير العقول و قلبت نظام الاجتماع العام.

و قد كان فعل القرآن فى أنفس العرب و إحداثه تلك الثورة الكبرى فيهم على نوعين أولهما ما أحدثه من الزلزال فى المشركين، و ثانيهما تزكيته للمؤمنين و نزعه كل ما كان بأنفسهم من غل و جهل و ظلم و فساد. حتى أعقب ما أعقب من الإصلاح فى العالم كله؛ و أمهد لبيان ذلك بكلمة فى حالهم فى عصر ظهور الإسلام.

بينا مرارا أن اللّه تعالى قد أعد الأمة العربية- و لا سيما قريش و من حولها- لما أراده من الإصلاح العام للبشر بكونهم كانوا أقرب الأمم إلى سلامة الفطرة، و أرقاهم لغة فى التعبير و التأثير، و أقواهم استقلالا فى العقل و الإرادة. لعدم وجود ملوك مستبدين فيهم يضعفون إرادتهم و يفسدون بأسهم، و يذلون أنفسهم بالقوة القاهرة، و لا رؤساء دين أولى سلطان روحى يسيطرون على عقولهم و قلوبهم، و يتحكمون فى عقائدهم و أفكارهم، و يسخرونهم لشهواتهم، و كانت جميع الأمم ذات الحضارة و الملل مستعبدة مستذلة لزعماء هاتين الرئاستين، حاش العرب.

فلما بعث فيهم محمد صلّى اللّه عليه و سلم بهذا القرآن الداعى إلى الحق و إلى صراط مستقيم، كانوا على أتم الاستعداد الفطرى لقبول دعوته، و لكن رؤساء قريش كانوا على مقربة من ملوك شعوب العجم؛ فى التمتع بالثروة الواسعة، و العظمة الكاذبة، و الشهوات الفاتنة، و السرف فى الترف، و على حظ مما كان عليه رؤساء الأديان فيها من المكانة الدينية بسدانتهم لبيت اللّه الحرام. الذى أودع اللّه تعظيمه فى القلوب من عهد إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام،

الوحی المحمدی، ص: ۱۱۰

فرأوا أن هذا الدين الحر يوشك أن يسلبهم الانفراد بهذه العظمة الموروثة، و قد يفضل عليهم بعض الفقراء و الموالى، و أنه يحكم

علیهم و علی من یفاخرون بهم من آبائهم بالکفر و الجهل و الظلم و الفسوق، و یشبههم بسائمة الأنعام، فوجهوا کل قواهم و نفوذهم إلی صد محمد عن دعوته و لو بتملیکه علیهم و جعله أغنی رجل فیهم، و لکن تعذر إقناعه بالرجوع عنها بالترغیب، حتی التمویل و التملیک. فقد أجاب عمه أبا طالب لمّا عرض علیه ما أرادوه من ذلک بتلک الکلمة العلیا: «یا عم و اللّه لو وضعوا الشمس فی یمینی و القمر فی شمالی علی أن أترک هذا الأمر حتی یظهره اللّه أو أهلک فیه ما ترکته».

حینئذ أجمعوا أمرهم علی صده عن تبلیغها بالقوة و الحیلولة بینه و بین جماهیر الناس فی الأسواق و المجامع و البیت الحرام، و بصد الناس عنه أن یأتوه و یستمعوا له، و باضطهاد من اتبعه بالدعوة الفردیة إلا أن یکون له من یحمیه منهم لقرابة أو جوار أو ذمة، فهؤلاء الرؤساء المترفون و المسرفون المتکبرون، کانوا أعلم الناس بصدق محمد و فیهم نزل قوله تعالی: قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَیَحْزُنُکَ الَّذِی یَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا یُکَذِّبُونَکَ وَ لکِنَّ الظَّالِمِینَ بِآیاتِ اللَّهِ یَجْحَدُونَ [الأنعام: ۳۳]، فقد کابروا الحق بغیا و استکبارا للحرص علی ریاستهم و شهواتهم، و کانوا أجدر العرب بقبول دعوة القرآن لأنهم أدق الناس لها فهما، و أوسعهم بإعجازها علما، و لکنهم عتوا عنها عتوا: وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَیْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا [النمل: ۱۴] کفرعون و قارون و هامان فی آیات موسی.

الوحی المحمدی، ص: ۱۱۱

فعل القرآن فی أنفس مشرکی العرب

قلنا: إن فعل القرآن فی أنفس العرب کان علی نوعین: فعله فی المشرکین، و فعله فی المؤمنین، فالأول تأثیر روعة بلاغته، و دهشة نظمه و أسلوبه، الجاذب لفهم دعوته و الإیمان به إذ لا یخفی حسنها علی أحد فهمهما، و کانوا یتفاوتون فی هذا النوع تفاوتا کبیرا لاختلاف درجاتهم فی بلاغة اللغة و فهم المعانی العالیة.

فهذا التأثیر هو الذی أنطق الولید به المغیرة المخرومی بکلمته العالیة فیه لأبی جهل التی اعترف فیها بأنه الحق الذی یعلو و لا یعلی، و الذی یحکم ما تحته، و کانت کلمة فائضة من نور عقله و صمیم وجدانه، و ما استطاع أن یقول کلمة أخری فی الصد عنه بعد إلحاح أبی جهل علیه باقتراحها إلا بتکلیف لمکابرة عقله و وجدانه، و بعد أن فکر و قدر، و نظر و عبس و بسر، و أدبر و استکبر، کما تقدم.

و هذا التأثیر هو الذی کان یجذب رءوس أولئک الجاحدین المعاندین لیلا لاستماع تلاوة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم فی بیته، علی ما کان من نهیهم عنه و نأیهم عنه، و تواصیهم و تقاسمهم لا یسمعن له، ثم کانوا یتسللون فرادی مستخفین، و یتلاقون فی الطریق متلاومین «۱».

و هذا التأثیر للقرآن هو الذی حملهم علی منع أبی بکر الصدیق رضی اللّه عنه من الصلاة و التلاوة فی المسجد الحرام، لما کان لتلاوته و بکائه فی الصلاة من التأثیر الجاذب إلی الإسلام، و عللوا ذلک بأنه یفتن علیهم نساءهم و أولادهم، فاتخذ مسجدا له بفناء داره فطفق النساء و الأولاد الناشئون ینسلون من کل حدب إلی بیته لیلا لاستماع القرآن.

---

(۱) همّ أبو جهل و أبو سفیان و الأخنس بن شریق، کان کل واحد یأتی من ناحیة فیستمع إلی قراءته صلّی اللّه علیه و سلم من حیث لا یراه الآخران؛ فإذا تلاقوا بعد الانصراف تلاوموا و تواعدوا ألا یعودوا لئلا یعلم بهم غیرهم فیقتدوا بهم. و فی الثالثة تعاهدوا ألا یعودوا، فلما أصبحوا ذهب الأخنس فأتی أبا سفیان فی بیته فقال:

أخبرنی یا أبا حنظلة عن رأیک فیما سمعت من محمد؟ فقال: یا أبا ثعلبة؛ و اللّه لقد سمعت أشیاء أعرفها و أعرف ما یراد بها (یعنی أنه لا ینکرها) فقال الأخنس: و أنا و الذی حلفت به، ثم ذهب الأخنس إلی أبی جهل فی بیته فسأله عما سأل عنه أبا سفیان فقال أبو جهل: ما ذا سمعت؟ تنازعنا و بنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، و حملوا فحملنا (یعنی الحمل علی الإبل و الدواب) و أعطوا فأعطینا، حتی إذا تجاثینا علی الرکب و کنا کفرسی رهان، قالوا منا نبی یأتیه الوحی من السماء فمتی تدرک هذه؟ و اللّه لا نسمع له و

لا نصدقه .. رواه البیهقی فی دلائل النبوة. و هذا إقرار من أبی جهل بأن الوحی غایة لا یمکن إدراکها لأنه معجز للبشر.

الوحی المحمدی، ص: ۱۱۲

فنهاه أشراف المشرکین بأن العلة لا تزال، و أنهم یخشون أن یغلبهم نساؤهم و أولادهم علی الإسلام، حتی ألجئوه إلی الهجرة فهاجر فلقی فی طریقه ابن الدغنة «۱» سید قومه فسأله عن سبب هجرته فأخبره الخبر، و هو یعرف فضائل أبی بکر من قبل الإسلام فأجاره و أعاده إلی مکة بجواره أی حمایته، و منعه منهم.

و خبره هذا رواه البخاری فی باب الهجرة من صحیحه و فیه ما نصه: «فلم تکذب قریش بجوار ابن الدغنة (أی أجازته) و قالوا لابن الدغنة: مر أبا بکر فلیعبد ربه فی داره، فلیصل فیها و لیقرأ ما شاء، و لا یؤذینا بذلک و لا یستعلن به، فإنا نخشی أن یفتن نساءنا و أبناءنا «۲»، فقال ذلک ابن الدغنة لأبی بکر، فلبث أبو بکر بذلک یعبد ربه فی داره و لا یستعلن بصلاته و لا یقرأ فی غیر داره، ثم بدا لأبی بکر فابتنی مسجدا بفناء داره و کان یصلی فیه و یقرأ القرآن فینقذف علیه «۳» نساء المشرکین و أبناؤهم، و هم یعجبون عنه و ینظرون إلیه و کان أبو بکر رجلا بکاء، لا یملک عینیه إذا قرأ القرآن.

و أفزع ذلک أشراف قریش من المشرکین فأرسلوا إلی ابن الدغنة فقدم علیهم، فقالوا: إنا کنا أجرنا أبا بکر بجوارک، علی أن یعبد ربه فی داره، فقد جاوز ذلک فابتنی مسجدا بفناء داره فأعلن الصلاة و القراءة فیه، و إنا قد خشینا أن یفتن نساءنا و أبناءنا فانهه، فإن أحب أن یقتصر علی أن یعبد ربه فی داره فعل، و إن أبی إلا أن یعلن بذلک فسله أن یرد إلیک ذمتک، فإنا قد کرهنا أن نخفرک «۴»، و لسنا مقرین لأبی بکر الاستعلان، قالت عائشة: فأتی ابن الدغنة إلی أبی بکر فقال: قد علمت الذی عاقدت لک علیه فإما أن تقتصر علی ذلک و إما أن ترجع إلی ذمتی، فإنی لا أحب أن تسمع العرب أنی أخفرت فی رجل عقدت له، فقال أبو بکر: فإنی أرد إلیک جوارک، و أرضی بجوار اللّه عزّ و جلّ» أ. ه.

قلنا: إن هذا التأثیر هو الذی حملهم علی صد النبی صلّی اللّه علیه و سلم بالقوة عن تلاوة القرآن فی البیت الحرام و فی أسواق الموسم و مجامعه، حتی إنهم کانوا یقذفونه بالحجارة، و هو سبب

---

(۱) هو بضم الدال المهملة المشددة عند أهل اللغة، و بکسرها عند رواة الحدیث و کسر الغین المعجمة، و فی تخفیف النون و تشدیدها روایتان.

(۲) أی یحولهم عن دینهم إلی دینه بتأثیر قراءته و خشوعه و بکائه فیها.

(۳) من التقذف، أی یتدافعون و یزدحمون فیقذف بعضهم علیه، و فی روایة فینقذف بالنون و یروی یتقصف و ینقصف علیه.

(۴) أخفره و نقض عهده و أبطله.

الوحی المحمدی، ص: ۱۱۳

تواصیهم بما حکاه اللّه تعالی عنهم فی قوله: وَ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِیهِ لَعَلَّکُمْ تَغْلِبُونَ [فصلت: ۲۶].

و قد أدرک هذا فلاسفة فرنسا «۱»؛ فذکر فی کتاب له قول دعاة النصرانیة إن محمدا لم یأت بآیة علی نبوته کآیات موسی و عیسی، و قال فی الرد علیهم: إن محمدا کان یقرأ القرآن خاشعا أواها متألها فتفعل قراءته فی جذب الناس إلی الإیمان ما لم تفعله جمیع آیات الأنبیاء الأولین.

(أقول): و لو کان القرآن ککتب القوانین المرتبة و کتب الفنون المبوبة، لما کان لقلیله و کثیره من التأثیر ما کان لسوره المنزلة.

و من الشواهد الکثیرة علی صحة قول هذا الفیلسوف ما روی أن کبراء قریش اجتمعوا فقالوا: انظروا أعلمکم بالسحر و الکهانة و الشعر فلیأت هذا الرجل الذی قد فرق جماعتنا و شئت أمرنا و عاب دیننا، فلیکلمه و لینظر ما ذا یرد علیه، فقالوا: ما نعلم أحدا غیر عتبة بن ربیعة، فقالوا: أنت یا أبا الولید فجاء النبی صلّی اللّه علیه و سلم فکلمه فیما قالوا عنه، و ما یخافون من عاقبة أمره أن یفضی إلی قیام

بعضهم علی بعض بالسیوف، و عرض علیه کل ما یمکن أن یریده من المال و الرئاسة و التزوج بعشر من خیر نساء قریش، حتی إذا أتم کلامه تلا علیه النبی صلّی اللّه علیه و سلم سورة فصلت حتی بلغ قوله تعالی: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُکُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ [فصلت: ۱۳]، قام عتبة فأمسک علی فیه و ناشده الرحم أن یکف عنه. فلما رجع إلیهم وجدوه متغیرا فقالوا قد صبأ (أی مال) إلی محمد و قص علیهم خبره و ما وقع من الرعب فی قلبه من قراءته. و مما قاله: و قد علمتم أن محمدا، إذا قال شیئا لم یکذب، فخفت أن ینزل بکم العذاب. و فی روایة أنه قال: «کلمنی بکلام و اللّه ما سمعت أذنای بمثله قط فما دریت ما أقول له» أ- ه. مختصرا من روایة المحدثین و هو مفصل فی السیر النبویة.

کان کل ما یطلبه النبی صلّی اللّه علیه و سلم من قومه أن یمکنوه من تبلیغ دعوة ربه بتلاوة القرآن علی الناس و إذ قال تعالی مخاطبا له: قُلْ أَیُّ شَیْءٍ أَکْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِیدٌ بَیْنِی وَ بَیْنَکُمْ وَ أُوحِیَ

---

(۱) رأیت شیخنا الأستاذ الإمام محمد عبده؛ یطالع فی کتاب قال لی إنه لأحد فلاسفة فرنسا و أسمعنی منه ما ذکرت خلاصته هنا، و لم أحفظ اسم الکتاب و لا اسم مؤلفه منه، و قال إن الکلمة التی وصف بها النبی صلّی اللّه علیه و سلم فی حال القراءة تدل علی أنه کان متأثرا فی نفسه و مؤثرا فی غیره، و أنه لا یعرف کلمة عربیة بمعنی هذه الکلمة الفرنسیة.

الوحی المحمدی، ص: ۱۱۴

إِلَیَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَکُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ [الأنعام: ۱۹]، أی: و أنذر به کل من بلغه من غیرکم من الناس. و قال فی آخر سورة النمل: إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِی حَرَّمَها وَ لَهُ کُلُّ شَیْءٍ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَکُونَ مِنَ الْمُسْلِمِینَ (۹۱) وَ أَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدی فَإِنَّما یَهْتَدِی لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِینَ (۹۲) وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَیُرِیکُمْ آیاتِهِ فَتَعْرِفُونَها وَ ما رَبُّکَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ [النمل: ۹۱- ۹۳].

إن رؤساء قریش عرفوا من جذب الناس إلی الإسلام بوقعه فی أنفسهم هم ما لا یعرفه غیرهم، و عرفوا أنه لیس لجمهور العرب مثل ما لهم من أسباب الجحود و المکابرة، فقال لهم عمه أبو لهب من أول الأمر: خذوا علی یدیه، قبل أن تجتمع العرب، ففعلوا، و کان من ثباته صلّی اللّه علیه و سلم علی بث الدعوة و احتمال الأذی ما أفضی بهم إلی الاضطهاد و أشد الإیذاء له و لمن یؤمن به، حتی ألجئوهم إلی الهجرة بعد الهجرة، ثم إجماع الرأی علی قتله، لو لا- أن خرج من وطنه مهاجرا، ثم صاروا یقاتلونه فی دار هجرته و ما حولها، و ینصره اللّه علیهم، إلی أن اضطروا إلی عقد الصلح معه فی الحدیبیة سنة ست من الهجرة، و کان أهم شروط الصلح السماح للمؤمنین بمخالطة المشرکین، و هو الذی کان سبب سماعهم للقرآن، و دخولهم بتأثیره فی دین اللّه أفواجا. فکان انتشار الإسلام فی أربع سنین بالسلم و الأمان أضعاف انتشاره فی ست عشرة سنة من أول الإسلام.

الوحی المحمدی، ص: ۱۱۵

فعل القرآن فی أنفس المؤمنین

کان کل من یدخل فی الإسلام قبل الهجرة یلقن ما نزل من القرآن- لیعبد اللّه بتلاوته- و یعلم الصلاة و لم یفرض فی مکة من أرکان الإسلام غیرها. فیرتل ما یحفظه فی صلاته اقتداء بالنبی صلّی اللّه علیه و سلم إذ فرض اللّه علیه التهجد باللیل من أول الإسلام.

قال تعالی فی أول سورة المزمل: یا أَیُّهَا الْمُزَّمِّلُ (۱) قُمِ اللَّیْلَ إِلَّا قَلِیلًا (۲) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِیلًا (۳) أَوْ زِدْ عَلَیْهِ وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِیلًا [المزمل: ۱- ۴]، ثم قال فی آخرها:

إِنَّ رَبَّکَ یَعْلَمُ أَنَّکَ تَقُومُ أَدْنی مِنْ ثُلُثَیِ اللَّیْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ وَ طائِفَةٌ مِنَ الَّذِینَ مَعَکَ وَ اللَّهُ یُقَدِّرُ اللَّیْلَ وَ النَّهارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَیْکُمْ فَاقْرَؤُا ما تَیَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ [المزمل: ۲۰]، أی: فی صلاة اللیل و غیرها، ثم ذکر الأعذار المانعة من قیام اللیل کله ما کان

منها فی ذلک العهد؛ کالمرض و السفر و ما سیکون بعد سنین، و هو القتال فی سبیل اللّه.

و مما ورد فی صفة الصحابة رضی اللّه عنهم أن الذی کان یمر ببیوتهم لیلا یسمع منها مثل دوی النحل من تلاوة القرآن، و قد غالی بعضهم فکان یقوم اللیل کله حتی شکا منهم نساؤهم فنهاهم النبی صلّی اللّه علیه و سلم عن ذلک، و کان هو یصلی فی کل لیلة إحدی عشرة رکعة یوتر بواحدة منهن، و ما قبلها مثنی مثنی، و کان هو یطیل فیهن حتی تورمت قدماه من طول القیام فأنزل اللّه علیه مرفها و مسلیا: طه (۱) ما أَنْزَلْنا عَلَیْکَ الْقُرْآنَ لِتَشْقی [طه: ۱، ۲] إلخ.

فتربیة الصحابة التی غیرت کل ما کان بأنفسهم من مفاسد الجاهلیة، و زکّتها تلک التزکیة التی أشرنا إلیها آنفا، و أحدث أعظم ثورة روحیة اجتماعیة فی التاریخ إنما کانت بکثرة تلاوة القرآن فی الصلاة و تدبره فی غیر الصلاة، و ربما کان أحدهم یقوم اللیلة بآیة واحدة یکررها متدبرا لها، و کانوا یقرءونه فی کل حال حتی مستلقین و مضطجعین کما وصفهم اللّه بقوله:

الَّذِینَ یَذْکُرُونَ اللَّهَ قِیاماً وَ قُعُوداً وَ عَلی جُنُوبِهِمْ [آل عمران: ۱۹۱]، و أعظم ذکر اللّه تلاوة کتابه المشتمل علی ذلک أسمائه الحسنی، و صفاته المقدسة، و أحکامه و حکمه و سننه فی خلقه، و أفعاله فی تدبیر ملکه کما تقدم.

و قد وصف اللّه تعالی فعل القرآن فی هؤلاء المؤمنین بقوله: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِیثِ کِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِیَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِینَ یَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِینُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلی ذِکْرِ اللَّهِ [الزمر: ۲۳].

الوحی المحمدی، ص: ۱۱۶

و لو کان القرآن ککتب القوانین و الفنون لما کان لتلاوته کل ذلک التأثیر فی قلب الطباع، و تغییر الأوضاع. بل لکانت تلاوته تمل فتترک، فأسلوب القرآن الذی وصفناه آنفا من أعظم أنواع إعجازه اللغوی، و تأثیره الروحی، و من ارتاب فی هذا فلینظر فی المسائل التی تشتمل علیها السورة منه و لیحاول کتابتها نفسها أو مثلها. بأسلوب تلک السورة و نظمها و أسلوب سورة أخری کالسور التی یتکرر فیها الموضوع الواحد بالإجمال الموجز تارة و بعض التفصیل تارة، و بالإطناب فیه أخری. کالاعتبار بقصص الرسل مع أقوامهم فی سورة المفصل (کالذاریات و القمر و الحاقة) و فیما فوقها (کالمؤمنون و الشعراء و النمل) و فیما هو أطول منها (کالأعراف و هود) ثم لینظر ما یفضی إلیه عجزه من السخریة و التکرار المملول. الذی یغثی منه الذوق غثیانا، و تمجه القلوب و تستفرغه استفراغا.

و قد بین غوستاف لوبون فی کتابه (روح الاجتماع) أن تکرار الدعوات الدینیة و السیاسیة و الاجتماعیة فی الخطب و المقالات التی تثیر الجماعات و تدعّهم (تدفعهم بعنف) إلی الانهماک و التفانی فیها دعاء هو الذی یثبتها فی القلوب، و لذلک یعتمد علیه خطباء السیاسة و رؤساء الأحزاب و مؤسسوها، و کذلک التجار و غیرهم فیما ینشرونه من الإعلانات فی الصحف و یعلقونه فی الشوارع.

(و نقول): ما کان محمد و لا أحد من أهل عصره یعلمون هذا. لکن اللّه یعلم من طبائع الجماعات و الأقوام. فوق ما یعلمه حکماء عصرنا و سائر الأعصار، و إنما القرآن کلامه لیس فیه من التکرار، إلا ما له أکبر الشأن فی انقلاب الأفکار، و تغییر ما فی الأنفس من العقائد و الأخلاق، و لو جمعت أبلغ خطب رجال السیاسة التی أحدثت التأثیر فی أحزابهم و قرئت بعد ذلک مرات قلیلة لسارع الملل إلی نفس کل قارئ حتی أتباع ذلک الخطیب أنفسهم و قراءة القرآن لا یملها أحد یفهم معانیها، و یذوق حلاوة أسلوبها.

ألا و إن تقلیب القلوب و الأفکار، لأعسر من فلق الصخور و تحویل الجبال، و قد ضرب اللّه لهذا المثل بقوله: لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلی جَبَلٍ لَرَأَیْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْیَةِ اللَّهِ وَ تِلْکَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ یَتَفَکَّرُونَ [الحشر: ۲۱].

و هکذا کان تأثیر القرآن فی العرب، فهذا مثلهم، و أما مثل بنی إسرائیل بعد رؤیتهم آیات اللّه لموسی فقوله لهم بعد سردها: ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُکُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِکَ فَهِیَ کَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَ إِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما یَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ وَ إِنَّ مِنْها لَما یَشَّقَّقُ فَیَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَ إِنَّ مِنْها لَما یَهْبِطُ مِنْ خَشْیَةِ اللَّهِ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ [البقرة: ۷۴].

الوحی المحمدی، ص: ۱۱۷

حسبنا ما بینا به تأثیر القرآن، و ما أحدثه من الثورة العربیة العالمیة من ناحیة أسلوبه و نظمه و تکراره المعجز للبشر بشکله، و نقفی علیه

بإصلاحه و إعجازه بموضوعه، و هو تعاليمه الدينية و السياسية و المدنية و غيرها. فنقول:

***

الوحی المحمدی، ص: ۱۱۹

الفصل الخامس فی مقاصد القرآن فی تربیة نوع الإنسان و حکمة ما فیه من التکرار فی الهدایة و إعجازه بالبیان

اشارة

إن مقاصد القرآن من إصلاح أفراد البشر و جماعاتهم و أقوامهم، و إدخالهم فی طور الرشد، و تحقیق. أخوتهم الإنسانیة و وحدتهم، و ترقیة عقولهم، و تزکیة أنفسهم؛ منها ما یکفی بیانه لهم فی الکتاب مرة أو مرتین أو مرارا قلیلة، و منها ما لا تحصل الغایة منه إلا بتکراره مرارا کثیرة لأجل أن یجتث من أعماق الأنفس کل ما کان فیها من آثار الوراثة و التقالید و العادات القبیحة الضارة، و یغرس فی مکانها أضدادها، و یتعاهد هذا الغرس بما ینمیه حتی یؤتی أکله، و یبدو صلاحه، و یینع ثمره، و منها ما یجب أن یبدأ بها کاملة، و منها ما لا یمکن إلا بالتدریج، و منها ما لا یمکن وجوده إلا فی المستقبل، فیوضع له بعض القواعد العامة، و منها ما یکفی فیه الفحوی و الکنایة.

و القرآن کتاب تربیة عملیة و تعلیم، لا کتاب تعلیم فقط، فلا یکفی أن یذکر فیه کل مسألة مرة واحدة واضحة تامة کالمعهود فی متون الفنون و کتب القوانین و قد بین اللّه تعالی ذلک بقوله فی موضوع البعثة المحمدیة: یُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ الْمَلِکِ الْقُدُّوسِ الْعَزِیزِ الْحَکِیمِ (۱) هُوَ الَّذِی بَعَثَ فِی الْأُمِّیِّینَ رَسُولًا مِنْهُمْ یَتْلُوا عَلَیْهِمْ آیاتِهِ وَ یُزَکِّیهِمْ وَ یُعَلِّمُهُمُ الْکِتابَ وَ الْحِکْمَةَ وَ إِنْ کانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِی ضَلالٍ مُبِینٍ [الجمعة: ۱، ۲]، فآیاته المتلوة هی سور القرآن، المرشدة إلی سننه فی الأکوان، و التزکیة هی التربیة بالعمل و حسن الأسوة، و (الکتاب) هو الکتابة التی تخرج العرب من أمیتهم، و (الحکمة) هی العلوم النافعة الباعثة علی الأعمال الصالحة، و ما یسمی فی عرف شعوب الحضارة بالفلسفة، فجمیع مقاصد القرآن و بیان السنة له تدور علی هذه الأقطاب الثلاثة.

و إننا نذکر هنا أصول هذه المقاصد کما وعدنا عند قولنا: إن ما جاء به محمد صلّی اللّه علیه و سلم هو أعلی و أکمل مما جاء به من قبله من جمیع الأنبیاء و الحکماء و الحکام. فهو برهان علمی علی أنه من عند اللّه تعالی، لا من فیض استعداده الشخصی.

الوحی المحمدی، ص: ۱۲۰

و إننا نقسم هذه المقاصد إلی أنواع، و نبین حکمة القرآن و ما امتاز به فی کل نوع منها بالإجمال، لأن التفصیل لا یتم إلا إذا یسر اللّه لنا إنجاز ما وعدنا به من تفسیر و مقاصد القرآن کلها فی أبواب نبین فی کل باب منها وجه حاجة البشر إلی ذلک المقصد، و کون القرآن و فی بهذه الحاجة بما نأتی به من جملة آیاته فیه، و إنما هذا الفصل نموذج منه.

الوحی المحمدی، ص: ۱۲۱

المقصد الأول من مقاصد القرآن فی بیان حقیقة أرکان الدین الثلاثة التی دعا إلیها الرسل و ضل فیها أتباعهم

اشارة

إنّ أرکان الدین الأساسیة التی بعث اللّه تعالی بها جمیع رسله، و ناط بها سعادة البشر هی الثلاثة المبینة بقوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ الَّذِینَ هادُوا وَ النَّصاری وَ الصَّابِئِینَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لا هُمْ یَحْزَنُونَ [البقرة: ۶۲]، و هاک الکلام علی کل واحد منها بالإیجاز، لأن المراد هنا بیان أن ما جاء به القرآن منها هو أتمّ و أکمل من المعروف فی سائر الأدیان، و فیه صلاح لما أفسد أهل الملل من دین الأنبیاء، مما طرأ علی کتبهم من الضیاع و التحریف، و ما ابتدعوا

فیه من الأهواء و التقالید، و لیس المراد بیانها فی ذاتها بالتفصیل الذی یتوقف علیه العمل، حتی إذا ثبت ما یقصده من نبوة محمد صلّی اللّه علیه و سلم و کون هذا القرآن کلام اللّه عزّ و جلّ أوحاه إلیه، علم منه أنه یجب علی المؤمن به أن یتعلم جمیع ما فرضه علیه.

و هذه الأرکان الثلاثة تدل علیها آثار الملل القدیمة البائدة کالمصریین و الکلدانیین، و بقایا کتب أممها الباقیة کالهنود و المجوس و الصینیین، و غرضنا فی هذا الکتاب أن نبین لجمیع الشعوب المتدینة أن ما هم علیه من الدین لیس هو عین ما أوحاه اللّه إلی رسله الذین ظهروا فی أسلافهم، و لا هو بالمصلح لهم فی أنفسهم و أعمالهم، و إنّ الإسلام هو الدین الحقّ الثابت عقلا و نقلا، و المبین لکل ما یحتاجون إلیه من الهدایة، و بهذا الاعتبار جعلناها مقصدا واحدا لا ثلاثة، و جعلنا المقصد التالی له فی موضوع الرسل و الرسالة.

الرکن الأول للدین الإیمان باللّه تعالی

إنّ الرکن الأوّل الأعظم من هذه الأرکان- و هو الإیمان باللّه تعالی- قد ضلّ فیه جمیع الأقوام و الأمم. حتی أقربهم عهدا بهدایة الرسل، فالیهود علی حفظهم لأصل عقیدة التوحید، قد غلب علیهم التشبیه، و غاب عنهم أن یجمعوا بین النصوص المتشابهة فی صفات اللّه و بین عقیدة التنزیه. فقد جعلوا اللّه کالإنسان یتعب و یندم علی ما فعل، کخلقه

الوحی المحمدی، ص: ۱۲۲

الإنسان؛ لأنه لم یکن یعلم أنه سیکون مثله أو مثل الآلهة «۱»، و زعموا أنه کان یظهر فی شکل الإنسان حتی إنه صارع إسرائیل، و لم یقدر علی التفلت منه حتی برکه فأطلقه «۲»، و عبدوا بعلا و غیره من الأصنام.

و النصاری جدّدوا من عهد قسطنطین الوثنیات القدیمة، و اتخذوا المسیح ربا و إلها و عبدوا القدیسین و صورهم، حتی صارت کنائس النصاری کهیاکل الوثنیة الأولی مملوءة بالصور و التماثیل المعبودة. علی أنّ عقیدة التثلیث و الصّلب و الفداء التی جعلوها أساس الدین- بل الدین کله- هی عقیدة الهنود فی کرشنة و ثالوثة فی جملتها و تفصیلها و هی مدعومة بفلسفة خیالیة غیر معقولة، و بنظام یقوم بتنفیذه الملوک و القیاصرة، و تبذل فی سبیله القناطیر المقنطرة من الذهب و الفضة، و یربی علیه الأحداث من الصغر تربیة وجدانیة خیالیة لا تقبل حجّة و لا برهانا، فغمر الشرک باللّه هذه الأرض بطوفانه و طغت الوثنیة علی أهلها.

هدم القرآن معاقل هذه الوثنیة و حصونها المشیدة فی الأفکار و القلوب، و ما کان لیتم هذا بإقامة برهان عقلی أو عدة براهین علی توحید اللّه عزّ و جلّ؛ بل لا بد فیه من دحض الشبهات، و تفصیل الحجج العقلیة و العلمیة و المواعظ الخطابیة بالعبارات المختلفة و ضرب الأمثال. لذلک کان أکثر المسائل تکرارا فی القرآن مسألة توحید اللّه عزّ و جلّ فی ألوهیته بعبادته وحده، و اعتقاد أنّ کلّ ما سواه من الموجودات سواء فی کونهم ملکا و عبیدا له، لا یملکون من دونه نفعا و لا ضرا لأحد، و لا لأنفسهم إلا فیما سخره من الأسباب المشترکة بین الخلق.

و أمّا تکرار توحید الربوبیة، و هو انفراده تعالی بالخلق و التقدیر و التدبیر و التشریع الدینی فلیس لإقناع المعطلین و المشرکین بربوبیته تعالی فقط. بل أکثره لإقامة الحجة به علی بطلان شرک العبادة بدعاء غیر اللّه تعالی لأجل التقرب إلیه بأولئک الأولیاء و ابتغاء شفاعتهم عنده.

فشر الشرک و أوغله فی إفساد عقائد المؤمنین باللّه من ضعفاء العقول. و حملهم علی التدین بالأوهام و الخرافات المخالفة لما أثبتته التجارب من سنن اللّه فی المخلوقات «۳»؛ إنما هو توجه

---

(۱) فی سفر التکوین (۳: ۲۲ و قال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار کواحد منا عارفا بالخیر و الشر) و فیه (۶: ۶ فحزن الرب) و فی

ترجمهٔ أخری (فندم أنه عمل الإنسان و تأسف فی قلبه).

(۲) راجع آخر الفصل ۳۲ من سفر التکوین.

(۳) اشتدت وطأة البرد فی شتاء هذا العام (۱۳۵۲ ه- ۱۹۳۳ م) و جاءت الأنباء من الشرق و الغرب بکثرة الثلوج فی أقطارهما الشمالیة و بعض المعتدلة، فعلل بعض المسلمین سلامة مصر منها بوجود أهل البیت فیها؛ یعنی القبور المشیدة لأسماء بعضهم؛ فبینت لمن سمعت منهم ذلک خطأهم من الناحیة الشرعیة و من

الوحی المحمدی، ص: ۱۲۳

العبد إلی غیر اللّه تعالی فیما یشعر بالحاجة إلیه من کشف ضرّ و جلب نفع من غیر طریق الأسباب. فقد ذکر الدعاء فی القرآن أکثر من سبعین مرة. بل زهاء سبعین بعد سبعین مرة، لأنه روح العبادة و مخها. بل هو العبادة التی هی دین الفطرة کلّه، و ما عداه من العبادات فوضعی تشریعی من تعلیم الوحی فهو یغذیها و ینقیها من شوائب الآراء، و ینفی عنها تقالید الأهواء.

بعض آیات الدعاء أمر بدعائه تعالی وحده، و بعضها نهی عن دعاء غیره مطلقا، و منها حجج علی بطلان الشرک أو علی إثبات التوحید، و منها أمثال تصور کل منهما بالصور اللائقة المؤثرة، و منها إخبار بأن دعاء غیره لا ینفع و لا یستجاب، و أن کل من یدعی من دونه تعالی فهو عبد له، و أن أفضلهم و خیارهم کالملائکة و الأنبیاء یدعونه هو و یبتغون الوسیلة إلیه، و یرجون رحمته و یخافون عذابه، و أنهم یوم القیامة یکفرون بشرک الذین یدعونهم من دون اللّه أو مع اللّه و یتبرءون منهم، و أمثال ذلک مما یطول شرحه، بل یضیق المقام عن تلخیصه.

و ثم أنواع أخری من آیات الإیمان باللّه تعالی تغذی التوحید، و تصعد بأهله درجات متفاوتة فی السّمو بمعرفته تعالی و التأله و التوله فی حبه، من التنزیه و التقدیس و التسبیح له و ذکر أسمائه الحسنی ممزوجة ببیان الأحکام الشرعیة المختلفة حتی أحکام الطهارة و النساء و الإرث و الأموال، و بحکمه فی الخلق و التدبیر لأمور العالم، و سننه فی طباع البشر و فی شئونهم الاجتماعیة، و وضع کل اسم منها فی الموضع المناسب له من علم و حکمة و قدرة و مشیئة و حلم و عفو و مغفرة و رحمة و حب و رضا و ما یقابل ذلک، و من الأمر بالتوکل علیه و الخوف منه لإجلاله أو لعدله، و الرجاء فی رحمته و فضله؛ و ناهیک بما سرد منها سردا لجذب الأرواح العالیة إلی کماله المطلق و فنائها فی شهوده عن شهودها بله أهواءها و شهواتها کما تراه فی فاتحة سورة الحدید: سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (۱) لَهُ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ یُحْیِی وَ یُمِیتُ وَ هُوَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۲) هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظَّاهِرُ وَ الْباطِنُ وَ هُوَ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ [الحدید: ۱- ۳] إلخ.

ناحیة سنن اللّه تعالی فی أسباب الحر و البرد و المطر و الثلوج، و کون وجود القبور أو أهلها لا شأن له فی ذلک. و حدث فی هذا الشتاء زلزال عظیم فی الهند هدم به بعض البلاد. ما عدا المعابد الوثنیة فی بعضها فاعتقد أهلها أن سبب بقائها عنایة اللّه بحفظها لرضاه عن عبادتهم فیها. و إنما سببه قوة بنائها فإن أکثر معابد الأمم قویة البناء تمر علیها القرون و تفنی سائر الأبنیة و هی باقیة.

الوحی المحمدی، ص: ۱۲۴

و فی آخر سورة الحشر: هُوَ اللَّهُ الَّذِی لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِکُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَیْمِنُ الْعَزِیزُ الْجَبَّارُ الْمُتَکَبِّرُ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا یُشْرِکُونَ (۲۳) هُوَ اللَّهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنی یُسَبِّحُ لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ [الحشر: ۲۲- ۲۴].

فهذه الأسماء الإلهیة هی ینابیع الحیاة الروحیة فی القلوب، و مشرق أنوار المعارف الإلهیة علی العقول؛ و منها استمدّ الأولیاء العارفون و الأئمة الربانیون تلک الحکم السامیة، و الکتب العالیة فی معرفته تعالی و أسرار خلقه، و الأدعیة و القصائد فی حبّه و مناجاته. بعد أن تربوا بکثرة ذکره و تلاوة کتابه.

و هذا هو الغرض الأوّل من أمر القرآن المؤمنين بذكر اللّه قياما و قعودا و على جنوبهم ليكون اللّه تعالى غالبا على أمرهم، كما قال فى وصف يوسف عليه السلام: وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ [يوسف: ۲۱]، فيمقتون الباطل و الشر، و يكون كل حظّهم من الحياة الحق و الخير، لما يثمره الذكر لهم من صلاة اللّه عليهم و ملائكته ليخرجهم من الظلمات إلى النور كما قال عزّ و جلّ: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (۴۱) وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا (۴۲) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَ مَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ كانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً [الأحزاب: ۴۱- ۴۳].

بهذا التكرار الذى جعله أسلوب القرآن المعجز مقبولا- غير مملول، طهّر اللّه عقول العرب و قلوبهم من رجس الشرك و خرافات الوثنية، و زكّاها بالأخلاق العالية و الفضائل السامية.

و كذا غير العرب ممن آمن باللّه و أتقن لغة كتابه، و صار يرتله فى عبادته و يتدبر آياته، حتى إذا دب فى الشعوب الإسلامية دبيب الجهل بلغة القرآن، و قل تدبره الذى فرضه اللّه عليهم، و اعتمد المسلمون فى فهم عقيدتهم على الكتب الكلامية المصنفة، و فى أعمال عباداتهم على كتب الفقه الجافة، و فى تزكية أنفسهم على الأوراد البشرية المؤلفة، ضعف التوحيد فى قلوب الكثيرين، و شابته شوائب الشرك الأصغر ثم الأكبر، و اتبعوا سنن من قبلهم شبرا بشبر و ذراعا بذراع «۱» اعتقادا و عملا، و تأولا و جدلا. فصار أدعياء العلم يتأولون تلك الآيات الكثيرة فى التوحيد بشبهاتهم و أهوائهم و تقاليدهم المبتدعة. و هجروا القرآن هجرا غير جميل، و عاقبهم اللّه بما أوعدهم كما هو مشاهد و معلوم.

---

(۱) أى مصدقا لقول النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر و ذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه». قالوا: يا رسول اللّه اليهود و النصارى؟ قال: «فمن؟». رواه البخارى و مسلم و غيرهما.

الوحى المحمدى، ص: ۱۲۵

على أن بعض المتكلمين قد تأوّلوا صفات اللّه تعالى بنظرياتهم الجدلية، و بعض الصوفية قد بالغوا فى التوحيد و فهم الصفات أو حملها على الأذواق و الوجدانات الروحية، حتى أنكر بعضهم تأثير الأسباب فى مسبباتها، و انتهى بهم ذلك إلى بدعة الجبر التى أفسدت على أهلها كل شىء، و قال بعضهم بوحدة الوجود، بيد أن الأولين منهم كانوا يقولون بما يهديهم إليه النظر العقلى أو رياضة النفس و ما تثمره من الشعور الوجدانى مع الاعتماد فى فهم النصوص على صميم اللغة و المأثور عن السلف ثم خلف من بعدهم خلف من المقلدين لا حظ لهم من القرآن و لا من البرهان و لا من الوجدان، و إنما يتبعون أهواء العوام و يتأوّلون لهم بكلام أمثالهم من المصنفين الجاهلين، و لو فقهوا أقصر سورة فى التوحيد و التنزيه كما يجب- و هى سورة الإخلاص- لما وجد الشرك إلى أنفسهم سبيلا.

إن عقيدة التوحيد القرآنى هى أعلى المعارف التى ترقى الإنسان إلى أعلى ما خلق مستعدا له من الكمال الروحى و العقلى و المدنى. و قد صرح كثير من علماء الإفرنج بأن سهولة فهم هذه العقيدة و موافقتها للعقل و الفطرة هما السبب الأكبر لقبول الأمم له و انهزام النصرانية من أمامه.

قد كان توحيد المسلمين الأولين للّه و معرفتهم به و حبهم له و توكلهم عليه هو الذى زكى أنفسهم، و أعلى هممهم، و كملهم بعزة النفس، و شدة البأس، و إقامة الحق و العدل، و مكنهم من فتح البلاد و سياسة الأمم، و إعتاقها من رق الكهنة و الأحبار و الرهبان و البوذات و الموبذانات الروحى و العقلى، و تحريرهم من ظلم الملوك و استبدادهم و إقامة و إحياء العلوم و الفنون الميتة و ترقيتها فيهم، و قد تم لهم من كل ذلك ما لم يقع مثله و لا- ما يقاربه لأمة من أمم الأرض. حتى قال الدكتور «غوستاف لوبون» المؤرخ الاجتماعى الشهير فى كتابه (تطور الأمم) إن ملكة الفنون لا يتم تكوينها لأمة من الأمم الناهضة إلا فى ثلاثة أجيال:

أوّلها جيل التقليد، و ثانيها جيل الخضرمة، و ثالثها جيل الاستقلال و الاختصاص، قال: إلا العرب وحدهم فقد استحكمت لهم ملكة

الفنون فی الجیل الأول الذی بدءوا فیه بمزاولتها.

و أقول: إنّ سبب ذلک تربیة القرآن لهم علی استقلال العقل و الفکر و احتقار التقلید الأصم الأعمی، و توطید أنفسهم علی إمامة البشر و قیادتها فی أمور الدین و الدنیا معا، و قد خفی کل هذا علی أسلافهم بعد ذهاب الخلافة الإسلامیة، و زوال النهضة العربیة و تحول السلطان إلی الأعاجم الذین لم یکن لهم من الإسلام إلا الظواهر التقلیدیة المنفصلة عن هدایة القرآن.

الوحی المحمدی، ص: ۱۲۶

الرکن الثانی للدین: عقیدة البعث و الجزاء

اشارة

الإیمان بالیوم الآخر و ما یکون فیه من البعث و الحساب و الجزاء علی الأعمال، هو الرکن الثانی للدین الذی بعث اللّه به الرسل علیهم السلام، و به یکمل الإیمان باللّه تعالی، و یکون باعثا علی العمل الصالح و ترک الفواحش و المنکرات و البغی و العدوان، و کان جل مشرکی العرب ینکرونه أشدّ الإنکار، و أما أهل الکتاب و غیرهم من الملل- التی کان لها کتب و تشریع دینی و مدنی، ثم فقدت کتبهم أو حرّفت و استحوذت علیهم الوثنیة- فکلهم یؤمنون بحیاة بعد الموت و جزاء یختلفون فی صفتهما لا فی أصلهما و لکن إن إیمانهم هذا قد شابه الفساد ببنائه علی بدع ذهبت بجل فائدته فی إصلاح الناس، و أساسها عند الهنود و غیرهم من قدماء الوثنیین، و خلائف النصاری المتبعین لدین القیصر قسطنطین، هو وجود المخلص الفادی الذی یخلص الناس من عقوبة الخطایا و یفدیهم بنفسه، و هو الأقنوم الثانی من الثالوث الإلهی الذی هو عین الأول و الثالث و کل واحد منهما عین الآخر، و کل ما تقوله النصاری فی فداء المسیح للبشر و غیر ذلک من ولادته إلی رفعه فهو نسخة مطابقة لما یقوله الهنود فی کرشنة و بوذا فی اللفظ و الفحوی کما، قلما یختلفان إلا فی الاسمین.

کرشنة و یسوع «۱».

و أما الیهود فکلّ دیانتهم خاصة بشعب إسرائیل، و ادعاء محاباة اللّه تعالی له علی سائر الشعوب فی الدنیا و الآخرة، و یسمونه إله إسرائیل، کأنّه ربهم وحدهم لا رب العالمین، و دیانتهم أقرب إلی المادیة منها إلی الروحیة، فکان فساد الإیمان بهذا الرکن من أرکان الدین تابعا لفساد الرکن الأول و هو الإیمان باللّه تعالی و معرفته، و محتاجا إلی الإصلاح مثله.

جاء القرآن للبشر بهذا الإصلاح، فقد أعاد دین النبیین فی الجزاء إلی أصله المعقول و هو ما کرّم اللّه تعالی به الإنسان، من جعل سعادته و شقائه منوطین بإیمانه و عمله، اللذین هما فی کسبه و سعیه، لا من إیمان غیره و عمله، و أنّ الجزاء علی الکفر و الظلم و الفساد فی الأرض، یکون بعدل اللّه تعالی بین جمیع خلقه بدون محاباة شعب علی شعب و الجزاء علی الإیمان و الأعمال الصالحة یکون بمقتضی الفضل، فالحسنة بعشرة أمثالها و قد یضاعفها اللّه تعالی أضعافا کثیرة.

---

(۱) عقیدة التثلیث و الفداء معروفة فی وثنیة قدماء المصریین و البابلیین و الأوروبیین أیضا، و قد فصل ذلک فی کتاب خاص بالشواهد التاریخیة اسمه: (العقائد الوثنیة، فی الدیانة النصرانیة)، تألیف الأستاذ محمد طاهر التنیر البیروتی، و طبع سنة ۱۳۳۰.

الوحی المحمدی، ص: ۱۲۷

و قد نص القرآن علی ما جاء به من هذا الإصلاح هو ما أوحاه إلی إبراهیم أبی الأنبیاء المعروفین الذین یدین اللّه بنبوتهم الیهود و النصاری، و إلی موسی و الأنبیاء الذین کانوا من بعده علی شرعه، فقال تعالی: أَ عِنْدَهُ عِلْمُ الْغَیْبِ فَهُوَ یَری (۳۵) أَمْ لَمْ یُنَبَّأْ بِما فِی صُحُفِ مُوسی (۳۶) وَ إِبْراهِیمَ الَّذِی وَفَّی (۳۷) أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْری (۳۸) وَ أَنْ لَیْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعی (۳۹) وَ أَنَّ سَعْیَهُ سَوْفَ

یُری (۴۰) ثُمَّ یُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفی [النجم: ۳۵- ۴۱]، أی:

أن أصل دین اللّه لجمیع رسله أنه لا تحمل نفس وازرة- أی خاطئة- خطیئة نفس أخری بفداء و لا غیره، و أنه لیس للإنسان إلا سعیه و عمله فلا یجزی بعمل غیره. و قد یدخل فی عموم عمله ما یکون سببا له کالذی یعمله ولده أو تلمیذه بتأثیر تربیته و تعلیمه، و ما یسّنه من سنّة حسنة أو سیئة فله مثل جزاء من یعمل بهما من بعده.

الأصل الجامع فی ذلک قوله تعالی: وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها (۷) فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها (۸) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَکَّاها (۹) وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها [الشمس: ۷- ۱۰]، أی: إن اللّه الذی خلق هذه النفس و سواها بما وهبها من المشاعر و العقل، قد جعلها بإلهام الفطرة و الغریزة مستعدة للفجور الذی یردیها و یدسیها «۱»، و التقوی التی تنجیها و تعلیها، و متمکنة من کل منهما بإرادتها، و الترجیح بین خواطرها و مطالبها، و منحها العقل و الدین یرجحان الحق و الخیر علی الباطل و الشر، فبقدر طهارة النفس و أثر تزکیتها بالإیمان و مکارم الأخلاق و محاسن الأعمال یکون ارتقاؤها فی الدنیا و فی الآخرة و الضد بالضد فالجزاء أثر طبیعی للعمل النفسی و البدنی و لذلک قال تعالی: (۶: ۱۳۹ سیجزیهم وصفهم) و هذا هو الحق الذی یثبته من عرف حقیقة الإنسان، و حکمة الدیان، و هو مما أصلحه القرآن من تعالیم الأدیان.

فإذا علمت ما کان من إنکار مشرکی العرب للبعث و الجزاء، و من فساد إیمان أهل الکتاب و سائر الملل فی هذه العقیدة، و علمت أنها مکملة للإیمان باللّه تعالی، و أن تذکرها هو الذی یقوی الوازع النفسی الذی یصد الإنسان عن الباطل و الشر و الظلم و البغی، و یرغبه فی التزام الحق و الخیر و عمل البر- علمت أن إصلاحها ما فعل العجل فی شعب کبیر إلا- بتکرار التذکیر بها فی القرآن، بالأسالیب العجیبة التی فیها من حسن البیان، و تقریب البعید

---

(۱) أصل معنی «دساها»: أخفاها مبالغة من دسه فی التراب، و استعملت هنا ضد زکاها. فإذا کان معنی زکاها: طهرها فأظهرها و أعلی قدرها، فمعنی دساها: دنسها بما یدفن جمیع مزایاهم کأنها لیست نفسا ناطقة. و أصل دساها دسسها قلبت السین الثانیة یاء و له نظائر.

الوحی المحمدی، ص: ۱۲۸

من الأذهان، تارة بالحجة و البرهان، و تارة بضرب الأمثال، و قد تکرّر فی آیات بینات، لعلها تبلغ المئات، و من إعجازه أنها لا تمل و لا- تسأم، بل لا- یکاد یشعر قارئها بتکرار معانیها، و إن تقارب جنسها و نوعها و ترادفت سورها. فتأمل ذلک فی سور المفصل، ترى تکرار الکلام علی البعث و الجزاء فیها بما لا یخطر علی بال بشر من اختلاف الأسلوب و النظم و الفواصل و لا سیما المتناسبة المتصلة کالمرسلات مع النبأ، و النازعات مع عبس، و التکویر مع الإفطار، و المطففین مع الانشقاق و غیرهن.

قلنا: إنّ الإیمان بالبعث و الجزاء، و هو الرکن الثانی فی جمیع الأدیان، من لوازم الرکن الأول و هو الإیمان باللّه المتصف بجمیع صفات الکمال، المنزه عن البعث فی أفعاله و أحکامه، و لهذا کان من أظهر أدلة القرآن علیه قوله بعد ذکر البعث و جزاء الکافرین فی آخر سور المؤمنون: أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناکُمْ عَبَثاً وَ أَنَّکُمْ إِلَیْنا لا تُرْجَعُونَ [المؤمنون: ۱۱۵]، و قوله فی آخر سورة القیامة: أَ یَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ یُتْرَکَ سُدیً [القیامة: ۳۶]، فکفر الإنسان بهذا الرکن فی أرکان الإیمان یستلزم کفره بحکمة ربّه و عدله فی خلقه و کفره بنعمته بخلقه فی أحسن تقویم. و بتفضیله علی أهل عالمه (الأرض) حیث سخّرها و کل ما فیها لمنافعه، و علی کثیر ممن خلق فی عالم الغیب الذی وعده بمصیره إلیه، و یستلزم جهله بما وهبه من المشاعر و القوی و العقل. و جهله بحکمته فی خلقه مستعدا لما لیس له حد و نهایة من العلم. الدال علی أنه خلقه لحیاة لا حد لها و لا نهایة فی الوجود.

و من لوازم هذا الکفر و الجهل کله احتقاره لنفسه باعتقاده أنه خلق عبثا لا لحکمة بالغة.

و أن وجوده فی الأرض موقوت محدود بهذا العمر القصیر المنغص بالهموم و المصائب و الظلم و البغی و الآثام. و أنه یترک سدی لا یجزی کل ظالم من أفراد بظلمه. و کل عادل و فاضل بعدله و فضله. و إذا کان هذا الجزاء غیر مطرد فی الدنیا لجمیع الأفراد، تعین أن

یکون جزاء الآخرة هو المظهر الأکبر للعدل العام، کما قال تعالی: وَ إِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَکُمْ یَوْمَ الْقِیامَةِ [آل عمران: ۱۸۵].

و من أبدع أسالیبه المکررة الجامعة و أروعها: المحاجة فی النار بین الأتباع و المتبوعین و الغاوین و المغوین و الضالین و المضلین، من شیاطین الإنس و الجن. و براءة بعضهم من بعض و منه التنادی و التحاور بین أهل الجنة و أهل النار.

الوحی المحمدی، ص: ۱۲۹

البعث الإنسانی جسمانی روحانی

و مما جاء فی القرآن مخالفا لما عند النصاری من عقیدة البعث و الجزاء: أن الإنسان فی الحیاة الآخرة یکون إنسانا کما کان فی الدنیا، إلا- أن أصحاب الأنفس الزکیة و الأرواح العالیة. یکونون أکمل أرواحا و أجسادا مما کانوا بتزکیة أنفسهم فی الدنیا. و أصحاب الأنفس الخبیثة و الأرواح السافلة یکونون أنقص و أخبث مما کانوا بتدسیة أنفسهم فی الدنیا، و یعلم مما ثبت عن قدماء المصریین و غیرهم من الغابرین أن الأدیان القدیمة کانت تعلم الناس عقیدة البعث بالروح و الجسد. إلا أنهم ظنوا أن أجسادهم تبقی بعد موتهم فیبعثون بها عینها، و لکن بیّن القرآن أنّ کلّ من علی الأرض فان، و أنها تکون بقیام الساعة هباء منبثا، و قال علماء العقائد من أهل السّنّة إنّ بعث الأجساد یکون بعد العدم التام، و قال تعالی:

نَحْنُ قَدَّرْنا بَیْنَکُمُ الْمَوْتَ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِینَ (۶۰) عَلی أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَکُمْ وَ نُنْشِئَکُمْ فِی ما لا تَعْلَمُونَ (۶۱) وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولی فَلَوْ لا تَذَکَّرُونَ [الواقعة: ۶۰- ۶۲].

و لو کان البعث للأرواح وحدها لنقص من ملکوت اللّه تعالی هذا النوع الکریم المکرم من الخلق. المؤلف من روح و جسد، فهو یدرک اللذات الروحیة و اللذات الجسمانیة، و یتحقق بحکم اللّه «جمع حکمه» و أسرار صنعه فیهما معا، من حیث حرم الحیوان و النبات من الأولی، و الملائکة من الثانیة، و ما جنح من جنح أصحاب النظریات الفلسفیة إلی البعث الروحانی المجرد إلا لاحتقارهم اللذات الجسدیة و تسمیتها بالحیوانیة مع شغف أکثرهم بها، و إنما تکون نقصا فی الإنسان إذا سخّر عقله و قواه لها وحدها، و حتی صرفه اشتغاله بها عن اللذات العقلیة و الروحیة بالعلم و العرفان أو أضعفها- و أصل هذا الإفراط و التفریط غلو الهنود فی احتقار الجسد، و جعلهم مدار تربیة النفس علی تعذیبه بالریاضات الشاقة، و تبعهم فیه نسّاک النصاری کما تبعوهم فی عقیدة الصّلب و الفداء و التثلیث، علی أنهم نقلوا أن المسیح علیه السلام شرب الخمر مع تلامیذه لما ودعهم فی الفصح و قال لهم: إنی من الآن لا أشرب من نتاج الکرمة هذا إلی ذلک الیوم حینما أشربه معکم جدیدا فی ملکوت أبی (متی ۶: ۲۹)؛ و جری الیهود علی عکس ذلک، و جاء الإسلام بالاعتدال فأعطی الإنسان جمیع حقوقه، و طالبه بما یکون بها کاملا فی إنسانیته مرجح لروحانیته علی حیوانیته، متزودا من دنیاه لآخرته.

و یؤخذ مما ورد فی الآیات و الأحادیث النبویة من صفة حیاة الآخرة: أن القوی الروحیة

الوحی المحمدی، ص: ۱۳۰

تکون هی الغالبة و المتصرّفة فی الأجساد، فتکون قادرة علی التشکّل بالصور اللطیفة، و قطع المسافات البعیدة فی المدة القریبة، و التخاطب بالکلام بین أهل الجنة و أهل النار- و إن ترقی البشر فی علم الکیمیاء و خواص الکهرباء و الصناعات و الآلات فی عصرنا قد قرّب کلّ هذا من حس الإنسان، بعد أن کان المادیون و الملحدون یعدون مثل قوله تعالی: وَ نادی أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّکُمْ حَقًّا قالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَیْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَی الظَّالِمِینَ [الأعراف: ۴۴]، من تخیلات محمد صلوات اللّه و سلامه علیه- و ها نحن أولاء نخاطب من مصر أهل عواصم أوروبا بالمسرة (بالکسر: آلة التلیفون) و نسمع خطبهم و معازفهم بالمذیاع (آلة الرادیو) و سنراهم و یروننا بآلة التلیفزیون «۱» مع التخاطب حینما یعم انتشارها.

و أما علماء الروح من الإفرنج و غیرهم فقد أثبتوا أنّ الأرواح البشریّة تکون بعد الموت قادرة علی التشکل فی أجساد تأخذها من مادة

الکون کالملائکة و الجن و کما یقول الصوفیة فی الإنس «۲»، و هذه مسألة أو مسائل قد شرحناها من قبل فی تفسیر المنار، و إنما نذکرها هنا بالإجمال ردا علی من زعموا أن القرآن مستمد من کتب الیهود و النصاری و من عقل محمد صلّی اللّه علیه و سلّم الباطن و إلهاماته الروحیة «۳».

---

(۱) هی آلة حدیثة بها ینظر الإنسان علی من یکلمه علی بعد مهما یکن سحیقا.

(۲) قال بعض من شاهد فی فرنسا روح امرأة تجسدت: إنها ظهرت أولا بشکل بخار أو ضباب ثم تکاثفت جسدا تام الجمال فی ثوب أبیض فسألها أن تعطیه قطعة من ثوبها فسمحت له، فقصها فلم تلبث أن تکون مثلها فی موضعها ثم عرضها علی معامل النسج فی باریس و سألهم هل یوجد مثل هذا النسیج المهلهل؟

قالوا لا و لکن یمکن إیجاده إذا طلب، و هذا مثل ما یحکیه صوفیتنا عن الذین یتجردون من أجسادهم تارة و یتشکلون کابن عربی و منهم قضیب البان الذی طلب مرة فوجد مائلا للبیت الذی کان فیه حتی یتعذر خروجه بجسده ذاک، ثم صغر فخرج، و من لم یصدق هذا من علماء الکیمیاء لأنه لم یشاهد مثله لا ینکر إمکانه أ. ه. (من حواشی الطبعة الثالثة).

(۳) من هذا القبیل ما رواه الشیخان عن جابر مرفوعا فی وصف أهل الجنة «و لکل واحد منهم زوجتان یری مخ سوقهما من وراء اللحم». قرأنا فی جریدة الجهاد أن امرأة فی رومانیا تخرق أشعة بصرها الحجب فتری ما وراءها کما یروی عن الأرواح المجردة، ثم نقلت لنا فی هذه الأیام (۱۳ المحرم سنة ۱۳۵۴ ه) عن بعض الصحف الإنکلیزیة أن کاتبا اسمه (جیرالد أو رکاردزا) کتب فی إحدی الصحف الإنکلیزیة یقول إن فی معبد شیلی فی أمریکا وثائق مکتوبة تثبت أنه ولد فی الصین، ولد عادی سمی (شی شوان)، و لکنه بعد سنوات صار جسمه یشف حتی صار کالزجاج یری جمیع ما فی باطنه، و سأعود إلی هذه المباحث فی الجزء الثانی من هذا الکتاب کما و عدت فی التصدیر إن شاء اللّه تعالی.

الوحی المحمدی، ص: ۱۳۱

و یناسب هذا ما جاء فی القرآن من نبأ خراب العالم و قیام الساعة التی هی بدء ما یجب الإیمان به من عقیدة البعث و الجزاء، و لم یوجد له أصل عند أهل الکتاب و لا غیرهم، و لا هو مما یمکن أن یکون قد عرفه محمد صلّی اللّه علیه و سلّم بذکائه و نظریاته العقلیة، و جملته أن قارعة- و الظاهر أنها کوکب- تقرع الأرض قرعا، و تصخّها صخا، و ترجّها رجا، فتکون هباء منبثا، أی غبارا دقیقا متفرقا فی الفضاء، و حینئذ یختل ما یسمّی فی عرف العلماء بسنة الجاذبیة العامة، فتتناثر الکواکب ثم یدخل العلم فی طور جدید هو المراد بالحیاة الآخرة «۱»، و هذا المعنی لم یکن یخطر ببال أحد من علماء الکون و لا من الدین، فلا یمکن أن یقال أن محمدا صلّی اللّه علیه و سلّم سمعه من أحد فی بلده أو فی سفره، و لا یعقل أن یکون قاله برأیه و فکره، فهو من أنباء القرآن الکثیرة التی تدحض زعم القائلین بالوحی النفسی. و قد صرّح غیر واحد من علماء الهیئة الفلکیة المعاصرین بأن خراب العالم بهذا السبب هو أقرب النظریات العلمیة لخرابه. و سنفصل ذلک بالشواهد علی ما جاء فی القرآن موافقا لأصول العلم الحدیث فی ملحقات الکتاب، من الجزء الثانی له.

و لقد کان أعظم آیات الجزاء تأثیرا فی أنفس العرب وصف نعیم الجنة و عذاب النار ببلاغته العجیبة فی المبالغة التی امتازت بها لغتهم، و فیها ما یدل علی أنها غیبیة مخالفة للمعهود فی الدنیا کقوله تعالی فی صفة النار: الَّتِی تَطَّلِعُ عَلَی الْأَفْئِدَةِ [الهمزة: ۷]، و فی الجنة: فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِیَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْیُنٍ [السجدة: ۱۷]، و قوله بعد ذکر النعیم الحسی: وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَکْبَرُ [التوبة: ۷۲]، و ناهیک بمناجاته تعالی و رؤیته التی أنکرها و تأول نصوصها المعتزلة و من تبعهم و عدوها من المتشابهات و لا غرو، فکل أمور الآخرة متشابهات، قال تعالی فی ثمرها: وَ أُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً [البقرة: ۲۵]، قال ابن عباس رضی اللّه عنه فی تفسیرها: (لا یشبه شیء مما فی الجنة ما فی الدنیا إلا فی الأسماء).

(أقول): فكيف يشبه خالقها شيئا من خلقه؟.

---

(۱) اقرأ سور: الواقعة، و القارعة، و التكوير، و الانفطار.

الوحی المحمدی، ص: ۱۳۲

الركن الثالث للدين: العمل الصالح

اشارة

الركن الثالث من مقاصد بعثة الرسل- و هو العمل الصالح- أثر لازم للإيمان باللّه و بالحساب و الجزاء فی الآخرة و ثمرة له، و هو يمدّه و يستمدّ منه فكل من الإيمان و العمل يغذّی الآخر و يقويه، و يتوقف كمال كل منهما على الآخر؛ فمن فسد إيمانه فسد عمله، و كان رياء و نفاقا أو تقليدا صوريا. فلا يكون العمل صالحا مصلحا لعامله إلا بجعله على الوجه الذی شرعه اللّه لأجله. و هذا مكرر فی القرآن فی سور كثيرة لإصلاح ما أفسده البشر فيه يجعله تقليديا غير مزكّ للنفس و لا مصلح لشئون الاجتماع، و لكن دون تكرار توحيد اللّه و تقديسه الذی هو الأصل الذی يتبعه غيره، على أنه يقرنه به.

و لو لا الحاجة إلى هذا التكرار فی التذكير و التأثير لكانت سورة العصر وحدها كافية فی الإصلاح العلمی العملی على قصرها، كسورة الإخلاص فی الركن الأول الاعتقادی، و كل منهما تكتب فی سطر واحد، فهما من معجزات إيجاز القرآن و هدايته، و كسورة الزلزلة فی الركن الثانی و هی تكتب فی ثلاثة أسطر؛ و قد روى الإمام أحمد، و الطبرانی فی الكبير أن صعصعة بن معاوية أتى النبی صلّى اللّه عليه و سلّم فقرأ عليه: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (۷) وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [الزلزلة: ۷، ۸]، فقال حسبی لا أبالی أن لا أسمع غيرها.

و روى أنّ بعض الأعراب سمع النبی صلّى اللّه عليه و سلّم يقرؤها فقال: يا رسول اللّه: أ مثقال ذرة؟ قال:

«نعم». فقال الأعرابی: وا سوأتاه ثم قام و هو يقولها، فقال النبی صلّى اللّه عليه و سلّم: «لقد دخل قلب الأعرابی الإيمان». و روى عن زيد بن أسلم رضی اللّه عنه أن النبی صلّى اللّه عليه و سلّم دفع رجلا إلى رجل يعلمه فعلمه حتى بلغ هذه الآية فقال: حسبی- فذكر الرجل المعلم ذلك النبی صلّى اللّه عليه و سلّم فقال له: «دعه فقد فقه». نقل هذه الروايات و غيرها السيوطی فی الدر المنثور عن مخرجيها، و منها أن بعض كبار الصحابة كان ربما يعطی المسكين حبة عنب و يقول إن فيها ذات كثيرة، اهتداء بهذه الآية، و بقوله صلّى اللّه عليه و سلّم فی حديث مسلم: «لا تحقرنّ من المعروف شيئا».

فتدبر هذا تعلم منه قدر استعداد عقول العرب لهداية القرآن، و كيف صلحت به أنفسهم، و صاروا أئمة الناس فی الإصلاح، آمن بعضهم بأنه يرى فی الآخرة جزاء عمله خيره و شره و إن قلّ فكان كالذرة، فوطّن نفسه على عمل كل ما استطاع من الخير، و ترك كل عمل من الشر، و هذا فقه الدين كله كما شهد له مبلغ الدين صلّى اللّه عليه و سلّم.

الوحی المحمدی، ص: ۱۳۳

إنما كان العمل الصالح من لوازم الإيمان باللّه فی الدرجة الأولى لأن من عرف اللّه تعالى عرف استحقاقه للحمد و الشكر و العبادة و الحب و التعظيم، و هو من لوازم الإيمان بالجزاء على الأعمال فی الدرجة الثانية خوفا من العقاب و رجاء فی الثواب. فالأركان الثلاثة يمر بعضها بعضا بمقتضى هداية الأنبياء الموافقة للفطرة الإنسانية دون تقاليد الوثنية التی لا شأن فيها لعلم الإنسان و لا عمله فی سعادته، لأنّ مدارها على إيمانه بوجود الفادی الشفيع أو على إقراره به. و إن كان لا يعقله، بل ينكره عقله، و تأباه فطرته، و قد أبطل القرآن عقيدة الفداء و الشفاعة الوثنية فی آيات عديدة.

و یدخل فی الأعمال الصالحة العبادات المفروضة التی یتقرب بها إلی اللّه تعالی، سائر أعمال البر التی ترضیه بمالها من التأثیر فی صلاح البشر کبر الوالدین و صلة الرحم و إکرام الیتامی و المساکین. و من أصوله الوصایا الجامعة فی آیات سورة الإسراء و هی: وَ قَضی رَبُّکَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِیَّاهُ وَ بِالْوالِدَیْنِ إِحْساناً إِمَّا یَبْلُغَنَّ عِنْدَکَ الْکِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ کِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَ لا تَنْهَرْهُما «۱» وَ قُلْ لَهُما قَوْلًا کَرِیماً (۲۳) وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَ قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما کَما رَبَّیانِی صَغِیراً (۲۴) رَبُّکُمْ أَعْلَمُ بِما فِی نُفُوسِکُمْ إِنْ تَکُونُوا صالِحِینَ فَإِنَّهُ کانَ لِلْأَوَّابِینَ غَفُوراً (۲۵) وَ آتِ ذَا الْقُرْبی حَقَّهُ وَ الْمِسْکِینَ وَ ابْنَ السَّبِیلِ وَ لا تُبَذِّرْ تَبْذِیراً (۲۶) إِنَّ الْمُبَذِّرِینَ کانُوا إِخْوانَ الشَّیاطِینِ وَ کانَ الشَّیْطانُ لِرَبِّهِ کَفُوراً (۲۷) وَ إِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّکَ تَرْجُوها فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَیْسُوراً (۲۸) وَ لا تَجْعَلْ یَدَکَ مَغْلُولَةً إِلی عُنُقِکَ وَ لا تَبْسُطْها کُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً «۲» مَحْسُوراً (۲۹) إِنَّ رَبَّکَ یَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ یَشاءُ وَ یَقْدِرُ إِنَّهُ کانَ بِعِبادِهِ خَبِیراً بَصِیراً (۳۰) وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَکُمْ خَشْیَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِیَّاکُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ کانَ خِطْأً کَبِیراً (۳۱) وَ لا تَقْرَبُوا الزِّنی إِنَّهُ کانَ فاحِشَةً وَ ساءَ سَبِیلًا (۳۲) وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِی حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِیِّهِ سُلْطاناً فَلا یُسْرِفْ فِی الْقَتْلِ «۳» إِنَّهُ کانَ مَنْصُوراً (۳۳) وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْیَتِیمِ إِلَّا بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ حَتَّی یَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ کانَ مَسْؤُلًا (۳۴) وَ أَوْفُوا الْکَیْلَ إِذا کِلْتُمْ وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِیمِ ذلِکَ خَیْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِیلًا (۳۵) وَ لا تَقْفُ ما لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤادَ کُلُّ أُولئِکَ کانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا (۳۶) وَ لا تَمْشِ فِی الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّکَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ

---

(۱) کلمة (أف) علی أقل التضجر، و الانتهار الإغلاظ فی الإنکار، و القول الکریم هو ألطف ما یقال و أدلة علی الأدب و الاحترام.

(۲) أی ملوما من الناس و فی حسرة من نفسک.

(۳) السلطان هو القصاص، و الإسراف فیه قتل من لم یثبت علیه القتل.

الوحی المحمدی، ص: ۱۳۴

وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولًا (۳۷) کُلُّ ذلِکَ کانَ سَیِّئُهُ عِنْدَ رَبِّکَ مَکْرُوهاً (۳۸) ذلِکَ مِمَّا أَوْحی إِلَیْکَ رَبُّکَ مِنَ الْحِکْمَةِ وَ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتُلْقی فِی جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً [الإسراء: ۲۳- ۳۹].

هذه الآیات أجمع و أعظم من الوصایا العشر التی فی التوراة. و تأمل آیات الوصایا فی سورة الأنعام (۱۵۱- ۱۵۳)، و آیة البر فی سورة البقرة (۱۷۷)، و غیر ذلک من آیات الحث علی الفضائل، و الزجر عن الرذائل و المعاصی الضارة بالأبدان و الأموال، و الأعراض و العقول و الأدیان، و مثارها الأکبر إتباع الهوی و طاعة وسوسة الشیطان، و یضادهما ملکة التقوی، فهی اسم جامع لما یقی النفس من کلّ ما یدنّسها و تسوء به عاقبتها فی الدنیا و الآخرة، و لهذا تذکر فی المسائل الدینیة و الروحیة و الحربیة و غیرها، و هاک کلمة وجیزة فی الموضوع.

الوحی المحمدی، ص: ۱۳۵

سنّة القرآن فی تهذیب الأخلاق و صلاح الأعمال و الفرق بینها و بین کتب الفلسفة و الآداب

القرآن کتاب هدایة فعلیة، لا کتاب فنّ و علم نظری، فهو یرشد متدبّره و المتفقه فیه إلی داعیتی الحق و الخیر، و الباطل و الشر من نفسه، و إلی طریق تزکیتها بمحاسبتها علی أعمالها، لتغلیب الحق و الخیر علی ضدهما، و تجد هذا التهذیب و التثقیف فیه یدور علی أمرین فطریین لا یتوقف فهمهما علی فلسفة أرسطو و لا ابن سینا. و هو مجاهدة النفس بالتخلی عن اتباع الهوی، و التحلی بفضیلة التقوی، و قد تکرر فیه ذم اتباع الهوی و النهی عنه، و تعلیله بأنه یصد متبعه عن الحق و العدل فی زهاء ثلاثین آیة، و تکرر ذکر التقوی و المتقین فی زهاء مائتی آیة أو أکثر، و اکتفی هنا بذکر آیة واحدة فی کل منهما.

قال اللّه تعالی فی عبادة الهوی بعد أن ذکر لنبیه صلّی اللّه علیه و سلّم أنه أتی بنی إسرائیل الکتاب و الحکم و النبوة، و فضّلهم علی

عالمی زمانهم، و آتاهم بینات من الأمر- أمر التشریع- فاختلفوا من بعد ما جاءهم العلم بغیا بینهم، ثم ذکر له أنه جعله علی شریعة من الأمر، و أمره باتباعها و نهاه عن اتباع أهواء الذین لا یعلمون، و هم المشرکون الذین لا شریعة لهم، و أعلمه أن الظالمین من الذین تفرّقوا بعد العلم فکان ضارا بهم و من الذین لا- یعلمون بعضهم أولیاء بعض، و اللّه ولی المتقین دون کل منهم، و أن هذا القرآن بصائر للناس و هدی و رحمة لقوم یوقنون، و أنه تعالی لم یجعل الذین اجترحوا السیئات، کالذین آمنوا و عملوا الصالحات، لا فی المحیا و لا- فی الممات، و أنه خلق السماوات و الأرض بالحقّ و لتجزی کل نفس بما کسبت، لا کما یزعم المشرکون من ترکهم سدی، و لا کما یدّعی أهل الکتاب من کونه تعالی یحابی بعض الشعوب و بعض الناس بأنسابهم؛ أو لأجل من یفدیهم و یشفع لهم.

قال اللّه تعالی بعض آیات فی هذه المعانی:

أَ فَرَأَیْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلی عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلی سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلی بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ یَهْدِیهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَ فَلا تَذَکَّرُونَ [الجاثیة: ۲۳]، و فی معناها من سورة الفرقان:

أَ رَأَیْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ أَ فَأَنْتَ تَکُونُ عَلَیْهِ وَکِیلًا (۴۳) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَکْثَرَهُمْ یَسْمَعُونَ أَوْ یَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا کَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِیلًا [الفرقان: ۴۳، ۴۴].

الوحی المحمدی، ص: ۱۳۶

و قال تعالی فی ثمرة التقوی للمؤمنین بعد عدة وصایا: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ یَجْعَلْ لَکُمْ فُرْقاناً وَ یُکَفِّرْ عَنْکُمْ سَیِّئاتِکُمْ وَ یَغْفِرْ لَکُمْ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِیمِ [الأنفال: ۲۹]، و قد قلت فی تفسیر هذه الآیة من جزء التفسیر التاسع ما مختصره.

هذه الآیة آخر وصایا المؤمنین فی هذا السیاق و هی أعمّها، و الأصل الجامع لها و لغیرها و کلمة «الفرقان» فیها کلمة جامعة ککلمة التقوی فی مجیئها هنا مطلقة، فالتقوی هی الشجرة، و الفرقان هو الثمرة، و هو صیغة مبالغة من مادة الفرق، و معناها فی أصل اللغة:

الفصل بین الشیئین أو الأشیاء، و المراد بالفرقان هنا: العلم الصحیح و الحکم الحقّ فیها، و لذلک فسروه بالنور، و ذلک أن الفصل و التفریق بین الأشیاء و الأمور فی العلم هو الوسیلة للخروج من حیز الإجمال إلی حیز التفصیل، و إنما العلم الصحیح هو العلم التفصیلی الذی یمیز الأجناس و الأنواع و الأصناف و الأشخاص، و إن شئت قلت بین الکلیات و الجزئیات، و البسائط و المرکبات، و النسب بین أجزاء المرکبات، من الحسیات و المعنویات، و یبین کل شیء من ذلک، و یعطیه حقه الذی یکون به ممتازا من غیره، و إیراد الأمثلة علی ذلک یطول (و قد ذکرنا نموذجا منها فی التفسیر).

فقوله تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ یَجْعَلْ لَکُمْ فُرْقاناً [الأنفال: ۲۹] معناه إن تتقوا اللّه فی کل ما یجب أن یتقی بمقتضی دینه و شرعه، و بمقتضی سننه فی نظام خلقه یجعل لکم بمقتضی هذه التقوی ملکة من العلم و الحکمة تفرّقون بها بین الحق و الباطل، و تفصّلون بین الضار و النافع، و تمیزون بین النور و الظلمة، و تمیزون بین الحجة و الشبهة. و قد روی عن بعض مفسری السلف تفسیر الفرقان هنا بنور البصیرة الذی یفرق بین الحق و الباطل و هو عین ما فصّلناه من الفرقان العلمی الحکمی، و عن بعضهم تفسیره بالبصر یفرق بین المحق و المبطل بما یعز المؤمن و یذل الکافر، و بالنجاة من الشدائد فی الدنیا و من العذاب فی الآخرة، و هذا من الفرقان العملی الذی هو ثمرة الفرقان العلمی. ذکر کل منهم ما رآه مناسبا لحال وقته أو حال من لقنه ذلک، و لم یقصد تحلیل المدلول اللغوی، و لا المعنی الکلی الذی هو ثمرة التقوی بأنواعها. و هذا النور فی العلم الذی لا یصل إلیه إلا بالتقوی هو الحکمة.

أمر اللّه تعالی فی مواضع کثیرة من کتابه باتقائه، و باتقاء النار، و باتقاء الشرک و المعاصی، و باتقاء الفتن العامة فی الدول و الأمم، و تقدم فی وصایا هذا السیاق. و باتقاء الفشل و الخذلان فی الحرب، و باتقاء ظلم النساء، و بیّن أن العاقبة فی إرث الأرض للمتقین

الوحی المحمدی، ص: ۱۳۷

کما أن الجنة فی الآخرة للمتقین؛ قال تعالی فی سورة الطلاق: وَ مَنْ یَتَّقِ اللَّهَ یَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (۲) وَ یَرْزُقْهُ مِنْ حَیْثُ لا- یَحْتَسِبُ [الطلاق: ۲، ۳]، وَ مَنْ یَتَّقِ اللَّهَ یَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ یُسْراً [الطلاق: ۴]، وَ مَنْ یَتَّقِ اللَّهَ یُکَفِّرْ عَنْهُ سَیِّئاتِهِ وَ یُعْظِمْ لَهُ أَجْراً [الطلاق: ۵]، و أمثال

ذلک فی التقوی العامة و الخاصة و أجرها و عاقبتها کثیر.

فمعنی التقوی العام: اتقاء کل ما یضر الإنسان فی نفسه و فی جنسه الإنسانی القریب و البعید، و ما یحول بینه و بین المقاصد الشریفة و الغایات الحسنة و الکمال الممکن. و لذلک قال العلماء: إنها عبارة عن ترک جمیع الذنوب و المعاصی و فعل ما یستطاع من الطاعات، و زدنا علی ذلک: اتقاء الأسباب الدنیویة المانعة من الکمال و سعادة الدارین بحسب سنن اللّه تعالی فی الکون، کالنصر علی الأعداء و جعل کلمة اللّه هی العلیا فی الأرض، کما هی فی الواقع و نفس الأمر، و کلمة الذین کفروا السفلی کذلک، و کمال ذلک یتوقف علی العلم الواسع بالکتاب و السّنّة، و کمال هذا یتوقف علی معرفة سنن اللّه تعالی فی الإنسان مجتمعا و منفردا کما أرشد إلیه فی آیات من کتابه، و من ثم کانت ثمرة التقوی العامة الکاملة هنا حصول ملکة الفرقان التی یفرق صاحبها بنوره بین الأشیاء التی تعرض له من علم و حکم و عمل، فیفصل فیها بین ما یجب قبوله و ما یجب رفضه، و بین ما ینبغی فعله و ما یجب ترکه. و تنکیر الفرقان للتنویع التابع لأنواع التقوی، کالفتن فی السیاسة و الرئاسة و الحلال و الحرام و العدل و الظلم، فکل متق للّه فی شیء یؤتیه فرقانا فیه.

و بذلک کان الخلفاء و الحکام من أصحاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و من تبعهم من خلفاء العرب أعدل حکام الأمم فی الأرض حتی فی عهد الفتح، قال بعض حکماء الإفرنج «۱»: ما عرف التاریخ فاتحا أعدل و لا أرحم من العرب، و لکنهم لم یتقوا فتن السیاسة و الرئاسة لقلة خبرتهم. فعوقبوا علیها بتفرقهم و ضعفهم و زوال ملکهم، و کان من بعدهم من أعاجم المسلمین دونهم لجهلهم بکل نوع من أنواع التقوی الواجبة، و حرمانهم من فرقانها، فهم یزعمون أنهم یجددون مجدهم، مع جهل هذا الفرقان المبین، و عدم الاعتصام بالتقوی المزکیة للنفس، المؤهلة لها للإصلاح فی الأرض، بل مع انغماسهم فی السکر و الفواحش، لظنهم أن الإفرنج قد ترقوا فی دنیاهم بفسّاقهم و فجّارهم، و إنما ترقوا بحکمائهم و أبرارهم، الذین وقفوا حیاتهم علی العلم و العمل النافع.

وَ یُکَفِّرْ عَنْکُمْ سَیِّئاتِکُمْ وَ یَغْفِرْ لَکُمْ هذا عطف علی یَجْعَلْ لَکُمْ فُرْقاناً، أی:

و یمحو بسبب هذا الفرقان و تأثیره ما کان من تدنیس سیئاتکم لأنفسکم فتزول منها داعیة

---

(۱) هو الدکتور «غوستاف لوبون»؛ صاحب کتاب حضارة العرب و الإسلام و غیره من المصنفات.

الوحی المحمدی، ص: ۱۳۸

العود إلیها المؤدی إلی الإسرار المهلک، و یغفرها لکم بسترها و ترک العقاب علیها وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِیمِ، و من أعظم فضله أن جعل هذا الجزاء العظیم (و هو الفرقان) بقسمیه السلبی و الإیجابی جزاء للتقوی و أثرا لها». انتهی تفسیر الآیة مختصرا.

سنّة القرآن فی الإرشاد إلی العبادات

و أما سنّة القرآن فی الإرشاد إلی الأعمال الصالحة فهی بیان أصولها و مجامعها و تکرار التذکیر بها بالإجمال، و أکثر ما یحث علیه من العبادات الصلاة التی هی العبادة الروحیة العلیا، و الاجتماعیة المثلی، و الزکاة التی هی العبادة المالیة الاجتماعیة الکبری. کرر الأمر بهما فی آیات کثیرة، و بین أهم منافعهما بقوله تعالی: اتْلُ ما أُوحِیَ إِلَیْکَ مِنَ الْکِتابِ وَ أَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهی عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْکَرِ وَ لَذِکْرُ اللَّهِ أَکْبَرُ وَ اللَّهُ یَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ [العنکبوت: ۴۵]، و قوله تعالی: إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً (۱۹) إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (۲۰) وَ إِذا مَسَّهُ الْخَیْرُ مَنُوعاً (۲۱) إِلَّا الْمُصَلِّینَ (۲۲) الَّذِینَ هُمْ عَلی صَلاتِهِمْ دائِمُونَ (۲۳) وَ الَّذِینَ فِی أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (۲۴) لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ [المعارج: ۱۹- ۲۵].

و لم یکرر فیه ما یحفظ بالعمل و الاقتداء بالرسول من أحکام الصلاة و الزکاة و الصیام و الحج، بل لم یذکر منها إلا ما لذکره فائدة خاصة. و ذکرت فیه أحکام الصیام فی موضع واحد من السورة الثانیة، و لم یذکر فیه عدد الرکعات فی کلّ صلاة، و لا عدد الرکوع و

السجود و لا- نصاب الزكاة فی كل نوع مما تجب فيه؛ لأنّ كلّ هذا يؤخذ من بيان الرسول و يحفظ بالعمل، و ليس فی ذكره تزكية للنفس و لا تغذية للإيمان، و سيأتی بعض فوائد الزكاة فی الكلام على إصلاح القرآن المالی من المقصد السابع.

و سنعقد فی ملحقات الكتاب من الجزء الثانی منه فصلا فی أسرار العبادات الإسلامية من روحية و اجتماعية و صحية نبين بها فضلها و امتيازها على جميع عبادات الملل الأخرى؛ فيعلم به أنه لو لم يجئ محمد صلّى اللّه عليه و سلّم بغيرها لنهضت برهانا على نبوته. و إكمال اللّه الدين به.

الوحی المحمدی، ص: ۱۳۹

ترجيح فضائل القرآن على الإنجيل

نحن (المسلمين) نؤمن بأن إنجيل المسيح عليه السلام هدى و نور بشهادة القرآن له، و إن كنا لا نعرفه، و إنما نؤمن أنه هداية خاصة مؤقتة .. لا عامة دائمة. و إن اللّه تعالى إنما أكمل دينه و وحيه بالقرآن. ففضائله أتمّ و أكمل. و أعمّ و أشمل. و أبقى و أدوم.

و أذكر فضيلتين من فضائل الإنجيل يزعم النصارى أن ما هو مأثور عندهم فيهما أكمل و أفضل مما جاء به الإسلام؛ (الأولى): قول المسيح عليه السلام: «أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى من يبغضكم، و من ضربك على خدّك الأيمن فأدر له الأيسر» «۱»، و من المعلوم بالبداهة أن امتثال هذه الأوامر يتعذر على غير الأدلة المستعبدين من الناس، و أنه قد يكون من أكبر المفاسد بإغراء الأقوياء بالضعفاء الخاضعين، و إنك لتجد أعصى الناس لها من يسمون أنفسهم بالمسيحيين.

أمثال هذه الأوامر لا تأتی فی دين الفطرة العام لأن امتثالها من غير المستطاع، و اللّه تعالى يقول: لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها [البقرة: ۲۸۶]، و إنما قرر القرآن فی موضوعها الجمع بين العدل و الفضل و المصلحة. قال تعالى: وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا- يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (۴۰) وَ لَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (۴۱) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَ يَبْغُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۴۲) وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ [الشورى: ۴۰- ۴۳].

و لا يخفى أن العفو و المغفرة للمسیء إنما تكون من القادر على الانتصار لنفسه، و بذلك يظهر فضله على من عفا عنه، فيكون سببا لاستبدال المودة بالعداوة، فی مكان الإغراء التعدی و دوام الظلم، و لذلك قال تعالى: وَ لا تَسْتَوِی الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِی بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِیٌّ حَمِيمٌ (۳۴) وَ ما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ ما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ [فصلت: ۳۴، ۳۵].

فانظر كيف بين مراتب الكمال و درجاته من العدل و الفضل، و كيف استدل عليه بما فيه من المصلحة و حكم العقل، أ فليس هذا الإصلاح الأعلى على لسان أفضل النبيين و المرشدين دليلا على أنه وحی من اللّه تعالى قد أكمل به الدين؟ بلى و أنا على ذلك من الشاهدين، لا يجحده إلا من سفه نفسه فكان من الجاهلين.

---

(۱) راجع هذه الأوامر فی أواخر الفصل الخامس من إنجيل متی.

الوحی المحمدی، ص: ۱۴۰

(الثانية): مبالغة المسيح عليه السلام فی التزهيد فی الدنيا و الأمر بتركها و ذم الغنى، حتى جعل دخول الجمل فی ثقب الإبرة أيسر من دخول الغنی ملكوت السماوات.

و نقول: إن هذه المسألة و سابقتها إنما كانتا إصلاحا مؤقتا لإسراف اليهود و غلوهم فی عبادة المال حتى أفسد أخلاقهم، و آثروا دنياهم على دينهم، و الغلو يقاوم مؤقتا بضده.

و كذلك كانت دولة الرومان السالبة لاستقلال اليهود و غيرهم دولة مسرفة فی الظلم و العدوان، و الفسق و الطغيان.

و أما الإسلام فهو دين البشر العام الدائم، فلا يقرر فيه إلا ما هو لمصلحة الناس كلّهم فی دينهم و دنياهم، و هو فی هذه المسألة ذم

استعمال المال فیما یضر من الإسراف و الطغیان، و ذم أکله بالباطل و منع الحقوق المفروضة فیه و البخل به عن الفقراء و الضعفاء. و مدح أخذه بحقه و بذله فی حقه، و إنفاقه فی سبیل اللّه بما ینفع الناس و یعزّ الملة و یقوی الأمة، و یکون عونا لها علی حفظ حقیقتها و استقلالها.

و سنری فی المقصد ما هو أعظم من هذا فی إصلاحه العالی.

فهذه المسألة و ما قبلها مما أکمل اللّه تعالی به الدین، فیما أوحاه من کتابه إلی محمد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و خاتم النبیین، و ما کان لرجل أمی و لا متعلم أن یصل بعقله إلی أمثال هذا الإصلاح لتعالیم الکتب السماویة التی یتعبّد بها الملایین من البشر، و لکتب الحکماء و الفلاسفة أیضا، فهل الأقرب إلی العقل أن یکون بوحی من اللّه عزّ و جلّ، أم من نفس محمد صلّی اللّه علیه و سلّم؟.

و مهما أنسی من شیء فلن أنسی أول کلمة فی المفاضلة بین فضائل الإسلام و المسیحیة طرقت سمعی و وعاها قلبی، أ تحسبون أننی سمعتها من أحد شیوخنا الأعلام کالعلامة الشیخ حسین الجسر أو الأستاذ الإمام؟ لا لا، إنما سمعتها من أکبر وجهاء النصاری فی طرابلس الشام (إسکندر کاستفلیس) الذی کان قنصل دولتی روسیا و ألمانیا معا، جئته من قبل والدی فی مسألة مالیة و أنا تلمیذ، و کان یسمع أننی عصری حر الفکر، فلما انتهی الحدیث الذی جئته من أجله فتح لی باب الحدیث فی الأمور القومیّة و الوطنیّة و الترقی العصری، فسمع منی انتقادا لتقصیر مسلمی بلادنا و تأخرهم عن غیرهم خلافا لما یرشدهم إلیه دینهم، و لم یکن یتوقع هذا منی، فعاملنی بمثل حریتی، و علی ما کان یصفه به وجهاء بلادنا من التعصب الدینی السیاسی لا الاعتقادی، و کان مما قاله هذه الکلمة: إن فی الإسلام فضائل کالجبال و أشمخ و أرسخ، و لکنکم دفنتموها حتی لا تکاد تعرف أو تری، و نحن عندنا شیء قلیل ضئیل ککلمة «حب اللّه و القریب» فما زلنا نمطه و نمده و نقول الفضائل المسیحیة حتی ملأ الدنیا کلها.

الوحی المحمدی، ص: ۱۴۱

شبهة فلسفیة علی عمل الخیر لمرضاة اللّه تعالی

علی ذکر الفلسفة أذکر شبهة لمقلدتهم علی الفضائل و عمل الخیر بهدایة الدین یلوکونها بألسنتهم و لا یعقلون فسادها، و هی أنّ الکمال البشری؛ أن یعمل الإنسان الخیر لذاته أو لأنه خیر لا لعلة، و یعدون من أکبر العلل أن یعمله لمرضاة اللّه أو رجاء فی ثواب الآخرة أو خوفا من عقابها. حتی أننی قرأت لکاتب اشتهر بأنه یمدح الإسلام و یدافع عنه مقالا یهذی فیه بهذه الفلسفة. و معنی هذا- إن کانوا یفقهون أن من النقص فی الإنسان أن یقصد بعمل الخیر و البر ما أرشد إلیه الدین من تزکیة نفسه و ترقیة روحه، بحیث تکون راضیة مرضیة عند ربّ العالمین ذی الکمال المطلق الأعلی، و أهلا لجواره فی دار کرامته. و إنما یکون کاملا إذا خرج عن طبعه، و قصد بعمله النفع لغیره دون تزکیة نفسه و دون إرضاء ربه، و أعمل العمل لذاته أی لا لمصلحة و لا لمنفعة فیه، و هذا سفه و عبث ینزه عنه العقلاء.

(فإن قیل): بل نقصد به المصلحة العامة أو المنفعة الخاصة بغیر العامل.

(قلنا): إن هذا مما شرعه الدین و جعله مما یرضی اللّه تعالی، و ینال به ثوابه، فهل تشترطون فی کونه خیرا أن یکون فاعله کافرا باللّه لا یبتغی رضوانه و لا ثوابه، و أن یحب نفع الناس بشرط أن لا ینتفع هو بعمله فیما لا یضرهم؟ ألا إن هذا لمن الحماقة و السفه، لا من الحکمة و الفلسفة.

مثال ذلک: أنّ جمیع الصدقات الواجبة و المستحبة من الخیر الذی یفضل بها المؤمن غیره علی نفسه و أهله، و قد مدح اللّه فیها الإیثار علی النفس، حتی مع الحاجة و الفقر، فقال فی أنصار نبیه صلّی اللّه علیه و سلّم و رضی عنهم: وَ یُؤْثِرُونَ عَلی أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ کانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ [الحشر: ۹]، و ذم الریاء فیها و فی کل عمل و هو منفعة دنیویة. و قلّما یفعل غیر المؤمن خیرا إلا لأجل الریاء و السمعة. أ

فتقولون: إنه مع هـذا من الخير، و إنما يخرجه من محيط الخير، أن يرتفع به إلى القريـة عنـد اللّه عزّ و جلّ؟ و أى خير و فضل و كمال أعلى من القرب إلى ذى العزة و الجلال؟.

و جملة القول: إن أركان الدين الثلاثة مأثورة عن جميع الملل القديمة و ذلك دليل على أنّ أصلها واحد و هو الوحى و هداية الرسل، و أنه كان قد دبّ إليها الفساد بتعاليم الوثنية و بدعها، فجاء محمّد النبى الأمى بهذا القرآن من عند اللّه تعالى فأصلح ما كان من

الوحى المحمدى، ص: ۱۴۲

فسادهـا، الـذى جعلهـا غير كافيـة لسـعادة البشـر الآخـذين بهـا، من شوب الإيمان باللّه بالشـرك، و تشبيه الخالق بالخلق و جعل الجزاء بالمحاباة و الفـداء لا بالحق و العـدل، و جعل العبادات تقاليـد كاللعب و اللهو، غير مثمرة لتزكيـة النفس، و لا راجحة فى ميزان العقل، فجاءت عبادات الإسلام و آدابه كلها معقولة مكملة لفطرة الإنسان.

الوحى المحمدى، ص: ۱۴۳

المقصد الثانى من مقاصد القرآن: بيان ما جهل البشر من أمر النبوة و الرسالة و وظائف الرسل

اشارة

كـانت العرب تنكر الوحى و الرسالـة إلاـ أفرادا من بقايـا الحنفـاء فى الحجـاز و غيره، و من دخـل فى اليهوديـة و النصـرانية لمجـاورته لأهلهما، و كانت شبهة مشركى العرب و غيرهم على الوحى استبعاد اختصاص اللّه تعالى بعض البشر بهذا التفضيل على سائرهم، و هم متسـاوون فى الصـفات البشـرية بزعمهم، و يقرب منهم اليهود الـذين أنكروا أن يختص اللّه تعـالى بهـذه الرحمـة و المنـة من يشاء من عباده، و أوجبوا عليه أن يحصـر النبوة فى شـعب إسـرائيل وحده، كأن بقيّة البشر ليسوا من عباده الذين يستحقون من رحمته و فضله ما أعطاه لليهود من هداية النبوة. على أنهم وصـفوا الأنبياء بالكذب و الخداع و الاحتيال على اللّه و مصارعته، و ارتكاب كبائر المعاصى- كمـا تقـدم فى المقصـد الأـول- و وافقهم النصـارى على حصـر النبوة فيهم؛ و أثبتوا قداسـة غير الأنبياء من رسل المسـيح و غيرهم من الباباوات و العباد، و عبـدوهم أيضا، على أنهم نقلوا عن بعض خواص تلاميذه إنكارهم إياه فى وقت الشدة، و عن بعضـهم أنه أسـلمه لأعدائه، و أنه لعن أكبرهم و سماه شيطانا، و أنه قال لهم: «كلكم تشكون فىّ هذه الليلة»، و اتخذ كل من الفريقين أحبارهم و رهبانهم و قساوسـهم أربابـا من دون اللّه تعـالى بأن نحلوهم حق التشـريع الـدينى من وضع العبادات و التحليل و التحريم «۱»، و كـل ذلك من الكفر بـاللّه و إنكـار عـدله، و عموم رحمته و فضـله، و من مفسـدات نوع الإنسـان، و جعل السواد الأعظم منه مسـتعبدا لأفراد من أبناء جنسه، فأبطل اللّه تعالى كل ذلك بما أنزله من كتابه على خاتم النبيين صلّى اللّه عليه و سلّم.

۱- بعثة الرسل فى جميع الأمم و وظائفهم:

قال اللّه عزّ و جلّ: وَ لَقَـدْ بَعَثْنا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُـدُوا اللَّهَ وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ [النحل: ۳۶]، و قال: إِنَّا أَرْسَـلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَـذِيراً وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ [فاطر: ۲۴]، و كرّم اللّه الإنسان و جعل التشـريع الـدينى من حقوقه وحـده، و إنمـا النبيون و الرسـل مبلغون عنه و ليسوا بمسـيطرين على الأـقوام، و طاعتهم تابعـة لطاعته، فقـد أبطل ما نحلهم الناس من ربوبية التشريع، كما أبطل عبادتهم

---

(۱) راجع تفصيل هذا فى (ص ۲۶۳) من الجزء العاشر، تفسير المنار.

الوحى المحمدى، ص: ۱۴۴

و عبادة من دونهم من القدیسین، و بذلک تحرر الإنسان من الرق الروحی و العقلی الذی منیت به الأمم المتدینة و لا سیما البوذیین و النصاری.

و لضلال جمیع أهل الملل و النحل فی ذلک کرر هذا الإصلاح فی کثیر من السور بالتصریح بأن الرسل بشر مثل سائر البشر یوحی إلیهم، و بأنهم لیسوا إلا مبلّغین لدین اللّه تعالی الموحی إلیهم. قال اللّه تعالی لخاتمهم المکمل لدینهم فی خاتمة سورة [الکهف، الآیة ۱۱۰]: قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُکُمْ یُوحی إِلَیَّ أَنَّما إِلهُکُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَمَنْ کانَ یَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْیَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً وَ لا یُشْرِکْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً .. الآیة. و قال فی جملتهم: وَ ما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِینَ إِلَّا مُبَشِّرِینَ وَ مُنْذِرِینَ [الکهف: ۵۶]، و مثلهما فی سورة [الأنعام، الآیة: ۴۸]، و فی معناهما آیات أخری بعثهم مبشرین و منذرین بالقول و العمل، لا متصرفین فی الکون بالنفع و الضر بأنفسهم، و لا بتأثیرهم فی إرادته تعالی. و قد شرحنا ذلک فی تفسیر قوله تعالی: قُلْ لا أَمْلِکُ لِنَفْسِی نَفْعاً وَ لا ضَرًّا إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ وَ لَوْ کُنْتُ أَعْلَمُ الْغَیْبَ لَاسْتَکْثَرْتُ مِنَ الْخَیْرِ وَ ما مَسَّنِیَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِیرٌ وَ بَشِیرٌ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ [الأعراف: ۱۸۸]، و قد بین ذلک النبی صلّی اللّه علیه و سلّم بأقواله و أعماله و أخلاقه فی العبودیة و التواضع بما لا یدع لتأویل الآیات سبیلا. حتی فطن لذلک بعض العلماء الإفرنج الأحرار فقال: إن محمدا لما رأی خزی النصاری بتألیه نبیهم و عبادته لم یکتف بتلقیب نفسه برسول اللّه حتی أمرهم بأن یقولوا: «أشهد أن لا إله إلا اللّه، و أشهد أن محمدا عبده و رسوله».

۲- أطوار النصاری و ما انتهوا إلیه فی الدین:

و من عجیب أمر النصاری أن وثنیی أوروبا غلبوهم علی دینهم لضعفهم و تفرقهم بعدم وجود نظام یجمع أمرهم بقوة حاکمة فتصدّی لجمعهم الملک قسطنطین فانتزعهم من دین التوحید الذی کان علیه إبراهیم و موسی و عیسی و سائر النبیین، و أسس لهم کنائس کهیاکل قومه الوثنیین، و رئاسة دینیة رومانیة تناوئ الیهود أو الساسانیین، إلا فلسفة بولس عدو المسیح و المسیحیین، ثم وضع لهم الأحبار و الأساقفة من الیونان و الروم عقائد و عبادات و شرائع و شعائر کثیرة، لم یبن شیء منها علی أساس التوراة التی هی ناموس موسی (ع. م)، و نقلوا عن المسیح أنه قال- قوله الحق- أنه ما جاء لینقض الناموس و إنما جاء لیتممه، و لکن هؤلاء الأوروبیین نقضوه و وضعوا لأنفسهم نوامیس أخری مخالفة له و لما تممه به المسیح من الزهد و ترک عبادة المال و الشهوات و الریاء و حب الرئاسة و البغی و العدوان، و عادوا أتباعه الیهود فی کل شیء.

الوحی المحمدی، ص: ۱۴۵

و لما بعث خاتم النبیین الذی بشر به موسی و عیسی و النبیون علیه و علیهم الصلاة و السلام، و بین الفریقین- الیهود و النصاری- ما اختلفوا فیه من أمر الدین، و رأوا الیهود و النصاری یتبعونه لعلمهم بأنه جدد لهم دین أنبیائهم عادوه و حاربوه کما تقدم، و لکنهم استفادوا من نوره صلّی اللّه علیه و سلّم ما حملهم علی إصلاح کبیر فی دینهم قاتل علیه بعضهم بعضا حتی صارت أوروبا فریقین متکافئین فی القوة، و کل ذلک معروف بالتفصیل فی العالم کله.

ثم حدث بعد ذلک أن حرب دین الإصلاح (البروتستنت) ما زال یتدرج فیما خالف فیه دین الکاثولیک و الأرثوذکس و هو حریة البحث فی الدین حتی صار الملایین من أتباعه لا یؤمنون بعصمة کتب العهد القدیم و لا العهد الجدید، ثم عقدوا مجامع و مناظرات قرروا فیها بطلان القول بألوهیة المسیح.

ثم حدث فی هذا العام أن جاهر الجمهور الأعظم فی الممالک الجرمانیة بوجوب بناء دین الأمة علی قواعد جنسها الآری، و هدم قواعد الجنس السامی الدینیة و أنبیائه من بنی إسرائیل، فبرز البابا یناهضهم و یصرح بأنهم یعودون إلی الوثنیة القدیمة فعلم من هذا الحدث الجدید أنّ الدیانة النصرانیة التی هدمها الشیوعیون فی شرق أوروبا و آسیا (الروسیة) و طفقوا یبثّون الدعوة بهدمها هی و سائر الأدیان، و التی أعقبهم الفاشیون من الجرمان بهدمها فی قلب أوروبا- لیست بالدیانة التی تثبت فی عواصف هذه الفتن الجدیدة، و

إنما الذی یقوی علی ذلک دین الإسلام وحده.

فلا سبیل إلی إنقاذ أوروبا و سائر العالم من فوضی کفر التعطیل و الإباحة إلا به.

۳- مسألة الشفاعة:

و أما مسألة الشفاعة التی کان مشرکو العرب یثبتونها لمعبوداتهم فی الدنیا، و أهل الکتاب یثبتونها لأنبیائهم و قدیسیهم فی الدنیا و الآخرة، فقد نفاها القرآن و أبطلها و أثبت أن الشفاعة للّه جمیعا، و أنه لا یشفع عنده أحد إلا بإذنه: یَعْلَمُ ما بَیْنَ أَیْدِیهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ لا یَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضی وَ هُمْ مِنْ خَشْیَتِهِ مُشْفِقُونَ (۲۸) وَ مَنْ یَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّی إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِکَ نَجْزِیهِ جَهَنَّمَ کَذلِکَ نَجْزِی الظَّالِمِینَ [الأنبیاء: ۲۸، ۲۹]، و قد فصلنا ذلک فی تفسیر سورة البقرة و غیرها مرارا (و منه أن الشفاعة الثابتة فی الأحادیث غیر الشفاعة و الوثنیة و النصرانیة المنفیة فی القرآن)، و قد قرر هذه المسألة فی بضع و عشرین آیة من السور المکیة و المدنیة.

فأنت تری أن القرآن قد بین حقیقة هذه المسألة التی ضل فیها الملایین من البشر فأشرکوا

الوحی المحمدی، ص: ۱۴۶

باللّه ما لا یضرهم و لا ینفعهم، فهل کان هذا مما استمده محمد صلّی اللّه علیه و سلّم من علماء أهل الکتاب، فجادوا به علیه و بخلوا به علی أقوامهم؟ أم هو نابع من نفسه و زهو یقتضی أن ما ینبع منها أعلی من وحی اللّه لغیره علی حسب دعوی أتباع هؤلاء الرسل؟ کلا إنما هی من وحی اللّه تعالی له.

۴- الإیمان بجمیع الرسل و عدم التفرقة بینهم:

و مما بیّنه القرآن فی مسألة الأنبیاء و الرسل أنه یجب الإیمان بجمیع رسل اللّه تعالی و عدم التفرقة بینهم فی الإیمان، و أنّ الإیمان ببعضهم و الکفر ببعض کالکفر بهم کلّهم؛ لأن إضافتهم إلی اللّه تعالی واحدة، و وظیفتهم فی إرشاد المکلفین رسالته و شرعه واحدة، قال اللّه تعالی فی خواتیم سورة البقرة: آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَیْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ کُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلائِکَتِهِ وَ کُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَیْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ [البقرة: ۲۸۵]، و بین فی سورة [النساء، الآیات: ۱۵۰- ۱۵۲] أن التفرقة بینهم فی الإیمان هی الکفر حق الکفر، و أن الإیمان بالجمیع بغیر تفرقة هو الإیمان حق الإیمان.

و هذا مبنیّ علی الإیمان بأن دین اللّه تعالی الذی أرسل به جمیع رسله واحد فی أصوله و مقاصده من هدایة البشر و إصلاحهم، و إعدادهم لسعادة الدنیا و الآخرة، و إنما کانت تختلف صور العبادات و الشرائع باختلاف استعداد الأقوام، و مقتضیات الزمان و المکان، حتی بعث الرسول بالأصول الموافقة لکلّ زمان و مکان، مع الإذن بالاجتهاد فی المصالح التی تختلف باختلاف الأطوال و الأحوال، فالإیمان ببعضهم دون بعض فی رسالتهم الإلهیة اتباع للهوی فی الإیمان و جهل بحقیقة الدین، فلا یعتد به، لأنه عین الکفر.

و قد انفرد بهذه الحقیقة العادلة المسلمون دون أهل الملل الوثنیة من المجوس و الهندوس، و دون أهل الکتاب الذین لا یؤمنون إلا بأنبیاء بنی إسرائیل و أبیهم و جدهم، علی ما یذکرون فی کتبهم من عیوب و منکرات و فواحش یرمونهم بها.

و أما المسلمون فیؤمنون بأن رب العالمین أرسل فی کل الأمم رسلا هادین مهدیین فهم یؤمنون بهم إجمالا، و بما قصه القرآن عن بعضهم تفصیلا، فقد کرّم الإسلام بهذا نوع الإنسان، و مهّد به السبیل للألفة و الأخوة الإنسانیة العامة التی نبینها بعد، فالمسلم صدیق و محبّ و حبیب لجمیع الأنبیاء و المرسلین فی الدنیا و الآخرة، و تجاه هذا یصح أن یقال: إن غیر المسلم عدو للّه و لهم کلهم، لأن تکذیبه لبعضهم تکذیب لرسالتهم و لمرسلهم سبحانه.

الوحی المحمدی، ص: ۱۴۷

و هذه المزیة لأمة محمد صلّی اللّه علیه و سلّم من المزایا التی کان بها حجة علی سائر الأمم، و أهلا لمنصب الإمامة فیها، قال اللّه

تعالی: وَ کَذلِکَ جَعَلْناکُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَکُونُوا شُهَداءَ عَلَی النَّاسِ وَ یَکُونَ الرَّسُولُ عَلَیْکُمْ شَهِیداً [البقرة: ۱۴۳]، فهی الوسط العدل فی الإیمان بجمیع الرسل و ما جاءوا به من أرکان الدین الثلاثة (کما بیناه فی المقصد الأول) و فی غیر ذلک من الفضائل و الأعمال.

و أما شهادتها علی الناس فهی تابعة لما کلفته من دعوة جمیع الأمم إلی حقیقة دین الرسل التی تلقتها من خاتم النبیین صلّی اللّه علیه و سلّم و حلّت محلّه فی الدعوة إلی ما جاء به من بعده، فهو صلّی اللّه علیه و سلّم یشهد علیها یوم القیامة کما یشهد کل رسول علی قومه الذین کانوا فی زمانه کما قال اللّه تعالی: فَکَیْفَ إِذا جِئْنا مِنْ کُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِیدٍ وَ جِئْنا بِکَ عَلی هؤُلاءِ شَهِیداً [النساء: ۴۱].

و من المعلوم بنص القرآن أنّ بعض الأنبیاء و الرسل أفضل من بعض بتخصیص اللّه تعالی، و بما کان لکلّ نبی من عمل فی نفع العباد و هدایتهم، و هی متفاوتة جدا،

قال اللّه تعالی: تِلْکَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلی بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ کَلَّمَ اللَّهُ وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ وَ آتَیْنا عِیسَی ابْنَ مَرْیَمَ الْبَیِّناتِ وَ أَیَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ [البقرة: ۲۵۳]، و من المعلوم بالدلائل العقلیة و النقلیة أن محمدا خاتم النبیین، الذی أکمل اللّه به الدین و أرسله رحمة للعالمین، هو الذی رفعه اللّه علیهم کلهم درجات کما بیناه فی تفسیر تلک الآیة بالإجمال «۱»، و فصلناه فی هذا الکتاب أقصد التفصیل.

و أنک لتجد مع هذا أنه صلّی اللّه علیه و سلّم قال لأتباعه: «لا تفضلوا بین أنبیاء اللّه» قاله إنکارا علی رجل من المسلمین لطم یهودیا لأنه قال: لا و الذی اصطفی موسی علی البشر فشکاه إلی النبی صلّی اللّه علیه و سلّم فغضب غضبا شدیدا علی صاحبه المسلم، و قاله و بین مزیة لموسی علیه الصلاة و السلام فی الآخرة ثم قال: «و لا أقول إن أحدا أفضل من یونس بن متی»، و الحدیث رواه الشیخان فی الصحیحین، و فی روایات أخری للبخاری: «لا تخیروا بین الأنبیاء»، و فی بعضها: «لا تخیرونی علی موسی». و الغرض من ذلک کله منع المسلمین من تنقیص أحد من الأنبیاء علیهم السلام، و من التعادی بین الناس لأجلهم، و من الغلو فیه صلّی اللّه علیه و سلّم، و إلا فهو قد قال فی تعلیل نهیه عن سؤال أهل الکتاب عن شیء: «و اللّه لو کان حیا بین أظهرکم ما حلّ له إلا أن یتبعنی». أبو یعلی من حدیث جابر.

---

(۱) راجع أول ج ۳ تفسیر المنار.

ذلک بأن مثل الأنبیاء کمثل ولاة الأقطار فی مملکة واحدة، أو مثل قواد الجیش فی المعسکرات المتفرقة لدولة محدودة، و مثل خاتمهم صاحب الرسالة العامة کمثل القائد و الوالی العام عند إرادة توحید السیاسة و القیادة، و هذا معنی تبشیر الأنبیاء بمحمد صلّی اللّه علیه و سلّم «۱»، و أخذ المیثاق علیهم بوجوب الإیمان به و نصره و أتباعه إذا جاءهم فرضا کما نراه فی قوله تعالی: وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِیثاقَ النَّبِیِّینَ [آل عمران: ۸۱] «۲».

---

(۱) راجع تفصیل ذلک فی ص ۲۵۱ ج ۹، تفسیر المنار.

(۲) راجع تفسیرها فی ص ۳۴۹ ج ۳، تفسیر المنار.

بحث فی الآیات الکونیة التی أید اللّه بها رسله و ما یشبه بعضها من الکرامات، و ما یشتبه بها من خوارق العادات و ضلال الماددیین و الخرافیین فیها

اشارة

تکلمنا فی الفصل الثانی فی آیات الأنبیاء التی تسمیها النصاری بالعجائب، و یسمیها علماء الکلام منا بالمعجزات، و یعدّونها قسما من خوارق العادات، و کان الکلام فیها هنالک للمقابلة و الموازنة بین آیات الأنبیاء الکونیة و آیات خاتمهم الکبری العلمیة العقلیة الدائمة و هی القرآن، و تأثیر کل فی الاهتداء إلی الإیمان.

و نأتی هنا ببحث آخر فی تلک الآیات، و ما یشبهها أو یشتبه بها من الکرامات، و سائر خوارق العادات، و ما کان من إصلاح الإسلام لضلال البشر فیها، و الصعود بهم إلی أعلی مراقی الإیمان، و اللائق بطور الرشد العقلی لنوع الإنسان، و العلم الواسع بسنن الأکوان، الذی منحوه برسالة محمد خاتم النبیین علیه الصلاة و السلام، فنقول:

آیات اللّه تعالی فی خلقه نوعان:

(النوع الأول): الآیات الجاریة علی سننه تعالی العامة المطردة فی نظام الخلق و التکوین و هی أکثرها و أظهرها و أدلّها علی کمال قدرته و إرادته، و إحاطة علمه و حکمته، وسعة فضله و رحمته.

(النوع الثانی): الآیات الجاریة علی خلاف السنن المعروفة للبشر و هی أقلّها و ربما کانت أدلها عند أکثر الناس علی اختیاره عزّ و جلّ فی جمیع ما خلق و ما یخلق، و کون قدرته و مشیئته غیر مقیدتین بسنن الخلق التی قام بها نظام هذا العالم، فالسّنن مقتضی حکمته و إتقانه لکل شیء خلقه، و قد یأتی بما یخالفها لحکمة أخری من حکمه البالغة، و لو لا هذا الاختیار لکان العالم کالآلات التی تتحرک بنظام دقیق لا علم لها و لا إرادة و لا اختیار فیه، کآلة الساعة الصغیرة التی تعرف بها أوقات اللیل و النهار. و آلات البواخر و المعامل الکبیرة.

و المادیون المنکرون لوجود الخالق، و الفلاسفة الذین یسمونه العلة الفاعلة للوجود یعبرون عن هذا النظام (بنظریة المیکانیکیة)، و هم یتکلفون اختراع العلل و الأسباب لکل ما یرونه مخالفا لسننه المعروفة، و یسمّون ما لا یهتدون إلی تعلیله من الأمور المخالفة لها بفلتات

الوحی المحمدی، ص: ۱۵۰

الطبیعة، و یقیسون ما لم یظهر لهم تعلیله علی ما اقتنعوا بتعلیل له و إن لم یقم علیه دلیل یثبته، و یقولون إن ما لم یظهر لنا الیوم فلا بد أن یظهر لنا أو لمن بعدنا غدا. و هذا دأبهم فی جمیع نظریاتهم العلمیة إذ لیس عندهم علم قطعی بشیء منها، و هذا مرادهم من تسمیتها بالنظریات، فمعناها المسائل الموضوعة للنظر و البحث و الاستدلال «۱».

سنن اللّه فی عالم الشهادة و عالم الغیب:

و نحن معشر المؤمنین بعالم الغیب و ما فیه من الملائکة- و هم جند اللّه الأکبر- و ما لهم من التأثیر و التدبیر فی عالم الشهادة المادی بإذن اللّه تعالی و تسخیره، نعتقد أن للّه تعالی سننا فی نظام ذلک العالم غیر سننه الخاصة بعالم المادة، و أن الإنسان هو حلقة الاتصال بین العالمین، فجسده و وظائفه الحیویة من عالم الشهادة، و روحه من عالم الغیب، و هو ما دام فی عالم الجسد المادی فإن جمیع مداراکه تکون مشغولة بعالم المادة و سننها، و حاجاته الشخصیة و النوعیة منها، فیحجبه ذلک عن عالم الروح الغیبی حتی روحه و هی الفصل المقوم لحقیقته، و إنما یکون الظهور و السلطان للروح علی الجسد فی الحیاة الآخرة، إلا من اصطفی اللّه تعالی من رسله و أنبیائه فأعدّهم بفضله و رحمته للاتصال بملائکته و التلقی عنهم، و أظهرهم علی ما شاء من غیبه لیبلغوا عباده عنه ما أمرهم به، و قد یشرف غیرهم من الأصفیاء و أصحاب الریاضات النفسیة علی بعض الخواص الروحیة دون ما یطلع علیه اللّه أنبیاءه و رسله علیهم السلام.

الغیب قسمان حقیقی و إضافی:

الغیب: ما غاب علمه عن الناس، و هو قسمان: غیب حقیقیّ لا یعلمه إلا اللّه، و غیب إضافیّ یعلمه بعض الخلق دون بعض لأسباب تختلف باختلاف الاستعداد الفطری و العمل الکسبی، و من أظهره اللّه علی بعض الغیب الحقیقی من رسله فلیس لهم فی ذلک کسب لأنه من خصائص النبوة غیر المکتسبة «۲».

---

(۱) لا یزال یظهر للباحثین ما ینقص ما کانوا یعدونه من أثبت القواعد، و نقل إلینا أخیرا أن الأستاذ شینلجو ألف کتابا فی سر فلسفة القدر، نقض فیه جمیع قواعد العلوم و الفنون، و أسند کل شیء من أطوار الکون إلی القضاء و القدر.

(۲) یراجع تحقیق هذا الموضوع بالتفصیل فی الصفحات ۴۲۱- ۴۵۶- ۴۶۹ من الجزء السابع، و ملخصه (ص ۵۱۳) من الجزء التاسع- تفسیر المنار.

الوحی المحمدی، ص: ۱۵۱

و من دونهم أفراد من خواصّ أتباعهم و أوتوا نصیبا من الإشراف علی ذلک العالم بانکشاف ما للحجاب، و إدراک ما لشیء من تلک الأنوار، کان بها إیمانهم برسلهم فوق إیمان أهل البرهان. و قد روی عن أمیر المؤمنین علیّ کرّم اللّه وجهه أنه قال: «لو کشف الحجاب ما ازددت یقینا». یعنی و اللّه أعلم أن اللّه قد شرح صدره للإسلام، فکان علی نور من ربّه بلغ به مقام الاطمئنان، و قد صحّ عن بعض من دونه من الصحابة فی العلم و العرفان، أنهم رأوا النور الغیبی بالعیان، و رأوا الملائکة علیهم السلام، فی غیر ما کانوا یرون جبریل متمثلا بصورة إنسان.

و من دون هؤلاء أفراد آخرون قد یکون لهم من سلامة الفطرة، أن معالجة النّفس بأنواع من الریاضة، أو من طروء مرض یصرف قوی النفس عن الاهتمام بشهوات الجسد، أو من سلطان إرادة قویة علی إرادة ضعیفة تصرفها عن حسها، و توجه قواها النفسیة إلی ما شاءت أن تدرکه لقوتها الخاصة بها- قد یکون لهؤلاء الأفراد فی بعض الأحوال من قوة الروح ما یلمحون به بعض الأشیاء أو الأشخاص البعیدة عنهم، و تتمثل لهم بعض الأمور قبل وقوعها مرتسمة فی خیالهم فیخبرون بها فتقع کما أخبروا، و ثبت هذا و ذاک عند بعض الماديين فی هذا الزمان «۱».

---

(۱) منه ما یسمونه بقراءة الأفکار و بمراسلة الأفکار و لا یزالون یصدقون العرافین و العرافات کما نری فی الصحف عن جرائد أوروبا و آخرها ما قرأته عند تصحیح هذه الکراسة فی المقطم الذی صدر فی غرة صفر سنة ۱۳۵۴ ه مایو سنة ۱۹۳۵ م، عن العرافة (مدام ترفران لیلی) أنباء قالتها للوزراء و الملوک و الرؤساء فی أوربا ثم وقعت کما أنبأت، منها قتل دومر رئیس جمهوریة فرنسا، و منها عودة کاروک ملک رومانیا المنفی إلی بلاده، و منها أن أحمد زوغو سیصیر ملکا لألبانیا، و منها الانقلاب فی ألمانیا الخ.

الوحی المحمدی، ص: ۱۵۲

الخوارق الحقیقیة و الصوریة عند الأمم

إنّ الأمور التی تأتی فی الظاهر علی غیر السنن المعروفة. أو الخارقة للعادات المألوفة، منقولة عن جمیع الأمم فی جمیع العصور نقلا متواترا فی جنسه دون جمیع أنواع أو أفراد وقائعه، و لیست کلّها خوارق حقیقیة، فإن منها ما له من أسباب مجهولة للجمهور، و إن منها لما هو صناعی یستفاد بتعلیم خاص، و إن منها لما هو من خصائص قوی النفس فی توجیهها إلی مطالبها، و فی تأثیر أقویاء الإرادة فی ضعفائها، و یدخل فی هذین المکاشفة فی بعض الأمور و التنویم المغناطیسی، و شفاء بعض المرضی و لا سیما المصابین بالأمراض

العصبیة التی یؤثر فیها الاعتقاد و الوهم، و منها بعض أنواع العمی و الفالج، فإن من الناس من یفقد بصره بمرض یطرأ علی أعصاب عینیه و هما صحیحان تلمعان فی وجهه، أو یغشاهما بیاض عارض مع بقاء طبقاتهما صحیحة، و لیس منه الکمه و العمی الذی یقع بطمس العینین و غئورهما کالذی أبرأه المسیح علیه السلام بإذن اللّه تعالی.

و منه انخداع البصر بالتخییل الذی یحذقه المشعوذون، و منه ما فعله سحرة فرعون المبین بقوله تعالی: فَإِذا حِبالُهُمْ وَ عِصِیُّهُمْ یُخَیَّلُ إِلَیْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعی [طه: ۶۶].

و منه انخداع السمع کالذی یفعله الذین یدّعون استخدام الجن إذ یتکلمون لیلا بأصوات غریبة غیر أصواتهم المعتادة فیظن مصدّقهم أنّ ذلک صوت الجنی، و قد یتکلمون نهارا من بطونهم من غیر أن یحرکوا شفاههم «۱»، فلا ینبغی أن یوثق بشیء من أخبارهم و لا من نقلهم، و من الدلائل علی کذب المنتحلین لهذه الغرائب إنهم جعلوها وسیلة لمعایشهم الدنیئة، و أنهم لو کانوا صادقین فیها لتنافس الملوک و کبار علماء الکون فی صحبتهم و الانتفاع بهم.

و قد بیّنا هذه الأنواع من الخوارق الصوریة فی بحث السحر من تفسیر سورة الأعراف «۲»، و فی المقالات التی عقدناها للکرامات و أنواعها و تعلیلها فی المجلد الثانی من المنار، و أتممناها فی المجلد السادس منه.

---

(۱) قد حدث فی هذه السنة افتضاح دجالة اتخذت دعوی استخدام الجن صناعة لها فرفعت علیها قضایا و قد قرأنا فی بعض الجرائد عند تقدیم هذه الکراسة لجمعها للطبعة الثانیة أن حیلتها الصناعیة بالکلام الذی یسمع صوته من جوفها و توهم به المخدوعین أنه کلام الجنی قد عرفت فی أثناء التحقیق.

(۲) راجع ص ۴۵- ۶۰ ج ۹ من تفسیر المنار.

الوحی المحمدی، ص: ۱۵۳

إنّ عوام الشعوب الذین یجهلون تواریخ الأمم، و ما وجد عند کل منها من هذه الغرائب، و مما کشفه العلماء من حیل فیها و علل، یغترون بما عندهم منها، و یخضعون للدجالین و المحتالین الذین ینتحلونها، و یمکنونهم من أموالهم فیسلبونها، و یأتمنونهم علی أعراضهم فینتهکونها، و لا سیما إذا کانوا یأتون ما یأتون منها، علی أنه من کرامات الأولیاء و عجائب القدیسین، و یقل تصدیق هذا أو الانقیاد لأهله حیث ینتشر تعلیم التواریخ و ما عند جمیع الأمم من ذلک، علی أنه لا یزال کثیرا فی جمیع بلاد أوروبا و أمریکا، و لعله دون ما فی بلاد الشرق و لا سیما القری و همج الزنوج و غیرهم.

بید أن آیات اللّه الحقیقیة التی نسمیها المعجزات هی فوق هذه الأعمال الصناعیة الغریبة لا کسب لأحد من البشر و لا صنع لهم فیها، و أن ما أید به رسله منها لم یکن یکسبهم و لا عملهم و لا تأثیرهم، حتی ما یکون بدؤه بحرکة إرادیة یأمرهم اللّه تعالی بها، أ لم یهد لک کیف خاف موسی علیه السلام حین تحولت عصاه حیة تسعی، فولّی مدبرا و لم یعقب «۱» لشدة خوفه منها، حتی هدأ اللّه روعه و أمن خوفه؟ أو لم تقرأ قوله لمحمد صلّی اللّه علیه و سلم: وَ ما رَمَیْتَ إِذْ رَمَیْتَ وَ لکِنَّ اللَّهَ رَمی [الأنفال: ۱۷]؟، أو لم تفهم ما أمره اللّه تعالی أن یجیب به مقترحی الآیات علیه من قومه بقوله: قُلْ سُبْحانَ رَبِّی هَلْ کُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا [الإسراء: ۹۳]؟، و قوله: قُلْ إِنَّمَا الْآیاتُ عِنْدَ اللَّهِ [الأنعام: ۱۰۹] و ما فی معناهما؟!.

---

(۱) یعقب: بتشدید القاف أی لم یلتفت و لم یرجع.

الوحی المحمدی، ص: ۱۵۴

الفرق بین المعجزة و الکرامة

إن اللّه تعالى لم يؤيد رسله بما أيّدهم به من المعجزات إلا لتكون حجة لهم على أقوامهم يهدى بها المستعد للهداية، و تحق بها الكلمة على الجاحدين المعاندين فتقع عليهم العقوبة، و ذلك لا- يكون إلا- بإظهارها، فهو واجب لإتمام تبليغ الدعوة التى أرسلوا لتبليغها. و ما كان الأنبياء يدعون اللّه تعالى بشيء من خوارق العادات غير ما يؤيدهم به من الآيات الدالة على صدقهم فى دعوى الرسالة إلا لضرورة كالاستسقاء.

و كان خاتمهم و أكرمهم على اللّه تعالى يصبر هو و أهل بيته و أصحابه على المرض و الجوع و العطش، و لا يدعو لهم صلّى اللّه عليه و سلّم بما يزيل ذلك إلا نادرا. و قد سألته المرأة التى كانت تصرع أن يدعو اللّه لها بالشفاء فأرشدها إلى أن الصبر على مصيبتها خير لها، فشكت إليه أنها تتكشف عند النوبة و سألته أن يدعو لها ألا تتكشف فدعا لها و استجاب اللّه دعاءه.

و كان المشركون يقترحون عليه الآيات كآيات موسى و عيسى (ع. م)، فيجيبهم بأمر اللّه تعالى بما هو صريح فى أن الآيات عند اللّه و هو القادر عليها دون الرسول، و منه التعجب من طلبهم بقوله تعالى له: قُلْ سُبْحانَ رَبِّی هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا [الإسراء: ۹۳]، و قوله و ما فى معناها ما حكاه من جواب الرسل الأولين لأقوامهم الذين كانوا يطالبونهم بمثل ذلك بقوله تعالى: قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ ما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ [إبراهيم: ۱۱].

و الأصل فى الكرامة الإخفاء و الكتمان و كثيرا ما يكون ظهورها فتنة للناس.

و ما كان أهلها يظهرون ما لهم كسب فيه منها كالمكاشفة إلا لضرورة و قد صرح بهذا محققو العلماء و الصوفية، فهو متفق عليه بينهم خلافا للمشهور بين العامة.

قال التاج السبكى فى سياق حجج منكرى جواز وقوع الكرامات من طبقات الشافعية:

« (الحجة الثانية): قالوا لو جازت الكرامة لاشتبهت بالمعجزة، فلا تدلّ المعجزة على ثبوت النبوة. و الجواب منع الاشتباه بقرن المعجزة بدعوى النبوة دون الكرامة، فهى إنما تقترن بكمال اتباع النبى من الولى. و أيضا فالمعجزة يجب على صاحبها الاشتهار، و الكرامة مبناها على الإخفاء، و لا- تظهر إلا- على الندرة و الخصوص لا- على الكثرة و العموم. و أيضا فالمعجزة يجوز أن تقع بجميع خوارق العادات، و الكرامة تختص ببعضها كما بيناه من كلام القشيرى و هو الصحيح» أ. ه. ثم قال:

الوحی المحمدی، ص: ۱۵۵

« (الحجة الرابعة): قالوا لو جاز ظهور خوارق العادات على أيدى الصالحين لما أمكن أن يستدل على نبوة الأنبياء بظهورها على أيديهم لجواز أن تظهر على يد الولى سرا فإن من أصول معظم جماعتكم أنّ الأولياء لا يظهرون الكرامات و لا يدعون بها و إنما تظهر سرا وراء ستور و يتخصص بالاطلاع عليها آحاد الناس و يكون ظهورها سرا مستمرا بحيث لا يلتحق بحكم المعتاد، فإذا ظهر نبى و تحدّى بمعجزة جاز أن تكون مما اعتاده أولياء عصره من الكرامات فلا يتحقّق فى حقه خرق العادة، فكيف السبيل إلى تصديقه مع عدم تحقق خرق العوائد فى حقه؟ و أيضا تكرر الكرامة يلحقها بالمعتاد فى حق الأولياء و ذلك بصدهم عن تصحيح النظر فى المعجزة إذا ظهر نبى فى زمنهم».

و قال فى الجواب: «لأئمتنا وجهان؛ الأول: منع توالى الكرامات و استمرارها حتى تصير فى حكم العوائد، و إنما يجوز ظهورها على وجه لا تصير عادة فلا يلزم ما ذكروه، و الثانى:

و هو لمعظم أئمتنا قالوا: إنه يجوز توالى الكرامات على وجه الاختفاء بحيث لا- يظهر و لا يشيع و لا يعتاد لئلا تخرج الكرامات عن كونها كرامات» أ. ه.

و أقول: إن المحققين من الصوفية يوافقون علماء الكلام و الأصول على منع توالى الكرامات و تكرارها، و منع إظهارها.

قال الشيخ محيى الدين بن عربى: إن ما يتكرر لا يكون كرامة لأنه يكون عادة و إنما الكرامة من خوارق العادات.

و قال الشيخ أحمد رفاعى: إنّ الأولياء يستترون من الكرامة كما تستتر المرأة من دم المحيض، و صرحوا بأنها ليست بشرط للولاية و لا

دلیل علیها.

جهل هذا الأصل المحکم من عقائد الإسلام أدعیاء العلم من سدنة القبور و المعبودة و غیرهم، فظنوا أنّ المعجزات و الکرامات أمور کسبیة کالصناعات العادیة، و أن الأنبیاء و الصالحین یفعلونها باختیارهم فی حیاتهم و بعد مماتهم متی شاءوا، و یغرون «۱» الناس بإتیان قبورهم و لو بشد الرحال إلیها، لدعائهم و الاستغاثة بهم عندها لیدفعوا أو یرفعوا عنهم نزول البلاء و الشدائد التی یعجزون عن دفعها بکسبهم و کسب أمثالهم من البشر بالأسباب العادیة- کالأطباء مثلا- و یتقرّبون إلیهم بالنذور و القرابین کما کان المشرکون یتقربون إلی

---

(۱) من الإغراء، أی: یحضونهم علی ذلک و یرغبونهم فیه.

الوحی المحمدی، ص: ۱۵۶

آلهتهم من الأصنام و غیرها، و هم یأکلونها سحتا حراما، و یخبرونهم بأن دین اللّه تعالی یأمرهم أن یعتقدوا أنهم یقضون حوائجهم، حتی قال بعضهم إنهم یخرجون من قبورهم بأجسادهم و یتولون قضاء الحاجات، و کشف الکربات، و لو کانت کذلک لما کانت من خوارق العادات، و قال بعضهم فی کتاب مطبوع: إن فلانا من الأقطاب یمیت و یحیی، و یسعد و یشقی، و یفقر و یغنی. بل قالوا و کتبوا ما هو أبعد من ذلک عن نصوص الکتاب و السنة القطعیة المحکمة، و العقائد المجمع علیها المعلومة من الدین بالضرورة فی الأصل، و ما کان علیه مسلمو القرون الأولی، فصارت بانتشار الخرافات و الجهل من الکرامات. التی تؤوّل و تحرف لأجلها الآیات المحکمات. و قد فصّلنا هذا فی تفسیر المنار مرارا و نجمله فیما یأتی:

الوحی المحمدی، ص: ۱۵۷

الکافرون بالآیات صنفان: مکذبون و مشرکون، و علاج کل منهما

الکافرون بآیات اللّه تعالی صنفان؛ صنف: یکذبها کلها و لا یؤمنون بشیء منها، و صنف: یشرک باللّه غیره فیها فینحله ما هو خاص به عزّ و جلّ لا یقدر علیه سواه بدعوی أن اللّه تعالی هو الذی أعطاهم القدرة الغیبیة علی ذلک و صرفهم فی العالم کرامة لهم.

أی: هو الذی أشرکهم معه، کما کان المشرکون یقولون فی حجهم: (لبیک لا شریک لک، إلا شریکا هو لک، تملکه و ما تملک)، و إنما یتحامون ألفاظ العبادة و الشرک و الخلق دون معانیها. فیکذبون علی اللّه تعالی و علیهم بما یکذبهم به کتابه المنزل، و نبیه المرسل، و لکنهم یؤولون ما هو حجة علیهم، و یحرفون ما هو شبهة لهم، فیحتجون به علی جهلهم، کآیة:

لَهُمْ ما یَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ [الزمر: ۳۴]، و هی کأمثالها فی جزاء جمیع المؤمنین المتقین فی الآخرة، و یذکرون أن اللّه کان یرزق مریم علیها السلام بغیر حساب، و ما کان رزقها من فعلها، و لا یدری أحد کیف سخره اللّه لها و یذکرون وحیه إلی أم موسی بإرضاعه و إلقائه فی الیم، و ما هو من فعلها أیضا، و قد قیل بنبوتها، و یذکرون عرش ملکة سبأ و هو من آیاته تعالی لنبیه سلیمان، و لیس فی الآیة تصریح برؤیته مستقرا عنده کیف کانت، فقیل إن الذی جاء به جبریل، و قیل ملک آخر، و قیل ولی و هو وزیر سلیمان، و هذا من الإسرائیلیات غیر المعقولة.

إنّ إفساد هؤلاء الخرافیین للبشر فی دینهم و دنیاهم لأشدّ من إفساد المنکرین للآیات المکذبین بها، ذلک بأنهم هم أکبر أسباب هذا الإنکار و التکذیب، و بزعمهم أن الأنبیاء و من دونهم من الصالحین یتصرّفون فی الخلق بما یخالف سنن اللّه تعالی فیه أو یبدلها بغیرها و یحولها عما وضعت له، و زعمهم أن اللّه هو الذی دعا الناس إلی هذا الاعتقاد و جعله أساس دینه، فکذّبوا بالدین من أساسه، فدعوی تصرف الأنبیاء و الصالحین فی الکون قول علی اللّه بغیر علم، و افتراء علی اللّه بکونه شرعا لم یأذن به الله، و هو أشد أنواع الکفر باللّه لأن ضرره متعد بما فیه من إضلال الناس باعتقاد باطل یتبعه عبادة باطلة غیر مشروعة.

الوحی المحمدی، ص: ۱۵۸

علاج خرافات تصرف الأولیاء فی الکون:

أما الذین یشرکون باللّه فی عبادته بجهلهم لآیاته و تقلید أمثالهم من الجاهلین فی خرافاتهم، فلا علاج لهم إلا تعلیمهم توحید اللّه الخالص فی ربوبیته و ألوهیته بآیات القرآن، دون نظریات کتب الکلام، و تعلیمهم وظائف الرسل، و کونهم بشرا اختصهم اللّه تعالی بوحیه لتبلیغ عباده ما ارتضاه لهم من الدین بالقول و العمل، و حصر اختصاصهم بالتعلیم و الإرشاد تبشیرا و إنذارا، و تنفیذ أحکام شرعه فیهم بالعدل و المساواة، و لم یؤتهم من التصرف الفعلی فی خلقه ما یقدرون به علی هدایة أقرب الناس و أحبهم إلیهم بالطبع کالوالد و الولد و الزوجة و من دونهم من أولی القربی، فوالد إبراهیم الخلیل عاش کافرا و مات کافرا عدوا للّه و رسوله و خلیله، و ولد نوح أول الرسل إلی الأمم مات کافرا و لم یأذن اللّه تعالی لنوح بحمله فی السفینة فکان من الکافرین المغرقین، و کان أبو لهب عمّ محمّد- حبیب اللّه و رسوله- أشدّ أعدائه الصادین عنه المؤذین له، و أنزل اللّه فی ذمه و وعیده سورة من القرآن یتعبد بها المؤمنون إلی یوم القیامة لم ینزل مثلها فی أحد من أعدائه و أعداء رسوله صلّی اللّه علیه و سلّم. بل کان من کمال حکمة اللّه تعالی أن عمه الذی کفله و رباه و کف عنه أذی المشرکین ما استطاع لم یؤمن به و قد عرض علیه أن ینطق بکلمة «لا إله إلا الله» لیشهد له بها یوم القیامة فامتنع فأنزل اللّه تعالی فیه: إِنَّکَ لا تَهْدِی مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لکِنَّ اللَّهَ یَهْدِی مَنْ یَشاءُ [القصص: ۵۶] رواه مسلم فی صحیحه. و قد شرحنا هذا الموضوع فی تفسیر قوله تعالی: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِیمُ لِأَبِیهِ آزَرَ [الأنعام: ۷۴] .. الآیات «۱»، ثم بینا فی خلاصة هذه السورة (الأنعام) وظائف الرسل علیهم السلام بما یحسن أن یراجعه من یحب استیفاء هذا الموضوع «۲»، و إذا کان الأنبیاء و المرسلون لم یؤتوا القدرة علی التصرف فی الکون فکیف یؤتاه الأولیاء و غیرهم؟!.

---

(۱) ص ۵۳۴- ۵۶۵- ج ۷ تفسیر المنار.

(۲) ص ۲۷۵- ۵۷۸ ج ۸ تفسیر المنار.

الوحی المحمدی، ص: ۱۵۹

المنکرون للمعجزات و شبهة الخوارق الکسبیة علیها

اشارة

و أما المنکرون للآیات فلا یمکن أن تقوم علیهم الحجّة إلا بالقرآن کما تقدّم فهم لا یصدّقون ما ینقله الیهود و النصاری من آیات موسی و عیسی و غیرهما من النبیین (ع. م)، و لا یسلمون صحة تواترها، إذ یقیسون نقلهم لها علی ما ینقله العوام فی کل عصر عن بعض المعتقدین فی بلادهم من الخوارق الخادعة التی مثارها الوهم و التخیّل، و یحتجون علی ذلک بأن یوسیفوس المؤرخ الیهودی المعاصر للمسیح (ع. م) لم ینقل للناس أخبار عجائبه التی تقصها الأناجیل التی ألّفت بعده. و یعلّلونها علی تقدیر صحة النقل بما یعللون به الخوارق الصوریة التی یشاهدونها فی کل عصر، فإن لم یستطیعوا تعلیلها قالوا إنه لا بد لها من سبب کسبی یظهر لنا أو یعترف به فاعلوها کما وقع فی أمثالها من صوفیة الهندوس (الفقراء) کالارتفاع فی الهواء و غیر ذلک مما هو أغرب منه (کما بیناه فی الکلام علی عجائب المسیح من الفصل الثانی).

أعجوبة من خوارق الهنود

روت إحدی الجرائد المصریة فی هذه الأیام «۱» من أخبار سائحی الإفرنج فی الهند حادثة لفقیر من هؤلاء الفقراء اسمه سارجو هارداس وقعت فی سنة ۱۸۳۷، خلاصتها أن هذا الفقیر جاء قصر المهراجا رانجیت سنجا أمیر بنجاب و عرض علیه أن یریه بعض کراماته و کان المهراجا لا یصدّق ما ینقل من خوارق هؤلاء الفقراء، فسأله عما یرید إظهاره فقال إنه یدفن أربعین یوما ثم یعود إلیهم حیا، فأحضر المهراجا نفرا من أطباء الانکلیز و الفرنسیس و أمراء بنجاب فجلس الفقیر القرفصاء أمامهم فکفّنوه بعد أن وضعوا القطن و الشمع علی أذنیه و أنفه- کما أوصاهم- و خاطوا علیه الکفن و وضعوه فی صندوق من الخشب السمیک و سمّروا غطاءه و وضع المهراجا علیه ختمه، و دفنوه فی قبو داخل حجرة صغیرة فی حدیقة القصر و أقفلوا بابها و وضع المهراجا ختمه بالشمع علی قفلها، و أمر اثنین من رجال حرسه الأمناء بحراستها و طائفة من جنده بمعاونتهما، و کان ذلک کله بمشهد من حضر من الأوربیین و البنجابیین و حاشیة المهراجا.

---

(۱) هی جریدة الاتحاد و کان هذا فی أثناء الطبعة الأولی للکتاب فی أوائل عام (۱۳۵۲ ه).

الوحی المحمدی، ص: ۱۶۰

و لما تمت الأربعون حضر هؤلاء کلّهم قصر المهراجا و شاهدوا ختم الحجرة کما کان، و العشب أمامها فی الحدیقة لم تطأه قدم أحد، ثم فتحوا باب الحجرة و امتحنوا أختام القبو ثم أخرجوا الصندوق و امتحنوا أختامه فوجدوها کلّها علی حالها، ففتحوه و أخرجوا الفقیر منه فإذا هو کما وصفه أحد أولئک من الانکلیز قال:

لما فتحوا الصندوق و أخرجوا الفقیر منه وجدت الذراعین و الساقین صلبة و الرأس مائلا علی إحدی الکنفین فخلتنی أمام جثّة هامدة فارقتها الحیاة منذ أمد بعید، فطلبت من طبیبی أن یفحصها فانحنی علیها و جسّ القلب و الصدغین و الذراعین و قال: إنه لم یجد أثرا للنبض البتة و لکنه شعر حرارة فی منطقة الدماغ إلخ.

ثم نفذ ما أوصی الفقیر أن یعمل بعد إخراجه فغسّل بالماء الحار فرد علی الأوصال لینها السابق بالتدریج، و أزیل القطن و الشمع عن الأذنین و الأنف و وضعت أکیاس دافئة علی الرأس فدبّت الحیاة فی الجسد المسجی، و تقلصت الأعصاب و الأطراف ثم اضطربت فسال منها عرق غزیر و عادت الأعضاء إلی حالتها الأولی، و بعد دقائق اتسعت حدقتا العینین و عاد إلیهما لونهما الطبیعیّ، فلمّا رأی الفقیر المهراجا شاخصا إلیه دهشا متحیرا قال له:

أ رأیت یا مولای صدق قولی و فعلی؟ و بعد نصف ساعة خرج من التابوت و أنشأ یحدث الحاضرین أحسن حدیث و یطرفهم بما یحیر العقول أ. ه.

إن هذه الحادثة من آیات اللّه التی أظهرتها الریاضة المکتسبة، و هی أعجب من روایة الإنجیل لموت لیعازر ثم حیاته بدعاء المسیح بعد أربعة أیام- کما تقدم فی بحث عجائبه (ع. م)- و أغرب من حادثة أصحاب الکهف أیضا من بعض الوجوه فإن الفقیر الهندی قد سد أنفه، و لفّ فی کفن، و وضع فی تابوت دفن تحت الأرض، فحیل بینه و بین الهواء الذی لا یعیش أحد بدونه عادة، و أهل الکهف ناموا فی فجوة واسعة من کهف بابه إلی الشمال مهب الهواء اللطیف، و کانت الشمس تصیب مدخله من جانبیه عند شروقها و عند غروبها مائلة متزاورة عنهم، فتلطف هواءه من حیث لا تصیبهم، و إنما کان أکبر الغرابة فی نومهم طول مدة لبثهم فیه، و کانت طویلة جدا حتی علی نقل البیضاوی و غیره من المفسرین أن قوله تعالی: وَ لَبِثُوا فِی کَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِینَ [الکهف: ۲۵] الآیة- حکایة عن بعض المختلفین فی أمرهم، فإن کان خلافا ظاهر السیاق فقد یقویه قوله تعالی فی الآیة بعدها:

قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا [الکهف: ۲۶]، و اللّه أعلم بکل حال علی کل حال، و إن خفی سر آیاته علی خلقه، و لا شیء من الأمرین بمحال، و قد نام بعض أهل العصر بمرض النوم عدة أشهر.

الوحی المحمدی، ص: ۱۶۱

و لکن ما جری للفقیر الهندی مخالف لسنّة الحیاة العامة فی الناس، فإذا ثبت أنه وقع بطریقة کسبیة من طریق ریاضة هؤلاء الصوفیة لأبدانهم و أنفسهم بما تبقی به الحیاة کامنة فی أجسادهم مثل هذه المدة الطویلة مع انتفاء أسبابها العامة فی أحوال الناس الاعتیادیة من دورة الدم و النفس و غیر ذلک، فلا وجه لاتخاذ أحد من العقلاء إنکار کل ما یخالف السّنن العامة قاعدة عامة، و لا سیما فعل الخالق عزّ و جلّ لها و هو خالق کلّ شیء بقدرته، و واضع نظام السّنن و الأسباب بمشیئته، و أکثر منکری الخوارق یؤمنون به، و إنما ینکرون وقوع شیء مخالف لسننه بأنه مناف لحکمته، و من ذا الذی أحاط بحکمه أو بسننه علما؟

و إنما الذی یقضی به العقل أن لا نصدق بوقوع شیء علی خلاف السّنن الثابتة المطردة فی نظام الأسباب العامة إلا إذا ثبت ثبوتا قطعیا لا یحتمل التأویل، و هذا هو المعتمد عند المحقّقین من المسلمین و علماء المادة و علماء النفس و غیرهم، و قد ثبت فی هذا العصر من خواص الکهرباء و غیرها ما لو قیل لعقلاء الناس و حکمائهم قبل ثبوته بالفعل إنه من الممکنات، لحکموا علی مدعی مکانه بالجنون لا بتصدیق الخرافات کما قلنا من قبل «۱».

المعجزات قسمان: تکوینیة، و روحانیة تشبه الکسبیة

المعجزات کلّها من اللّه تعالی لا من کسب الأنبیاء کما نطق به القرآن الکریم، و لکنها بحسب مظهرها قسمان: قسم لا یعرف له سنة إلهیة یجری علیها فهو یشبه الأحکام الاستثنائیة فی قوانین الحکومات، و أما ما یکون بإرادة سنیة من الملوک لمصلحة خاصة- و للّه المثل الأعلی- و قسم یقع بسنة إلهیة و روحانیة لا مادیة.

أما المأثور من آیات اللّه التی أید بها موسی (ع. م) و أثبتها القرآن له کالآیات التسع بمصر فهی من القسم الأول، و لم یکن شیء منها بکسب له حقیقی و لا- صوری، و کذلک الآیات الأخری التی ظهرت فی أثناء خروجه ببنی إسرائیل و مدة التیه، بل کل ذلک کان بفعل اللّه بدون سبب کسبی لموسی (ع. م) إلا ما یأمره اللّه تعالی به من ضرب البحر أو الحجر بعصاه التی هی آیته الکبری. و لم ینقل عن أحد من الأنبیاء آیة کهذه الآیات فضلا عمّن دونهم، و لا هی مما یحتمل أن یکون بسبب من الأسباب الروحیة التی تکون لأحد من الناس بالریاضة و توجیه الإرادة أو خواص المادة و قواها.

و أما المسیح (ع. م) فالآیات التی أیده اللّه تعالی بها- علی کونها خارقة للعادات

---

(۱) إن الصحف قد نقلت إلینا فی هذا العام من عجائب صوفیة الهند أیضا ما هو أعجب مما تقدم.

الکسبیة و علی خلاف السنن المعروفة للناس- قد یظهر فیها أنها کلها أو جلها حدث علی سنة اللّه فی عالم الأرواح کما کان خلقه کذلک، فقد حملت أمه به بنفخة من روح اللّه عزّ و جلّ فیها (و هو الملک جبریل علیه السلام) کانت سبب علوقها به بفعلها فی الرحم ما یفعل مسیح الرجل بقدرة اللّه عزّ و جلّ، فلا غرو إن کانت مظاهر آیاته أعظم من مظاهر سائر الروحانیین من الأنبیاء و الأولیاء کالکشف و شفاء بعض المرضی و غیر ذلک من التأثیر فی المادة الذی اشتهر عن کثیر منهم، و الفرق بینه و بین الروحانیین من صوفیة الهنود و المسلمین أن روحانیته علیه السلام أقوی و أکمل، و أقدس و أفضل، و إنها لم تکن بعمل کسبی منه. بل من أصل خلق اللّه عزّ و جلّ إیاه بآیة منه کما قال اللّه تعالی: وَ الَّتِی أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِیها مِنْ رُوحِنا وَ جَعَلْناها وَ ابْنَها آیَةً لِلْعالَمِینَ [الأنبیاء: ۹۱]، و قال:

وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْیَمَ وَ أُمَّهُ آیَةً [المؤمنون: ۵۰]، فآیتهما هی الحمل به و خلقه بنفخ الروح الإلهی. لا بسبب التلقیح البشری، و لا بما قیل من احتمال وجود مادتی الذکورة و الأنوثة فی رحمها کوجودها فی بعض الأحیاء الدنیا.

و أعظم آیاته الروحانیة التی أثبتها له التنزیل و لم ینقلها مؤلفو الأناجیل الأربعة و روی أنها منصوصة فی إنجیل الطفولة الذی نبذته

المجامع الکنسیة قبل البعثة المحمدیة ففقد من العالم) هی أنه کان یأخذ قطعة من الطین فیجعلها بهیئة طیر فینفخ فیه (أی من روحه) فیکون طیرا بإذن اللّه تعالی و مشیئته، و المروی أنه کان یطیر قلیلا و یقع میتا، و دون هذا إحیاء المیت الصحیح الجسم القریب العهد بالحیاة فإن توجیه سیال روحه القوی إلی جثة المیت مع توجیه قلبه إلی اللّه عزّ و جلّ و دعائه کاد یکون سببا روحانیا لإعادة روحه إلیه بإذن اللّه و مشیئته، کما یمس النور ذبال السراج المنطفئ فتشتعل، أو کما یتصل السلک الحامل للکهربائیة الإیجابیة بالسلک الحامل للکهربائیة السلبیة بعد انقطاعها فیتألق النور منهما، و ما ینقل عن صوفیة الهنود إعادة الحیاة إلی میت مؤقتا فهو إن صحّ مکسوب بالریاضة، و قد ثبت عن بعض أطباء هذا العصر إعادة الحیاة الحیوانیة إلی فاقدها عقب فقدها بعملیة جراحیة أو بمعالجة للقلب.

و من دون هذا و ذاک شفاء بعض الأمراض و لا سیما العصبیة سواء أ کان سببها مس الشیطان و تلبسه بالمجنون کما فی الأناجیل أم غیره، فإن الشیطان روح خبیث لا یستطیع البقاء مع توجیه الروح الطاهر الذی هو شعلة من روح القدس جبریل علیه السلام و اتصاله بمن تلبس به، و قد وقع مثل هذا لشیخ الإسلام ابن تیمیة و غیره من الروحانیین حتی أن

الوحی المحمدی، ص: ۱۶۳

تلمیذه العلامة المحقق ابن القیم ذکر أنه أرسله أو رجلا آخر إلی مصروع و خاطب الجنی الذی فیه بقوله: الشیخ یأمرک أن تخرج، فخرج و شفی الرجل فی الحال، و ما من مرض عصبی أو غیره إلا و هو ضعف فی الحیاة حقیق بأن یزول باتصال هذا الروح بالمصاب به و بما دونه من تأثیر النفس.

و من دون هذا و ذاک المکاشفات المعبر عنها فیما حکاه تعالی عنه «۱» بقوله: وَ أُنَبِّئُکُمْ بِما تَأْکُلُونَ وَ ما تَدَّخِرُونَ فِی بُیُوتِکُمْ [آل عمران: ۴۹]، و قد أنبأ غیره من أنبیاء بنی إسرائیل و غیرهم، و کذا غیرهم من الروحانیین و لا سیما صالحی أمة محمد صلّی اللّه علیه و سلّم بما هو أعظم من هذا من الأمور المستقبلة و لکنها درجات متفاوتة فی القوة و الضعف، و طول المدة و قصرها، و الثقة بالمرئی و عدمها، و إدراک الحاضر الموجود، و الغائب المفقود، و ما کان فی الأزمنة الماضیة، و ما یأتی فی الأزمنة المستقبلة، فأعلاها خاص بالأنبیاء إذا لم یوجد و لن یوجد بشر یعلم بالکشف ما وقع منذ القرون الأولی کأخبار القرآن من الرسل الأولین مع أقوامهم، أو ما یقع بعد سنین فی المستقبل کإخباره عن عودة الکرة للروم علی الفرس، و إخباره صلّی اللّه علیه و سلّم بفتح الأمصار و اتباع الأمم لأمته، ثم بتداعیهم علیها کما یتداعی الآکلون إلی قصعة الطعام، و قد أخبر بعض أصحابه بأعیانهم بما یقع من ذلک فی زمنهم کسقوط ملک کسری، و سنعقد فصلا خاصا بأخبار الغیب فی القرآن و الحدیث فی الجزء التالی کما وعدنا فی فاتحة هذه الطبعة، و من المکاشفات الثابتة فی هذا العصر ما یسمّونه قراءة الأفکار، و قد شاهدنا من فعله، و منها مراسلة الأفکار کما تقدّم.

فتبین بهذا و ذاک أن آیات اللّه تعالی المشهور لموسی (ع. م) بمحض قدرته تعالی دون سننه الظاهرة فی قواه الروحیة، و أنّ آیاته لعیسی (ع. م) بخلاف ذلک، و النوع الأول أدل علی قدرة اللّه تعالی و مشیئته و اختیاره فی أفعاله فی نظر البشر لبعدها عن نظام الأسباب و المسببات التی تجری علیها أفعالهم

---

(۱) و قد سبقه إلی مثل هذا یوسف (ع. م) بما یحکی اللّه من قوله لصاحبه فی السجن: قالَ لا یَأْتِیکُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُکُما بِتَأْوِیلِهِ قَبْلَ أَنْ یَأْتِیَکُما ذلِکُما مِمَّا عَلَّمَنِی رَبِّی إِنِّی تَرَکْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا یُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ کافِرُونَ [یوسف: ۳۷].

الوحی المحمدی، ص: ۱۶۴

عبادة بعض الناس للمسیح و للأولیاء دون موسی

و إنما عبد بعض البشر عیسی و اتخذوه إلها و لم یعبدوا موسی کذلک و آیاته أعظم لأنهم جهلوا أنّ آیات عیسی جاریة علی سنن

روحیة عامة قد یشارکه فیها غیره فظنوا أنه یفعلها بمحض قدرته التی هی عین قدرة الخالق سبحانه لحلوله فیه و اتحاده به بزعمهم، و آیات موسی بمحض قدرة اللّه وحده، و لم یفطنوا لاتباع عیسی لموسی فی شرعه (التوراة) إلا قلیلا مما نسخه اللّه علی لسانه؛ من إحلال بعض ما حرم علیهم بظلمهم عقوبة لهم، و من تحریم ما کانوا علیه من الغلو فی عبادة المال و الشهوات.

و مثل النصاری فی هذا من یفتنون من المسلمین بعبادة الصالحین بدعائهم فی الشدائد لاعتقادهم أنهم یدفعون عنهم الضرّ، و یجلبون لهم النفع بالتصرف الغیبی الخارج عن سنن اللّه فی الأسباب و المسببات الداخل عندهم فی باب الکرامات، و هو خاص بالرب تعالی، و لکنهم لا یطلقون علی أحد منهم اسم الربّ و لا الإله و لا الخالق. إذ الأسماء اصطلاحیة، و إنما الفرقان بین الخالق و المخلوق و الرب و المربوب أن الربّ الخالق هو القادر علی النفع و الضر لمن یشاء و صرفهما عمن یشاء بما یسخره من الأسباب و بدونها إن شاء، و أن المخلوق المربوب هو المقید فی أفعاله الکسبیة الاختیاریة فی النفع و الضر بسنن اللّه تعالی فی الأسباب و المسببات التی سخرها تعالی لجمیع خلقه، و لکنهم یتفاوتون فی العلم و العمل بها کما یتفاوتون فی الاستعداد لها بقوی العقل و الحواس و الأعضاء، و فی وسائلها، و قد بلغ البشر بالعلم و العمل الکسبیین من المنافع و دفع المضار ما لم یعهد مثله لأحد من خلق اللّه قبلهم لا الأنبیاء و لا غیرهم لأن الأنبیاء المرسلین لم یبعثوا لهذا، و إنما بعثوا لهدایة الناس إلی معرفة اللّه و عبادته و تهذیب أخلاقهم بها، فمنافع الدّنیا لا تطلب منهم أحیاء و لا أمواتا، و إنما تطلب من أسبابها، و ما وراء الأسباب لا یقدر علیه إلا اللّه عزّ و جلّ و قد قتل الظالمون بعض الأنبیاء و الأولیاء، و آذوا بعضهم بضروب من الإیذاء، و لم یستطیعوا أن یدفعوا عن أنفسهم، و لذلک تکرر فی القرآن الحکیم نفی هذا النفع و الضرر عن کل ما عبدوا من دون اللّه بالذات أو بالشفاعة عند اللّه تعالی کما قال: وَ یَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا یَضُرُّهُمْ وَ لا یَنْفَعُهُمْ وَ یَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ [یونس: ۱۸]، و مثلها آیات. و أمر خاتم رسله أن یعلم الناس ذلک کما فعل من قبله من الرسل فقال: قُلْ لا أَمْلِکُ لِنَفْسِی نَفْعاً وَ لا ضَرًّا إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ وَ لَوْ کُنْتُ أَعْلَمُ الْغَیْبَ لَاسْتَکْثَرْتُ مِنَ الْخَیْرِ وَ ما مَسَّنِیَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِیرٌ وَ بَشِیرٌ لِقَوْمٍ

الوحی المحمدی، ص: ۱۶۵

یُؤْمِنُونَ [الأعراف: ۱۸۸]، و قال تعالی: قُلْ إِنِّی لا أَمْلِکُ لَکُمْ ضَرًّا وَ لا رَشَداً [الجن: ۲۱]، و قد فصلنا هذه المسألة مرارا.

و نلخص الموضوع هنا فی المسائل الآتیة: (۱) أن اللّه تعالی قد أتقن کل شیء خلقه فجعله بإحکام و نظام لا تفاوت فیه، و لا اختلال، و سنن مطردة ربط فیها الأسباب بالمسببات، فمخلوقاته العلیا و السفلی. هی مظهر أسمائه الحسنی و صفاته العلی، و لهذا قال حجة الإسلام الغزالی: لیس فی الإمکان أبدع مما کان، و هذا النظام المطرد فی الأکوان، و الثابت بالحس و العقل و نصوص القرآن- هو البرهان الأعظم علی وحدانیة خالق السموات و الأرض: لَوْ کانَ فِیهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا [الأنبیاء: ۲۲].

(۲) إن سنن اللّه تعالی فی إبداع خلقه و نظام الحرکة و السکون و التحلیل و الترکیب فیه لا یحیط بها علما غیره عزّ و جلّ، و کلما ازداد البشر فیها نظرا و تفکرا و اختیارا و تدبرا و تجربة و تصرفا، ظهر لهم من أسرارها و عجائبها ما لم یکونوا یعلمون و لا یظنون، و من منافعها ما لم یکونوا یتخیلون و لا یتوهمون.

و ها نحن أولاء نری مراکبهم الهوائیة من تجاریة و حربیة تحلّق فی الجو، حتی تکاد تبلغ محیط الهواء، و بعض مراکبهم البحریة تغوص فی لجج البحار، و نراهم یتخاطبون من مختلف الأقطار، کما نطق الوحی بتخاطب أهل الجنة مع أهل النار، فیسمع أهل المشرق أصوات أهل المغرب، و أهل الجنوب حدیث أهل الشمال و خطبهم و أغانیهم، قبل أن یسمعها بعض أهل البلد أو المکان الذی یصدر عنه الکلام «۱»، و قد یغمز أحدهم زرا کهربائیا فی قارة أوروبا فتتحرک بغمزته آلات عظیمة فی قارة أخری فی طرفة عین، و بینهما المهامة الفیح، و الجبال الشاهقة، و من دونهما البحار الواسعة، و الجاهلون بهذه السنن الإلهیة، و الفنون العملیة، لا یزالون یلجئون فی طلب المنافع و دفع المضار من غیر طریق الأسباب- التی ضیّق الجهل علیهم سبلها- إلی قبور الموتی من الصالحین المعروفین و المجهولین، لیقضوا لهم حاجاتهم، و یشفوا مرضاهم، و یعینوهم علی أعدائهم، بل ینتقموا لهم من أصدقائهم الذین

عادوهم بغیا و فسادا. من زوج و قریب و جار و وطنی، و أعداؤهم فی دینهم و وطنهم من الأجانب قد سادوا حکومتهم، و استذلّوا أمّتهم، و استأثروا بجل ثروتهم، و لا یتصرف فیهم هؤلاء الأولیاء بما یدفع عن المسلمین ضررهم و إذلالهم!!.

---

(۱) روی لنا أن آلة المذیاع (الرادیو) الناقلة للأصوات من أوروبا یصل الکلام الذی تحمله إلی مصر و غیرها فتعکسه الآلات التی فیها و یسمعه أهلها قبل أن یسمعه من فی الصفوف الخلفیة من المکان الذی ألقی فیه.

الوحی المحمدی، ص: ۱۶۶

(۳) إنّ الأصل فی کلّ ما یحدث فی العالم أن یکون جاریا علی نظام الأسباب و المسببات، و سنن اللّه التی دلّ علیها العلم، و أخبرنا الوحی بأنه لا تغییر فیها و لا تبدیل لها و لا تحویل، فکلّ خبر عن حادث یقع مخالفا لهذا النظام و السنن فالأصل فیه أن یکون کذبا اختلقه المخبر الذی ادعی شهوده، أو خدع به و لبس علیه فیه، فإن کان قد وقع فلا بد أن یکون له سبب من الأسباب الخفیة التی یجهلها المخبر، کما حقّقه علماء الأصول فی بحث الخبر و ما یقطع بکذبه منه.

(۴) إن آیات اللّه التی تجری علی غیر سننه الحکیمة فی خلقه لا یثبت العلم بها إلا بدلیل قطعی. و قد کان من حکمته أن أیّد بعض النبیین المرسلین بشیء منها لإقامة حجتهم و تخویف المعاندین لهم، و قد انقطعت هذه الآیات ببعثة خاتمهم محمّد صلّی اللّه علیه و سلّم و سبب ذلک أو حکمته ختم النبوّة برسالته .. و جعل ما أوحاه إلیه آیة دائمة، و هدایة عامة لجمیع البشر مدة بقائهم فی هذه الدنیا، و أنزل علیه: وَ ما أَرْسَلْناکَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِینَ [الأنبیاء: ۱۰۷]، لعلمه تعالی بأنهم لا یحتاجون بعد الوحی إلی وحی آخر، و لا إلی آیة علی أنه من عند اللّه تعالی إلا هذا القرآن نفسه، و هذا الکتاب فی جملته و تفصیله مشتمل علی کثیر من الدلائل العقلیة العلمیة علی کونه من عنده، کما فصلنا من قبل، و نزیده بیانا فیما بعد.

و قد ادّعی الباب و البهاء و القادیانی الوحی فی القرنین الأخیرین فجاءوا بأسخف ما عزا إلی مسیلمة الکذاب، و سأورد نماذج من وحیهم الشیطانی فی الجزء الثانی من هذا الکتاب مما فیه عبرة لأولی الألباب.

ختم النبوة و انقطاع الخوارق بها و معنی الکرامات

(۵) لو کان للبشر حاجة بعد القرآن و محمّد صلّی اللّه علیه و سلّم إلی الآیات کما یدّعی المفتونون بالکرامات و مخترعو الأدیان و النّحل الجدیدة لما کان ختم النبوّة، و قد بلغ من غلو مارقة الصوفیة الروحانیة أن امتروا فی ختم النبوّة «۱»، فانکروه أو تألوه لا دعائهم نوعا منها، و منهم من ابتدع اسما أو وصفا للنبوّة التی ادعوها و هو النبوّة الظلیة و فتن بفتنتهم البابیة و البهائیة، حتی عبدوا الباب و البهاء إذا ادعیا الألوهیة، و فتن بها (غلام أحمد القادیانی) فادعی النبوّة و المسیحیة له و لخلفائه بلا انقطاع، حتی سامها المرتزقة منهم و الرعاع.

---

(۱) حکی عن ابن سبعین- لعنه اللّه- قال: قد تحجر ابن آمنة واسعا بقوله: «لا نبی بعدی».

الوحی المحمدی، ص: ۱۶۷

و قد بین شیخنا الأستاذ الإمام فی رسالة التوحید کیف ارتقی التشریع الدینیّ فی الأمم بارتقاء نوع الإنسان فی الإدراک و العقل کارتقاء الأفراد من طفولة إلی شباب إلی کهولة حتی بلغ فیها رشده و استوی، و صار یدرک بعقله هذه الهدایة العقلیة العلیا (هدایة القرآن) بعد أن کان لا سبیل إلی إذعانه لتعلیم الوحی، إلا ما یدهش حسه و یعی عقله من آیات الکون (یعنی أنه بلغ هذا الرشد فی جملته و استعداد کثیر من أفراده لا کلهم و لا أکثرهم).

بین فی الکلام علی وجه الحاجة إلی الرسالة أن سموّ عقل الإنسان و سلطانه علی قوی الکون الأعظم بما هی مسخرة له تنافی خضوعه

و استکانته لشیء منها. إلا ما عجز عن إدراک سببه و علته، و اعتقد أنه من قبل السلطان الغیبی الأعلی لمدبر الکون و مسخر الأسباب فیه. فکان من رحمة اللّه تعالی به «أنه أتاه من أضعف الجهات فیه و هی جهة الخضوع و الاستکانة فأقام له من بین أفراده مرشدین هادین، و میزهم من بینها بخصائص فی أنفسهم لا یشرکهم فیها سواهم، و أید ذلک زیادة فی الإقناع بآیات باهرات تملک النفوس، و تأخذ الطریق علی سوابق العقول، فیستخذی الطامح، و یذل الجامع، و یصدم بها عقل العاقل فیرجع إلی رشده، و ینبهر لها بصر الجاهل فیرتد عن غیه».

ثم قال فی رسالة محمّد صلّی اللّه علیه و سلّم: نبی صدق الأنبیاء و لکنه لم یأت فی الإقناع برسالته بما یلهی الأبصار، أو یحیر الحواس، أو یدهش المشاعر، و لکن طالب کل قوة بالعمل فیما أعدت له و اختص العقل بالخطاب، و حاکم إلیه الخطأ و الصواب و جعل فی قوة الکلام، و سلطان البلاغة، و صحة الدلیل. مبلغ الحجة و آیة الحق الذی لا یَأْتِیهِ الْباطِلُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِیلٌ مِنْ حَکِیمٍ حَمِیدٍ [فصلت: ۴۲].

لا یمکن إثبات معجزات الأنبیاء إلا بالقرآن

(۶) إنه لا یمکن إثبات معجزات الأنبیاء فی هذا العصر بحجّة لا یمکن لمن عقلها ردها إلا هذا القرآن العظیم، و ما ثبت فیه بالنص الصریح منها، أقول هذا اتجاه إنکار العلماء الواقفین علی کتب الأدیان التی قبل الإسلام- حتی کتب الیهود و النصاری- و علی تواریخها لتواتر ما ذکر فیها من الآیات و اشتباههم فی کونها خوارق حقیقیة، و فی کون الخوارق تدل علی نبوتهم، و حجتهم علی الأول: أنّ التواتر الذی یفید العلم القطعی غیر متحقق فی نقل شیء منها، و هو نقل الجمع الکثیر الذی یؤمن تواطؤهم علی الکذب لخبر أدرکوه بالحس و حمله عنهم مثلهم قرنا بعد قرن، و جیلا بعد جیل بدون انقطاع، و إنما یکون

الوحی المحمدی، ص: ۱۶۸

استحالة تواطؤهم علی الکذب بأمور أهمها عدم التحیز و التشیع لمضمون الخبر و عدم تقلید بعضهم لبعض فیه، و آیة صحة هذا التواتر حصول العلم القطعی به و إذعان النفس له، و عدم إمکان رده اعتقادا و وجدانا، و هذا غیر حاصل فی روایة آیات الأنبیاء الأولین عندهم، بل زعم بعض علماء الإفرنج أن قصة المسیح وضعیة خیالیة لا واقعة حقیقیة، و لها أمثال فی التاریخ. و تقدم الکلام فی آیاته و المراد فیها.

و شبهتهم علی الثانی: أنّ وقوع الخوارق المذکورة لا یدلّ علی النبوّة و الرسالة کما بیناه فی الکلام علی الآیات و الخوارق و إثبات النبوّة من أواخر الفصل الثانی.

و أما آیة القرآن فهی باقیة ببقائه إلی یوم القیامة، و کلّ واقف علی تاریخ الإسلام یعلم علما قطعیا أنه متواتر تواترا متصلا فی کل عصر من عصر الرسول الذی جاء به إلی الآن، و أما الذی یخفی علی کثیر منهم فهو وجوه إعجازه الدالة علی أنه وحی إلهی، و قد شرحنا شبهتهم علیه و بینا بطلانها فی هذا الکتاب، و إذ قد ثبت بذلک کونه وحیا من اللّه تعالی فقد وجب الإیمان بکل ما أتته من آیاته فی خلقه سواء أ کانت لتأیید رسله و إقامة حجّتهم أم لا، کما یجب علی کلّ مؤمن به أن یؤمن بها، و یجب أن یؤمن بانقطاع معجزات الرسل بعد ختم النبوة بمحمّد صلّی اللّه علیه و سلّم.

و إذ کان لا یجب علی مسلم أن یؤمن بوقوع کرامة کونیة خارقة للعادة بعد محمد خاتم النبیین صلّی اللّه علیه و سلّم فلا یضرّ مسلما فی دینه أن یعتقد کما یعتقد أکثر عقلاء العلماء و الحکماء من أن ما یدعیه الناس من الخوارق فی جمیع الأمم أکثره کذب، و بعضه صناعة علم، أو تأثیر نفس، أو شعوذة سحر- و أقله من خواص الأرواح البشریة العالیة، و علامته أن یکون علما صحیحا موافقا للمنقول الشرعی، و المعقول القطعی، أو عملا نافعا مشروعا، و أن یکون من صدر عنه مؤمنا عاقلا صالحا، فکل ما ینقله المتصوّفة مخالفا لذلک من التصرف الضار بالناس فی دینهم أو صحتهم فهو إن صح من تأثیر الأنفس الخبیثة کالإصابة بالعین و التنویم المغناطیسی

الضار لا کله.

(۷) إنّ الثابت بنصوص القرآن من آیات الأنبیاء المرسلین المعنیة قلیل جدا. فما کانت دلالته من هذه النصوص قطعیة فصرفه عنها بالحکم فی التأویل الذی تأباه مدلولات اللغة العربیة، و ینقض شیئا من قواعد الشرع القطعیة، یعد ارتدادا عن الإسلام، و ما کانت دلالته ظاهرة غیر قطعیة وجب حمله علی ظاهره إن لم یعارضه نصّ أو دلیل مثله أو أقوی منه، فإن عارضه فحینئذ ینظر فی الترجیح بین المتعارضین بالأدلة المعروفة، و الخروج عن ذلک ابتداع.

الوحی المحمدی، ص: ۱۶۹

الإیمان بالقدر و السّنن العامة و آیات اللّه الخاصة

إننا نؤمن بأن اللّه تعالی هو خالق کلّ شیء بقدرته و إرادته، و اختیاره و حکمته، و أنه الَّذِی أَحْسَنَ کُلَّ شَیْءٍ خَلَقَهُ کما قال فی سورة الم [السجدة، الآیة: ۷]، صُنْعَ اللَّهِ الَّذِی أَتْقَنَ کُلَّ شَیْءٍ کما قال فی سورة [النمل، الآیة: ۸۸]، و أنه لیس فی خلقه تفاوت و لا فطور کما قال فی سورة [الملک، الآیة: ۳]، و أنه خلق کل شیء بنظام و تقدیر لا جزافا و لا أنفا «۱»، کما قال فی سورة [القمر، الآیة: ۴۹] إِنَّا کُلَّ شَیْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ، و قال فی [سورة الفرقان، الآیة: ۲] وَ خَلَقَ کُلَّ شَیْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِیراً، و قال فی سورة [الحجر، الآیة: ۱۹- ۲۱] وَ أَنْبَتْنا فِیها مِنْ کُلِّ شَیْءٍ مَوْزُونٍ (۱۹) وَ جَعَلْنا لَکُمْ فِیها مَعایِشَ وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِینَ (۲۰) وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ «۲».

و أن له تعالی فی نظام التکوین و الإبداع، و فیما هدی إلیه البشر من نظام الاجتماع، سننا مطردة تتصل فیها الأسباب بالمسبّبات، لا تتبدل و لا تتحول محاباة لأحد من الناس، و أن سننه تعالی عامة فی عالم الأجسام و عالم الأرواح، و قد ورد ذکر السنن الاجتماعیة باللفظ فی سورة: المائدة، و الأنفال، و الحجر، و الإسراء، و الکهف، و الأحزاب، و فاطر، و المؤمن (غافر)، و الفتح.

فهذه الآیات البیّنات ناطقة بأنّ القدر و التقدیر عبارة عن النظام العام فی الخلق الذی تکون فیه الأشیاء بقدر أسبابها بحسب السنن و النوامیس العامة التی وضعها الخالق لها، لا- ما اشتهر عند الجماهیر من الناس من أن المقدر ما لیس له سبب، أو ما یفعله اللّه علی خلاف النظام و السنن، و قد یصح إطلاقه علی ما لا یعرفون سببه، و لا یحیط بأسباب الحوادث علما إلا خالقها، و مقدر سببها و سنتها.

نؤمن بأنّ له تعالی فی خلقه آیات بینات، و أن له فی آیاته حکما جلیة أو خفیة، و أن ما منحنا إیاه من العقل و الشرع یأبیان علینا أن نثبت وقوع شیء فی الخلق علی خلاف ما تقدم بیانه من نظام التقدیر، و سنن التدبیر، إلا ببرهان قطعی یشترک العقل و الحس فی إثباته

---

(۱) الأنف بضمتین هو: الذی یفعل ابتداء من غیر سبق تقدیر؛ و لا نظام، فهو ضد القدر.

(۲) وصف النبات بالموزون من عجائب تعبیر القرآن التی أظهرتها العلوم الحدیثة، فکل نوع منه مؤلف من عناصر بمقادیر معینة یمکن ضبطها بالوزن الدقیق فی النسبة المئویة.

الوحی المحمدی، ص: ۱۷۰

و تمحیصه، و أنه لا بد أن یکون وقوعه لحکمة بالغة لا عن خلل و لا عبث، و أن ما خفی علینا من حکمه تعالی فهو کسائر ما یخفی علینا من أمور خلقه، نبحث عنهما لنزداد علما بکماله، و نکمل به أنفسنا بقدر استطاعتنا، و لا نتخذها حجّة و لا عذرا علی الکفر به لجهلنا، و قد ثبت لأعلم علماء البشر فی کل عصر أنّ ما نجهل من هذا الکون أکثر مما نعلم، و یستحیل أن یحیط البشر به علما.

أجمع علی هذا علماء هذا العصر الماديین علی سعة علمهم بالمادة و سننها، و کثرة ما أحدثوا من الصناعات و المنافع بتسخیرها، فما قولک بعالم الرّوح و الغیب؟ إنه لیظهر فیهم قبلهم صدق قوله تعالی: وَ یَسْئَلُونَکَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی وَ ما أُوتِیتُمْ مِنَ

الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا [الإسراء: ۸۵].

و نؤمن بأن اللّه تعالى قد أرسل إلى البشر رسلا هدوهم بآياته إلى الخروج من مضيق مدارك الحس، و ما يستنبطه الفكر منها بادئ الرأى، إلى ما وراءها من سعة عالم الغيب، و لو لا هدايتهم لظلّ البشر ألوف الألوف من السنين ينكرون وجود ما لم يكونوا يدركونه بحواسهم من الأجسام و أعراضها، و بقياسهم ما جهلوا على ما علموا منها. و ما ينكره الإنسان و يعتقد استحالة وجوده لا يبحث عنه.

و قد علمنا من التاريخ أنّ الإيمان باللّه و بآياته لرسله، و باليوم الآخر، و بما يكون فيه من الحساب و الجزاء على الأعمال، هو الذى وجه عقول البشر إلى البحث فى أسرار الوجود، حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الارتقاء فى العلوم و الفنون و الصناعات فى الأجيال المختلفة، و لم يكن لغير المؤمنين بالغيب منهم نصيب فى ذلك- فهذا الإيمان بالأركان الثلاثة من الغيب هو الذى أوصل البشر إلى علوم و أعمال كان يعدها غير المؤمنين بالغيب من مجالات العقول كالغيب الذى أنكروه، حتى لم يعد شيء من أخبار الغيب بعيدا عن العقل بعد ثبوتها.

فتبين لنا بهذا و بما قبله أنه كان للبشر بآيات الأنبياء ثلاث فوائد هى من حكم نصبه تعالى لتلك الآيات.

(الأولى): جعلها دليلا حسيا على اختياره تعالى فى جميع أفعاله، و كون سنن النظام فى الخلق خاضعة له، لا حاكمة عليه و لا مقيدة لإرادته و قدرته.

(الثانية): جعلها دليلا على صدق رسله فيما يخبرون عنه بوحيه، و نذرا للمعاندين لهم

من الكفار، و لو كانت مما يقدر عليه البشر بكسبهم، أو تقع منهم باستعداد روحى فيهم، لما كانت آية على صدقهم.

(الثالثة): هداية عقول البشر برؤيتها إلى سعة دائرة الممكنات، و ضيق نطاق المحال فى المعقولات، و إلى أن كون الشيء بعيدا عن الأسباب المعتادة و الأمور المعهودة و السنن المعروفة، لا يقتضى أن يكون محالا يجزم العقل بعدم وقوعه، و بكذب المخبر به و لو مع قيام الدليل على صدقه، و إنما غايته أن يكون الأصل فيه عدم الثبوت فيتوقف ثبوته على الدليل الصحيح، و هذه قاعدة كبار علماء الكون فى هذا العصر، فلا ينقصهم لتكميل علمهم إلا ثبوت آية اللّه تعالى لا يمكن أن يكون لها علة من سنن الكون و سبب من أسبابه المطردة، و الماديون المنكرون لآيات الرسل لن يجدوا هذه الآية فى عالم المادة و إنما يجدونها فى القرآن.

ذلك بأنّ كلّ ما فى عالم المادة فهو خاضع لما يسمى فى عرفهم بالأسباب و النواميس و العلل، و فى لغة القرآن بالسنن و القدر (كما قرأنا عليك آنفا)، و لذلك تجدهم يبحثون بالتحليلات المادية عن الموجود الأول فى الأزل، و ما كان يبحث عنه الفلاسفة المتقدمون بالدلائل العقلية و يسمّونه علّة العلل، و إنما الموجود الأول هو اللّه تعالى واجب الوجود الذى صدر عنه كلّ ما عداه من الموجودات، و هم لما يعرفوا أول ما صدر عنه بمحض قدرته و مشيئته المعبر عنها عندنا بكلمة التكوين، و هى قوله تعالى للشيء (كن فيكون) و هذا غيب الغيوب، و منهم من يرى أن العلم به متعذر و منهم من يطلبه و يرجوه.

و لكن الأمر قد انقلب عندهم إلى ضده فإن كثيرا من الذين وصلوا إلى هذه العلوم و الأعمال المقربة لآيات الرسل، و ما دعوا إليه من الإيمان بالغيب من العقول، قد صارت هذه العلوم نفسها سببا لإنكارها ما كان سببا لها و موصلا إليها (و هو الآيات و الإيمان بالغيب) لا إنكار إمكانه فى العقل. بل إنكار ثبوته بالفعل، فهم ينكرون أن يكون الخالق قد فعل ما صاروا يفعلون نظيرا له فى الغرابة، و كان ينبغى لهم أن يجعلوه دليلا عليه مبينا لحقيته كما قال اللّه تعالى: سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُ [فصلت: ۵۳]، و لكنهم كلما أراهم آية من آياته الروحية فى أنفسهم أو من آياته الكونية فى الآفاق التمسوا لها سنة أو فرضوها فرضا بقياس ما لم يعرفوا على ما عرفوا، فأخرجوها عن كونها بمحض قدرته و إبداعه، و ظلوا على لبسهم كالذين طلبوا من محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم أن ينزل عليهم ملكا رسولا فقال اللّه فيهم: وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ

[الأنعام: ۹]، أی: لما کانوا لا یمکن لهم أن یدرکوا الملک و یتلقوا عنه إلا إذا کان بصورة رجل مثلهم، و هو ما استنکروه من کون الرسل بشرا مثلهم، فلو جعل اللّه ملکا رسولا- إلیهم لجعله مثلهم، و لالتبس علیهم أمره بما یلبسونه علی أنفسهم من استنکار کون الرسل بشرا مثلهم.

و هکذا یفعلون الآن؛ ظهرت لهم فی عصرنا عدّة آیات روحیة من المکاشفات و التأثیر فی المادة فیشبهوها بما عرفوا من الأمور المادیة، فأطلقوا علی تلک المکاشفات اسمی قراءة الأفکار و مراسلة الأفکار، و قالوا إنها من قبیل نقل الکلام بالسیال الکهربائی من مکان إلی مکان، حتی لا یعترفوا بآیة إبداعیة أو غیبیة من الخالق لا تخضع لعلمهم، و هم ما زالوا یرتقون فی الأسباب إلی أن وصلوا من ظواهر تکوین الکهرباء الإیجابیة و السلبیة (بما یسمونه: الکترون و البروتون) إلی مستوی قریب من عالم الغیب، و ظنوا أنهما أصل لکلّ ما فی عالم الشهادة من شیء. علی أن الکهرباء لیست بمادة محض، و لا- بقوة محض، و لکنها شیء موجود دخل فی حکم علمهم بوجه ما، و هم عتاة لا یؤمنون إیمانا تعبدیا إلا بآیة تعلو علی مدارک علمهم و عقولهم.

الخطر علی البشر من ارتقاء العلم بدون الدین:

إنّ حرمان هؤلاء العلماء من الإیمان بآیة کونیة للّه تعالی من هذا النوع قد جعل حظّ البشر من هذا الارتقاء العجیب فی العلم أنهم ازدادوا به شقاء حتی صارت حضارتهم مهدّدة بالتدمیر العلمی الصناعی فی کل یوم، و جمیع علمائهم المصلحین، و ساستهم الدهاقین. فی حیرة من تلافی هذا الخطر، و لن یتلافی إلا بالجمع بین العلم و الدین، و هذا ما جاءهم به محمّد خاتم النبیین، و لأجله أثبتت الآیات بکتابه و فی کتابه المبین. إذ لا یمکن أن یخضع البشر إلا لما هو فوق استطاعتهم. بقیام الدلیل علی أنه من السلطان الغیبی الإلهی الذی هو فوق استعدادهم، و لا یظهر هذا السلطان و البرهان فی علوم الکون. لما ذکرنا من شنشنتهم فیها، و إنما یظهر أکمل الظّهور فی هذا القرآن، و سنتحدّاهم به أتمّ التحدی فی خاتمة هذا الکتاب ...

الوحی المحمدی، ص: ۱۷۳

المقصد الثالث من مقاصد القرآن إکمال نفس الإنسان من الأفراد و الجماعات و الأقوام

اشارة

(بجعل الإسلام دین الفطرة السلیمة، و العقل و الفکر، و العلم و الحکمة، و البرهان و الحجّة، و الضمیر و الوجدان، و الحریة و الاستقلال).

قد أتی علی البشر حین من الدهر لا یعرفون من الدین إلا أنه تعالیم خارجة عن محیط العقل کلف البشر «۱» مقاومة فطرتهم بها، و تعذیب أنفسهم و مکابرة عقولهم و بصائرهم خضوعا للرؤساء الذین یلقنونهم إیاها، فإن انقادوا لسیطرتهم علیهم بها کانوا من الفائزین، و إن خالفوهم سرا أو جهرا کانوا من الهالکین، و الحقّ الواقع أنهم کانوا بهذا الخضوع و الخنوع من الخاسرین، و لکن عجز عقلاؤهم و حکماؤهم عن انتیاشهم (و انتشالهم) من مهاوی التهلکة، و إخراجهم من ظلمات الشرک و الظلم و الاستبداد. إلی نور التوحید و الحریة و العدل و الاستقلال.

حتی إذا بعث اللّه رسوله محمدا خاتم النبیین- یتلو علیهم آیاته و یعلّمهم الکتاب و الحکمة و یزکیهم مما کانوا فیه من الضلال المبین- کان هو الذی أخرجهم من الظّلمات إلی النور، و بیّن لهم أنّ دین اللّه الإسلام هو دین الفطرة، و العقل، و الفکر، و العلم، و الحکمة، و البرهان و الحجة، و الضمیر و الوجدان، و الحریة و الاستقلال، و أن لا سیطرة علی روح الإنسان و عقله و ضمیره لأحد من خلق اللّه، و إنما رسل اللّه هداة مرشدون، مبشّرون و منذرون کما تقدّم بیانه فی المقصد الذی قبل هذا، و نبین هذه المزایا بالشواهد

المختصرة من القرآن فنقول:

۱- الإسلام دین الفطرة:

قال اللّه عزّ و جلّ: فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ حَنِیفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِی فَطَرَ النَّاسَ عَلَیْها لا تَبْدِیلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِکَ الدِّینُ الْقَیِّمُ وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یَعْلَمُونَ [الروم: ۳۰].

الحنیف صفة من الحنف (بالتحریک) و هو المیل عن العوج إلی الاستقامة، و عن الضلالة

---

(۱) کلف بالتشدید من التکلیف، و هو هنا مبنی للمجهول لأنه یتعدی بنفسه إلی مفعولین، و علماء الأصول و الفقه یعدونه إلی الثانی بالباء.

الوحی المحمدی، ص: ۱۷۴

إلی الهدی، و عن الباطل إلی الحق، و یقابله الزّیغ و هو المیل عن الحق إلی الباطل إلخ، و فطرة اللّه التی فطر النّاس علیها هی الجبلة الإنسانیة «۱» الجامعة بین الحیاتین: الجسمانیة الحیوانیة، و الروحانیة الملکیة، و الاستعداد لمعرفة عالم الشهادة و عالم الغیب فیهما، و ما أودع فیها (أی الجبلة) من غریزة الدین المطلق الذی هو الشعور الوجدانی بسلطان غیبی فوق قوی الکون و السّنن و الأسباب التی قام بهما نظام کل شیء فی العالم، فرب هذا السلطان هو فاطر السموات و الأرض و ما فیهما، و المصدر الذاتی للنفع و الضر المحرکین لشعور التعبد الفطری و طلب العرفان الغیبی المودعین فی الغریزة.

فالعبادة الفطریّة هی التوجه الوجدانی إلی هذا الربّ الغیبی فی کل ما یعجز الإنسان عنه من نفع یحتاج إلیه و یعجز عنه بکسبه، و دفع ضر یمسه أو یخافه و یری أنه یعجز عن دفعه بحوله و قوته، و فی کل ما تشعر فطرته باستعدادها لمعرفته، و الوصول إلیه مما لا نهایة له، و أعنی بالإنسان جنسه فما یعجز عنه المرء بنفسه دون أبناء جنسه فإنه یعده من مقدوره، و یعد مساعدة غیره له علیه من جنس کسبه، فطلبه للمساعدة من أمثاله لیس فیها معنی التعبد عند أحد من البشر؛ فتعظیم الفقیر للغنی بوسائل استجدائه و خضوع الضعیف للقوی لاستنجاده و استعدائه علی أعدائه و خنوع السوقة «۲» للملک أو الأمیر لخوف منه أو رجائه- لا یسمی شیئا من ذلک عبادة فی عرف أمة من الأمم و لا ملة من الملل، و إنما روح العبادة الفطریة و مخّها هو دعاء ذی السلطان العلوی و القدرة الغیبیة التی هی فوق ما یعرفه الإنسان و یعقله فی عالم الأسباب، و لا سیما الدعاء عند العجز و فی الشدائد، قال صلّی اللّه علیه و سلّم: «الدّعاء هو العبادة «۳»»، هکذا بصیغة الحصر، أی هو الرکن المعنوی الأعظم فیها لأنه روحها المفسر بروایة: «الدّعاء مخّ العبادة «۴»»، و کلّ تعظیم و تقرب قولی أو عملی لصاحب هذه القدرة و السلطان الغیبی فهو عبادة له «۵».

---

(۱) قال فی الصباح: الجبلة- بکسرتین و تثقیل اللام- الطبیعة و الخلیقة و العزیزة بمعنی واحد، و جبله اللّه علی کذا، و شیء جبلی منسوب إلی الجبلة، کما یقول: طبیعی أی ذاتی منفعل عن تدبیر الجبلة فی البدن بصنع بارئها و ذلک تقدیر العزیز العلیم.

(۲) السوقة بالضم «کغرفة» غیر الملک، یطلق علی الواحد و المثنی و الجمع.

(۳) رواه أحمد، و ابن أبی شیبة، و البخاری فی الأدب المفرد، و أصحاب السنن الأربعة، و غیرهم عن النعمان ابن بشیر.

(۴) رواه الترمذی عن أنس.

(۵) هذا تحقیق لمعنی العبادة أوحد لها کل ما قیل غیره فی تعریفها فهو رسم.

الوحی المحمدی، ص: ۱۷۵

هذا أصل دین الفطرة الغریزی فی البشر، لا ما زعمه بعض الکتاب المعاصرین من أن دین الفطرة فی الآیة الکریمة أن یعمل الإنسان

متبعا شعوره و أفكاره و وجدانه بمقتضى طبيعته دون تلقى شيء من غيره، فهذا جهل، لا يقره دين و لا عقل، و فوضى لا يستقيم معها أمر، فإنّ الإنسان يجنى على فطرته و غرائزها و قواها بجهله و سوء اجتهاده، فشعوره الفطرى الذى بيّناه هو الذى ولد له العقائد الوثنية بعبادته كل ذى تأثير لا- يعرف له سببا، لحسبانه أنه هو صاحب السلطان الغيبى القادر على نفعه و ضره، و من ثمّ كان محتاجا إلى تكميل فطرته بالوحى الإلهى.

و على هذا الأصل بنى الدين التعليمى التشريعى الذى هو وضع إلهى يوحيه اللّه إلى رسله لئلا- يضل عباده بضعف اجتهادهم و اختلافهم فى العمل بمقتضى غريزة الدين كما وقع بالفعل، و لا يقبل البشر هذا الدين التعليمى بالإذعان و الوازع النفسى إلا إذا كان الملقن لهم إياه مؤيدا فى تبليغه و تعليمه من صاحب ذلك السلطان الغيبى الأعلى، و التصرف المطلق فى جميع العالم، الذى تخضع له الأسباب و السنن فيه و هو لا يخضع لها، سواء كان له هذا التصرف لذاته و هو رب العالمين، أو كانت له بولايته له تعالى و نيابته عنه.

و قد شرحنا هذه الحقيقة آنفا مختصرا مما بيناه فى مواضع مع التفسير و المنار فى معنى كون الإسلام دين الفطرة، و أنه شرع لتكميل استعداد البشر للرقى فى العلم و الحكمة، و معرفة اللّه عزّ و جلّ المعدة إياهم لسعادة الآخرة، فليس فيه شيء يصادمها.

فهذا الدين التعليمى حاجة من حاجات الفطرة البشرية لا يتم كمالها النوعى بدونه، فهو لنوع الإنسان كالعقل لأفراده كما حققه شيخنا الأستاذ الإمام.

قد كان دين اللّه الذى بعث به جميع رسله لجميع الأمم مصلحا لما أفسدته الوثنية من فطرتهم بجهلهم ثم بتقليد بعضهم لبعض، على أنهم كانوا إذا طال الأمد على بعثة الرسل يضلون عن هدايتهم إلى أن أتم اللّه الدين و أكمله للبشر كما تقدم بيانه فى المقصدين، الأول و الثانى من مقاصد القرآن. و فى حديث الصحيحين: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه». يعنى أنهما يفسدان فطرته الاستعدادية بتلقينه دينا محرفا منسوخا بدلا من إكمالها.

و كان من فضل اللّه على عباده بعد إكماله دينه أن ضمن لهم حفظ كتابه هذا من التحريف و التبديل و النسيان و الزيادة و النقصان، فقال اللّه تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ [الحجر: ۹]، و عصم أمة خاتم النبيين أن تضلّ كلّها عنه، كما ضلت الأمم

قبلهم، فإن كان صلّى اللّه عليه و سلّم قد أخبر بما أطلعه اللّه عليه من مستقبلها أنهم سيتبعون سنن من قبلهم من اليهود و النصارى، فقد أخبر أيضا بأنه لا- بد أن يبقى بعضهم على الحق ليكونوا حجة اللّه على خلقه فقال صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر اللّه و هم ظاهرون».

رواه أحمد و البخارى عن المغيرة بن شعبة رضى اللّه عنه، و فى رواية لهم عن معاوية: «لا- تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر اللّه لا يضرهم من خذلهم و لا من خالفهم حتى يأتى أمر اللّه و هم ظاهرون للناس». رواه مسلم و الترمذى و ابن ماجة عن ثوبان بلفظ: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحقّ لا يضرّهم من خذلهم حتى يأتى أمر اللّه و هم كذلك إلى قيام الساعة» «۱». رواه مسلم من حديث جابر بن سمرة مرفوعا: «لن يبرح هذا الدين قائما يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة». و روى آخرون من طرق ضعيفة يقوى بعضها بعضا أن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة. و للّه الحمد.

۲- الإسلام دين العقل و الفكر:

تقرأ قاموس الكتاب المقدس فلا تجد فيه كلمة (العقل) و لا فى معناها من أسماء هذه الغريزة البشرية التى فضل الإنسان بها جميع أنواع هذا الجنس الحى كاللب و النهى، لا لأن هذه المادة لم تذكر فى كتب العهدين مطلقا بل لأنها لم ترد فيها أساسا لفهم الدين و دلائله و الاعتبار به، و لا أن الخطاب بالدين موجه إليه، و قائم به و عليه، و كذلك أسماء التفكر و التدبر و النظر فى العالم التى هى أعظم وظائف العقل.

أما ذکر العقل باسمه و أفعاله فی القرآن الحکیم فیبلغ زهاء خمسین مرة، و أما ذکر أولی الألباب أی العقول ففی بضع عشرة مرة، و أما کلمة أولی النهی (جمع نهیة بالضم کغرفة) أی العقول، فقد جاءت مرة واحدة من آخر سورة طه.

أکثر ما ذکر فعل العقل فی القرآن قد جاء فی الکلام علی آیات اللّه و کونه المخاطبین بها و الذین یفهمونها و یهتدون بها هم العقلاء و یراد بهذه الآیات فی الغالب آیات الکون الدالة علی علم اللّه و مشیئته و حکمته و رحمته کقوله تعالی: إِنَّ فِی خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّیْلِ وَ النَّهارِ وَ الْفُلْکِ الَّتِی تَجْرِی فِی الْبَحْرِ بِما یَنْفَعُ النَّاسَ وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْیا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ بَثَّ فِیها مِنْ کُلِّ دَابَّةٍ وَ تَصْرِیفِ الرِّیاحِ وَ السَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَیْنَ السَّماءِ

---

(۱) زدنا فی هذه الطبعة روایة معاویة، و حدیث ثوبان لأنهما أصح و أبسط من حدیث عمر و أبی هریرة فی الموضوع.

الوحی المحمدی، ص: ۱۷۷

وَ الْأَرْضِ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ [البقرة: ۱۶۴]، و یلی ذلک فی الکثرة آیات کتابه التشریعیة، و وصایاه کقوله فی تفصیل الوصایا الجامعة من أواخر [سورة الأنعام: ۱۵۱]: ذلِکُمْ وَصَّاکُمْ بِهِ لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ، و کرر قوله: أَ فَلا تَعْقِلُونَ أکثر من عشرات کأمره لرسوله صلّی اللّه علیه و سلّم أن یحتج علی قومه بکون القرآن من عند اللّه لا من عنده بقوله: فَقَدْ لَبِثْتُ فِیکُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ [یونس: ۱۶]، و جعل إهمال استعمال العقل سبب عذاب الآخرة بقوله فی أهل النار فی سورة [سورة الملک الآیة: ۱۰]: وَ قالُوا لَوْ کُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما کُنَّا فِی أَصْحابِ السَّعِیرِ، و فی معناها قوله تعالی من [سورة الأعراف: ۱۷۹]: وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ کَثِیراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا یَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْیُنٌ لا یُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا یَسْمَعُونَ بِها أُولئِکَ کَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِکَ هُمُ الْغافِلُونَ، و قوله فی [سورة الحج: ۴۶]: أَ فَلَمْ یَسِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَتَکُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ یَعْقِلُونَ بِها.

کذلک آیات النظر العقلیّ و التفکر کثیرة فی الکتاب العزیز، فمن تأملها علم أن أهل هذا الدین هم أهل النظر و التفکر و العقل و التدبر، و أنّ الغافلین الذین یعیشون کالأنعام لا خطّ لهم منه إلا الظواهر التقلیدیة التی لا تزکی الأنفس و لا یثقف العقول، و لا تصعد بها فی معارج الکمال، بعرفان ذی الجلال و الجمال، و منها قوله تعالی: أَ وَ لَمْ یَتَفَکَّرُوا فِی أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَیْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّی [الروم: ۸]، و قوله فی صفات العقلاء أولی الألباب: وَ یَتَفَکَّرُونَ فِی خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ [آل عمران: ۱۹۱]، و قوله بعد نفی علم الغیب و التصرف فی خزائن الأرض عن الرسول صلّی اللّه علیه و سلّم و حصر وظیفته فی اتباع الوحی: قُلْ هَلْ یَسْتَوِی الْأَعْمی وَ الْبَصِیرُ أَ فَلا تَتَفَکَّرُونَ [الأنعام: ۵۰].

و قد صرّح بعض حکماء الغرب بما لا یختلف فیه عاقلان فی الأرض من أنّ التفکّر هو مبدأ ارتقاء البشر، و بقدر جودته یکون تفاضلهم فیه.

کانت التقالید الدینیة قد حجرت حریّة التفکر و استقلال العقل علی البشر. حتی جاء الإسلام فأبطل بکتابه هذا الحجر، و أعتقهم من هذا الرقّ، و قد تعلم هذه الحریة أمم الغرب من المسلمین، ثم نکس هؤلاء المسلمون علی رءوسهم فحرموها علی أنفسهم إلا قلیلا منهم حتی عاد بعضهم یقلدون فیها من أخذوها عن أجدادهم، و قد اعترف علماء الغرب لعلماء سلفنا بسبقهم و إمامتهم لهم فیها و فی ثمراتها، و نقل شیخنا الأستاذ الإمام طائفة من أقوالهم فی کتاب (الإسلام و النصرانیة).

الوحی المحمدی، ص: ۱۷۸

۳- الإسلام دین العلم و الحکمة و الفقه:

اشارة

ذکر اسم العلم معرفة و نکرة فی عشرات من آیات القرآن الحکیم تناهز المائة، و ذکرت مشتقات أضعاف ذلک، و هو یطلق علی علوم الدین و الدنیا بأنواعها، فمن العلم المطلق قوله تعالی فی وصایا سورة [الإسراء، الآیة: ۳۶]: وَ لا تَقْفُ ما لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤادَ کُلُّ أُولئِکَ کانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا أی: لا تتبع ما لیس لک به علم یثبت عندک بالرؤیة البصریة، أو بالروایات السمعیة، أو بالبراهین القطعیة، فإن اللّه یسألک عما أعطاک من آلات هذا العلم الثلاث.

قال الراغب فی تفسیر لا تَقْفُ، أی: تحکم بالقیافة و الظن. و قال البیضاوی ما ملخصه: و لا تتبع ما لم یتعلق به علمک تقلیدا أو رجما بالغیب. أ. ه.

و منه قوله تعالی فی العلم المأثور فی التاریخ: ائْتُونِی بِکِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ [الأحقاف: ۴]، و منه قوله تعالی فی علوم البشر المادیة: وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یَعْلَمُونَ (۶) یَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَیاةِ الدُّنْیا [الروم: ۶، ۷] إلخ، و قوله فی العلم الروحی: وَ یَسْئَلُونَکَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی وَ ما أُوتِیتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِیلًا [الإسراء: ۸۵].

و هاتان الآیتان فی بیان ضعف علم البشر و قلته حتی الدنیوی منه لا یزال یعترف العلماء أیهم أوسع علما بمضمونهما، و بأن علمهم لا یتجاوز الظواهر، و قد صرح بعض فحول علماء الغرب بأنهم کلما ازدادوا علما عملوا من حاجتهم إلی تحقیق ما سبق و الزیادة علیه ما لم یکونوا یعلمون، کما قال الإمام الشافعی:

کلما أدّبنی الدهر أرانی نقص عقلی

و إذا ما ازددت علما زادنی جهلی و قوله تعالی فی العلم العقلی: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ یُجادِلُ فِی اللَّهِ بِغَیْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدیً وَ لا کِتابٍ مُنِیرٍ [الحج: ۸]، الظاهر أنّ المراد بالعلم فیه: العلم النظری بدلیل مقابلته بالهدی و الکتاب المنیر، و هو هدی الدین و الوحی. و قوله فی العلم الطبیعی: وَ مِنْ آیاتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافُ أَلْسِنَتِکُمْ وَ أَلْوانِکُمْ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِلْعالِمِینَ [الروم: ۲۲]، بکسر اللام أی: علماء الکون، و مثله قوله بعد ذکر إخراج الثمرات المختلف ألوانها من ماء المطر، و اختلاف ألوان الطرائق فی الجبال و ألوان الناس و الدواب: إِنَّما یَخْشَی اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ

الوحی المحمدی، ص: ۱۷۹

الْعُلَماءُ [فاطر: ۲۸]، فالمراد بالعلماء هنا الذین یعلمون أسرار الکون و أطواره و أسباب اختلاف أجناسه و أنواعه و ألوانها و آیات اللّه و حکمه فیها، و هو یشمل أکثر العلوم و الفنون أو جمیعها، و فی معناها آیات فی سور أخری.

عظّم القرآن شأن العلم تعظیما لا تعلوه عظمة أخری بقوله تعالی: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَ الْمَلائِکَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ [آل عمران: ۱۸]، فبدأ عزّ و جلّ بنفسه و ثنی بملائکته، و جعل أولی العلم فی المرتبة الثالثة، و یدخل فیها الأنبیاء و الحکماء و من دونهم من أهل الدرجات فی قوله تعالی: یَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ [المجادلة: ۱۱]، و أمر أکرم رسله و أعلمهم بأن یدعوه بقوله: وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِی عِلْماً [طه: ۱۱۴].

و یؤید الآیات المنزلة فی مدح العلم و الحث علیه ما ورد فی ذم اتباع الظن کقوله تعالی:

وَ ما یَتَّبِعُ أَکْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا یُغْنِی مِنَ الْحَقِّ شَیْئاً [یونس: ۳۶]، و مثله: وَ ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ یَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنَّ الظَّنَّ لا یُغْنِی مِنَ الْحَقِّ شَیْئاً [النجم: ۲۸]، و قوله فی قول النصاری بصلب المسیح: ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّباعَ الظَّنِ [النساء: ۱۵۷].

و بلغ من تعظیمه لشأن العلم البرهانی أن قید به الحکم بمنع الشرک باللّه تعالی و النهی عنه و هو أکبر الکبائر و أقصی الکفر فقال تعالی: قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّیَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ وَ الْإِثْمَ وَ الْبَغْیَ بِغَیْرِ الْحَقِّ وَ أَنْ تُشْرِکُوا بِاللَّهِ ما لَمْ یُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَی اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ [الأعراف: ۳۳].

و قال اللّه تعالی فی برّ الوالدین الکافرین: وَ وَصَّیْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَیْهِ حُسْناً وَ إِنْ جاهَداکَ لِتُشْرِکَ بِی ما لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما [العنکبوت: ۸]، و معلوم من الدین بالضرورة أن الشرک باللّه لا یکون بعلم و لا ببرهان، لأنه ضروری البطلان، و تری تفصیل هذا فیما

بعده من تعظیم أمر الحجة و الدلیل، و ما یلیه من ذم التقلید.

الوحی المحمدی، ص: ۱۸۰

الحکمة و الفقه

و أما الحکمة فقد قال اللّه تعالی فی تعظیم شأنها المطلق: یُؤْتِی الْحِکْمَةَ مَنْ یَشاءُ وَ مَنْ یُؤْتَ الْحِکْمَةَ فَقَدْ أُوتِیَ خَیْراً کَثِیراً وَ ما یَذَّکَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ [البقرة: ۲۶۹]، و قال اللّه تعالی فی بیان مراده من بعثة محمد خاتم النبیین: هُوَ الَّذِی بَعَثَ فِی الْأُمِّیِّینَ رَسُولًا مِنْهُمْ یَتْلُوا عَلَیْهِمْ آیاتِهِ وَ یُزَکِّیهِمْ وَ یُعَلِّمُهُمُ الْکِتابَ وَ الْحِکْمَةَ وَ إِنْ کانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِی ضَلالٍ مُبِینٍ [الجمعة: ۲]، و فی معناها آیتان فی سورتی البقرة و آل عمران، و قال لرسوله ممتنا علیه: وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَیْکَ الْکِتابَ وَ الْحِکْمَةَ وَ عَلَّمَکَ ما لَمْ تَکُنْ تَعْلَمُ وَ کانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَیْکَ عَظِیماً [النساء: ۱۱۳]، و قال له: ادْعُ إِلی سَبِیلِ رَبِّکَ بِالْحِکْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ [النحل: ۱۲۵]، و قال له فی خاتمة الوصایا بأمهات الفضائل و النهی عن کبار الرذائل، مع بیان عللها و ما لها من العواقب:

ذلِکَ مِمَّا أَوْحی إِلَیْکَ رَبُّکَ مِنَ الْحِکْمَةِ [الإسراء: ۳۹]، و قال لنسائه رضی اللّه عنهن:

وَ اذْکُرْنَ ما یُتْلی فِی بُیُوتِکُنَّ مِنْ آیاتِ اللَّهِ وَ الْحِکْمَةِ [الأحزاب: ۳۴].

و قد أتی اللّه جمیع أنبیائه و رسله الحکمة و لکن أضاعها أقوامهم من بعدهم بالتقالید و الرئاسة الدینیة، و نسخها بولس من النصرانیة بنص صریح. قال اللّه تعالی فی الیهود: أَمْ یَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلی ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَیْنا آلَ إِبْراهِیمَ الْکِتابَ وَ الْحِکْمَةَ وَ آتَیْناهُمْ مُلْکاً عَظِیماً [النساء: ۵۴]، فالکتاب أعلی ما یؤتیه تعالی لعباده من نعمة و یلیه الحکمة، و یلیه الملک، و قال اللّه تعالی فی نبیه داود علیه السلام: وَ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْکَ وَ الْحِکْمَةَ وَ عَلَّمَهُ مِمَّا یَشاءُ [البقرة: ۲۵۱]، و قال اللّه تعالی لنبیه عیسی علیه السلام: وَ إِذْ عَلَّمْتُکَ الْکِتابَ وَ الْحِکْمَةَ وَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِیلَ [المائدة: ۱۱۰]، و قال: وَ لَقَدْ آتَیْنا لُقْمانَ الْحِکْمَةَ [لقمان: ۱۲]، و ذکر من حکمته وصایاه لابنه بالفضائل و منافعها و نهیه عن الرذائل معللة بمضارها.

فالحکمة أخصّ من العلم، هی العلم بالشیء علی حقیقته و بما فیه من الفائدة و المنفعة الباعثة علی العمل، فهی بمعنی الفلسفة العملیة کعلم النفس و الأخلاق و أسرار الخلق، و سنن الاجتماع، و یدل علیه قوله تعالی بعد وصایا سورة الإسراء التی نقلناه آنفا: ذلِکَ مِمَّا أَوْحی إِلَیْکَ رَبُّکَ مِنَ الْحِکْمَةِ وَ [الإسراء: ۳۹].

الوحی المحمدی، ص: ۱۸۱

و یکثر فی القرآن ذکر الفقه و هو الفهم الدقیق للحقائق الذی یکون به العالم حکیما عاملا- مثقفا، فراجع منها فی سورة الأنعام ۲۵، ۶۵، ۶۸، و فی سورة الأعراف: ۱۷۸، و فی سورة الأنفال: ۶۵، و فی سورة التوبة: ۸۲، ۸۸، ۳۲۱. و حسبک ما فی هذه السور الأربع تعریفا بالفقه و أنه هو الحکمة لا علم ظواهر الأحکام من الطهارة و البیع و الإجازة إلخ، فإن تسمیة هذا بالفقه اصطلاحیة لا قرآنیة، و منه ما هو ضد فقه القرآن کالحیل التی تعلم الناس التقصی من حکمة القرآن.

۴- الإسلام دین الحجة و البرهان:

قال اللّه تعالی: یا أَیُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَکُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّکُمْ وَ أَنْزَلْنا إِلَیْکُمْ نُوراً مُبِیناً [النساء: ۱۷۴]، و قال: وَ مَنْ یَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا یُفْلِحُ الْکافِرُونَ [المؤمنون: ۱۱۷]، قید الوعید علی الشرک بکونه لا برهان لصاحبه یحتج به، مع العلم بأنه لا- یکون إلا- کذلک تعظیما لشأن البرهان، و ذلک أنه تعالی یبعث الأمم مع رسلهم و ورثتهم الذین یشهدون علیهم، و یطالبهم بحضرتهم بالبرهان علی ما خالفوهم فیه کما قال: وَ نَزَعْنا مِنْ کُلِّ أُمَّةٍ شَهِیداً فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَکُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما کانُوا یَفْتَرُونَ [القصص: ۷۵].

و أقام البرهان العقلی علی بطلان الشرک بقوله بعد ذکر السموات و الأرض من سورة [الأنبیاء، الآیة: ۲۲]: لَوْ کانَ فِیهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا، ثم قفی علیه بمطالبة المشرکین بالبرهان علی ما اتخذوه من الآلهة من دونه مطالبة تعجیز فقال فی [الآیة: ۲۴]: أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هاتُوا بُرْهانَکُمْ، و مثله فی سورة [النمل، الآیة: ۶۴]: أَمَّنْ یَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ وَ مَنْ یَرْزُقُکُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هاتُوا بُرْهانَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ.

و قال فی سیاق محاجة إبراهیم لقومه و إقامة البراهین العلمیة لهم علی بطلان شرکهم:

وَ کَیْفَ أَخافُ ما أَشْرَکْتُمْ وَ لا تَخافُونَ أَنَّکُمْ أَشْرَکْتُمْ بِاللَّهِ ما لَمْ یُنَزِّلْ بِهِ عَلَیْکُمْ سُلْطاناً فَأَیُّ الْفَرِیقَیْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [الأنعام: ۸۱]، ثم قال فی آخره: وَ تِلْکَ حُجَّتُنا آتَیْناها إِبْراهِیمَ عَلی قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّکَ حَکِیمٌ عَلِیمٌ [الأنعام: ۸۳]، فالدرجات هنا درجات الحجة و البرهان العقلیّ فی العلم، و لذلک قدم فیه ذکر الحکمة علی العلم، و تقدم فی الکلام علی العلم آیة رفع الدرجات فیه.

الوحی المحمدی، ص: ۱۸۲

و مما جاء فیه البرهان بلفظ السلطان قوله تعالی: الَّذِینَ یُجادِلُونَ فِی آیاتِ اللَّهِ بِغَیْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ کَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ الَّذِینَ آمَنُوا [غافر: ۳۵]، و فی معناها من هذه [السورة، الآیة: ۵۶]: إِنَّ الَّذِینَ یُجادِلُونَ فِی آیاتِ اللَّهِ بِغَیْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ إِنْ فِی صُدُورِهِمْ إِلَّا کِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِیهِ، و فی عدة سور أخری أنه تعالی أرسل موسی إلی فرعون بآیاته (و سلطان مبین).

۵- الإسلام دین القلب و الوجدان و الضمیر:

قال الفیومی فی المصباح: ضمیر الإنسان قلبه و باطنه و الجمع ضمائر، و قال: و القلب من الفؤاد معروف- یعنی أنه ضمیره و وجدانه الباطل (قال): و یطلق علی العقل أ. ه و قد شرحنا معناه هذا و طرق استعماله فی تفسیر آیة الأعراف «۱»، و قد ذکر القلب فی القرآن الکریم فی مائة آیة و بضع عشرة آیة.

منها قوله تعالی فی سورة [ق، الآیة: ۳۷]: إِنَّ فِی ذلِکَ لَذِکْری لِمَنْ کانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَی السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِیدٌ، و قوله فی سورة ا [لشعراء، الآیة: ۸۸، ۸۹]: یَوْمَ لا یَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ (۸۸) إِلَّا مَنْ أَتَی اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِیمٍ، و منها مدحه لخلیله إبراهیم علیه السلام بقوله: إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِیمٍ، قوله حکایة عنه: وَ لکِنْ لِیَطْمَئِنَّ قَلْبِی [البقرة: ۲۶۰]، و قوله فی صفة المؤمنین: الَّذِینَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِکْرِ اللَّهِ أَلا بِذِکْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ [الرعد: ۲۸]، و قوله فی صفات الذین اتبعوا عیسی علیه السلام: وَ جَعَلْنا فِی قُلُوبِ الَّذِینَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَ رَحْمَةً وَ رَهْبانِیَّةً ابْتَدَعُوها «۲» إلخ.

و وصف قلوب المؤمنین بالخشوع و الإخبات للّه و تمحیصها من الشوائب، و قلوب الکفار و المنافقین بالرجس و المرض و القسوة و الزّیغ، و عبر عن فقدها للاستعداد للحق و الخیر بالطبع و الختم و الرین علیها، أی أنها کالمختوم المطبوع علیه فلا یدخله شیء جدید، أو کالمعدن أحاط به و غلب علیه الرین و هو الصدأ أو الدنس فلا تقبل الصقل و الجلاء.

و إذا کان الإسلام دین العقل و البرهان و حریة الضمیر و الوجدان، فقد أبطل ما کان علیه النصاری و غیرهم من الإکراه فی الدین و الإجبار علیه، و الفتنة و الاضطهاد لمخالفیهم فیه، و الآیات فی ذلک کثیرة بیناها فی محلها، و من دلائلها ذم القرآن للتقلید و تضلیل أهله.

---

(۱) راجع ص ۴۱۹ من الجزء التاسع- تفسیر المنار.

(۲) الاطمئنان ما یعبر عنه براحة الضمیر فی الاعتقاد، و الثابت بالأدلة النظریة بحیث یکون وجدانا کالوجدان فی انشراح الصدر له و عدم احتمال غیره.

الوحی المحمدی، ص: ۱۸۳

۶- منع التقلید و الجمود علی اتباع الآباء و الجدود:

اشارة

کل ما نزل من الآیات فی مدح العلم و فضله و الیقین فیه و استقلال العقل و الفکر و حریة الوجدان، و المطالبة بالبرهان، و ذم اتباع الظن و الحرص فیما یطلب فیه الإیمان و العلم- یدل علی ذم التقلید، و قد ورد فی ذمه النعی علی أهله آیات کثیرة کقوله تعالی: وَ إِذا قِیلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَیْنا عَلَیْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ کانَ آباؤُهُمْ لا یَعْقِلُونَ شَیْئاً وَ لا یَهْتَدُونَ [البقرة: ۱۷۰]، و قوله تعالی: وَ إِذا قِیلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلی ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَی الرَّسُولِ قالُوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَیْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ کانَ آباؤُهُمْ لا یَعْلَمُونَ شَیْئاً وَ لا یَهْتَدُونَ [المائدة: ۱۰۴]، ذمهم من ناحیتین؛ (إحداهما): الجمود علی ما کان علیه آباؤهم و الاکتفاء به عن الترقی فی العلم و العمل، و لیس هذا من شأن الإنسان الحی العاقل فإن الحیاة تقتضی النمو و التولید، و العقل یطلب المزید و التجدید.

(و الثانیة): أنهم باتباعهم لآبائهم قد فقدوا مزیة البشر فی التمییز بین الحق و الباطل، و الخیر و الشر، و الحسن و القبیح، بطریق العقل و العلم و طریق الاهتداء فی العمل، و یؤیده قوله تعالی: وَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَیْها آباءَنا وَ اللَّهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا یَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَ تَقُولُونَ عَلَی اللَّهِ ما لا- تَعْلَمُونَ [الأعراف: ۲۸]، و قال اللّه تعالی فی عبادة العرب للملائکة: وَ قالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ما لَهُمْ بِذلِکَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا یَخْرُصُونَ (۲۰) أَمْ آتَیْناهُمْ کِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِکُونَ (۲۱) بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلی أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلی آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ (۲۲) وَ کَذلِکَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ فِی قَرْیَةٍ مِنْ نَذِیرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلی أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلی آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ [الزخرف: ۲۰- ۲۳]، و تراجع الشواهد علی هذا فی قصة إبراهیم مع قومه فی سورة الأنبیاء و الشعراء و الصافات.

فالقرآن قد جاء یهدی جمیع متّبعی الملل و الأدیان السابقة إلی استعمال عقولهم مع ضمائرهم للوصول إلی العلم و الهدی و الاطمئنان فی الدین، و ألا یکتفوا بما کان علیه آباؤهم و أجدادهم من ذلک، فإن هذا جنایة علی الفطرة البشریة و العقل و الفکر و القلب التی امتاز بها البشر، و بهذا العلم و الهدی امتاز الإسلام و دخل فیه العقلاء من جمیع الأمم أفواجا، ثم نکث المسلمون علی رءوسهم إلا قلیلا منهم، و اتبعوا سنن من قبلهم من أهل الکتاب و غیرهم فی التقلید لآبائهم و مشایخهم المنسوبین إلی بعض أئمة علمائهم الذین نهوهم عن التقلید و لم یأمروهم به، فأبطلوا بذلک حجّة اللّه تعالی علی الأمم التی وکل اللّه

الوحی المحمدی، ص: ۱۸۴

دعوتها إلیهم، و صاروا حجة علی دینهم، فکیف یدعون إلیه و حجته القرآن و هم یحرمون الاهتداء به؟ حتی إن أدعیاء العلم الرسمی «۱» فیهم ینکرون أشد الإنکار علی من یدعونهم إلی اتباع کتاب اللّه و هدی رسوله و سیرة السلف الصالح من أهله و نحن معهم فی بلاء و عناء نقاسی منهم ما شاء الجهل و الجمود من استهزاء، و طعن و بذاء، و تهکم بلقب (المجتهد) الذی احتکره الجهل لبعض المتقدمین من العلماء.

و لو کان فینا علماء کثیرون یظهرون الإسلام فی صورته الحقیقیة العلمیة العقلیة لدخل الناس المستقلون فی العقل و العلم فیه أفواجا حتی یعم الدنیا؛ لأن التعلیم العصری فی جمیع مدارس الأرض یجری علی طریقة الاستقلال فی الفهم و اتباع الدلیل فی جمیع بلاد الإفرنج و البلاد المقلد لهم، و لکن أکثر هؤلاء یرون جمیع الأدیان تقلیدیة، و یعتدونها نظما أدبیة و اجتماعیة للأمم، فلهذا یرون الأولی بحفظ نظامهم اتباعهم دینهم التقلیدی، و بهذا یعسر علینا أن نقنعهم بامتیاز الإسلام علی دینهم، لأنه یقل فینا من یقدر علی إظهار الإسلام فی صورته التی خصه بها القرآن. و ما بیّنه من سنة خاتم النبیین صلّی اللّه علیه و سلّم و سیرة خلفائه الراشدین و السلف الصالحین، رضوان اللّه علیهم أجمعین.

بید أنّ محافظة الإفرنج علی نظام النصرانیة بدون إیمان إذعان سیزول، فقد کثرت الجمعیات الدینیّة و العلمیة التی تصرح بإنکار ألوهیة المسیح و أکثر تقالید الکنائس «۲».

دحض شبهة، و إقامة حجة

یتوهّم بعض المقلدین أنّ دعوة المسلمین إلی الاهتداء بالکتاب و السّنة و الاستقلال فی فهمهما التی اشتهر المنار بها فی عصرنا، هی التی جرّأت بعض الجاهلین علی دعوی الاجتهاد فی الشریعة و الاستغناء عن تقلید الأئمة و الانتقاد علیهم و علی أتباعهم بما هو ابتداع جدید، و استبدال للفوضی بالتقلید، و هو وهم سببه الجهل بالدین و بالتاریخ، فمذاهب الابتداع و الإلحاد قدیمة، قد نجمت قرونها فی خیر القرون و عهد أکبر الأئمة، و کان أشدها إفسادا للدین الدعوة إلی اتباع الأئمة المعصومین، الذین لا یسألون عن الدلیل،

---

(۱) المراد بالعلم الرسمی الذی یعتمد منتحله فی انتحاله علی الشهادة الرسمیة من المدرسة التی تعلم فیها دینیة کالأزهر أو مدنیة، و کم حامل شهادة بالعلم و هو جاهل.

(۲) لا تزال تشتد دعوة الشعب الألمانی بتأیید حکومته النازیة إلی ترک النصرانیة و تفضل الوثنیة الآریة علیها.

الوحی المحمدی، ص: ۱۸۵

علی خلاف ما کان علیه أئمة السنة من تحریم اتباع أحد لذاته فی الدین بعد محمد المعصوم الذی لا معصوم بعده صلّی اللّه علیه و سلّم، و لکن المقلّدین لهؤلاء المجرمین للتقلید قد اتبعوا القائلین بعصمة أئمتهم، حتی ملاحدة الباطنیة منهم، فهم یردون نصوص الکتاب و السنة بأقوال أئمتهم، بل بأقوال کل من ینتمی إلیهم من أدعیاء العلم علی اعتقادهم و إقرارهم بأنهم غیر معصومین. الوحی المحمدی ۱۸۵ دحض شبهة، و إقامة حجة ..... ص : ۱۸۴

إنما تروج البدع فی سوق التقلید الذی یتبع أهله کل ناعق، لا فی سوق الاستقلال و الأخذ بالدلائل، و من باب التقلید دخل أکثر الخرافات علی المسلمین لانتساب جمیع الدجالین من أهل الطرائق و غیرهم إلی أئمة المذاهب المجتهدین، و هم فی دعوی اتباعهم من الکاذبین، و نحن دعاة العلم الصحیح و الاهتداء بالکتاب و السنة أحق منهم باتباع الأئمة، و لا نعنی بالاهتداء بالکتاب و السّنة أن کل واحد منهم إمام مجتهد مطلق کمالک و الشافعی رضی اللّه عنهم فهذه أعلی درجة فی العلم، و العلم درجات کما قال اللّه عزّ و جلّ، و قد کان یوجد فی السلف قبل تدوین المذاهب عوام و خواص کلهم یهتدون بهما.

و صاحب المنار قد وقف نفسه علی الردّ علی جمیع الملاحدة و البهائیة و القادیانیة و القبوریین و سائر مبتدعة عصرنا و هو لم یدع مذهبا له یدعو إلیه، و لم یخالف إجماع الأمة، و لا فرق عنده بین الأئمة، و للّه الحمد و المنة.

۷- الحریة الشخصیة فی الدین بمنع الإکراه و الاضطهاد و رئاسة السیطرة:

هذه المزیة من مزایا الإسلام، و هی نتیجة المزایات التی بیّنا بها کونه دین الفطرة، فأما منع الإکراه فیه و علیه فالأصل فیه قوله تعالی لرسوله صلّی اللّه علیه و سلّم بمکة: وَ لَوْ شاءَ رَبُّکَ لَآمَنَ مَنْ فِی الْأَرْضِ کُلُّهُمْ جَمِیعاً أَ فَأَنْتَ تُکْرِهُ النَّاسَ حَتَّی یَکُونُوا مُؤْمِنِینَ (۹۹) وَ ما کانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ یَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَی الَّذِینَ لا یَعْقِلُونَ (۱۰۰) قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما تُغْنِی الْآیاتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا یُؤْمِنُونَ [یونس: ۹۹- ۱۰۱]، علم اللّه تعالی رسوله بهذه الآیات أن من سننه فی البشر أن تختلف عقولهم و أفکارهم فی فهم الدین و تتفاوت أنظارهم فی الآیات الدالة علیه فیؤمن بعض و یکفر بعض، فما کان یتمناه صلّی اللّه علیه و سلّم من إیمان جمیع الناس مخالف لمقتضی مشیئته تعالی فی اختلاف استعداد الناس للإیمان، و هو منوط باستعمال عقولهم و أنظارهم فی آیات اللّه فی خلقه، و التمییز بین هدایة الدین و ضلالة الکفر «۱».

(۱) راجع تفسیر هذه الآیات من آخر سورة یونس فی آخر (ج ۱۱) من تفسیر المنار.

الوحی المحمدی، ص: ۱۸۶

ثم قوله تعالی عند ما أراد أصحابه أخذ من کان بنی النضیر من أولادهم عند إجلائهم عن الحجاز و کان قد تهود بعضهم: لا إِکْراهَ فِی الدِّینِ قَدْ تَبَیَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَیِ [البقرة: ۲۵۶]، فأمرهم صلّی اللّه علیه و سلّم أن یخیروهم فمن اختار الیهود أجلی مع الیهود و لا یکره علی الإسلام، و من اختار الإسلام بقی مع المسلمین، کما بیناه فی تفسیر الآیة من جزء التفسیر الثالث.

و أما منع الفتنة و هی اضطهاد الناس لأجل دینهم حتی یترکوه فهو السبب الأول لشرعیة القتال فی الإسلام و سیأتی فی المقصد الثامن من هذا الکتاب.

و أما منع رئاسة السیطرة الدینیة کالمعهودة عند النصاری ففیها آیات مبینة فی القرآن، و أحادیث صریحة فی السّنة، و هی معلومة بالضرورة من سیرة النبی صلّی اللّه علیه و سلّم، و خلفائه الراشدین، و قد بیناها فی الکلام علی وظائف الرسل علیهم الصلاة و السلام، و حسبک منها قوله عزّ و جلّ لرسوله صلّی اللّه علیه و سلّم خاتم النبیین: فَذَکِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَکِّرٌ (۲۱) لَسْتَ عَلَیْهِمْ بِمُصَیْطِرٍ [الغاشیة: ۲۱، ۲۲].

الوحی المحمدی، ص: ۱۸۷

المقصد الرابع من مقاصد القرآن الإصلاح الإنسانی الاجتماعی السیاسی الوطنی بالوحدات الثمانی

اشارة

(وحدة الأمة- وحدة الجنس البشری- وحدة الدین- وحدة التشریع بالمساواة فی العدل- وحدة الأخوة الروحیة و المساواة فی التعبد- وحدة الجنسیة السیاسیة الدولیة- وحدة القضاء- وحدة اللغة).

جاء الإسلام و البشر أجناس متفرقون. یتعادون فی الأنساب و الألوان، و اللغات و الأوطان و الأدیان، و المذاهب و المشارب، و الشعوب و القبائل، و الحکومات و السیاسات، یقاتل کل فریق منهم مخالفة فی شیء من هذه الروابط البشریة و إن وافقه فی البعض الآخر، فصاح الإسلام بهم صیحة واحدة دعاهم بها إلی الوحدة الإنسانیة العامة، الجامعة، و فرضها علیهم، و نهاهم عن التفرق و التعادی و حرمه علیهم، و بیان هذا التفرق و مضاره بالشواهد التاریخیة و بیان أصول الکتاب الإلهی و سنة خاتم النبیین فی الجامعة الإنسانیة. لا یمکن بسطهما إلا بمصنّف کبیر، فنکتفی فی هذا المقصد من إثبات الوحی المحمدی بسرد الأصول الجامعة فی هذا الإصلاح الإنسانی الداعی إلی جعل الناس علی ملة واحدة، و دین واحد، و شرع واحد، و حکم واحد، و لسان واحد، کما أن جنسهم واحد، و ربهم واحد، و نبدأ بالأصل الجامع فی هذا، و نقفی علیه بالأصول و الشواهد المفصلة له.

الأصل الأول

للجامعة الإسلامیة الإنسانیة: وحدة الأمة قال اللّه تعالی فی سورة الأنبیاء مخاطبا أمة الإسلام بعد ذکر خلاصة من قصصهم: إِنَّ هذِهِ أُمَّتُکُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّکُمْ فَاعْبُدُونِ [الأنبیاء: ۹۲] «۱».

ثم بین لهم فی سورة «المؤمنون» أنه خاطب جمیع النبیین بهذه الوحدة للأمة فقال: یا أَیُّهَا الرُّسُلُ کُلُوا مِنَ الطَّیِّباتِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً إِنِّی بِما تَعْمَلُونَ عَلِیمٌ (۵۱) وَ إِنَّ هذِهِ أُمَّتُکُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّکُمْ فَاتَّقُونِ [المؤمنون: ۵۱، ۵۲].

و لکن لکل نبی أمة من الناس هم قومه، و أما خاتم النبیین فأمّته جمیع الناس، و قد فرض اللّه علیهم الإیمان بجمیع رسله و عدم

التفرقة بينهم، فالإيمان بخاتمهم كالإيمان

---

(۱) قرأ الجمهور «أمتكم» بالرفع على أنها خبر، «و أمة» بالنصب على أنها حال لأمة (واحدة) صفة لأمة.

الوحی المحمدی، ص: ۱۸۸

بأولهم و بمن بينهما، فمثلهم كمثل الملوك أو الولاة فی الدولة الواحدة، و مثل اختلاف شرائعهم بنسخ المتأخر منها لما قبله كمثل تعديل القوانين فی الدولة الواحدة أيضا إلى أن كمل الدين.

الأصل الثانی:

الوحدة الإنسانية بالمساواة بين أجناس البشر و شعوبهم و قبائلهم، و شاهده العام قوله تعالى: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ [الحجرات: ۱۳] و قد بلغ النبی صلّى اللّه عليه و سلّم ذلك فی حجة الوداع، فتلا الآية و قال ما خلاصته: إنه ليس لعربی على أعجمی و لا لأبيض على أسود «و لا العكس» إلا بالتقوى (من حديث العداء بن خالد فی المعجم الكبير للطبرانی). و هذه الوحدة الإنسانية تتضمن الدعوة إلى التآلف بالتعارف و إلى ترك التعادی بالتخالف «۱».

الأصل الثالث:

وحدة الدين باتباع رسول واحد جاء بأصول الدين الفطرى الذى جاء به غيره من الرسل، و أكمل تشريعه بما يوافق جميع البشر، و شاهده الأعم قوله تعالى: قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّی رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً [الأعراف: ۱۵۸] و لما كان الإسلام دين الفطرة و حرية الاعتقاد و الوجدان جعل الدين اختياريا بقوله تعالى: لا إِكْراهَ فِی الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَیِ [البقرة: ۲۵۶].

الأصل الرابع:

وحدة التشريع بالمساواة بين الخاضعين لأحكام الإسلام فی الحقوق المدنية و التأديبية بالعدل المطلق بين المؤمن و الكافر، و البر و الفاجر، و الملك و السوقة، و الغنی و الفقير، و القوى و الضعيف، و سنذكر بعض شواهده فی إصلاح التشريع من المقصد السادس.

الأصل الخامس:

الوحدة الدينية بالمساواة بين المؤمنين بهذا الدين فی أخوته الروحية و عباداته، و فی

---

(۱) من شواهد القرآن فی الوعيد على التفرقة بين الناس باختلاف أنسابهم قوله تعالى: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِی الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِی نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ.

الوحی المحمدی، ص: ۱۸۹

الاجتماع للاجتماع منها، كالصلاة و مناسك الحج «۱»، فملوك المسلمين و أمراؤهم و كبار علمائهم يختلطون بالفقراء فی صفوف الصلاة و الطواف بالكعبة المشرفة و الوقوف بعرفات و سائر مواطن الحج، و لا تجد شعوب الإفرنج المنتسبين إلى النصرانية و لا رجال الدين من غيرهم يرضون بمثل هذه المساواة المعلومة من دين الإسلام بالضرورة للعمل بها من أول الإسلام إلى اليوم، قال اللّه تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ [الحجرات: ۱۰] و قال اللّه تعالى فی أحكام المشركين المحاربين: فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِی الدِّينِ [التوبة: ۱۱].

الأصل السادس:

وحدة الجنسية السياسية الدولية بأن تكون جميع البلاد الخاضعة للحكم الإسلامى متساوية فى الحقوق العامة، كحماية أهلها و الدفاع عنهم إلا حقّ الإقامة فى جزيرة العرب و لا سيما الحجاز، فإنه خاص بالمسلمين لأن للحرمين و سياجهما من الجزيرة حكم المعابد و المساجد، و حكم الإسلام فى معابد الملل الداخلة فى ذمته أنها خاصة بأهلها و لها حرمتها، لا يجوز لغير أهلها دخولها بغير إذن منها، المسلمون و غيرهم فى هذا سواء.

الأصل السابع:

وحدة القضاء و استقلاله و مساواة الناس فيما أمام الشريعة العادلة، إلا أنه يستثنى منه الأحكام الشخصيّة الدينية، فإنّ الإسلام يراعى فيها حرية العقيدة و الوجدان بناء على أساسه فى ذلك، فهو يسمح لغير المسلمين فى أمور الزوجية و نحوها أن يتحاكموا إلى رؤساء ملتهم، و هذا ضرب من المساواة ليس له فى غير الإسلام ضريب، لأنه اشتراك فى الحكم و التشريع، و أما إذا تحاكموا إلينا فإننا نحكم بينهم بعدل شريعتنا الناسخة لشرائعهم، و الأصل فيه قوله تعالى: فَإِنْ جاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ إِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَ إِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ [المائدة: ۴۲] و قوله تعالى فى الآية [۴۸]: فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِ.

---

(۱) و كذا الصيام و المساواة فيه أظهر، و إن كان هو تركا للشهوات لا فعلا يرى بالإبصار، و لكنه فعل نفسى يرى أثره و لا يخفى على أحد أمره.

الوحی المحمدی، ص: ۱۹۰

الأصل الثامن:

وحدة اللغة، و وجهها: أنه لا يمكن أن يتم الاتحاد و الإخاء بين الناس و صيرورة الشعوب الكثيرة أمة واحدة إلا بوحدة اللغة «۱» و ما زال الحكماء الباحثون فى مصالح البشر العامة يتمنّون لو يكون لهم لغة واحدة مشتركة، يتعاونون بها على التعارف و التآلف، و مناهج التعليم و الآداب، و الاشتراك فى العلوم و الفنون و المعاملات الدنيوية، و هذه الأمنية قد حققها الإسلام بجعل لغة الدين و التشريع و الحكم لغة جميع المؤمنين به و الخاضعين لشريعته. إذ يكون المؤمنون مسوقين باعتقادهم و وجدانهم إلى معرفة لغة كتاب اللّه و سنة رسوله لفهمهما و التعبد بهما، و الاتحاد بأخوتهم فيهما، و هما مناط سيادتهم، و سعادتهم فى الدنيا و الآخرة، و لذلك كرّر فى القرآن بيان كونه كتابا عربيا، و حكما عربيا، و كرر الأمر بتدبره و التفقه فيه، و الاتعاظ و التأديب به، و أما غير المؤمنين فيتعلمون لغة الشرع الذى يخضعون لحكمه، و الحكومة التى يتبعونها لمصالحهم الدنيوية كما هى عادة البشر فى ذلك، و كذلك كان الأمر فى الفتوحات الإسلامية العربية كلها.

و قد فصّلت فى المنار و التفسير مسألة وجوب تعلم اللغة العربية فى دين الإسلام و كونه مجمعا عليه بين المسلمين كما قرره الإمام الشافعى رضى اللّه عنه فى رسالته، و هو الذى جرى عليه العمل فى عهد الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم و خلفائه الراشدين، ثم خلفاء الأمويين و العباسيين إلى أن كثر الأعاجم، و قلّ العلم، و غلب الجهل، فصاروا يكتفون من لغة الدين بما فرضه اللّه فى العبادات من القرآن و الأذكار «۲».

الشواهد من السنّة على وحدة الجنس و اللغة: كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ينكر على المسلمين كل نوع من أنواع التفرقة الذى

ینافی وحدتهم و جعلهم أمة واحدة کالجسد الواحد کما شبههم بقوله: «مثل المؤمنین فی توادّهم و تراحمهم و تعاطفهم مثل الجسد إذا اشتکی منه عضو تداعی له سائر الجسد بالسهر و الحمّی». رواه الإمام أحمد من حدیث النعمان بن بشیر رضی اللّه عنه، و کان یخص بمقته و إنکاره التفرق فی الجنس النسبی أو اللغة. أما الأول فمشهور و منه أن أبا ذر رضی اللّه عنه و هو من السابقین الأولین المتقین تغاضب مع بلال الحبشی مولی أبی بکر رضی اللّه عنه و تسابا فقال

---

(۱) المراد أنه لا یمکن هذا مع حریة الدین التی قررها الإسلام إلا باللغة.

(۲) راجع ذلک فی ص ۳۱۰ من الجزء التاسع تفسیر المنار.

الوحی المحمدی، ص: ۱۹۱

أبو ذر: یا ابن السوداء، فشکاه بلال إلی النبی صلّی اللّه علیه و سلّم فقال لأبی ذر: «أ عیرته بأمه؟ إنک امرؤ فیک جاهلیة». رواه البخاری فی مواضع، و مسلم بدون ذکر اسم بلال، و لفظ البخاری فی کتاب الأدب عن أبی ذر: کان بینی و بین رجل کلام و کانت أمه أعجمیة فنلت منها فذکرنی إلی النبی صلّی اللّه علیه و سلّم فقال لی: «أ سابیت فلانا؟». قلت: نعم. قال: «أ فنلت من أمه؟». قلت: نعم. قال: «إنک امرؤ فیک جاهلیة». قلت: علی ساعتی هذه من کبر السن؟ قال: «نعم هم إخوانکم». إلخ الحدیث .. و سیأتی فی الوصیة بالرقیق، و روی أن أبا ذر تاب توبة نصوحا حتی أمر بلالا أن یطأ علی وجهه.

و أما الثانی فیجمعه مع الأول ما رواه الحافظ بن عساکر بسنده إلی مالک عن الزهیری عن أبی سلمة بن عبد الرحمن قال: جاء قیس بن مطاطیة إلی حلقة فیها سلمان الفارسی و صهیب الرومی و بلال الحبشی فقال: هذا الأوس و الخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هذا؟ (یعنی- هذا المنافق- بالرجل النبی صلّی اللّه علیه و سلّم و أن الأوس و الخزرج من قومه العرب ینصرونه لأنهم من قومه، فما بال الذی یدعو الفارسی و الرومی إلی نصره؟)، فقام إلیه معاذ بن جبل رضی اللّه عنه فأخذ بتلبیبته «۱»؛ ثم أتی النبی صلّی اللّه علیه و سلم فأخبره بمقالته، فقام النبی صلّی اللّه علیه و سلّم مغضبا یجر رداءه حتی أتی المسجد ثم نودی: إن الصلاة جامعة «۲»، و قال صلّی اللّه علیه و سلّم: «یا أیها النّاس إنّ الربّ واحد، و الأبّ واحد، و إنّ الدین واحد، و لیست العربیة بأحدکم من أب و لا أم، و إنّما هی اللّسان، فمن تکلم بالعربیة فهو عربیّ». فقام معاذ فقال: فما تأمرنی بهذا المنافق یا رسول اللّه؟ قال: «دعه إلی النّار»، فکان قیس ممن ارتد فی الردة فقتل.

أ رأیت لو ظل المسلمون علی هذه التربیة المحمدیة أ کان وقع بینهم من الشقاق و الحروب باختلاف الجنس و اللغة کل ما وقع و أدی بهم إلی هذا الضعف العام؟ أ رأیت لو حافظوا علی هذه الأخوة الإسلامیة أ کانت حدثت فیهم تلک الشعوبیة المجوسیة الأولی، و هذه العصبیة الترکیة الأخری؟ کلا إنهم لو حافظوا علیهما لعمموا أخواتها، و لأصلحوا بها شعوب الأرض کلّها.

یعترض بعض أولی النظر القصیر، و البصر الکلیل علی توحید اللغة فی الشعوب المختلفة بأنه خلاف طبیعة البشر، و یرد علیهم بأنّ توحید الدین أبعد من توحید اللّه عن

---

(۱) اللبب بفتحتین موضع النحر، و تلبیه ما علی لبه و نحره من الثیاب أی قبض علیه و جذبه بها.

(۲) هذه الجملة یدعی بها إلی صلاة العیدین و کل اجتماع عام فی المسجد بلفظ «الصلاة جامعة» و لفظ الصلاة فیها منصوب بتقدیر احضروا الصلاة، أو الزموها.

الوحی المحمدی، ص: ۱۹۲

طبیعة البشر إن أرید بالبشر جمیع أفرادهم، و أن الحکماء ما زالوا یسعون لجمع البشر علی لغة واحدة مشترکة، مع علمهم أن ترقی بعض اللغات بترقی أهلها فی العلوم و الفنون و السیاسة و القوة و العصبیة یستحیل معه أن یرغبوا عنها إلی غیرها، و لم یسع أحد منهم

لجمعهم على دين واحد، و أنّ القرآن الذى شرع توحيد الدين مع شرعه و لغته لجميع البشر.

قد علمنا أن حكمة اللّه تعالى فى خلق الإنسان تأبى أن يكون الناس كلهم أمة واحدة تدين بدين واحد قال اللّه تعالى: وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ (۱۱۸) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ [هود: ۱۱۸، ۱۱۹] و إنما دعاهم إلى هذه الرحمة ليقل الشقاء الذى يثيره الخلاف فيهم: هذا الخلاف الذى جعل أعظم شعوب الأرض و أرقاهم فى العمران يبذلون فى هذا العهد أكثر ما تستغله شعوبهم من ثروة العالم فى سبيل الحروب التى تنذر عمرانهم الخراب و الدمار.

فإذا كان مقتضى طبع البشر أن لا يتفقوا كلهم على شىء واحد من لغة و لا دين و لا غيرهما من الأمور التى تختلف فيها الآراء، فهذا لا يمنع دعوتهم كلهم إلى الحق و الخير، و لا بد أن يستجيب خيارهم على قاعدة غلب الحق على الباطل.

و قد استشكل هذا بعض العلماء من حيث المخاطب بتنفيذه، فقلت لهم: إن المخاطب بتعميم لغة الإسلام، هم أولو الأمر المخاطبون بتعميم دعوة الإسلام و إقامة شرع الإسلام، و قد جرى على ذلك الصحابة و الخلفاء من بعدهم كما تقدم.

دعا الإسلام البشر كلهم إلى دين واحد يتضمن توحيد اللغة و غيرهما من مقومات الأمم فكانوا يدخلون فيه أفواجا، حتى امتدّ فى قرن واحد ما بين المحيط الغربى إلى أقصى الهند أو الصين، و لو لا ما طرأ عليه من الابتداع، و على حكوماته من الظلم و الاستبداد، و على شعوبه من الجهل و الفساد، و التفرق بالاختلاف. لدخل فيه أكثر البشر، و لصارت لغته لغة لكل من دخل فى حظيرته من الأمم فمن غرائزهم اختيار الأفضل إذا عرفوه، بل علمنا القرآن أن هذه سنة عامة. فى الاجتماع البشرى، بل فى كل تنازع بين الحق و الباطل، و النافع و الضار، و الصالح و الفاسد، إنما يكون الغلب للأفضل و الثبات و البقاء للأمثل، فراجع الآيات فى دمغ الحق للباطل، ثم اعتبر فيه بهذا المثل الماثل: أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَ مِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَ الْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَ أَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ [الرعد: ۱۷].

الوحی المحمدی، ص: ۱۹۳

قال أحد كبار العلماء الألمان فى الآستانة لبعض المسلمين و فيهم أحد شرفاء مكة: إنه ينبغى لنا أن نقيم تمثالا من الذهب لمعاوية بن أبى سفيان فى ميدان كذا من عاصمتنا (برلين). قيل له لما ذا؟ قال: لأنه هو الذى حوّل نظام الحكم الإسلامى عن قاعدته الديمقراطية على عصبية الغلب، و لو لا ذلك لعم الإسلام العالم كلّه، و إذن لكنا نحن الألمان و سائر شعوب أوروبا عربا مسلمين.

قد أعجبت هذا الألمانى عصبيته القومية، و خيلاؤه الأوروبيّة، التى عتلت قومه و جيرانهم إلى جحيم الحرب الأخيرة عتلا «۱» فأخسرت أوروبا عشرين مليونا من الرجال، و ألوف الملايين من الأموال، و باء فيها قومه بالخزى و النكال، و سيطرة الاستذلال، و إنما كان كره أن يكونوا قد اهتدوا بالإسلام، بما صرفت بصره و عصبيّته الألمانية، عن رؤية المصلحة الإنسانية الجامعة، و لو نظر فيها فأبصرها لعلم أنّ الأفضل و الأمثل و الأكمل للبشر توحيد شعوبهم بحيث يتفاضلون بعلوم أفرادهم و أعمالهم، لا بأنسابهم و أوطانهم و لغاتهم المفرقة بينهم، و هو قد علم من قبل أن هذه الجامعة الإنسانية لا سبيل إليها إلا بهداية الإسلام فلا تنال إلا به، و لو اهتدت به أوروبا اليوم لزالت أضغانها، و وجهت علومها و فنونها إلى إسعاد البشر و عمارة الأرض كلها، فإنّ إصرار الإفرنج على الكبرياء بجلدتهم البيضاء و احتقارهم للسود و الحمر و السمر و الصفر و هضمهم لحقوقهم، و استباحتهم لظلمهم. لمن أكبر العار على حضارتهم، و إن استثناءهم للأصفر اليابانى أخيرا من هذا الاحتقار، لما يلطخهم بعار فوق عار، و إن حضارة الإسلام الإنسانية الجامعة لتعلو عليها ألوف من الأميال لا الأمتار.

فهل يعقل أن يكون تقرير هذه الأصول التى توحّد الأمم و الشعوب و تؤلف بينها بما يجمع كلمتهم عليها بالوازع النفسى لا بالقهر العسكرى من رأى أو إلهام نبع من نفس محمد الأمى فى سن الكهولة ففاق بها جميع الأنبياء و الحكماء؟ أم الأقرب إلى العقل أن تكون بوحى من اللّه تعالى أفاضه عليه صلّى اللّه عليه و سلّم؟ «۲».

(۱) عتله إلی الشیء أو المکان جره بقهر و دفعه إلیه بعنف.

(۲) قولنا إن هذا أقرب إلی العقل مفهومه أن مقابله و هو أنه من رأی محمد صلّی اللّه علیه و سلّم ممکن أیضا و إن فاق به جمیع الأنبیاء و الحکماء و هو من باب التساهل و إرخاء العنان و لا یمکن أن یقال مثله فی کل مقصد من هذه المقاصد العشرة، فما بالک بها کلها، و هل یعقل أن تکون آراء حدثت لأمی فی سن الکهولة فقررها و نفذها؟ کلا.

الوحی المحمدی، ص: ۱۹۴

المقصد الخامس من مقاصد القرآن «و تقریر مزایا الإسلام العامة فی التکالیف الشخصیة من الواجبات و المحظورات» و نلخص أهمها بالإجمال فی عشر جمل أو قواعد

الأولی

کونه وسطا جامعا لحقوق الروح و الجسد، و مصالح الدنیا و الآخرة، و هو نص قوله تعالی: وَ کَذلِکَ جَعَلْناکُمْ أُمَّةً وَسَطاً [البقرة: ۱۴۳] و قد تقدم ذکره و بیان معنی الشهادة علی الناس فیها، و بینا فی تفسیرها فی أول الجزء الثانی من تفسیر المنار أنّ المسلمین وسط بین الذین تغلب علیهم الحظوظ الجسدیة و المنافع المادیة کالیهود، و الذین تغلب علیهم التعالیم الروحیّة و تعذیب الجسد و إذلال النفس و الزهد ... کالهندوس و النصاری، و إن خالف هذه التعالیم أکثرهم.

الثانیة

کون غایته الوصول إلی سعادة الدنیا و الآخرة بتزکیة النفس بالإیمان الصحیح و معرفة اللّه و العمل الصالح و مکارم الأخلاق، و محاسن الأعمال، لا بمجرد الاعتقاد و الاتکال، و لا بالشفاعات و خوارق العادات، و تقدم بیانه أیضا.

الثالثة

کون الغرض منه التعارف و التألیف بین البشر لا زیادة التفریق و الاختلاف کما یزعم أعداء الأدیان، و تقدم شواهده فی کونه عاما مکملا و متمما لدین اللّه علی ألسنة رسله فی الکلام علی آیة القرآن و عموم بعثة محمد صلّی اللّه علیه و سلّم، و فی الکلام علی الرسل من المقصد الثانی و إنما تفصیل أصوله فی تلک الوحدات الثمانی التی بیناها آنفا فی المقصد الرابع.

الرابع

کونه یسرا لا- حرج فیه و لا- عسر و لا- إرهاق و لا إعنات، قال اللّه عزّ و جلّ: لا یُکَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها [البقرة: ۲۸۶] و قال بلغت حکمته: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَکُمْ [سورة البقرة: الآیة ۲۲۰]، و قال عظمت رأفته: یُرِیدُ اللَّهُ بِکُمُ الْیُسْرَ وَ لا یُرِیدُ بِکُمُ الْعُسْرَ [البقرة: ۱۸۵]، و قال جلت منته: وَ جاهِدُوا فِی اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباکُمْ وَ ما جَعَلَ عَلَیْکُمْ فِی الدِّینِ

الوحی المحمدی، ص: ۱۹۵

مِنْ حَرَجٍ [الحج: ۷۸]، و قال عمت رحمته: ما یُرِیدُ اللَّهُ لِیَجْعَلَ عَلَیْکُمْ مِنْ حَرَجٍ [المائدة: ۶].

و من فروع هذا الأصل أن الواجب الذی یشق علی المکلف أداؤه و یحرجه و یسقط عنه إلی بدل أو مطلقا کالمریض الذی یرجی برؤه، و الذی لا- یرجی برؤه و مثله الشیخ الهرم- الأول یسقط عنه الصیام و یقضیه کالمسافر، و الثانی لا یقضی بل یکفّر عن فطره

بإطعام مسکین فدیة عن کل یوم إذا قدر- و أما المحرم فیباح للضرورة بنص القرآن و إن کان تحریمه أو النهی عنه لسد ذریعة الفساد فیباح للحاجة کما بیناه فی تفسیر آیات الربا و آیات الصیام، و آیة محرمات الطعام «۱».

الخامسة

منع الغلو فی الدین و إبطال جعله تعذیبا للنفس بإباحة الطیبات و الزینة بدون إسراف و لا کبریاء و قد فصلنا ذلک فی تفسیر الآیات الواردة فی الأمر بالأکل من الطیبات فی سورة البقرة، و سورة المائدة، و تفسیر قوله تعالی: یا بَنِی آدَمَ خُذُوا زِینَتَکُمْ عِنْدَ کُلِّ مَسْجِدٍ وَ کُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا یُحِبُّ الْمُسْرِفِینَ (۳۱) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِینَةَ اللَّهِ الَّتِی أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّیِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِیَ لِلَّذِینَ آمَنُوا فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا خالِصَةً یَوْمَ الْقِیامَةِ کَذلِکَ نُفَصِّلُ الْآیاتِ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ [الأعراف: ۳۱، ۳۲].

و قال اللّه تعالی: یا أَهْلَ الْکِتابِ لا تَغْلُوا فِی دِینِکُمْ [النساء: ۱۷۱]، و فی هذا النهی اعتبار للمسلمین لأنهم أولی بالانتهاء عن الغلو بأن دینهم دین الرحمة و الیسر، و الأحادیث الصحیحة فی نهی المسلمین عن الغلو فی العبادة و عن ترک الطیبات، و عن الرهبانیة و الخصاء، مبینة لهذه الآیات و هی مصداق تسمیة النبی صلّی اللّه علیه و سلّم لملته بالحنیفیة السمحة.

السادسة

قلّة تکالیفه و سهولة فهمها، و قد کان الأعرابیّ یجیء النبی صلّی اللّه علیه و سلّم من البادیة فیسلم فیعلّمه ما أوجب اللّه و ما حرّم علیه فی مجلس واحد فیعاهده علی العمل به فیقول صلّی اللّه علیه و سلّم: «أفلح الأعرابیّ إن صدق»، و کان هذا أعظم أسباب قبول الناس له، و لکنّ الفقهاء أکثروا بآرائهم الاجتهادیة حتی صار العلم بها متعسرا، و العمل بها کلّها متعذرا، و لا یعترض علی هذه

---

(۱) قد بینا یسر الإسلام و سهولته فی مواضع من المنار و تفسیره. أوسعها فی تفسیر «۵: ۱۰۴» و قد جمع فی رسالة مستقلة.

المزیة بالصلوات الخمس فی کلّ یوم و لیلة؛ فإن أقلّ ما تجزئ به کلّ صلاة منها یمکن أن یؤدّی فی خمس دقائق، و منها صلاة وقتها عقب القیام من النوم فی الصباح، و صلاة قبل النوم فی اللیل، فهل یشق علی المرء أن یؤدی فی سائر یومه ثلاث صلوات متفرقة فی ربع ساعة منه؟

فإن قیل: إنه یشترط فیه الطّهارة. قلنا: إنّ طهارة البدن و الثیاب مطلوبة شرعا و طبا فی کلّ وقت، فهی تکون قبل الصّلاة فلا تضیّع علی المسلم وقتا و لا عملا فی أثناء النهار إلا نادرا، و کذلک الغسل الواجب قلّما یجب إلا فی اللیل أو الصباح، و أما الوضوء فلا یشق منه فی أثناء العمل إلا غسل الرجلین علی الذین یلبسون الجوارب و الأحذیة العصریة، و من لبسها علی طهارة یجوز له المسح علیها بدلا من الغسل، و أما فوائد هذه الصلاة و هذه الطهارة فی النفس و البدن، فهی لا تقدّر بثمن، فالصلاة تطهیر للنفس و تزکیة لها بمناجاة المؤمن لربّه فتصدّه عن الفحشاء و المنکر «۱».

السابعة

انقسام التکلیف إلی عزائم و رخص، و کان ابن عباس یرجّح جانب الرخص، و ابن عمر یرجّح العزائم، و الناس درجات فی التقصیر و التشمیر و الاعتدال، فهو یوافق البدوی الساذج و الفیلسوف الحکیم و ما بینهما من الطبقات. قال اللّه تعالی: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْکِتابَ الَّذِینَ اصْطَفَیْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَیْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِکَ هُوَ الْفَضْلُ الْکَبِیرُ [فاطر: ۳۲].

الثامنة

نصوص الكتاب و السنة و هدى السنة مراعى فيهما درجات تفاوت البشرية فى العقل و الفهم و علو الهمة و ضعفها، فالقطعى منها هو العام، و غير القطعى تتفاوت فيه الأفهام، فيأخذ كل أحد منه بما أداه إليه اجتهاده، و لذلك كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يقر كل أحد من أصحابه فيه على اجتهاد كما فعل عند ما نزلت آية البقرة فى الخمر و الميسر و الدالة على تحريمهما دلالة ظنية فتركهما بعضهم دون بعض، و أقر كلا على اجتهاده إلى أن نزلت آيتا المائدة بالتحريم القطعى. قال اللّه تعالى: وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَ ما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ

---

(۱) أى كما يطهر الوضوء و الغسل و البدن و بهما تكمل تربية الإنسان. و سنبين ذلك بالتفصيل فى الجزء الثانى.

الوحى المحمدى، ص: ۱۹۷

[العنكبوت: ۴۳] و بيان ذلك أن الفرائض الدينية العامة فيه، و المحرمات الدينية العامة لا يثبتان إلا بنص قطعى يفهمه كل أحد، و الأول مذهب الحنفية. و أما الثانى و هو التحريم فهو مذهب جمهور السلف أيضا، و أما الآيات الظنية الدلالة و أحاديث الآحاد الظنية الرواية أو الدلالة، هى موكولة إلى اجتهاد من ثبت عنده فى العبادات و الأعمال الشخصية، و إلى اجتهاد أولى الأمر فى الأحكام القضائية و الأمور السياسية، و قد بيّنا هذا فى مواضع من التفسير و المنار.

التاسعة

معاملة الناس بظواهرهم، و جعل البواطن موكولة إلى اللّه تعالى، فليس لأحد من الحكام و لا الرؤساء الرسميين و لا لخليفة المسلمين أن يعاقب أحدا، و لا- أن يحاسبه على ما يعتقد أو يضمر فى قلبه، و إنما العقوبات على المخالفات العملية للأحكام العامة المتعلقة بحقوق الناس و مصالحهم، و قد فصلنا هذا فى أحكام المنافقين من خلاصة تفسير سورة براءة (التوبة).

العاشرة

مدار العبادات كلّها على اتباع ما جاء به النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى الظاهر، فليس لأحد فيها رأى شخصى و لا رئاسة، و مدارها فى الباطن على الإخلاص للّه تعالى و صحة النية، و الآيات و الأحاديث فى الأمرين كثيرة.

*** كل واحدة من هذه العشر: جديرة بأن تجعل مقصدا خاصا من مقاصد الوحى، و يستدل بها على أنه من عند اللّه عزّ و جلّ: لا من الآراء و الإلهامات النفسية لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم الأمى فى عهد الكهولة، و قد جاءت مصلحة لما أفسده رؤساء الأديان كلها من السيطرة على عقائد الناس و أعمالهم، و التّحكّم فى وجدانهم، و هو لم يكن يعلم من تفصيل هذه المفاسد شيئا، و إنما غرضنا الاختصار، لأن أهل هذا العصر مترفون كثيرو الشواغل فيملون التطويل.

الوحى المحمدى، ص: ۱۹۸

المقصد السادس من مقاصد القرآن بيان حكم الإسلام السياسى الدولى: نوعه، و أساسه، و أصوله العامة

اشارة

الإسلام دين هداية و سيادة و سياسة و حكم، لأنّ ما جاء به من إصلاح البشر فى جميع شئونهم الدينية، و مصالحهم الاجتماعية و القضائية، يتوقف على السيادة و القول و الحكم بالعدل و إقامة الحق، و الاستعداد لحماية الدين و الدولة، و فيه أصول و قواعد.

القاعدة الأساسية الأولى للحكم الإسلامى

الحكم فى الإسلام للأمة، و شكله الشورى، و رئيسه الإمام أو (الخليفة) منفّذ لشرعه، و الأمة هى التى تملك نصبه و عزله، قال اللّه تعالى فى صفات المؤمنين: وَ أَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ [الشورى: ۳۸]، و قال لرسوله صلّى اللّه عليه و سلّم: وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ [آل عمران: ۱۵۹]، و كان صلّى اللّه عليه و سلّم يشاور أصحابه فى المصالح العامة من سياسية و حربية و مالية مما لا نص فيه فى كتاب اللّه تعالى، و قد بينت فى تفسيرها حكمة ترك الشورى لاجتهاد الأمة لأنها مصلحة تختلف باختلاف الأحوال و الأزمنة، و لو قيدت بنظام لجعل تعبديا «۱».

و قال اللّه تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا [النساء: ۵۹] فأولو الأمر أهل الحلّ و العقد و الرأى الحصيف فى مصالحها الذين تثق بهم الأمة و تتبعهم فيما يقررونه بدليل قوله تعالى بعد تلك الآية من السورة نفسها: وَ إِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذاعُوا بِهِ وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَ إِلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ [النساء: ۸۳] فأولو الأمر الذين كانوا مع الرسول و كان الأمر يرد إليه و إليهم فى الشئون العامة للأمن من الأمن و الخوف و غيرهما: هم الذين كان صلّى اللّه عليه و سلّم يستشيرهم فى الأمور الدقيقة و السرية المهمة. و كان يستشير جمهور المسلمين فيما لهم به علاقة عامة و يعمل برأى الأكثر و إن خالف رأيه، كاستشارتهم فى غزوة أحد فى أحد الأمرين: الحصار فى المدينة أو الخروج إلى أحد للقاء المشركين فيه. و كان رأيه و رأى بعض كبار الأمة الأول، و رأى الجمهور الثانى، فنفذ رأى الأكثر، و لكنه استشار فى مسألة أسرى بدر خواص أولى

---

(۱) راجع ص ۹۹ ج ۴ تفسير المنار.

الأمر، و عمل برأى أبى بكر كما فصّلناه فى تفسير سورة الأنفال، و لم تكن آية الأمر له بالمشاورة قد نزلت فهى إنما نزلت فى غزوة أحد (و كانت غزوة بدر فى السنة الثانية للهجرة و غزوة أحد فى الرابعة).

و قد بينت فى تفسير الآية الأولى [و هى الآية: ۵۸ من سورة المائدة] ما تدل عليه من قواعد الحكم الإسلامى و كونه أفضل من الحكم النيابى الذى عليه دول هذا العصر «۱».

و من الدلائل الكثيرة على أن التشريع القضائى و السياسى هو حق الأمة المعبر عنها فى الحديث بالجماعة: أن القرآن يخاطب بها جماعة المؤمنين فى هاتين الآيتين الخاصتين بالحكم العام و الدولة و فى سائر الأحكام العامة كقوله تعالى: بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [التوبة: ۱] و ما يليها من الآيات المتعلقة بالمعاهدات و الحرب و الصلح، و ما فى معناها من سور الأنفال، و البقرة، و آل عمران، و مثل قوله تعالى: وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ [الحجرات: ۹].

و كذلك خطابه لهم فى أحكام الأموال كالغنائم و تخميسها و قسمتها، و أحكام النساء و غيرها (و قد بينا هذا كله فى مواضعه من التفسير).

و قد صرّح كبار النظار من علماء الأصول بأنّ السلطة فى الإسلام للأمة يتولاها أهل الحلّ و العقد الذين ينصبون عليها الخلفاء و الأئمة و يعزلونهم إذا اقتضت المصلحة عزلهم.

قال الإمام الرازى فى تعريف الخلافة: هى رئاسة عامة فى الدين و الدنيا لشخص واحد من الأشخاص. و قال فى القيد الأخير (الذى زاده على من قبله): هو احتراز عن كل الأمة إذا عزلوا الإمام لفسقه.

و قال العلامة السعد التفتازانی فی شرح المقاصد عند ذکر هذا التعریف و ما علل به القید الأخیر: و کأنه أراد بکل الأمة أهل الحل و العقد و اعتبر ریاستهم علی من عداهم أو علی کل من آحاد الأمة. أ. ه.

و قد فصلنا مسألة سلطة الأمة فی کتابنا «الخلافة أو الإمامة العظمی».

فهذه القاعدة الأساسیة لدولة الإسلام أعظم إصلاح سیاسی للبشر قررها القرآن فی

---

(۱) راجع ص ۱۸۰- ۲۲۲ ج ۵ تفسیر المنار و کتاب الخلافة.

الوحی المحمدی، ص: ۲۰۰

عصر کانت فیه جمیع الأمم مرهقة بحکومات استبدادیة استعبدتها فی أمور دینها و دنیاها، و کان أول منفذ لها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، فلم یکن یقطع أمرا من أمور السیاسة و الإدارة العامة للأمة إلا باستشارة أهل الرأی و المکانة فی الأمة، لیکون قدوة لمن بعده.

ثم جری علی ذلک الخلفاء الراشدون. فقال الخلیفة الأول أبو بکر الصدیق رضی اللّه عنه فی أول خطبة خطبها علی منبر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم عقب مبایعته: «أما بعد فقد ولیت علیکم و لست بخیرکم، فإذا استقمت فأعینونی، و إذا زغت فقومونی».

و قال الخلیفة الثانی عمر بن الخطاب رضی اللّه عنه: «من رأی منکم فیّ عوجا فلیقوّمه» فقال أعرابی: لو رأینا فیک عوجا لقوّمناه بسیوفنا، فقال: «الحمد للّه الذی جعل فی المسلمین من یقوّم عوج عمر بسیفه»، و کان یجمع أهل العلم و الرأی من الصحابة و یستشیرهم فی کل مسألة لیس فیها نص من کتاب اللّه، و لا سنة أو قضاء من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم.

و قال الخلیفة الثالث عثمان بن عفان رضی اللّه عنه: «أمری لأمرکم تبع». و کذلک کان عمل الخلیفة الرابع علی المرتضی رضی اللّه عنه و کرّم وجهه، و لا أذکر له کلمة مختصرة مثل هذه الکلمات علی المنبر.

و إذا أوجب اللّه المشاورة علی رسوله فغیره أولی، و لا یصح أن یکون حکم الإسلام أدنی من حکم ملکة سبأ العربیة، فقد کانت مقیّدة بالشوری، و وجد ذلک فی أمم أخری و امتاز الإسلام بجعله دینا ثابتا بقول اللّه و سنة رسوله العلمیة و سیرة الخلفاء الراشدین و إجماع الأمة، و إن جهل ذلک من جهله من الفقهاء، فجعلوها فضیلة مندوبة لا واجبة لإرضاء الملوک و الأمراء.

ذلک بأنّ ملوک المسلمین زاغوا بعد ذلک عن الصراط المستقیم إلا قلیلا منهم، و شایعهم علماء الرسوم المنافقون، و خطباء الفتنة الجاهلون، حتی صار المسلمون یجهلون هذه القاعدة الأساسیة لحکومة دینهم، و کان من حسن حظ الإفرنج فی حربهم الصلیبیة أن کان سلطان المسلمین الذی نصره اللّه علیهم یقتفی فی حکمه أثر الخلفاء الراشدین و عمر بن عبد العزیز بقدر علمه- و هو صلاح الدین الأیوبی (ر. ح) الذی قال لأحد رجاله المتمیزین عنده و قد استجداه علی رجل غشّه: «ما عسی أن أصنع لک و للمسلمین؟ قاض یحکم بینهم، و الحق الشرعی مبسوط للخاصّة و العامة، و أوامره و نواهیه ممتثلة، و إنما أنا عبد الشرع و شحنته، فالحق یقضی لک أو علیک» و معنی عبارة السلطان أنه لیس منفذا لحکم الشرع- کالشحنة و هو صاحب الشرطة- و أنّ القضاة مستقلون بالحکم لأنهم یحکمون بالشرع العادل المساوی

الوحی المحمدی، ص: ۲۰۱

بین الناس. و قد اقتبس الصلیبیون منه طریقة حکمه، ثم درسوا تاریخ الإسلام فعرفوا منه ما جهله أکثر المسلمین المتأخرین حتی أسّسوا حکم دولهم علی قاعدة سلطة الأمة التی جاء به الإسلام، و صاروا یدعونها لأنفسهم، و یعیبون الحکومات الإسلامیة باستبدادها، ثم یجعل الإسلام نفسه سبب هذا الاستبداد و الحکم الشخصی، و صار المسلمون الجاهلون بدینهم و بتاریخهم یصدقونهم، و یری المشتغلون بالسیاسة و علم الحقوق منهم أنه لا- صلاح لحکوماتهم إلا بتقلیدهم، فکان هذا من أسباب ضیاع أعظم مزایا الإسلام السیاسیة التشریعیة و ذهاب أکثر ملکه، و صدق علیه أنهم یخربون بیوتهم بأیدیهم و أیدی أعدائهم، و هم یعدون مئات الملایین،

فتدبر قوله تعالى فى أعدائهم الأولين يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَ أَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يا أُولِى الْأَبْصارِ [الحشر: ۲].

الوحى المحمدى، ص: ۲۰۲

أصول التشريع فى الإسلام

المعروف عند جمهور أهل السنة أن أصول التشريع الأساسية أربعة:

(۱) القرآن المجيد، و المشهور عند علماء الأصول: أن آيات الأحكام العملية فيه، من دينية و قضائية و سياسية لا تبلغ عشر آياته، و عدّها بعضهم خمسمائة آية للعبادات و المعاملات، و الظاهر أنهم يعنون الصريح منها، و أكثرها فى الأمور الدينية، لأنّ أكثر أمور الدنيا موكول إلى عرف الناس و اجتهادهم.

(۲) ما سنّة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم للعمل و القضاء به من بيان و تنفيذ لكتاب اللّه تعالى، و قالوا أيضا: إن أحاديث الأحكام الأصول خمسمائة حديث تمدها أربعة آلاف فيما أذكر.

(۳) إجماع الأمة؛ و اتّفق أهل السنة على الاحتجاج بإجماع الصحابة فى الدينيات، و الشيعة على إجماع أهل البيت فى عرفهم، و فى إجماع المجتهدين من غيرهما تفصيل.

(۴) اجتهاد الأئمة و الأمراء و القضاة و القواد فى الأمور القضائية و السياسية و الإدارية و الحربية، فخصّه بعض الفقهاء بالقياس. و أنكر بعضهم القياس و أقره آخرون كما فصّلنا ذلك فى مواضع، أبسطها ما فى تفسير آية ۱۰۱ من سورة المائدة.

ورد فى هذا الترتيب أحاديث و آثار تدل على العمل به فى عهد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و الخلفاء الراشدين (منها) حديث معاذ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لما أرسله إلى اليمن قال له: «كيف تصنع إذا عرض لك قضاء؟». قال أقضى بما فى كتاب الله، قال: «فإن لم يكن فى كتاب الله؟».

قال: فبسنّة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «فإن لم يكن فى سنة رسول الله؟». قال: أجتهد رأيى لا آلو. قال معاذ: فضرب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، صدرى ثم قال: «الحمد للّه الذى وفق رسول رسول اللّه لما يرضى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم». رواه أبو داود و الترمذى من طريق الحارث بن عمرو، و فيه مقال و له شواهد، و أما العمل بهذا الترتيب فهو معروف عن الخلفاء الراشدين، قد بيناه فى محله و به أمر عمر رضى اللّه عنه قاضيه شريح فى كتابه المشهور فى القضاء و لكن الفقهاء يقدمون الإجماع حتى العرفى عند علماء الأصول- و هو مختلف فيه- على النص المختلف فى حكمه.

و الأصل فى شرعية اجتهاد الرأى للحكّام حديث: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثمّ أصاب فله أجران، و إذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر واحد». رواه الجماعة كلهم عن أبى هريرة إلا الترمذى فعن عمرو بن العاص.

الوحى المحمدى، ص: ۲۰۳

بل كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يعطى أمراء الجيوش و السرايا حقّ الحكم بما يرون فيه المصلحة بقوله للواحد منهم: «و إذا حاصرت أهل حصن فأرادوك على أن تنزلهم حكم اللّه فلا- تنزلهم على حكم الله، و لكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدرى أ تصيب فيهم حكم اللّه أم لا». رواه أحمد، و مسلم، و الترمذى، و ابن ماجة من حديث بريدة. و قال مثل ذلك فى إنزالهم على ذمة الأمير دون ذمة اللّه و رسوله لئلا يخفرها، و هذا من أوسع النصوص الصحيحة فى تفويض الأحكام السياسية و العسكرية إلى الخلفاء و الأمراء و قواد الجيوش، لأنها من المصالح العامة التى تختلف باختلاف الزمان و المكان و الأحوال، و هو مذهب الإمام مالك (ر ح).

قواعد الاجتهاد من النصوص

أحكام الكتاب و السّنّة: منها أحكام خاصة بالأعمال و الوقائع، و منها قواعد عامة للتشريع، و الأحكام الخاصّة، منها: ما هو قطعى

الروایة و الدلالة لا مجال للاجتهاد فیه و لا معدل عن الحکم به إلا لمانع شرعی، من فوات شرط، کدرء حدّ بشبهة أو عذر ضرورة.
و قد أمر عمر رضی اللّه عنه فی المجاعة ألا یحدّ سارق. و منها ما هو غیر قطعی یعمل فیه باجتهاد من یناط به الحکم و التنفیذ من أمیر أو قاض أو قائد جیش، کما تقدم قریبا فی العبادات و المحرمات.
و أما القواعد العامة فهی ما تجب مراعاته فی الأحکام المختلفة، و أهمّها فی الإسلام تحری الحقّ و العدل المطلق العام، و المساواة فی الحقوق و الشهادات و الأحکام، و حفظ المصالح و درء المفاسد، و مراعاة العرف بشرطه، و درء الحدود بالشبهات، و کون الضرورات تبیح المحظورات، و تقدیر الضرورة بقدرها، و دوران المعاملات علی اکتساب الفضائل، و اجتناب الرذائل، و حسبک بالشواهد من القرآن علی قاعدة إیجابی العدل المطلق و الشهادة و تحریم الظلم.

العدل و المساواة فی الإسلام نصوص القرآن فی إیجاب العدل المطلق و المساواة فیه و حظر الظلم

لما کان العدل أساس الأحکام و میزان التشریع و قسطاسه المستقیم، أکد اللّه تعالی الأمر به و المساواة فیه بین الناس فی السورة المکیة و المدنیة. قال اللّه تعالی: إِنَّ اللَّهَ یَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ [النحل: ۹۰]، و قال اللّه تعالی: إِنَّ اللَّهَ یَأْمُرُکُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلی أَهْلِها وَ إِذا

حَکَمْتُمْ بَیْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْکُمُوا بِالْعَدْلِ [النساء: ۵۸]، و قال اللّه تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا کُونُوا قَوَّامِینَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلَّهِ وَ لَوْ عَلی أَنْفُسِکُمْ أَوِ الْوالِدَیْنِ وَ الْأَقْرَبِینَ إِنْ یَکُنْ غَنِیًّا أَوْ فَقِیراً فَاللَّهُ أَوْلی بِهِما فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوی أَنْ تَعْدِلُوا «۱» وَ إِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ کانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِیراً [النساء: ۱۳۵].
أمر اللّه تعالی المؤمنین بالمبالغة فی القیام بالقسط و هو العدل فإن القوام (بتشدید الواو) صیغة مبالغة للفاعل بالقیام بالأمر و عدم التهاون و التقصیر فیه، و بأن تکون شهادتهم فی المحاکمات و غیرها للّه عزّ و جلّ لا لهوی و لا مصلحة أحد، و لو کانت علی أنفسهم أو والدیهم و الأقربین منهم، و أن لا یحابوا فیها غنیا لغناه تقربا إلیه أو تکریما له، و لا فقیرا لفقره رحمة به و شفقة علیه، و نهاهم عن اتباع الهوی فی الحکم أو الشهادة لأجل کراهة العدل فیهما لمراعاة من ذکر من الناس، و أنذرهم عقابه إن لووا- أی مالوا عن الحق أو أعرضوا عنه-.
و قال اللّه تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا کُونُوا قَوَّامِینَ لِلَّهِ شُهَداءَ بِالْقِسْطِ وَ لا یَجْرِمَنَّکُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلی أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوی وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِیرٌ بِما تَعْمَلُونَ [المائدة: ۸]، فهذه الآیة متممة لما قبلها، فهناک یأمر بالمساواة فی العدل و الشهادة بین النفس و غیرها، و بین القریب و البعید، و بین الغنی و الفقیر، و هاهنا یأمر بالمساواة فیهما بین الإنسان و أعدائه مهما یکن سبب عداوتهم، لا فرق فیها بین دینی و دنیوی، فالشنآن البغض و العداوة و قیل مع الاحتقار، فمعنی قوله تعالی: وَ لا یَجْرِمَنَّکُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلی أَلَّا تَعْدِلُوا لا یحملنّکم بغضهم و عداوتهم لکم أو بغضکم و عداوتکم لهم علی ترک العدل فیهم، فالعدل بالمساواة أقرب إلی تقوی اللّه. و أنذر تارک العدل لأجل الشنآن بمثل ما أنذر به تارة للمحاباة، أنذر کلا منهما بأن اللّه خبیر بما یعمله لا یخفی علیه منه شیء، فهو یحاسبه علی عمله و علی نیته و قصده منه، فیثیبه أو یعاقبه علی ما یعلم من أمره.
فالعدل هو المیزان فی قوله تعالی: اللَّهُ الَّذِی أَنْزَلَ الْکِتابَ بِالْحَقِّ وَ الْمِیزانَ [الشوری: ۱۷]، و قوله تعالی: لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَیِّناتِ وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْکِتابَ وَ الْمِیزانَ لِیَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِیدَ فِیهِ بَأْسٌ شَدِیدٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ [الحدید: ۲۵] الآیة. فخیر الناس

---

(۱) أن تعدلوا بفتح أن لتقدیر لام التعلیل و هو قیاس و التقدیر فلا تتبعوا الهوی کراهة أن تعدلوا- أو لئلا تعدلوا، اختلف النحاة فی تقدیر الإعراب و اتفقوا علی أن المراد لا یکون الهوی سببا لترک العدل و یؤکده الآیة الثانیة.

الوحی المحمدی، ص: ۲۰۵

من یصدهم عن الظلم و العدوان هدایة الکتاب و هو القرآن، یلیهم من یصدهم العدل الذی یقیمه السلطان، و شرهم من لا علاج له إلا حدید السیف و السنان، و المراد به العقاب.

فقوام صلاح العالم بالإیمان بالکتاب الذی یحرم الظلم و سائر المفاسد، فیجتنبها المؤمن خوفا من عذاب اللّه فی الدنیا و الآخرة و رجاء فی ثوابه فیهما، و بالعدل فی الأحکام الذی یردع الناس عن الظلم بعقاب السلطان، و بالحدید، و المراد به القوة التی تصد الثورات و الفتن و تحفظ الأمن.

الوحی المحمدی، ص: ۲۰۶

حظر الظلم فی الإسلام الشواهد علی حظر الظلم و مفاسده و عقابه:

و یؤید قاعدة إقامة العدل ما ورد فی تحریم الظلم و الوعید الشدید علیه؛ فقد ذکر الظلم فی مئات من آیات القرآن أسوأ الذکر، و قرن فی بعضها بأسوإ العواقب فی الدنیا و الآخرة، و بأن الجزاء علیه فیهما أثر لازم له لزوم المعلوم للعلة، و المسبّب للسبب، و أن الناس هم الذین یظلمون أنفسهم وَ لا یَظْلِمُ رَبُّکَ أَحَداً [الکهف: ۴۹]، و من أثره و عاقبته فی الدنیا أنه مهلک الأمم، و مخرب العمران، قال اللّه تعالی: وَ ما کانَ رَبُّکَ لِیُهْلِکَ الْقُری بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها مُصْلِحُونَ [هود: ۱۱۷]، أی ما کان من شأنه و لا من سننه فی نظام الاجتماع أن یهلک الأمم بظلم منه لهم، أو بشرک به یقع منهم «۱» و هم مصلحون فی سیرتهم و أعمالهم، و إنما یهلکهم بظلمهم و إفسادهم، کما قال اللّه تعالی: وَ تِلْکَ الْقُری أَهْلَکْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَعَلْنا لِمَهْلِکِهِمْ مَوْعِداً [الکهف: ۵۹]، و قال اللّه تعالی فی الأحکام: وَ مَنْ لَمْ یَحْکُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِکَ هُمُ الظَّالِمُونَ [المائدة: ۴۵]، ورد هذا فی حکم القصاص.

و حسبنا هذه الشواهد القلیلة من الآیات الکثیرة المکررة فی نوعی الظلم، ظلم الأفراد و ظلم الأمم، و من الأول ظلم الإنسان لنفسه و ظلمه لغیره، و منه الظلم فی الحکم و الظلم فی القول و العمل من إیذاء بدنی أو مالی أو غیرهما، وفاقا لحکمة التکرار التی بیناها من قبل «۲».

---

(۱) إشارة إلی قولین للمفسرین.

(۲) من أراد التفصیل فیه فلیراجع خاتمة سورة هود علیه السلام.

الوحی المحمدی، ص: ۲۰۷

قواعد مراعاة الفضائل فی الأحکام و المعاملات

من استقرأ الأحکام الشرعیة فی الکتاب و السّنّة بأنواعها من شخصیة و مدنیة و سیاسیة و حربیة یری أن الغرض منها کلها قاعدة مراعاة الفضائل فیها من الحق و العدل و الصدق و الأمان و الوفاء بالعهود، و العقود و الرحمة و المحبة و المواساة و البر و الإحسان، و اجتناب الرذائل من الظلم و الغدر و نقض العهود و الکذب و الخیانة و القسوة و الغش و الخداع، و أکل أموال الناس بالباطل کالربا و الرشوة و السحت، و شره و أضره التجارة بالدین و الریاء فیه و هو أساس النفاق الدینی الذی هو شر الکفر و أحقره.

و أما العقوبات فی الإسلام فهی قسمان؛ (أحدهما): الحدود؛ و هی أقلّها و هی ما فرض من عقاب معین علی جرم مبین بالنص کالقتل لحفظ الأنفس، و الزنا لحفظ العرض و النسل، و السرقة لحفظ المال، و الفساد فی الأرض بقطع الطرق لحفظ الأمن، و السکر لحفظ العقل، و بعض العلماء لا یجعل عقابه حدا لعدم النص فی القرآن و لا فی السنة فی تحدیده، و الحکمة فی هذه الحدود المعینة إرهاب الأشقیاء و الفساق، و اشترط فی إثبات الزنا شروطا قلّما تتحقق إلا بإقرار الفاعل، و ورد فی السنة أمر الزانی بالستر علی نفسه و ترغیبه

عن الإقرار، مع الأمر بدرء الحدود بالشبهات، فقد روی فی الأحادیث المشتهرة مرفوعا من طرق فیها مقال بلفظ: «ادرءوا الحدود بالشبهات» و بلفظ: «ادرءوا الحدود عن عباد الله» و بلفظ: «عن المسلمین ما استطعتم، فإن وجدتم للمسلم مخرجا فخلّوا سبیله فإن الإمام لأن یخطئ فی العفو خیر من أن یخطئ فی العقوبة». و روی الأخیر عن عمر رضی اللّه عنه و هو مشهور و علیه عامة الفقهاء.

و قالوا: إن إقامة الحدود من حق الإمام الأعظم (الخلیفة) دون غیره من الحکام.

(و ثانیهما): التعزیر، و هو مفوض إلی اجتهاد الحکام مع وجوب العدل و حفظ المصالح العامة و الخاصة و هو الأعم الأشمل.

و العبرة فی کل هذه القواعد التی فضل بها الإسلام جمیع شرائع الأنبیاء و قوانین الحکماء و العلماء، أنها قد جاءت علی لسان نبی أمی نشأ بین أمیین لیس عندهم شرع منزّل، و لا قانون مدوّن، فهل یعقل أن یکون إلهاما فجأة فی سن الکهولة منبجسا من نفسه، و لم یؤثر عنه قبله شیء من مثله؟

الوحی المحمدی، ص: ۲۰۸

کیف یکون هذا هو مخالف لاستعداد البشر من قبله و من بعده؟ أم المعقول أنه وحی من ربه؟

ألا- إنه لهو وحی ربه کما قال اللّه تعالی: وَ النَّجْمِ إِذا هَوی (۱) ما ضَلَّ صاحِبُکُمْ وَ ما غَوی (۲) وَ ما یَنْطِقُ عَنِ الْهَوی (۳) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْیٌ یُوحی [النجم: ۱- ۴].

الوحی المحمدی، ص: ۲۰۹

المقصد السابع من مقاصد القرآن: الإرشاد إلی الإصلاح المالی

تمهید:

بیّنا مقاصد القرآن أو أصول فقهه فی إصلاح البشر من طریق التدین و الإیمان و العمل و الإذعان، و من طریق العقل و البرهان و الفکر و الوجدان، و من طریق الحکم العادل و السلطان، و من طریق إکمال نوع الإنسان، و ما یتعلّق منه بالأفراد، و ما یتعلّق منه بوحدة الجماعات و الأجناس، و بقی ما یتعلق بفقهه فی إصلاح المفاسد الاجتماعیة الکبری الذی یتوقف کماله علی ما تقدّم کله و هی:

(۱) طغیان الثروة و دولتها.

(۲) عدوان الحرب و قسوتها.

(۳) ظلم المرأة و استباحتها.

(۴) ظلم الضعفة و الأسری و سلب حریتهما، و هو الرقّ المطلق.

ذلک بأن جمیع حظوظ الدنیا منوطة بها، و لا یتم الإصلاح فیها إلا بتعاون الدین و العقل، و العلم و الحکمة و الحکم، و إننا نتکلم علیها بالإجمال، مبتدئین بإرشاده فی مسألة المال، و الآیات فیها تدور علی سبعة أقطاب، و هاک البیان:

القطب الأول: القاعدة العامة فی المال؛ کونه فتنة و اختبارا فی الخیر و الشر

القاعدة الأساسیّة للقرآن فی المال أنه فتنة، أی اختبار و امتحان للبشر فی حیاتهم الدنیویة من معایش و مصالح، إذ هو الوسیلة إلی الإصلاح و الإفساد، و الخیر و الشر، و البر و الفجور، و هو مثار التنافس فی کسبه و إنفاقه، و کنزه و احتکاره، و جعله دولة بین الأغنیاء و تداوله فی المصالح و المنافع بین الناس.

و قد کان و ما زال مثیرا للعداوات بین الأفراد و الجماعات من الأقوام و الدول و حلال المشکلات و شفاء المعضلات فیها، حتی ذهب بعض علماء الاجتماع إلی جعله هو السبب

الوحی المحمدی، ص: ۲۱۰

لجمیع الانقلابات السیاسیة و الاجتماعیة، و کذا الدینیة حتی الإسلامیة، کما بینت هذا فی التفسیر و نقضته بما یعلم برهانه مما هنا، و ناهیک من المبالغة فی إکبار أمر المال قول الحریری فی قصیدة الدینار من المقامة الدیناریة:

* لو لا التقی لقلت جلت قدرته*

و قد قصّر علماء الفقه و الأدب و التربیة من أمتنا فی إعطاء المال حقّه من المباحث المناحی و المقاصد التی دونت فی هذا العصر فی عدة علوم و لکن هذه العلوم ما زادت البشر إلا فسادا، و لا یجدون علاجا لهذا الفساد إلا فی القرآن.

قال اللّه عزّ و جلّ: لَتُبْلَوُنَّ فِی أَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ [آل عمران: ۱۸۶]، و قال تعالی حکایة عن نبیه سلیمان علیه السلام حین رأی عرش ملکة سبأ مستقرا عنده: هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّی لِیَبْلُوَنِی أَ أَشْکُرُ أَمْ أَکْفُرُ [النمل: ۴۰]، و قال اللّه تعالی: وَ ما أَمْوالُکُمْ وَ لا أَوْلادُکُمْ بِالَّتِی تُقَرِّبُکُمْ عِنْدَنا زُلْفی إِلَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَأُولئِکَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا وَ هُمْ فِی الْغُرُفاتِ آمِنُونَ [سبأ: ۳۷]، و قال اللّه تعالی: وَ ما آتَیْتُمْ مِنْ رِباً لِیَرْبُوَا فِی أَمْوالِ النَّاسِ فَلا یَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَ ما آتَیْتُمْ مِنْ زَکاةٍ تُرِیدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِکَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ [الروم: ۳۹]، و قال اللّه تعالی: زُیِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَ الْبَنِینَ وَ الْقَناطِیرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ [آل عمران: ۱۴]، و قال اللّه تعالی: وَ اعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُکُمْ وَ أَوْلادُکُمْ فِتْنَةٌ وَ أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِیمٌ [الأنفال: ۲۸]، و مثلها فی سورة [التغابن، الآیة: ۱۵]، و یلیها الترغیب فی الإنفاق و قصر الفلاح علی الوقایة من شح النفس، و قال اللّه تعالی: الْمالُ وَ الْبَنُونَ زِینَةُ الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ الْباقِیاتُ الصَّالِحاتُ خَیْرٌ عِنْدَ رَبِّکَ ثَواباً وَ خَیْرٌ أَمَلًا [الکهف: ۴۶].

انظر هذا مع قوله تعالی فی أول هذه السورة و هی الکهف: إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَی الْأَرْضِ زِینَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَیُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا [الکهف: ۷]، و المراد من العمل ما یتعلق بما علی الأرض من العمران، و أحسنه أنفعه للناس و أرضاه للّه بشکره، ثم ما ضربه فیها من المثل بصاحبی الجنتین، و المثل للحیاة الدنیا بنبات الأرض «۱».

و قال اللّه تعالی فی تعلیل قسمة الفیء بین مستحقیه: کَیْ لا یَکُونَ دُولَةً بَیْنَ الْأَغْنِیاءِ مِنْکُمْ [الحشر: ۷]، و الدولة- بضم الدال- المال المتداول، أی: لئلا یکون المال محصورا فی الأغنیاء متداولا بینهم وحدهم (و هذا یسمونه الیوم بالرأسمالیة).

---

(۱) راجع الآیات: ۳۸- ۴۶، سورة الکهف.

الوحی المحمدی، ص: ۲۱۱

و الشواهد فی فتنة المال فی القرآن کثیرة تجد الکلام علیها فی مواضع من تفسیر المنار و لا سیما فی الجزء العاشر منه «۱».

فمن الآیات فی ارتباط السعادة و الفلاح بإنفاق المال، و الشقاء بمنعه ما هو للترهیب و ما هو للترغیب، و جمع بین الترغیب و الترهیب فی قوله تعالی: وَ أَنْفِقُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَ لا تُلْقُوا بِأَیْدِیکُمْ إِلَی التَّهْلُکَةِ [البقرة: ۱۹۵] «۲»، أی إن منع إنفاق المال فی سبیل اللّه من أسباب التهلکة. ثم قال فی الترغیب: وَ أَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ یُحِبُّ الْمُحْسِنِینَ، و کذا قوله تعالی من سورة اللیل: فَأَمَّا مَنْ أَعْطی وَ اتَّقی (۵) وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنی (۶) فَسَنُیَسِّرُهُ لِلْیُسْری (۷) وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنی (۸) وَ کَذَّبَ بِالْحُسْنی (۹) فَسَنُیَسِّرُهُ لِلْعُسْری (۱۰) وَ ما یُغْنِی عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّی [اللیل: ۵- ۱۱].

هذا کله تفصیل لقوله تعالی قبله: إِنَّ سَعْیَکُمْ لَشَتَّی [اللیل: ۴]، و معناه بالإجمال و الإیجاز: إنّ سعیکم فی الکسب و الإنفاق مختلف مبدأ و صفة و غایة و ثمرة، فَأَمَّا مَنْ أَعْطی، ما علیه من الحقوق الشخصیة و القومیة و المصالح الواجبة و المندوبة، وَ اتَّقی، سوء عاقبة منعها و ضرره فی الأفراد و فی الأمة، وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنی، و هی ما وعد اللّه من الجزاء علی الإحسان بما هو أحسن منه من مضاعفة الثواب بمثل قوله: [النجم: ۳۱] و هو شامل لجزاء الدنیا و الآخرة فَسَنُیَسِّرُهُ بمقتضی سننتا فی تأثیر صفات النفس من الأعمال، و تأثیر الأعمال فی الأحوال الخاصة و العامة لِلْیُسْری أی الخطة أو الطریقة الفضلی فی الیسر و السهولة و المنفعة له و للناس فیحبه الناس و

یحبه اللّه وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ بما علیه من هذه الحقوق وَ اسْتَغْنی بماله عن حبّ الناس و حمدهم، و عن حب اللّه و مثوبته وَ کَذَّبَ بِالْحُسْنی التی بیناها آنفا بعدم طلبها و تحریها بالإعطاء و الإنفاق، و إن اعترف بها باللسان فَسَنُیَسِّرُهُ بمقتضی سنتنا المبینة آنفا لِلْعُسْری من الخطتین، و سوأی الطریقتین فیکون سببا لعسر البشر و عدوا لهم و لربهم، و یکون له شر الجزاء منهم و منه عزّ و جلّ فی الدارین. و یؤید ذلک شواهد القطب الثانی من آیات المال و هی:

---

(۱) راجع فی الفهرس کلمة المال: فتنته.

(۲) ص ۲۰۹ ج ۲ تفسیر المنار.

الوحی المحمدی، ص: ۲۱۲

القطب الثانی: ذم طغیان المال و غروره و صده عن الحق و الخیر

قال اللّه تعالی فی سورة العلق: کَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَیَطْغی (۶) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنی [العلق: ۶، ۷]، أی حقّا إن الإنسان لیتجاوز حدود الحق و العدل و الفضیلة برؤیة نفسه غنیا بالمال، مستغنیا بعینه و کنزه أو قصره علی شهواته عما فی إنفاقه من نفع الناس و مرضاة اللّه تعالی و ثوابه فی الآخرة، و قد نزلت هذه و ما بعدها فی أبی جهل أشد أعداء النبی صلّی اللّه علیه و سلّم و الإسلام من أول ظهوره و هی ما أول ما نزل فی ذلک. و مثلها فی سورة المسد: تَبَّتْ یَدا أَبِی لَهَبٍ وَ تَبَّ (۱) ما أَغْنی عَنْهُ مالُهُ وَ ما کَسَبَ [المسد: ۱، ۲] إلخ «۱».

و مثلها فی [سورة الهمزة، الآیات: ۱- ۳] وَیْلٌ لِکُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (۱) الَّذِی جَمَعَ مالًا وَ عَدَّدَهُ (۲) یَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ، نزلت فی الولید و أمیة بن خلف، و کذا قوله تعالی:

ذَرْنِی وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِیداً (۱۱) وَ جَعَلْتُ لَهُ مالًا مَمْدُوداً (۱۲) وَ بَنِینَ شُهُوداً (۱۳) وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِیداً (۱۴) ثُمَّ یَطْمَعُ أَنْ أَزِیدَ (۱۵) کَلَّا إِنَّهُ کانَ لِآیاتِنا عَنِیداً (۱۶) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً [المدثر: ۱۱- ۱۷]، و قد نزلت فی الولید بن المغیرة، و کذا آیات سورة القلم من قوله: وَ لا تُطِعْ کُلَّ حَلَّافٍ مَهِینٍ إلی قوله: أَنْ کانَ ذا مالٍ وَ بَنِینَ (۱۴) إِذا تُتْلی عَلَیْهِ آیاتُنا قالَ أَساطِیرُ الْأَوَّلِینَ [الآیات: ۱۰- ۱۵]، و کان هؤلاء أغنی زعماء قریش الذین عادوا النبی صلّی اللّه علیه و سلّم و استکبروا عن أتباعه بغناهم من أول عهده بتبلیغ الدعوة، ثم قال اللّه تعالی فیهم إذ کان یجمع المال منهم أبو سفیان لقتال یوم بدر: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا یُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِیَصُدُّوا عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ فَسَیُنْفِقُونَها ثُمَّ تَکُونُ عَلَیْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ یُغْلَبُونَ [الأنفال: ۳۶] و کذلک کان، و فیهم و فی أمثالهم من مترفی أقوام الأنبیاء نزل قوله تعالی: وَ قالُوا نَحْنُ أَکْثَرُ أَمْوالًا وَ أَوْلاداً وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِینَ [سبأ: ۳۵].

---

(۱) تَبَ: خبر أو دعاء بالتباب و هو خسران یفضی إلی الهلاک، و معنی تبت یداه: خسر ما جمعه بهما من المال، و معنی وَ تَبَ و خسر نفسه بعد أن خسر ماله. ما أَغْنی عَنْهُ مالُهُ أی: ما منع التبات عنه ماله. وَ ما کَسَبَ من النتائج و الأرباح و الجاه و الولد الذی ظن أنه ینفقه و کان أمر ابنه بفراق بنت النبی صلّی اللّه علیه و سلّم بعد النبوة عداوة له. و ما کان أسوأ ما أصابه من التبات: افترس ابنه عتبة أسد فی طریق الشام و قد أحدقت به العیر تحمل التجارة. و مات هو بعده بالعدسة بعد غزوة بدر التی ساعد فیها المشرکین علیها بماله، و ترک میتا حتی أنتن، ثم استأجروا بعض السودان حتی دفنوه. أ. ه. ملخصا من البیضاوی.

و قال: هو إخبار عن الغیب طابق وقوعه.

الوحی المحمدی، ص: ۲۱۳

و من الآیات العامة فی غریزة البشر قوله تعالی: وَ أُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَ [النساء: ۱۲۸]، و قوله من سورة المعارج: إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً (۱۹) إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (۲۰) وَ إِذا مَسَّهُ الْخَیْرُ مَنُوعاً [المعارج: ۱۹- ۲۱]،

الخير المال الكثير، و أكثر الأغنياء منّاعون للمال إلا من استثنى اللّه بعد هذه الآيات بقوله: إِلَّا الْمُصَلِّينَ [المعارج: ۲۲] إلخ.

بمثل هذه الآيات ينفر الوعاظ النّاس و يزهّدونهم فى المال و الدنيا فيبالغون، و إنما المذموم الغرور و الطغيان و البطر و الاستكبار عن الحق افتتانا بالمال، و لذلك قرنه فى بعض الآيات بالأولاد، و كذا البخل به و الشح، و أكل أموال الناس بالباطل كالربا و الرشوة و السحت، و شواهده فى آيات القطب الثالث و هى:

القطب الثالث: ذم البخل بالمال و الكبرياء به و الرياء فى إنفاقه

قال اللّه تعالى: وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ [آل عمران: ۱۸۰]، و قال فى سياق الترغيب فى الإنفاق فى سبيل اللّه من طيبات الكسب و الإخلاص و النهى عن الرياء و المن و الأذى فيه: الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَ يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ [البقرة: ۲۶۸]. فسروا الفحشاء بالبخل، أى الشيطان يصدكم عن الإنفاق فى سبيل اللّه بتخويفكم من الفقر و يأمركم بالبخل الذى فحش شره و ضرره، و قال اللّه تعالى بعد الأمر بالإحسان بالوالدين و بذى القربى و اليتامى و المساكين و الجيران: إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُخْتالًا فَخُوراً (۳۶) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ [النساء: ۳۶، ۳۷]، و قال اللّه تعالى فيمن عاهد اللّه لئن آتاه من فضله مالا و خيرا ليصدقن منه: فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (۷۶) فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ [التوبة: ۷۶، ۷۷] و قال اللّه تعالى: ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَ مَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ [محمد:

۳۸] أى: و إن تتولوا عن الإنفاق فى سبيل اللّه يهلككم بزوال دولتكم و يستبدل بكم قوما آخرين ينفقون أموالهم فى المصلحة العامة من الدفاع عن الملة، و إقامة الحق و العدل فى الأمة. و قال اللّه تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً

الوحى المحمدى، ص: ۲۱۴

عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ «۱» [النساء: ۲۹]، و قال اللّه تعالى: وَ لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ وَ تُدْلُوا بِها إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ [البقرة: ۱۸۸]، و قال اللّه تعالى فى اليهود: وَ أَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَ قَدْ نُهُوا عَنْهُ وَ أَكْلِهِمْ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ [النساء: ۱۶۱]، و قال اللّه تعالى فيهم: أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ [المائدة: ۴۲] مبالغون فى أكل أموال الناس بالباطل و هو يشمل كل ما ليس له مقابل صحيح مشروع و يدخل فيه الغش و الحيل و الخداع الدنيوى و الدينى و الرشوة، و السحت- بالضم الحقير الذى يلزم صاحبه العار و يوصف بالخسة فهو يسحت مروءته أى يذهب بها و قد قلت فى وطن الحكام الظالمين من المقصورة الرشيدية:

و كيف لا- يسحته اللّه و هم‌للسحت أكالون فيه و الرّشا و قال اللّه تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبارِ وَ الرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (۳۴) يَوْمَ يُحْمى عَلَيْها فِي نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ [التوبة: ۳۴، ۳۵] الوعيد على كنز المال بمنع تداوله و الانتفاع العام به و بمنع الحقوق منه «۲».

القطب الرابع: مدح المال و الغنى بكونه من نعم اللّه و جزائه على الإيمان و العمل الصالح

قال اللّه تعالى فى سورة نوح عليه السلام حكاية عنه: فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً (۱۰) يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً (۱۱) وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً [نوح: ۱۰- ۱۲]، و فى معناه ما حكاه عن هود عليه السلام فى سورة [هود، الآية: ۵۲]، بل قال اللّه تعالى فى بيان نعمته على آدم و حواء و ذريتهما بهداية الدين فى آخر قصته من سورة طه: قالَ اهْبِطا مِنْها

جَمِیعاً بَعْضُکُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا یَأْتِیَنَّکُمْ مِنِّی هُدیً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدایَ فَلا یَضِلُّ وَ لا یَشْقی (۱۲۳) وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِکْرِی فَإِنَّ لَهُ مَعِیشَةً ضَنْکاً [۱۲۳، ۱۲۴] ..

الآیات. فجزاء اتباع هدایة الدین الحفظ من شقاء الدنیا و الفوز بنعمة المعیشة الراضیة فیها، و جزاء من أعرض عنها الشقاء و معیشة الضنک فیها، و فی معناه قوله تعالی من سورة

---

(۱) الباطل ما لیس له مقابل، و من التجارة مالا ربح فیه، و یحل بالتراضی.

(۲) راجع تفسیرها فی ص (۳۹۵- ۴۱۰) من الجزء العاشر- تفسیر المنار.

[الجن، الآیة: ۱۳]: وَ أَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدی آمَنَّا بِهِ فَمَنْ یُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا یَخافُ بَخْساً وَ لا رَهَقاً، أی لا یهضم حقه، و لا یظلم بذل یرهقه؛ لأن عزة الإیمان تمنعه و تحفظه، و هذا یشمل الدنیا و الآخرة، ثم قال فی أمر الدنیا: وَ أَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَی الطَّرِیقَةِ لَأَسْقَیْناهُمْ ماءً غَدَقاً (۱۶) لِنَفْتِنَهُمْ فِیهِ وَ مَنْ یُعْرِضْ عَنْ ذِکْرِ رَبِّهِ یَسْلُکْهُ عَذاباً صَعَداً «۱» [الجن: ۱۶، ۱۷].

و من الشواهد علی هذه الحقیقة التی غفل عنها المفسرون و غیرهم قوله تعالی: عطفا علی الأمر بمنع المشرکین من دخول المسجد الحرام: وَ إِنْ خِفْتُمْ عَیْلَةً فَسَوْفَ یُغْنِیکُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شاءَ [التوبة: ۲۸]، أی و إن خفتم فقرا یعرض لکم بحرمان مکة مما کان ینفقه فیها المشرکون فی موسم الحج و غیره فسوف یغنیکم اللّه تعالی بالإسلام و فتوحه و غنائمه «۲».

و کذا قوله تعالی للذین أعطوا الفداء من أسری بدر: إِنْ یَعْلَمِ اللَّهُ فِی قُلُوبِکُمْ خَیْراً یُؤْتِکُمْ خَیْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْکُمْ [الأنفال: ۷۰]، و کذلک کان، فقد أغنی اللّه العرب الفقراء بالإسلام فجعلهم أغنی الأمم و الأقوام «۳».

و قد امتن اللّه تعالی علی نبیه بالغنی بعد الفقر بقوله تعالی: إِنْ تَرَکَ خَیْراً الْوَصِیَّةُ لِلْوالِدَیْنِ وَ [الضحی: ۸]، و امتن علی قومه بتوفیقهم للتجارة الواسعة برحلة الشتاء و الصیف فی سورة خاصة بذلک هی سورة قریش، و سمی المال الکثیر خیرا بقوله تعالی فی صفات الإنسان: وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَیْرِ لَشَدِیدٌ [العادیات: ۸]، و قوله تعالی فیمن یحضره الموت: إِنْ تَرَکَ خَیْراً الْوَصِیَّةُ لِلْوالِدَیْنِ وَ [البقرة: ۱۸۰].

و إنما کان المؤمنون المتقون للّه الشاکرون لنعمه أحقّ بنعم الدنیا من الکافرین لنعمه و الفاسقین الظالمین، لأنهم أحقّ و أجدر بالشکر علیها، و الشکر استعمال النعمة فی الحکمة التی منحت لأجلها من الحق و العدل و الإحسان و البر و العمران، و هو الذی یرضی اللّه تعالی فیها، و من سننه تعالی فیها أنّ الشکر لها بهذا المعنی سبب للمزید منها، و أن الکفر لها بسوء استعمالها سبب لسلبها أو لسلب فوائدها کما قال اللّه تعالی: وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّکُمْ لَئِنْ

---

(۱) هذا معطوف علی ما قبله من أول السورة (قل أوحی إلی) أی أوحی إلی أنهم لو استقاموا علی الطریقة المثلی التی جاءهم بها الإسلام لوسعنا علیهم الرزق، و أصله الماء الغدق أی الکثیر الذی ینبت به الزرع و یدر الضرع- (لنفتنهم) أی نمتحنهم فیه أ یشکرون النعم أم یکفرونها، و من یعرض منهم عن هدایة ربه بالقرآن یدخله فی عذاب صعد (بفتحتین) أی شدید المشقة فتکون النعم سببا لتعبه و شقائه.

(۲) راجع تفسیر الآیة فی ص ۲۷۷، ج ۱۰، تفسیر المنار.

(۳) راجع فی ص ۱۰۰ ج ۱۰ تفسیر المنار.

شَکَرْتُمْ لَأَزِیدَنَّکُمْ وَ لَئِنْ کَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِی لَشَدِیدٌ [إبراهیم: ۷] و قال اللّه تعالی: ذلِکَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ یَکُ مُغَیِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلی قَوْمٍ حَتَّی یُغَیِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِیعٌ عَلِیمٌ [الأنفال:

.[۵۳]

فالمؤمنون و الكافرون يشتركون فى أسباب سعة الرزق و كسب المال من زراعة و صناعة و تجارة؛ لأن هذه الأسباب دنيوية لا تختلف باختلاف الأديان كما قال اللّه تعالى: كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَ هَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً [الإسراء: ۲۰]، أى: ما كان ممنوعا عمن يريد به لذات العاجلة، و لا عمن يريد به سعادة الآخرة، و إنما يفضل بعضهم بعضا فى استعمال المال، فاستعماله فى الفسق و الشر و الظلم و السرف و الخيلاء كفر للنعمة و سبب لمحقها نفسها أو محق بركتها، بكثرة الضرر و الفساد المترتب عليها، فمن المشاهد أن أكثر الأغنياء المسرفين الفاسقين يفتقرون أو يصابون بالأدواء أو المصائب المنغصة، و أما الأمم المترفة المسرفة الظالمة فتضعف و قد تفقد استقلالها، و استعماله فى البر و الخير سبب للمزيد فيها. و قد حققنا هذا الموضوع فى مواضع أخرى، و منه قوله تعالى فى الزينة و الطيبات من الرزق: قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ [الأعراف: ۳۲]، أى: هى لهم فى الدنيا بالاستحقاق و يشاركهم فيها غيرهم بمقتضى الأسباب، و لكنها تكون فى الآخرة خالصة لهم «۱»؛ لأنهم يتوسلون بالشكر للّه عليها إلى سعادتها الكاملة الدائمة.

و لو لا- ذلك لجعل زينة الدنيا خاصة بالكافرين كما قال اللّه تعالى: وَ لَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَ مَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ (۳۳) وَ لِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَ سُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ (۳۴) وَ زُخْرُفاً وَ إِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ [الزخرف: ۳۳- ۳۵].

أى و لو لا- كراهة أن يكون الناس كلهم كفارا بجعل نعيم الدنيا و زينتها للكافرين وحدهم لجعلنا لبيوتهم سقفا و أبوابا من فضة و سلالم من فضة يصعدون عليها إلى غرفات قصورهم، و جعلنا لهم فيها سررا كذلك و زخرفا أى ذهبا، و ما كل ذلك إلا متاع الدنيا و هو قليل زائد. بالنسبة إلى نعيم الآخرة العظيم الدائم. و لكن الإنسان يفتتن بالحاضر المشاهد، لذلك جعل اللّه سعه الدنيا و زينتها بالأسباب الكسبية المشتركة، و جعل المؤمنين أحق بها و أكثر انتفاعا لشكره تعالى عليها بالاعتدال و القصد فى أنفسهم، و التوسعة على غيرهم، كما قررناه آنفا، و يؤيده ما فى القطب الخامس من إرشاد القرآن إلى حفظ المال و الاقتصاد فيه.

---

(۱) راجع تفسيرها فى ص ۲۹۸، ج ۸، تفسير المنار.

الوحى المحمدى، ص: ۲۱۷

و هذا التشريع و التثقيف و الأدب العالى فى الحضارة الإسلامية يعلو بها على حضارات جميع الأمم المسرفة الفاسقة، فهل كان هذا و ما قبله و ما يذكر بعده مما نبع من نفس محمد الأمى فى العقد الخامس من عمره، خلافا لطبائع البشر، إذ لم يعهد قط أن يفيض من عقولهم فى هذه السن، ما لم يكونوا فكروا فيه و زاولوه فى سن الصبا و الشباب، أم الأقرب إلى عقل المؤمن أن يكون وحيا من اللّه تعالى؟ كلا- الأمرين من الخوارق و العجائب فمن يؤمن باللّه يجب عليه أن يقول إنه وحى منه إذ لا يقدر عليه غيره. و من لا يؤمن به لا يجد أمامه إلا أن يقول إن محمدا أفضل من جميع البشر بنفسه، إذ صدر عنه ما لم يصدر مثله عن غيره، و لا هو من شأن طبيعتهم و غريزتهم فى هذه السن.

القطب الخامس: ما أوجب اللّه من حفظ المال من الضياع بالإسراف و الاقتصاد فيه

قال اللّه تعالى: وَ لا- تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِياماً [النساء: ۵] قيام الشىء و قوامه- بالكسر و الفتح- ما يستقيم به و يحفظ و يثبت، أى جعلها قوام معايشكم و مصالحكم، و السفهاء هم المسرفون المبذرون لها؛ لصغر سنهم دون الرشد أو لفساد أخلاقهم و ضعف عقولهم: وَ ارْزُقُوهُمْ فِيها وَ اكْسُوهُمْ وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً (۵) وَ ابْتَلُوا الْيَتامى حَتَّى إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ [النساء: ۵- ۶]. الابتلاء التجربة و الاختبار، أمر باختبارهم و ألا تدفع إليهم أموالهم إلا بعد ظهور

الرشد فی أعمالهم، و هو الصلاح و الاستقامة فی معاملاتهم، لئلا یضیعوا الأموال فیما یضر أو فیما لا ینفع.

و قال اللّه تعالی فی صفات المؤمنین: وَ الَّذِینَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ یُسْرِفُوا وَ لَمْ یَقْتُرُوا وَ کانَ بَیْنَ ذلِکَ قَواماً (۶۷) [الفرقان: ۶۷]، الإسراف: التبذیر و الإفراط، و القتر و القتور و الإقتار: الإقلال و التضییق فی النفقة، یقال: قتر علی عیاله، و مثله قدر له بالدال مکان التاء و منه: اللَّهُ یَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ یَقْدِرُ لَهُ [العنکبوت: ۶۲]، و هو مکرر فی عدة سور.

و قال اللّه تعالی: لِیُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَ مَنْ قُدِرَ عَلَیْهِ رِزْقُهُ فَلْیُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ [الطلاق: ۷]، و هذا نزل فی النفقة علی المرأة المطلقة فی العدة، و هو إرشاد عام، و القاعدة

الوحی المحمدی، ص: ۲۱۸

فی الأصول أن العبرة بدلالة العموم. لا- یقید بخصوص سبب النزول. و قال فی النفقات العامة: وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ یُنْفِقُونَ [البقرة: ۳]، و (من) للتبعیض، فکل من الغنی ذی السعة، و الفقیر ذی العسرة، مأمور بأن ینفق مما آتاه اللّه لا کل ما آتاه اللّه، و هذا أعظم الأصول الاقتصاد، فمن أنفق بعض ما یکتسب قلما یفتقر.

و تقدم فی وصایا سورة الإسراء الحکیمة ذکر آیات النهی عن التبذیر و المبالغة فی بسط الید و المبالغة فی قبضها، و ما لکل منهما من سوء العاقبة، قال اللّه تعالی: وَ آتِ ذَا الْقُرْبی حَقَّهُ وَ الْمِسْکِینَ وَ ابْنَ السَّبِیلِ وَ لا تُبَذِّرْ تَبْذِیراً [الإسراء: ۲۶].

و لو لا اقتران تلک الوصایا بحکمها و عللها و منافعها لما سمّیت حکمة، أ لا تری أنه قال عقب النهی عن التبذیر: إِنَّ الْمُبَذِّرِینَ کانُوا إِخْوانَ الشَّیاطِینِ [الإسراء: ۲۷]، لأنهم یفسدون نظام المعیشة بإسرافهم، و یکفرون النعمة بعدم حفظها و وضعها فی مواضعها بالاعتدال، و لذلک قال عقبه: وَ کانَ الشَّیْطانُ لِرَبِّهِ کَفُوراً [الإسراء: ۲۷]، ثم قال: وَ لا تَجْعَلْ یَدَکَ مَغْلُولَةً إِلی عُنُقِکَ وَ لا تَبْسُطْها کُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً [الإسراء: ۲۹] فعلل الإسراف فی الإنفاق بأن عاقبة فاعله أن یکون ملوما من الناس و محسورا فی نفسه، و المحسور من حسر عنه ستره فانکشف منه المغطی، و یطلق علی من انحسرت قوته و انکشفت عن عجزه، و المحسور المغموم أیضا، و کل هذه المعانی تصح فی وصف المسرف فی النفقة، یوقعه إسرافه فی العدم و الفقر إلخ، و حسیر البصر کلیله و قصیره. و یکنی به عمن لا یفکر فی عواقب الأمور.

و لو أنّ المسلمین تدبروا هذه الآیات الحکیمة فی الاقتصاد و اهتدوا بها لاستغنوا بإرشادها عن جمیع الکتب و الوصایا فی حفظ ثرواتهم، و لندر أن یوجد فیهم فقیر. و لو کان هذا القرآن نابعا من غریزة محمد صلّی اللّه علیه و سلّم و رأیه و شعوره لما وجدتها فیه، فقد کان حب البذل و الإحسان هو الغالب علی طبعه، و صاحب هذه الخلیقة قلما یفکر فی الاقتصاد. و إنما هی وصایا رب العباد.

الوحی المحمدی، ص: ۲۱۹

القطب السادس: (إنفاق المال فی سبیل اللّه) آیة الإیمان و الوسیلة لحیاة الأمة و عزة الدولة و سعادة الإنسان

هذا هو القطب التهذیبی الأعظم من أقطاب الآیات المنزلة فی المال و أکثرها فیه، و ما ذکر قبله فهو وسائل له، و ما یذکر بعده فهو بیان للعمل به، و أظهر الشواهد فیه أن اللّه تعالی جعله هو الفصل بین الإسلام الصحیح المقترن بالإذعان، المبنی علی أساس الإیمان، و جعل دعوی الإیمان بدون شهادته باطلة، و إن کانت دعوی الإسلام تقبل مطلقا؛ لأن أحکامه العملیة تبنی علی الظواهر، و اللّه تعالی هو الذی یحاسب علی السرائر، و علیها مدار الجزاء فی الیوم الآخر، فالإسلام عمل قد یکون صوریا غیر صادر عن إخلاص و إذعان، و الإیمان یقین قلبی یستلزم أعمال الإسلام، و لکن الإسلام الصوری الصادر عن استحسان لا عن نفاق، یکون أقرب الوسائل إلی یقین الإیمان، و الأصل فی هذه المسألة قول اللّه عزّ و جلّ:

قالَتِ الْأَعْرابُ «۱» آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لکِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمَّا یَدْخُلِ الْإِیمانُ فِی قُلُوبِکُمْ وَ إِنْ تُطِیعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لا- یَلِتْکُمْ مِنْ أَعْمالِکُمْ شَیْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۴) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِینَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ یَرْتابُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِی سَبِیلِ

اللَّهِ أُولئِکَ هُمُ الصَّادِقُونَ [الحجرات: ۱۴، ۱۵]، فقدّم الجهاد بالمال علی الجهاد بالنفس فی تحقیق صحة الإیمان و صدق مدعیه، و قوله: لا یَلِتْکُمْ معناه لا ینقصکم.

و یلی هذا الشاهد آیة البر الناطقة بأن بذل المال علی حبه بالاختیار، أول آیات الإیمان و یلیه إقامة الصلاة و إیتاء الزکاة التی یجبیها إمام المسلمین و سلطانهم بالإلزام، و یلیهما سائر أمهات الفضائل و معالی الأخلاق، و هی قوله تعالی: لَیْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَکُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ لکِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ وَ الْمَلائِکَةِ وَ الْکِتابِ وَ النَّبِیِّینَ وَ آتَی الْمالَ عَلی حُبِّهِ ذَوِی الْقُرْبی وَ الْیَتامی وَ الْمَساکِینَ وَ ابْنَ السَّبِیلِ وَ السَّائِلِینَ وَ فِی الرِّقابِ وَ أَقامَ الصَّلاةَ وَ آتَی الزَّکاةَ وَ الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا وَ الصَّابِرِینَ فِی الْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ حِینَ الْبَأْسِ أُولئِکَ الَّذِینَ صَدَقُوا وَ أُولئِکَ هُمُ الْمُتَّقُونَ [البقرة: ۱۷۷] و فی قوله تعالی: وَ آتَی الْمالَ عَلی حُبِّهِ قولان:

---

(۱) الأعراب: اسم لسکان البوادی دون سکان المدائن و القری. و الآیات نزلت فی قبیلة بنی أسد. أسلموا عن قحط و مجاعة لیتصدق علیهم المسلمون ثم حسن إسلامهم.

الوحی المحمدی، ص: ۲۲۰

(أحدهما): أعطی المال و بذله علی حبه إیاه کقوله: لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّی تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ [آل عمران: ۹۲].

(و الثانی): أن الضمیر فی حبه للّه تعالی کقوله: وَ یُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلی حُبِّهِ مِسْکِیناً وَ یَتِیماً وَ أَسِیراً [الإنسان: ۸]، أی حب اللّه تعالی. و تجد بیان الذروة العلیا من تفضیل حب اللّه و رسوله علی المال و غیره من متاع الدنیا فی قوله تعالی: قُلْ إِنْ کانَ آباؤُکُمْ وَ أَبْناؤُکُمْ وَ إِخْوانُکُمْ وَ أَزْواجُکُمْ وَ عَشِیرَتُکُمْ وَ أَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَ تِجارَةٌ تَخْشَوْنَ کَسادَها وَ مَساکِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَیْکُمْ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ جِهادٍ فِی سَبِیلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّی یَأْتِیَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَ اللَّهُ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الْفاسِقِینَ [التوبة: ۲۴].

و من الآیات فی تفضیل المؤمنین المنفقین علی غیرهم و تفاوتهم فی ذلک قوله تعالی: لا یَسْتَوِی الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ غَیْرُ أُولِی الضَّرَرِ وَ الْمُجاهِدُونَ فِی سَبِیلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِینَ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ عَلَی الْقاعِدِینَ دَرَجَةً وَ کُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنی [النساء: ۹۵].

و قال اللّه تعالی: وَ ما لَکُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَ لِلَّهِ مِیراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا یَسْتَوِی مِنْکُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قاتَلَ أُولئِکَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِینَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَ قاتَلُوا وَ کُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنی [الحدید: ۱۰].

و قد ذکر إنفاق المال فی وجوه البر و الخیر من أمر و نهی و وصف فی عشرات من آیات الذکر الحکیم. و کذلک الصدقة و ما تصرف منها من فعل و وصف، و کذلک الزکاة و أبلغ من ذلک التعبیر عن التصدق و الإنفاق بإقراض اللّه تعالی و وعد مقرضه بالمضاعفة له فی مثل قوله تعالی فی سورة البقرة الآیة (۲)، و سورة الحدید الآیة (۱۱)، و سورة التغابن الآیة (۱۷).

و من الآیات البلیغة فی الترغیب فیه و مضاعفة ثوابه. و بیان آدابه: عشرون آیة من أواخر سورة البقرة. هی من أواخر ما نزل من القرآن یتخللها الوعید الشدید علی أکل الربا، فرجعها من الآیات ۲۶۱ إلی ۲۸۱] مع تفسیرها من الجزء الثالث- تفسیر المنار «۱».

و من البلاء المبین أن نری الشعوب الإسلامیة فی هذه القرون الأخیرة قد قصرت عن جمیع الشعوب القویة فی بذل المال للجهاد فی سبیل اللّه الذی یحفظ استقلالهم و یعتز به ملکهم، و تعلو به کلمة اللّه تعالی فیهم، ثم فی غیرهم، و فی طرق البر التی ترتقی بها

---

(۱) و راجع کلمة المال فی الجزءین ۱۰ و ۱۱ و غیرهما من نفس المرجع.

الوحی المحمدی، ص: ۲۲۱

أمتهم، و تکون حجّة علی سائر الأمم فی تفضیل دینهم علی سائر الأدیان، و حاجة الأمم إلیه لإنقاذ الحضارة من جشع عباد المال، و استذلالهم للملایین من البشر به، و ما أفضی إلیه من فوضی الشیوعیة الدینیة و الأدبیة المشار إلیهما فیما یلی:

القطب السابع: فی الحقوق المفروضة و المندوبة فی المال و الإصلاح المالی فی الإسلام

قد عقدت لتفسیر قوله تعالی: خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِها [التوبة:

۱۰۳] فصلا فی فوائد الزکاة المفروضة و الصدقات و الإصلاح المالی للبشر و امتیاز الإسلام بذلک علی جمیع الأدیان. بینت فیه مکانة المال من حیاة الناس، و ما له من التأثیر فی الثورات و الحروب و السیاسة و العمران، و غلو بعض الجماعات فی جمعه و ادخاره و أنظمته و استغلاله، و استعباد الألوف و ألوف الألوف من البشر به، و یدعون فی عرف هذا العصر بالرأسمالیین، و قیام جماعات أخری بالدعوی إلی إبطال النظام الدولی العام فی المال، و وضع نظام آخر لاشتراک جمیع الناس فیه و یلقبون بالبلشفیین و الشیوعیین، و ما بین هذین الفریقین من الجماعات و من التعادی و الخصام.

ثم بیّنت أنّ هذه الفتن و ما تنذر العالم به من الخراب و الدمار لا علاج لها إلا اتباع هدایة الإسلام فی الإصلاح المالی، و لخصت أصول هذا الإصلاح فی أربعة عشر أصلا هی:

۱- إقرار الملکیة الشخصیة و تحریم أکل أموال الناس بالباطل.

۲- تحریم الربا و القمار.

۳- منع جعل المال دولة بین الأغنیاء.

۴- الحجر علی السفهاء فی أموالهم حتی لا یضیعوها فیما یضرّهم و یضرّ أمتهم.

۵- فرض الزکاة فی أول الإسلام و جعلها اشتراکیة مطلقة باعثها الوجدان لا إکراه الحکام، و إنما تکون کذلک حیث لا حکومة و لا دولة للإسلام.

۶- نسخها بعد وجود الدولة و الحکومة بالزکاة المحدودة بربع العشر فی النقدین و التجارة فی کل عام ما دام النصاب تاما، و بالعشر و نصف العشر فی غلات الزراعة التی علیها مدار الأقوات أو مطلقا، و زکاة الأنعام المعروفة، و فاتنی هنالک ذکر الخمس فی الرکاز، و هو ما ینبش من المال المکنوز القدیم و المعدن.

۷- فرض نفقة الزوجیة و القرابة.

الوحی المحمدی، ص: ۲۲۲

۸- إیجاب کفایة المضطر من کل جنس و دین و ضیافة الغرباء.

۹- بذل المال فی کفارات بعض الذنوب.

۱۰- ندب صدقات التطوع للمحتاجین.

۱۱- ذم الإسراف و التبذیر، و البخل و التقتیر.

۱۲- إباحة الزینة و الطیبات من الرزق بشرطهما، لتوقف ترقی الصناعة و الحضارة علیها.

۱۳- مدح القصد و الاعتدال بل إیجابه.

۱۴- تفضیل الغنی الشاکر علی الفقیر الصابر ا ه. باختصار.

و کنت قد شرحت قبله مصارف الزکاة فی تفسیر آیتها: إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَ الْمَساكِينِ وَ الْعامِلِينَ عَلَيْها وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي الرِّقابِ وَ الْغارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ [التوبة: ۶۰].

ثم عقدت فصلا آخر فی خلاصة السورة «و هی سورة التوبة» المشتملة علی هذه الآیات فی أحکام الأموال فی الإسلام یدخل فی ثلاثة أقسام:

۱- المسائل الدینیة و الاجتماعیة فی الأموال.

۲- أنواع الأموال و مصارفها.

۳- فوائد إصلاح الإسلام المالی للبشر.

فالرجوع إلی هذه المباحث فی ذلک من التفسیر یغنینا عن إعادتها هنا.

و خلاصة القول فی هذه القواعد العلمیة فی إصلاح ثروة البشر و جعلها خیرا عاما کما سمّاها اللّه تعالی فی کتابه، و اتقاء شرور التنازع علیها- بالوازع الدینی، و التشریع الدولی- إنها هی التی یصلح بها أمر البشر علی اختلاف أحوالهم و استعدادهم، فیکونون سعداء فی دنیاهم و فی دینهم، و لن تجد مثلها فی دین من الأدیان، و لا شیء من کتب القوانین و الحکمة البشریة، و إن البشر لعلی خطر عظیم مما سقطوا فیه من التعادی علی المال حتی أعیتهم الحیل، و سبیل النجاة ممهدة معبدة أمامهم و هم لا یبصرونها، و هی الإسلام و هدایة القرآن: وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَ لکِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَی الْعالَمِینَ [البقرة: ۲۵۱].

و موضوع بحثنا فی هذا المقصد و هو دلائل الوحی المحمدی، أنه لا یعقل أن یکون

الوحی المحمدی، ص: ۲۲۳

محمد النبی الأمی الذی عرفنا خلاصة تاریخه قد اهتدی بوحی من نفسه لنفسه فی العقد السادس من عمره- أی بعد هجرته إلی هذه الحقائق التی قامت و علت جمیع الکتب الإلهیة و البشریة و النظم الدولیة فی أرقی عصور العلم و الحکمة و القوانین، و إنما المعقول عند من یؤمن بأن للعالم ربا حکیما رحیما مدبرا أن یکون هذا بوحی منه عزّ و جلّ أفاضه علی خاتم النبیین عند استعداد البشر له. لا یحتاجون بعده إلی وحی آخر.

الوحی المحمدی، ص: ۲۲۴

المقصد الثامن من مقاصد القرآن إصلاح نظام الحرب و دفع مفاسدها و قصرها علی ما فیه الخیر للبشر نظرة عامة فی فلسفة الحرب و السلم و المعاهدات

اشارة

التنازع بین الأحیاء فی مرافق المعیشة و وسائل المال و الجاه غریزة من غرائز الحیاة، و إفضاء التنازع إلی التعادی بین الجماعات و الأقوام سنّة من سنن الاجتماع، أو ضرورة من ضروراته قد تکون وسیلة من وسائل العمران، فإن کان التنازع بین الحق و الباطل کان الفلج للحق، و إن کان بین العلم و الجهل کان الظفر للعلم، و إن کان بین النظام و الاختلال کان النصر للنظام، و إن کان بین الصلاح و الفساد کان الغلب للصلاح، کما قال اللّه تعالی فی الحق و الباطل: بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَی الْباطِلِ فَیَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ [الأنبیاء: ۱۸] و قال اللّه تعالی فی بیان نتیجة المثل الذی ضربه لهما: فَأَمَّا الزَّبَدُ فَیَذْهَبُ جُفاءً وَ أَمَّا ما یَنْفَعُ النَّاسَ فَیَمْکُثُ فِی الْأَرْضِ «۱» [الرعد: ۱۷] و سبق ذکر هذه الآیة کلها.

و أما التنازع و التعادی و التقاتل علی الشهوات الباطلة، و السلطة الظالمة، و استعباد القوی للضعیف، و الاستکبار و العلو فی الأرض، فإن ضرره کبیر، و شره مستطیر، یزید ضراوة البشر بسفک الدماء، حتی خیف أن تقضی علی هذا العمران العظیم فی وقت قصیر، بما استحدثه العلم الواسع من وسائل التخریب و التدمیر، کالغازات السامة و مواد الهدم و التحریق تقذفها الطیارات المحلقة فی جو السماء، علی المدائن المکتظة بالألوف من الرجال و النساء و الأطفال، فتقتلهم فی ساعة واحدة أو ساعات معدودة.

و قد حارت الدول الحربیّة فی تلافی هذا الخطر حتی إنّ أشدّهنّ استعدادا للحرب بالأساطیل الهوائیة و البحریة و آلات التدمیر و کثرة الأموال لأشدهن خوفا علی حیاة أمتها المستعدة بجمیع أنواع القتال، و عمران بلادها المحصنة بأحدث وسائل الوقایة، و تری دهاقین السیاسة فی کل منها یتفاوضون مع أقرانهم لوضع نظام لتقریر السلام، و درء مفاسد الخصام، بمعاهدات یعقدونها، و أیمان یتقاسمونها، ثم ینکثون خائبین، أو ینقضون ما ابرموا متأولین، و یعودون إلی مثله مخادعین.

(۱) الزَّبَدُ بالتحریک ما یکون فی أعلی السیل أو القدر التی تفور من الغثاء و الرغوة، و (الجفاء) بالضم ما یقذفه الوادی أو القدر من جوانبهما عند امتلائهما من ذلک و هو ما لا نفع فیه، و أما إبلیز السیل الذی یرسب، و منه إبریز الصائغ من الذهب الذی توقد النار علیه لتصفیته و هو النافع للناس فَیَمْکُثُ فِی الْأَرْضِ و یبقی فی بوط الصائغ (بوتقته).

الوحی المحمدی، ص: ۲۲۵

أعجوبة القرآن فی فساد معاهدات الزمان:

و قد بین اللّه تعالی فی کتابه سبب هذه الخیبة بما وجدنا مصداقه فی هذه الدول الأوروبیة بأظهر مما کان فی عرب الجاهلیة الذی نزل هذا البیان فی عهدهم، کأنه نزل فی هؤلاء الإفرنج دون غیرهم، و هو من عجائب القرآن لی لفظه و معناه، و ذلک قوله تعالی بعد الأمر بالإیفاء بعهده، و النهی عن نقضه: وَ لا تَکُونُوا کَالَّتِی نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْکاثاً تَتَّخِذُونَ أَیْمانَکُمْ دَخَلًا بَیْنَکُمْ أَنْ تَکُونَ أُمَّةٌ هِیَ أَرْبی مِنْ أُمَّةٍ [النحل: ۹۲] و المعنی: لا تکونوا فی نقض عهودکم و العود إلی تجدیدها کالمرأة الحمقاء التی تنقض غزلها من بعد قوة إبرامه نقض أنکاث «و هو جمع نکث بالکسر ما نقض لیغزل مرة أخری» حال کونکم تتخذون عهودکم دخلا بینکم «و الدخل التحریک بالفساد و الغش الخفی الذی یدخل فی الشیء و ما هو منه» لأجل أن تکون أمة أربی و أزید رجالا، و أکثر ربحا و مالا، و أقوی أسنة و نصالا، من أمة أخری.

و المراد أن معاهدات الصلح و الاتفاق بین الأمم یجب أن یقصد بها الإصلاح و العدل و المساواة، فتبنی علی الإخلاص دون الدخل و الدغل الذی یقصد به أن تکون أمة هی أربی نفعا و أکثر عددا و جمعا من الأمة الأخری، و هو ما علیه هذه الدول فی جمیع معاهداتها و لا سیما المعاهدة الأخیرة بعد الحرب للعامة (معاهدة فرسایل).

و لو طلبوا المخرج و السلامة من هذا الحظر لوجدوهما فی دین الإسلام، فهو هو دین الحق و العدل و السلام، و هاک بعض القواعد الحرب و السلم فی القرآن.

الوحی المحمدی، ص: ۲۲۶

أهم قواعد الحرب و السلام فی دین الإسلام، و شواهدها من القرآن

اشارة

قد استنبطنا من آیات سورة ا [الأنفال: ۲۸] قاعدة من القواعد الحربیة و العسکریة و السیاسیة فی القتال و الصلح و المعاهدات أجملناها فی الباب السابع من خلاصة تفسیر السورة، و أحلنا فی تفصیلها علی تفسیر الآیات المستنبطة منها، ثم استنبطنا من آیات سورة [التوبة: ۱۳] قاعدة حربیة أکثرها فی المعاهدات و وجوب الوفاء بها و شرط نبذها، و فی الهدنة و تأمین الحربی للدخول فی دار الإسلام، و ۲۰ حکما من أحکام الحرب و الجزیة سردناها فی خلاصة تفسیر هذه السورة «۱» نکتفی هنا ببضع قواعد منهما و من غیرهما من السور، لأن المقام مقام إیراد الشواهد المجملة علی أنواع الإصلاح الإسلامی من القرآن للاستدلال به علی أن جملة هذه العلوم لا یعقل أن تکون کلها من آراء محمد النبی الأمی الذی عاش قبل النبوة عیشة العزلة و الانفراد، إلا قلیلا من رعی الغنم فی الصبا و التجارة فی الشباب، و قد قصرت عن کل نوع منها کتب الأدیان الإلهیة، و کتب الحکمة و القوانین البشریة، فنقول:

القاعدة الأولی: فی الحرب المفروضة علی الأعیان

ورد الأمر بقتال المعتدین لکف عدوانهم و لما سیأتی من درء المفاسد و توطید المصالح مقترنا بالنهی عن قتال الاعتداء و البغی و الظلم، و الشاهد علیه قوله تعالی: وَ قاتِلُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ الَّذِینَ یُقاتِلُونَکُمْ وَ لا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا یُحِبُّ الْمُعْتَدِینَ [البقرة: ۱۹۰]، و تعلیل النّهی عن قتال الاعتداء بأن اللّه تعالی لا یحب المعتدین مطلقا دلیل علی أن هذا النهی محکم غیر قابل للنسخ. و من ثم بیّنا فی تفسیر هذه الآیة من جزء التفسیر الثانی أن حروب النبی صلّی اللّه علیه و سلّم للکفار کانت کلها دفاعا لیس فیها شیء من العدوان، ثم فصلت فی تفسیر آیة السیف من سورة التوبة: أن قتال مشرکی العرب و نبذ عهودهم بعد فتح مکة کان جاریا علی هذه القاعدة. مع کون سیاسة الإسلام فی العرب غیر سیاسته فی سائر الأقوام، من حیث إرادة إسلامهم باختیارهم، و إبطال ما کانوا علیه من الشرک غیر المقید بشرع متّبع، و إرادة جعل

---

(۱) تراجع فی ص ۱۲۳ و ۱۳۹، ۱۴۴ ج ۱۰ من تفسیر المنار.

جزیرتهم معقلا للإسلام وحده علی اتساع سیاسته مع غیرهم بإقرارهم علی أوطانهم و أدیانهم.

و بینت فیه أن بعض الصحابة کان قد ثقل علیهم نبذ عهود المشرکین المقتضی لقتالهم مع سبقهم لنقض العهد مع النبی صلّی اللّه علیه و سلّم حتی بیّن اللّه لهم ذلک بأنهم إنما نقضوا عهده و نکثوا أیمانهم؛ لأنهم لا عهود لهم یلتزمونها بعقیدة وجدانیة، و لا نظام متبع، و قال اللّه تعالی:

أَ لا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَکَثُوا أَیْمانَهُمْ وَ هَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ وَ هُمْ بَدَؤُکُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ [التوبة: ۱۳] أی بالقتال ثم بنقض العهد فهم المعتدون «۱».

و إنما اشتبه علی الغافلین الأمر بما کان فی بعض الغزوات و السرایا من بدء المسلمین بها ذاهلین عن حالة الحرب بینهم و بین المشرکین باعتداء المشرکین الأول و استمراره، فالدفاع لا یشترط أن یکون فی کل معرکة و کل حرکة.

و هذا الذی کان فی آخر أحکام القتال معهم یؤید ما نزل فی أول الإذن للمسلمین بالقتال و هو قوله تعالی فی [سورة الحج، الآیتان: ۳۹، ۴۰]: أُذِنَ لِلَّذِینَ یُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللَّهَ عَلی نَصْرِهِمْ لَقَدِیرٌ (۳۹) الَّذِینَ أُخْرِجُوا مِنْ دِیارِهِمْ بِغَیْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ یَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ، و تتمة الآیات فی القاعدة الثانیة.

و لما نقضوا العقد الذی عقده النبی صلّی اللّه علیه و سلّم معهم فی الحدیبیة فی أواخر سنة ست للهجرة و عزم علی فتح مکة سنة ثمان نزلت سورة الممتحنة (۶۰) فی النهی عن ولایة المشرکین، و فیها التصریح بأن النهی خاص بالذین قاتلوا المؤمنین و أخرجوهم من وطنهم لأجل دینهم، فهو نهی عن موالاتهم و مودتهم دون البر و العدل إلی کل مشرک. فتأمل الآیات ۷، ۸، ۹ منها.

القاعدة الثانیة: فی الغرض من الحروب و نتیجتها

هی أن تکون الغایة الإیجابیة من القتال- بعد دفع الاعتداء و الظلم و استتباب الأمن- حمایة الأدیان کلها من الاضطهاد فیها أو الإکراه علیها، و عبادة المسلمین للّه وحده و إعلائهم کلمته، و تأمین دعوته، و تنفیذ شریعته، و هی فی مصلحة البشر کلهم و إسداء الخیر إلیهم، لا الاستعلاء علیهم و الظلم لهم.

---

(۱) راجع تفسیر هذه الآیات، من أوائل سورة التوبة فی الجزء العاشر- تفسیر المنار.

و الشاهد الأول قوله تعالی بعد ذلک الإذن لهم بالقتال الذی تلوناه آنفا: وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَ بِیَعٌ وَ

صَلَواتٌ وَ مَساجِدُ یُذْکَرُ فِیهَا اسْمُ اللَّهِ کَثِیراً وَ لَیَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ یَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِیٌّ عَزِیزٌ (۴۰) الَّذِینَ إِنْ مَکَّنَّاهُمْ فِی الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّکاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْکَرِ وَ لِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ [الحج: ۴۰، ۴۱]. ذکر فی تعلیل إذنه لهم بالقتال المذکور ثلاثة أمور:

(أولها): کونهم مظلومین معتدی علیهم فی أنفسهم، و مخرجین نفیا من أوطانهم و أموالهم لأجل دینهم و إیمانهم، و هذا سبب خاص بهم بقسمیه الشخصی و الوطنی، أو الدینی و الدنیوی.

و قد جعلنا هذه الغایة للقتال قاعدة مستقلة من قواعد سورة الأنفال معبرین عنها «بحریة الدین و منع فتون أحد و اضطهاده لإرجاعه عن دینه»، و استدللنا علیها بقوله تعالی:

وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّی لا تَکُونَ فِتْنَةٌ وَ یَکُونَ الدِّینُ کُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِما یَعْمَلُونَ بَصِیرٌ [الأنفال: ۳۹] و قد کان المشرکون یضطهدون المسلمین بکل ما قدروا علیه من الإیذاء و التعذیب لأجل ردهم عن دینهم، و أما المسلمون فلم یفعلوا ذلک فی الصدر الأول، و من عساه شذ عن ذلک قلیلا بعده فقد خالف حکم الإسلام الذی حرم الفتنة و الاضطهاد و الإکراه فی الدین و شرع فیه الاختیار، بل جعله شرطا لصحته.

(ثانیها): أنه لو لا إذن اللّه للناس بمثل هذا الدفاع لهدمت جمیع المعابد التی یذکر فیها اسم اللّه تعالی اتباع الأنبیاء کصوامع العباد، و بیع النصاری، و صلوات الیهود «کنائسهم» و مساجد المسلمین. بظلم عباد الأصنام. و منکری البعث و الجزاء، و هذا سبب دینی عام صریح فی حریة الأدیان فی الإسلام، و حمایة المسلمین لها و لمعابد أهلها. و کذلک کان.

(فإن قیل): و لما ذا لم یقر الإسلام المشرکین علی دینهم کما أقر الیهود و النصاری و المجوس؟

(قلت): إن الشرک الذی کان علیه العرب لم یکن دینا مبنیا علی عبادة اللّه و مصلحة عباده کسائر الأدیان حتی التی خالطها الشرک. فإنهم لم یکونوا یؤمنون بالبعث و الجزاء علی الأعمال عند اللّه تعالی علی قاعدة «إن خیرا فخیر. و إن شرا فشر»، و لا کانوا یدینون اللّه تعالی بعمل الصالحات و تحریم المنکرات فأصول الدین العامة قوله تعالی: مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لا هُمْ یَحْزَنُونَ [البقرة: ۶۲].

الوحی المحمدی، ص: ۲۲۹

(ثالثها): أن یکون غرضهم من التمکن فی الأرض و الحکم فیها إقامة الصلاة المزکیة للأنفس بنهیها عن الفحشاء و المنکر کما وصفها اللّه تعالی، و المربیة للأنفس فی مراقبة اللّه و خشیته و محبته، و إیتاء الزکاة المصلحة للأمور الاجتماعیة و الاقتصادیة، و الأمر بالمعروف الشامل لکل خیر و نفع للناس، و النهی عن المنکر الشامل لکل شر و ضر یلحق صاحبه أو غیره من الناس.

إنّ جمیع الدول الحربیة تدعی بعض هذه المقاصد العالیة فی حروبها ریاء و ابتغاء لحسن السمعة، و لکنّ أفعالها تکذب دعاویها کلها، و لا- سیما النهی عن المنکر فهی تبیح للناس- الذین تمکنها القوة الحربیة فی بلادهم- جمیع المنکرات و الفواحش التی تفسد الأخلاق و الآداب و روابط الاجتماع بل تحول بینهم و بین العلم و التهذیب و الصلاح بقدر الطاقة، إلا تعلیم لغاتها و تاریخ عظمتها و دیانة شعبها، لأجل هدم مقوماتهم المالیة و القومیة حتی لا یرجی لهم النّجاة من رق الاستعمار و ذلّه. و لا لیکونوا مساوین للفاتح المستعمر فی العلم و الثروة و العزة و القوة، کما هو معروف فی جمیع الممتلکات و المستعمرات الأوروبیة خلافا لما کان علیه المسلمون الأولون فی فتوحهم من العدل المطلق.

القاعدة الثالثة: إیثار السلم علی الحرب

هذه القاعدة مبنیة علی القاعدتین اللتین قبلها إذ علم بهما أنّ الحرب ضرورة یقتضیها ما ذکر فیهما من المصالح و درء المفاسد، و أن السلم هی الأصل التی یجب أن یکون علیها الناس، فلهذا أمرنا اللّه بإیثارها علی الحرب و إذا جنح العدو لها و رضی بها، و الشاهد

علیه قوله تعالی: وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۶۱) [الأنفال: ۶۱] فراجع تفسیرها فی ص ۶۹، ۱۴۰ من جزء التفسیر العاشر.

القاعدة الرابعة: الاستعداد التام للحرب لأجل الإرهاب المانع منها

إن الذی یجب أن تکون علیه الدولة قبل الحرب هو إعداد الأمة کل ما تستطیع من أنواع القوة الحربیة و من رباط الخیل فی کل زمان بحسبه علی أن یکون القصد الأول من ذلک إرهاب الأعداء و إخافتهم من عاقبة التعدی علی بلادها أو مصالحها أو علی أفراد منها أو متاع أو مصلحة لها حتی فی غیر بلادها، لأجل أن تکون آمنة فی عقر دارها علی دماء أهلها و مصالحها و أموالها، مطمئنة فی حریتها بدینها، و هذا ما یسمی فی عرف هذا العصر

الوحی المحمدی، ص: ۲۳۰

بالسلم المسلحة أو التسلیح السلمی، و تدعیه الدول العسکریة فیه زورا و خداعا فتکذبها أعمالها، و لکن الإسلام امتاز علی الشرائع کلها بأن جعله دینا مفروضا، فقید به الأمر بإعداد القوی و المرابطة للقتال، و ذلک قوله عزّ و جلّ: وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ [الأنفال: ۶۰]، فراجع تفسیرها فی ص ۶۱ ج ۱۰ تفسیر المنار أیضا.

القاعدة الخامسة: الرحمة فی الحرب

إذا کان الغلب و الرجحان فی القتال للمسلمین المعبر عنه بالإثخان فی الأعداء، و أمنوا علی أنفسهم ظهور العدو علیهم، فاللّه تعالی یأمرهم أن یکفوا عن القتل، و یکتفوا بالأسر، ثم یخیرهم فی الأسری إما بالمن علیهم بإطلاقهم بغیر مقابل، و إما بأخذ الفداء عنهم، و ذلک نص قوله تعالی فی [سورة محمد صلّی اللّه علیه و سلّم، الآیة: ۴]: فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها ذلِكَ وَ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَ لكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ «۱»، و قد أوردناها و بینا معناها فی تفسیر [الآیة: ۶۷، من سورة الأنفال] ما کانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ص ۷۳ ج ۱۰ تفسیر المنار.

القاعدة السادسة: الوفاء بالمعاهدات و تحریم الخیانة فیها

وجوب الوفاء بالعهود فی الحرب و السلم و تحریم الخیانة فیهما سرا أو جهرا، کتحریم الخیانة فی کل أمانة مادیة أو معنویة من أحکام الإسلام القطعیة، و الآیات فی ذلک متعددة محکمة لا تدع مجالا لإباحة نقض العهد بالخیانة فیه وقت القوة، و عده قصاصة ورق عند إمکان نقضه بالحیلة «منها» قوله تعالی: وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَ لا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ

---

(۱) أذاع أعداء الإسلام فیما تجنوا به علیه أن معنی هذه الآیة أن القرآن یأمر أتباعه أن یقتلوا الکفار حیثما لقوهم، حتی إن لورد کرومر الشهیر الذی کان عمید الدولة البریطانیة بمصر ذکر هذا فی خطبة له. و إنما الآیة فی لقاء الأعداء الحربیین فی القتال، و الکفار فی شرع الإسلام ثلاثة أصناف، حربیون: و تعرف أحکامهم من هذه القاعدة و ما قبلها- و معاهدون: و یعرف بعض أحکامها مما بعدها، و منهم المستأمنون، و ذمیون: و هم الذین یدخلون فی حکم المسلمین، و قد تقدم أن الإسلام یسوی بینهم و بین المسلمین فی جمیع أحکامه القضائیة و السیاسیة، و یوجب حمایتهم و الدفاع عنهم حتی بالقتال لمن یعتدی علی دینهم أو أنفسهم أو أموالهم.

الوحی المحمدی، ص: ۲۳۱

تَوْكِيدِها [النحل: ۹۱]، جمع بين الأمر بالإيفاء بها و النهى عن نقضها، ثم أكد ذلك بالمثل البليغ فى قوله تعالى فى الآية التى تليها: وَ لا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها [النحل: ۹۲]، و قد بيناه آنفا فى مقدمة هذا المقصد، «و منها» أنه وصف المؤمنين الأبرار بقوله فى آية البر: وَ الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا [البقرة: ۱۷۷]، «و منها» أنه عاب اليهود الذين نقضوا عهدهم مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و جعلهم من شر الدواب [الأنفال: ۵۵، ۵۶]، «و منها»:

أنه لما أمر بنبذ عهود المشركين الذين نقضوا عهد النبى و المؤمنين استثنى منهم المعاهدين على كونهم أهل دار واحدة فقال اللّه تعالى: إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَ لَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ [التوبة: ۴]، ثم قال اللّه تعالى: كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ [التوبة: ۷]، و بلغ من تأكيد الوفاء بالعهود أن اللّه تعالى لم يبح لنا أن ننصر إخواننا المسلمين غير الخاضعين لحكمنا على المعاهدين لنا من الكفار كما قال اللّه تعالى فى غير المهاجرين منهم: وَ إِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ «۱» [الأنفال: ۷۲]، فهل يوجد وفاء بالعهود أعظم من هذا فى حكومة دينية بأمر اللّه تعالى؟

القاعدة السابعة: الجزية و كونها غاية للقتال لا علة

اشارة

قلت فى تفسير قوله تعالى فى قتال أهل الكتاب فى آية الجزية: حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صاغِرُونَ [التوبة: ۲۹] ما نصه:

«هذا غاية للأمر بقتال أهل الكتاب ينتهى بها إذا كان الغلب لنا، أى: قاتلوا من ذكر عند وجود ما يقتضى وجوب القتال كالاعتداء عليكم أو على بلادكم، أو اضطهادكم و فتنتكم عن دينكم، أو تهديد أمنكم و سلامتكم و حرية دعوتكم، كما فعل الروم فكان سببا لغزوة تبوك، حتى تأمنوا عدوانهم بإعطائكم الجزية فى الحالين اللتين قيدت بهما، فالقيد الأول لهم: و هو أن تكون صادرة عن يد، أى قدرة وسعة فلا يظلمون و لا يرهقون.

و الثانى لكم: و هو الصغار المراد به حصد أو كسر شوكتهم، و الخضوع لسيادتكم و حكمكم، و بهذا يكون تيسير السبيل لاهتدائهم إلى الإسلام بما يرونه من عدلكم و هدايتكم و فضائلكم التى يرونكم بها أقرب إلى هداية أنبيائهم منهم، فإن أسلموا عمّ الهدى و العدل

---

(۱) راجع تفسيرها فى صفحة ۱۰۸ ج ۱۰ تفسير المنار.

و الاتحاد، و إن لم يسلموا كان الاتحاد بينكم و بينهم بالمساواة فى العدل، و لم يكونوا حائلا دونهما فى دار الإسلام. و القتال لما دون هذه الأسباب التى يكون بها وجوبه عينيا أولى بأن ينتهى بإعطاء الجزية، و متى أعطوا الجزية وجب تأمينهم و حمايتهم و الدفاع عنهم و حريتهم فى دينهم بالشروط التى تعقد بها الجزية، و معاملتهم بعد ذلك بالعدل و المساواة كالمسلمين، و يحرم ظلمهم و إرهاقهم بتكليفهم ما لا يطيقون كالمسلمين، و يسمون أهل الذمة لأن كل هذه الحقوق تكون لهم بمقتضى ذمة اللّه و ذمة رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم، و أما الذين يعقد الصلح بيننا و بينهم عهد و ميثاق يعترف به كل منا و منهم باستقلال الآخر فيسمون بأهل العهد و المعاهدين «۱».

حكمة الجزية و سببها و ما تسقط به:

هذا- و إن الجزية فى الإسلام لم تكن كالضرائب التى يضعها الفاتحون على من يتغلبون عليهم فضلا من المغارم التى يرهقونهم بها، و إنما هى جزاء قليل على ما تلتزمه الحكومة الإسلامية من الدفاع عن أهل الذمة و إعانة للجند الذى يمنعهم أى يحميهم- ممن يعتدى عليهم، كما يعلم من سيرة أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و هم أعلم الناس بمقاصد الشريعة و أعدلهم فى تنفيذها، و الشواهد على ذلك كثيرة أوردنا طائفة منها فى تفسير الآية بعد ما تقدم آنفا.

«منها» ما كتبه خالد بن الوليد رضى اللّه عنه «الصلوبا بن نسطونا» حينما دخل الفرات و هو: «هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا و قومه، إنى عاهدتكم على الجزية و المنعة فلك الذمة و المنعة، و ما منعناكم فلنا الجزية و إلا فلا، و كتب سنة اثنتى عشرة فى صفر» أ. ه، و هو صريح فى أن الجزية جزاء على المنعة و الحماية تدوم بدوامها، و تمتنع بزوالها.

و يؤيده بالعمل ما ذكره البلاذرى فى فتوح البلدان، و الأزدى فى فتوح الشام من ردّ الصحابة رضى اللّه عنهم لما كانوا أخذوه من أهل حمص من الجزية حين اضطروا إلى تركهم لحضور وقعة اليرموك بأمر أبى عبيدة رضى اللّه عنه و قد صرّحوا لهم أنهم قد أخذوها جزاء منعتهم فوجب ردها للعجز عن هذه المنعة. فعجب أهل حمص- نصاراهم و يهودهم- أشد العجب من رد الفاتحين أموالهم إليهم و دعوا لهم بالنصر على الروم.

---

(۱) راجع القواعد فى ۶- ۹ ص ۱۴۰ و ۱۴۱ ج ۱۰ تفسير المنار، و ما تحيل عليه من الآيات.

الوحى المحمدى، ص: ۲۳۳

فظهر بما ذكرنا أنّ الإسلام حرّم حرب الاعتداء و الظلم، و قصر حرب الدفاع على دفع المفاسد و تقرير المصالح العامة للبشر فجعلها ضرورة تقدر بقدرها، و أن السلام الصحيح الشريف لا يمكن تمتع العالم به إلا بهداية الإسلام، و وضع قوانين الحرب على قواعده.

و من تأمل هذه القواعد رأى أنه لم يسبق الإسلام إلى مثلها دين من الأديان و لا قانون دولى، و لا إرشاد فلسفى أو أدبى، و لا تبعته بها أمة بتشريع و لا عمل عرفى.

أ فليس هذا وحده دليلا واضحا لدى من يؤمن بوجوب رب للبشر عليم حكيم، بأن محمدا العربى الأمى قد تلقاها بوحى منه عزّ و جلّ، و أنّ عقله و ذكاءه لم يكن ليبلغ هذه الدرجة من العلم و الحكمة فى هذه المعضلات الاجتماعية بدون هذا الوحى؟ فكيف إذا أضفنا إليها ما تقدم، و ما يأتى من المعارف الإلهية و الأدبية و الاجتماعية و الأنباء الغيبية و غير ذلك من دلائل نبوته صلّى اللّه عليه و سلّم؟.

الوحى المحمدى، ص: ۲۳۴

المقصد التاسع من مقاصد القرآن إعطاء النساء جميع الحقوق الإنسانية و الدينية و المدنية

كانت النّساء قبل الإسلام مظلومات ممتهنات مستعبدات عند جميع الأمم و فى جميع شرائعها و قوانينها حتى عند أهل الكتاب، إلى أن جاء الإسلام، و أكمل اللّه دينه ببعثه خاتم النبيين محمد عليه أفضل الصلاة و أزكى السلام، فأعطى اللّه النّساء بكتابه الذى أنزله عليه، و بسنته التى بين بها كتاب اللّه تعالى بالقول و العمل، جميع الحقوق التى أعطاها للرجال إلا ما يقتضيه اختلاف طبيعة المرأة و وظائفها النسوية من الأحكام، و مع مراعاة تكريمها و الرحمة بها و العطف عليها، حتى كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «ما أكرم النساء إلا كريم، و لا أهانهن إلا لئيم». رواه ابن عساكر من حديث علىّ كرّم اللّه وجهه.

كان كبار العقول من الصحابة رضى اللّه عنهم يرون ما أصلحه الإسلام من فساد و ظلم و رذيلة فى الأمة العربية فيكبرونه إكبارا و

یعدونه من دلائل نبوة محمد صلّی اللّه علیه و سلّم إذ لم یکن یمتاز علیهم قبل النبوة بشیء من العلم لا البلاغة، بل بالأخلاق و سلامة الفطرة فقط، و لذلک کان عمر بن الخطاب المصلح الکبیر، و المنفذ الأعظم لسیاسة الإسلام و هدی محمد صلّی اللّه علیه و سلّم من بعده فی الفتوح و العدل و إدارة شئون الشعوب یقول:

«إنما تنقض عری الإسلام عروة عروة إذا نشأ فی الإسلام من لم یعرف الجاهلیة»، و لو کان رضی اللّه عنه واقفا علی تواریخ الأمم و الشعوب لعلم أن ما جاء به الإسلام إنما هو إصلاح لشئون البشر کافة، وثنیهم و کتابیهم، همجیهم و حضریهم، لا فی شیء واحد بل فی کل شیء، و إننی أشیر هنا إلی أهم أصول الإصلاح النسوی التی بسطتها فی کتاب وسیط فی حقوق النساء فی الإسلام سمیته (نداء للجنس اللطیف)؛ بینت فی مقدمته حالهن قبل البعثة المحمدیة عند أمم الأرض إجمالا بقولی:

«کانت المرأة تشتری و تباع، کالبهیمة و المتاع، و کانت تکره علی الزواج و علی البغاء و کانت تورث، و لا ترث، و کانت تملک و لا تملک، و کان أکثر الذین یملکونها یحجرون علیها التصرف فیما تملکه بدون إذن الرجل، و کانوا یرون للزوج الحق فی التصرف بمالها من دونها، و قد اختلف الرجال فی بعض البلاد فی کونها إنسانا ذا نفس و روح خالدة کالرجل أم لا؟ و فی کونها تلقن الدین و تصح منها العبادة أم لا؟ و فی کونها تدخل الجنة أو الملکوت فی الآخرة أم لا؟ فقرر أحد المجامع فی رومیة أنها حیوان نجس لا روح له و لا خلود،

الوحی المحمدی، ص: ۲۳۵

و لکن یجب علیها العبادة و الخدمة، و أن یکون فمها کالبعیر و الکلب العقور لمنعها من الضحک و الکلام لأنها أحبولة الشیطان، و کانت أعظم الشرائع تبیح للوالد بیع ابنته، و کانت بعض العرب یرون أن للأب الحق فی قتل بنته بل فی وأدها «دفنها حیة» أیضا.

و کان منهم من یری أنه لا قصاص علی الرجل فی قتل المرأة و لا دیة».

و کتبت فی مقدمة الکلام علی حقوق النساء المالیة فی الإسلام ما نصه:

«و قد أبطل الإسلام کل ما کان علیه العرب و العجم من حرمان النساء من التملک أو التضییق علیهن فی التصرف بما یملکن، و استبداد أزواج المتزوجات منهن بأموالهن. فأثبت لهن حق التملک بأنواعه، و التصرف بأنواعه المشروعة، فشرع الوصیّة و الإرث لهن کالرجال، و زادهن ما فرض لهن علی الرجال من مهر الزوجیة و النفقة علی المرأة و أولادها و إن کانت غنیة، و أعطاهن حق البیع و الشراء و الإجازة و الهبة و الصدقة و غیر ذلک. و یتبع ذلک حقوق الدفاع عن مالها کالدفاع عن نفسها بالتقاضی و غیره من الأعمال المشروعة، و أن المرأة الفرنسیة لا تزال إلی الیوم مقیدة بإرادة زوجها فی جمیع التصرفات المالیة، و العقود القضائیة.

و إننی ألخص من ذلک الکتاب المسائل الآتیة بالإیجاز، و لمن شاء مراجعتها فیه بطولها.

۱- کان بعض البشر من الإفرنج و غیرهم یعدون المرأة من الحیوان الأعجم أو من الشیاطین لا من نوع الإنسان، و بعضهم یشک فی ذلک فجاء محمد صلّی اللّه علیه و سلّم یتلو علیهم أمثال قول اللّه تعالی: یا أَیُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناکُمْ مِنْ ذَکَرٍ وَ أُنْثی [الحجرات: ۱۳] و قوله تعالی:

یا أَیُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّکُمُ الَّذِی خَلَقَکُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَ خَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَ بَثَّ مِنْهُما رِجالًا کَثِیراً وَ نِساءً [النساء: ۱].

۲- کان بعض البشر فی أوروبا و غیرها یرون أن المرأة لا یصح أن یکون لها دین، حتی کانوا یحرمون علیها قراءة الکتب المقدسة رسمیا، فجاء الإسلام یخاطب بالتکالیف الدینیة الرجال و النساء معا بلقب المؤمنین و المؤمنات، و المسلمین و المسلمات، و الآیات فی ذلک معروفة.

کان أول من آمن بمحمد خاتم النبیین صلّی اللّه علیه و سلّم امرأته، و هی زوجته خدیجة بنت خویلد رضی اللّه عنها، و قد ذکر اللّه تعالی مبایعته صلّی اللّه علیه و سلّم للنساء فی نص القرآن ثم بایع الرجال بما جاء فیها و لما جمع القرآن فی مصحف واحد جمعا رسمیا وضع عند امرأة هی حفصة أم المؤمنین، و ظل عندها من عهد الخلیفة الأول أبی بکر الصدیق إلی عهد الخلیفة الثالث

الوحی المحمدی، ص: ۲۳۶

عثمان رضی اللّه عنهم فأخذ من عندها و اعتمدوا علیه فی نسخ المصاحف الرسمیة التی کتبت و أرسلت إلی الأمصار لأجل النسخ عنها و الاعتماد علیها.

۳- کان بعض البشر یزعمون أن المرأة لیس لها روح خالدة فتکون مع الرجال المؤمنین فی جنة النعیم فی الآخرة- و هذا الزعم أصل لعدم تدینها- فنزل القرآن یقول: لَیْسَ بِأَمانِیِّکُمْ وَ لا أَمانِیِّ أَهْلِ الْکِتابِ مَنْ یَعْمَلْ سُوءاً یُجْزَ بِهِ وَ لا یَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِیًّا وَ لا نَصِیراً (۱۲۳) وَ مَنْ یَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثی وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِکَ یَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لا یُظْلَمُونَ نَقِیراً [النساء: ۱۲۳، ۱۲۴]، و یقول اللّه تعالی: فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّی لا أُضِیعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْکُمْ مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثی بَعْضُکُمْ مِنْ بَعْضٍ [آل عمران: ۱۹۵]، و فیها الوعد الصریح بدخولهن جنات تجری من تحتها الأنهار ..

۴- کان بعض البشر یحتقرون المرأة فلا یعدونها أهلا للاشتراک مع الرجال فی المعابد الدینیة، و المحافل الأدبیة، و لا فی غیرهما من الأمور الاجتماعیة و السیاسیة، و الإرشادات الإصلاحیة، فنزل القرآن یصالحهم بقوله تعالی: وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِیاءُ بَعْضٍ یَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ یَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْکَرِ وَ یُقِیمُونَ الصَّلاةَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکاةَ وَ یُطِیعُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِکَ سَیَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِیزٌ حَکِیمٌ [التوبة: ۷۱].

فأثبت للمؤمنات الولایة المطلقة مع المؤمنین، و تدخل فیها ولایة النصرة فی الحرب، و لکن الشرع أسقط عنهن فریضة القتال فکان حظهن من النصرة تهیئة الطعام و الشراب للمقاتلین و مداواة جرحاهم، و کن یصلین الجماعة مع الرجال و یحججن معهم، و یأمرن بالمعروف و ینهین عن المنکر، حتی أن بعضهنّ کن ینکرون علی أمیر المؤمنین عمر بن الخطاب قوله جهرا، فیرجع عنه إذا کان خطأ، و هو الذی کان یهابه الرجال کالنساء.

و قد قفی اللّه تعالی علی هذه الآیة بأعظم آیة فی جزاء الفریقین جمعت بین بیان النعیم الجسمانی و النعیم الروحانی و هی: وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها وَ مَساکِنَ طَیِّبَةً فِی جَنَّاتِ عَدْنٍ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَکْبَرُ ذلِکَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ [التوبة: ۷۲].

۵- کان بعض البشر یحرمون النساء من حق المیراث و غیره، و بعضهم یضیّق علیهن حق التصرف فیما یملکن، فأبطل الإسلام هذا الظلم، و أثبت لهن حق التملک و التصرف

الوحی المحمدی، ص: ۲۳۷

بأنفسهن فی دائرة الشرع، قال اللّه تعالی: لِلرِّجالِ نَصِیبٌ مِمَّا تَرَکَ الْوالِدانِ وَ الْأَقْرَبُونَ وَ لِلنِّساءِ نَصِیبٌ مِمَّا تَرَکَ الْوالِدانِ وَ الْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ کَثُرَ نَصِیباً مَفْرُوضاً [النساء: ۷].

و نحن نری أن دولة الولایات المتحدة الأمریکیة لم تمنح النساء حق التملک و التصرف إلا من عهد قریب فی عصرنا هذا «۱»، و أنّ المرأة الفرنسیة لا تزال مقیدة بإرادة زوجها فی التصرفات المالیة و العقود القضائیة، و قد منحت المرأة المسلمة هذه الحقوق منذ ثلاثة عشر قرنا و نصف قرن.

۶- کان الزواج فی قبائل البدو و شعوب الحضارة ضربا من استرقاق الرجال للنساء فجعله الإسلام عقدا دینیا مدنیا لقضاء حقّ الفطرة بسکون النفس من اضطرابها الجنسی بالحب بین الزوجین و توسیع دائرة المودة و الألفة بین العشیرتین، و اکتمال عاطفة الرحمة الإنسانیة و انتشارها من الوالدین إلی الأولاد، علی ما أرشد إلیه قوله تعالی: وَ مِنْ آیاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَکُمْ مِنْ أَنْفُسِکُمْ أَزْواجاً لِتَسْکُنُوا إِلَیْها وَ جَعَلَ بَیْنَکُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ [الروم: ۲۱].

۷- القرآن ساوی بین المرأة و الرجل باقتسام الواجبات و الحقوق بالمعروف مع جعل حق رئاسة الشرکة الزوجیة للرجل؛ لأنه أقدر علی النفقة و الحمایة بقول اللّه عزّ و جلّ فی الزوجات: وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِی عَلَیْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَ لِلرِّجالِ عَلَیْهِنَّ دَرَجَةٌ [البقرة: ۲۲۸]، و قد

بین هذه الدرجة بقوله تعالی: الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَی النِّساءِ بِما فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلی بَعْضٍ وَ بِما أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِمْ [النساء: ۳۴] فجعل من واجبات هذه القیامة علی الزوج نفقة الزوجة و الأولاد، لا تکلف الزوجة منه شیئا و لو کانت أغنی منه، و زادها المهر، فالمسلم یدفع لامرأته مهرا عاجلا مفروضا علیه بمقتضی العقد حتی إذا لم یذکر فیه لزمه مهر مثلها فی الهیئة الاجتماعیة، و لهما أن یؤجلا بعضه بالتراضی، علی حین تری بقیة الأمم حتی الیوم تکلف المرأة دفع المهر للرجل.

و کان أولیاء المرأة یجبرونها علی التزوج بمن تکره أو یعضلونها بالمنع منه مطلقا و إن کان زوجها و طلقها، فحرم الإسلام ذلک، و النصوص فی هذا معروفة فی کلام اللّه و کلام رسوله صلّی اللّه علیه و سلّم و سنته.

۸- کان الرجال من العرب و بنی إسرائیل و غیرهم من الأمم یتخذون من الأزواج ما شاءوا غیر مقیدین بعدد، و لا مشترط علیهم فیه العدل، فقیدهم الإسلام بأن لا یزیدوا علی

---

(۱) طبع هذا الکتاب أول مرة فی أوائل القرن العشرین عام ۱۹۳۵ م.

الوحی المحمدی، ص: ۲۳۸

أربع، و أن من خاف علی نفسه أن لا یعدل بین اثنتین وجب علیه الاقتصار علی واحدة، و إنما أباح الزیادة لمحتاجها القادر علی النفقة و الإحصان لأنها قد تکون ضرورة من ضرورات الاجتماع فی أحوال. منها: أن تکون الأولی عقیما أو تدخل فی سن الیأس من الحمل. أو تکون ذات مرض مانع منه، أو من إحصان الرجل، و قد یکون التعدد من مصالح النساء خاصة إذا کثرن فی أمة أو قبیلة کما یکون فی أعقاب الحروب، أو هجرة کثیر من الرجال لأجل الکسب.

و ناهیک بأمة تحرم شریعتها الزنا و تعاقب علیه، فهل من مصلحة النساء أو الإنسانیة أن تبقی النساء الزائدات علی عدد الرجال محرومات من الحیاة الزوجیة و حصانتها، و کفالة الأزواج، و من نعمة الأمومة؟ و هل من المصلحة أو المنفعة العامة أو الخاصة أن یباح لهن الزنا و ما یترتب علیه من المصائب البدنیة و الاجتماعیة التی نراهن مرهقات برجسها فی بلاد الإفرنج و البلاد التی ابتلیت بسیطرتهم علیها أو تقلیدها لهم؟.

و قد فصلنا ذلک فی تفسیر آیة التعدد من سورة النساء، ثم زدنا علیه فی کتاب «حقوق النساء فی الإسلام» ما هو مقنع لکل عاقل منصف بأن ما شرعه الإسلام فی التعدد هو عین الحق و العدل و مصلحة البشر کافة و النساء خاصة، فهو قد أباح ذلک بشرطه الشدید و لم یوجبه، و هن فی شریعته مخیرات فی قبول العقد علی رجل متزوج و عدمه، بل تجیز الشریعة للمرأة أن تشترط فی عقد نکاحها جعل عصمتها بیدها لتطلق نفسها إذا شاءت بناء علی ما ذهب إلیه بعض أئمة الفقه فی صحة کل شرط یتعاقد علیه الناس غیر مخالف لنص قطعی فی الکتاب و السنة و لا- سیما شروط الزوجیة عملا- بحدیث: «أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج». رواه البخاری فی مواضع من صحیحه و أصحاب السنن.

۹- الطلاق قد یکون ضرورة من ضروریات الحیاة الزوجیة إذا تعذل علی الزوجین القیام بحقوق الزوجیة من إقامة حدود اللّه، و حقوق الإحصان و النفقة و المعاشرة بالمعروف، و کان مشروعا عند أهل الکتاب و الوثنیین من العرب و غیرهم، و کان یقع النساء منه و فیه ظلم کثیر و غبن یشق احتماله فجاء الإسلام فیه بالإصلاح الذی لم یسبقه إلیه شرع و لم یلحقه بمثله قانون، و کان الإفرنج یحرمونه و یعیبون الإسلام به، ثم اضطروا إلی إباحته، فأسرفوا فیه إسرافا منذرا بفوضی الحیاة الزوجیة و انحلال روابط الأسرة و العشیرة، و مما نقلته الصحف من أسباب حکم القضاة بالطلاق عندهم مسائل شعر رأس المرأة و وجه الرجل فی إرساله أو قصه و حلقه و شکوی المرأة من اشتغال الرجل عنها بمطالعته الکتاب أو الصحف فی الدار،

الوحی المحمدی، ص: ۲۳۹

و شکواها من نتن رائحته لعدم استحمامه، و شکوی الرجل من کثرة کلام المرأة حتی بالمسرة (التلیفون) و مثله کثیر «۱».

جعل الإسلام عقدة النكاح بيد الرجال و يتبعه حق الطلاق لأنهم أحرص على بقاء الزوجية بما تكلفهم من النفقات فى عقدها و حلها و كونها أثبت من النساء جأشا و أشد صبرا على ما يكرهون، و قد أوصاهم اللّه تعالى فوق هذا بما يزيدهم قوة على ضبط النفس و حبسها على ما يكرهون من نسائهم فقال اللّه تعالى: وَ عاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ يَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً [النساء: ۱۹]، و أعطت الشريعة المرأة حق طلب فسخ عقد الزواج من القاضى إذا وجد سببه من العيوب الخلقية أو المرضية كالرجل، و كذا إذا عجز الزوج عن النفقة. و جعلت للمطلقة عليه حق النفقة مدة العدة التى لا يحل لها فيها الزواج، و ذم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم الطلاق بأن اللّه يبغضه للتنفير عنه .. إلى غير ذلك من الأحكام التى بيناها فى تفسير الآيات المنزلة فيها و فى كتابنا الجديد فى حقوق النساء فى الإسلام (نداء للجنس اللطيف).

۱۰- بالغ الإسلام فى الوصية ببر الوالدين فقرنه بعبادة اللّه تعالى، و أكد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فيه حق الأم فجعل برها مقدما على بر الأب، ثم بالغ فى الوصية بتربية البنات و كفالة الأخوات. بأخص مما وصى به من صلة الأرحام، بل و جعل لكل امرأة قيّما شرعيا يتولى كفايتها و العناية بها، و من ليس لها ولى من أقاربها وجب على أولى الأمر من حكام المسلمين أن يتولوا أمرها، و قد أثبتنا فى ذلك الكتاب طائفة من تلك الوصايا.

و جملة القول: أنه ما وجد دين و لا شرع و لا قانون فى أمة من الأمم أعطى النساء ما أعطاهن الإسلام من الحقوق و العناية و الكرامة، أ فليس هذا كله من دلائل كونه من وحى اللّه العليم الحكيم الرحيم إلى محمد النبى الأمى المبعوث فى الأميين؟

بلى و إنا على ذلك من الشاهدين المبرهنين، و الحمد للّه رب العالمين.

---

(۱) نشرت جريدة الأهرام فى هذا الشهر (المحرم سنة ۱۳۵۴ ه- ۱۹۳۵ م) اعتقادا للقاضى «لندسى» أشهر قضاة الطلاق فى (لوس‌أنجلوس) من ولاية (كاليفورنيا)؛ خلاصته أن الحياة الزوجية ستزول من بلادهم (أمريكا الشمالية) و تحل محلها الإباحة و الفوضى فى العلاقة بين النساء و الرجال فى زمن قريب و هى الآن كشركة تجارية ينقضها الشريكان لأوهى الأسباب خلافا لهداية جميع الأديان إذ لا دين و لا حب يربطهما، بل الشهوات و التنقل فى وسائل المسرات- الطبعة الثالثة.

الوحى المحمدى، ص: ۲۴۰

المقصد العاشر من مقاصد القرآن تحرير الرقبة

اشارة

إن استرقاق الأقوياء للضعفاء قديم فى شعوب البشر، بل هو معهود فى الحشرات التى تعيش عيشة الاجتماع و التعاون أيضا كالنمل، فإذا حاربت قرية منه أخرى فظفرت بها و انتصرت عليها فإنها تأسر ما سلم من القتال و تستعبده فى خدمة الظافر من البناء و جمع المئونة و خزنها فى مخزنها و غير ذلك.

كانت شعوب الحضارة القديمة من المصريين و البابليين و الفرس و الهنود و اليونان و الروم و العرب و غيرها تتخذ الرقيق و تستخدمه فى أشق الأعمال، و تعامله بمنتهى القسوة و الظلم، و قد أقرته الديانتان اليهودية و النصرانية، و ظل الرق مشروعا عند الإفرنج إلى أن حررت الولايات المتحدة الأمريكية رقيقها فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى، و تلتها إنجلترا باتخاذ الوسائل لمنعه من العالم كله فى أواخر القرن التاسع عشر، و لم يكن عمل كل منهما خالصا لمصلحة البشر العامة، فإن لهم فيها مصالح خاصة، و لا جنوحا للمساواة بينهم، فإن الأولى لا تزال تفضل الجنس الأبيض الأوروبى المتغلب على الجنس الأحمر الوطنى الأصلى بما يقرب من الاستعباد السياسى المباح عند جميع الإفرنج للشعوب، بل يستبيح الشعب الأبيض تعذيب المخالف له فى لونه فى الولايات المتحدة على كل

ذنب بما لا- يبيحه القانون، فيتخطفه دعارهم من أيدى الحكام و الشرطة و ينكلون به أشد تنكيل، و يمثلون به أفظع تمثيل، كما أن إنجلترا تحتقر الهنود و تستذلهم، و لكن النهضة الهندية فى هذا العهد قد خفضت من غلوائهم، و طأمنت من إشناق كبريائهم «۱»، و غيرهما من الإفرنج المستعمرين شر منهما ظلما و قسوة و كل منهم يأبون أن يصلوا فى كنائس مستعمراتهم مع أبناء البلاد فيتناوبون الصلاة فيها.

فلما ظهر الإسلام، و أشرق نوره الماحى لكل ظلام، كان مما أصلحه من فساد الأمم إبطال ظلم الرقيق و إرهاقه، و وضع الأحكام الممهدة لزوال الرق بالتدريج الممكن بغير ضرر و لا- ضرار و لا- بغى و لا- استكبار، إذ كان إبطاله دفعة واحدة متعذرا فى نظام الاجتماع البشرى من الناحيتين: ناحية مصالح السادة المسترقين، و ناحية معيشة الأرقاء المستعبدين.

---

(۱) آخر ما نشرته الجرائد فى هذه الأيام من هذه السنة الميلادية (۱۹۳۴) عنهم أن طلبة جامعة أكسفورد انتخبوا رئيسا لبعض جماعاتهم فنال أكثر الأصوات طالب هندى فاضطرب الشعب الإنجليزى لهذه النازلة، و ارتفعت فى إنكارها الأصوات من كل مكان: أ هندى اسمر يكون فوق الإنجليز البيض فى شىء ما؟.

الوحى المحمدى، ص: ۲۴۱

فإنّ الولايات المتحدة لما حررت رقيقها كان بعضهم يضرب فى الأرض يلتمس وسيلة للرزق فلا يجد ما يحسنه أو يقدر عليه فيحور إلى سادته يرجو منهم العود إلى خدمتهم كما كان.

و كذلك جرى فى السودان المصرى، فقد جرب الحكام من الإنكليز أن يجدوا لهم رزقا بعمل يعملونه مستقلين فيهم مكتفين به فلم يمكن، فاضطروا إلى الإذن لهم بالرجوع إلى خدمة الرق السابقة بشرط أن لا تسمح للمخدومين ببيعهم و الاتجار بهم.

فهذا برهان حسى مشاهد على أن إبطال الرق- الذى كان عاما فى البشر- بتشريع دينى يتعبد اللّه تعالى به من أول يوم لم يكن من الحكمة و لا من مصلحة البشر الممكن تنفيذها، و الإسلام تشريع عملى لا هوادة فيه، فما شرعه فى الرقيق كان أعلى مراتب الحكمة، الجامع بين المصلحة العامة و الرحمة، كما تراه مفصلا فيما يلى فنجزم بأنه هداية ربانية، لا فلسفة محمدية، و إنما كان محمد صلّى اللّه عليه و سلّم أحكم و أرحم مبلّغ و منفّذ لوحى اللّه بها، و قد أعتق كثيرا من الرجال و النساء قبل البعثة و بعدها من ماله و مال زوجته خديجة أم المؤمنين رضى اللّه عنها، و كان بعض من يملكهم يفضلون الرق عنده على العتق على الحرية عند أهلهم، و كذلك فعل صاحبه الأول و صديقه الأكبر أبو بكر الصديق رضى اللّه عنه الذى أنفق أكثر ماله فى تحرير الرقاب.

الوحى المحمدى، ص: ۲۴۲

هداية الإسلام فى تحرير الرقيق و أحكامه

اشارة

قد شرع اللّه تعالى لإبطال الرق طريقتين: تحديد تجديد الاسترقاق فى المستقبل أو تقييده، و تحرير الرقيق القديم بالتدريج، الذى لا ضرر و لا ضرار فيه.

الطريقة الأولى منع الإسلام جميع ما كان عليه الناس من استرقاق الأقوياء للضعفاء بكلّ وسيلة من وسائل البغى و العدوان،

و قيده باسترقاق الأسرى و السبايا فى الحرب التى اشترط فيها ما تقدم بيانه من دفع المفاسد و تقرير المصالح، و منع الاعتداء و مراعاة العدل و الرحمة و هى شروط لم تكن قبله مشروعة عند المليين، و لا عند أهل الحضارة فضلا عن المشركين الذين لا شرع لهم و لا

قانون، و لست أعنی بالاستثناء أنّ اللّه شرع لنا من هذا النوع من الاسترقاق کل ما کانت الأمم تفعله معاملة لهم بالمثل، بل شرع لأولی الأمر من المسلمین مراعاة المصلحة للبشر فی إمضائه أو إبطاله بأن خیّرهم فی أسری الحرب الشرعیة بین أمرین:

(أولهما) المن علیهم بالحریة فضلا و إحسانا و رحمة.

(ثانیهما) الفداء بهم و هو نوعان: فداء المال، و فداء الأنفس إذا کان لنا أسارى أو سبی عند قومهم بنص الآیة «۱» من سورة محمد التی أوردناها فی القاعدة الخامسة من قواعد الحرب، و لما کنا مخیرین فیهم بین إطلاقهم بغیر مقابل و الفداء بهم جاز أن یعد هذا أصلا شرعیا لإبطال استئناف الاسترقاق فی الإسلام، فإن ظاهر التخییر بین هذین الأمرین أن الأمر الثالث الذی هو الاسترقاق غیر جائز لو لم یعارضه أنه هو الأصل المتبع عند جمیع الأمم و أقره الإسلام لأنه أمر عالمی دولی یقع به التعامل بین الأعداء فی الحرب، فمن أکبر المفاسد و الضرر أن یسترقوا أسرانا و نطلق أسراهم و نحن أرحم بهم و أعدل کما یعلم مما یأتی، و لکن الآیة لیست نصا فی الحصر، و لا صریحة فی النهی عن الأصل، فکانت دلالتها علی تحریم الاسترقاق مطلقا غیر قطعیة. فبقی حکمه محل اجتهاد أولی الأمر إذا وجدوا المصلحة فی إبقائه أبقوه، و إذا وجدوا المصلحة فی ترجیح المن علیهم بالحریة- و هو إبطال اختیاری له- أو الفداء بهم عملوا به.

---

(۱) راجع المقصد الثامن من مقاصد القرآن الکریم.

الوحی المحمدی، ص: ۲۴۳

و رأیت بعض المشتغلین بالفقه یقولون: إن الاسترقاق و السبی من حقوق المحاربین الخاصة لا من حقوق أولی الأمر العامة، فلیس للإمام الأعظم و لا للقائد العام فی الحرب المفوض من قبله مع أرکان حربه أن یجبروا المقاتلین علی المن علیهم، و لا علی الفداء بهم لاقتضاء المصلحة العامة لأحد الأمرین، بدلیل أن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم لم یجبر المسلمین علی التخلی عن سبی هوازن إجبارا، بل جعله بتطییب أنفسهم له، و وعد من لا تطیب نفسه بترک حصته بالتعویض علیه.

و فی هذا الفهم غلط من وجوه کثیرة «منها» أن مثل هذه المسألة إذا لم تکن من المصالح العامة التی تناط أولی الأمر فلیس فی الأمم مصالح عامة قط. «و منها» أنه یعارض نصا فی القرآن بواقعة حال عملیة، «و منها» أن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم جمع فی تلک الحال بین حکمة الدین و رحمته العامة، و بین تربیة المسلمین التی اقتضاها الزمان و المکان، و القوة و الضعف فی الإیمان، و حال طلقاء مکة و المؤلفة قلوبهم فی إظهار الإسلام، فوعد وفد هوازن بإحدی الطائفتین- الغنائم أو السبی- مع علمه بأنهم یختارون السبی. ثم إنه أعطی المؤلفة قلوبهم من الغنائم أکثر من غیرهم، و لم یعط الأنصار شیئا و قد فصّلنا ذلک فی تفسیر الآیتین (۲۵، ۲۶) من سورة التوبة «۱».

و إنما تکون مصلحة الاسترقاق أرجح من هاتین المصلحتین- أی المن علی الأسری و الفداء بهم فی حالات قلیلة لا تدوم کأن یکون المحاربون للمسلمین قوما قلیلی العدد کبعض قبائل البدو یقتل رجالهم کلهم أو جلهم. فإذا ترک النساء و الأطفال و الضعفاء من الرجال لأنفسهم لا یکون لهم قدرة علی الاستقلال فی حیاتهم فیکون الخیر لهم أن یکفلهم الغالبون و یقوموا بشئونهم المعاشیة، ثم تجری علیهم أحکام الطریقة الثانیة فی تحریرهم و قد یتسرون بالنساء فیکن أمهات أولاد و ربات بیوت فحرائر، أو محصنات من الفواحش مکفیات أمر المعیشة علی الأقل، و کذلک الأطفال یکفلهم المسلمون و یربونهم علی عقائد الإسلام و فضائله، ثم ینالهم العتق فی الغالب لما سیأتی فی وجوهه، فیکونون کسائر أحرار المسلمین علماء و أغنیاء و حکاما و أمراء. و قد أفضی هذا إلی تغلب العتقی (الموالی) من الأعاجم علی السیادة و السلطان فی الأمة، بعد إهمال هدایة الدین فی دولها.

و قد سنّ النبی صلّی اللّه علیه و سلّم لأمته ترجیح المن علی الأسری و السبایا بالعتق قولا و عملا فی غزوة بنی المصطلق، و غزوة فتح مکة، و غزوة حنین کما هو مفصل فی کتب السیرة النبویة

(۱) راجع صفحة ۲۵۷ ج ۱۰ تفسیر المنار.

الوحی المحمدی، ص: ۲۴۴

و غیرها، لأنّ المسلمین قد أثخنوهم و ظهروا علیهم، و لم یکونوا أسروا من المسلمین أحدا فعلم من ذلک أن روح الشریعة الإسلامیة ترجیح الفضل و الإحسان عند القدرة، و منه عتق الأسری و السبایا و المن علیهم بالحریة بلا مقابل حاضر، و لا خوف مستقبل، بل لمحض الإحسان.

و لا تنس أن أکثر المشرکین الذین کانوا یقاتلون النبی صلّی اللّه علیه و سلّم من الإعراب (البدو) و کانت حالة الحرب معهم مستمرة- کما تقدم- فلم یکن من المصلحة إرجاع سبیهم إلیهم یشقی بشقائهم و شرکهم و ظلمهم و قساوتهم، من قتل للأولاد و وأد للبنات، و تأمل فعله صلّی اللّه علیه و سلّم مع بنی النضیر من الیهود إذا استأذنه أصحابه بأخذ أولادهم الذین تهودوا معهم فأمرهم بتخییرهم.

الوحی المحمدی، ص: ۲۴۵

الطریقة الثانیة: ما شرعه لتحریر الرقیق الموجود وجوبا و ندبا

اشارة

و هو ۴ أنواع

النوع الأول من أحکام الرق و وسائل تحریره اللازبة و فیه عشر مسائل

۱- الحریة فی الإسلام هی الأصل فی الإنسان کما کتب أمیر المؤمنین عمر بن الخطاب رضی اللّه عنه إلی عامله علی مصر عمرو بن العاص- و قد اشتکی علیه قبطی-: «یا عمرو منذ کم تعبدتم الناس و قد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟»، و قد أخذ الفقهاء من هذا الأصل أن الرقّ لا یثبت بإقرار المرء علی نفسه، و جعلوا قول منکره راجحا علی قول مدعیه فیکلف إثباته.

۲- إن الإسلام حرّم استرقاق الأحرار من غیر أسری الحرب الشرعیة العادلة بشروطها- کما تقدم- و جعل ذلک من أعظم الآثام. روی البخاری و غیره نم حدیث أبی هریرة عن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم قال: «قال الله تعالی: ثلاث أنا خصمهم یوم القیامة و من کنت خصمه خصمته:

رجل أعطی بی ثم غدر، و رجل باع حرا ثم أکل ثمنه، و رجل استأجر أجیرا فاستوفی منه و لم یعطه أجره»، و فی حدیث الثلاثة الذین لا یقبل اللّه منهم صلاة: «و رجل اعتبد محررا»، أی جعله کالعبد فی استخدامه کرها أو أنکر عتقه أو کتمه، و هو فی سنن أبی داود و ابن ماجة.

۳- شرّع اللّه تعالی للمملوک أن یشتری نفسه من مالکه بمال یدفعه و لو أقساطا، و یسمی هذا فی الشرع «الکتاب و المکاتبة» و أصله قوله تعالی: وَ الَّذِینَ یَبْتَغُونَ الْکِتابَ مِمَّا مَلَکَتْ أَیْمانُکُمْ فَکاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِیهِمْ خَیْراً وَ آتُوهُمْ مِنْ مالِ اللَّهِ الَّذِی آتاکُمْ [النور: ۳۳]، أمر بمکاتبتهم إن علم المالک أنهم یقدرون علی الکسب و الوفاء بما التزموه و أنه خیر لهم، و أمر بإعانة المالک لمکاتبه علی أداء ما باعه نفسه به. و یدخل فیه الهبة و حط بعض الأقساط عنه، و جعل فی مال الزکاة المفروضة سهما تدخل فیه هذه الإعانة، و ندب غیر المالک لذلک أیضا.

ذهب بعض العلماء إلی أن الأمرین فی الآیة للوجوب: الأمر بالمکاتبة، و الأمر بالإعانة علیها، و الأکثرون علی أن الأول للندب و الثانی للوجوب، و فی صحیح البخاری بعد ذکر الآیة. قال روح عن ابن جریج: قلت لعطاء «أ واجب علیّ إذا علمت أن له (أی لمملوکه) مالا أن أکاتبه؟ قال: «ما أراد إلا واجبا» و قاله عمرو بن دینار، قلت لعطاء: «أ تؤثره عن

الوحی المحمدی، ص: ۲۴۶

أحد؟ قال: لا، ثم أخبرنی أن موسی بن أنس أخبره أن سیرین «۱» سأل أنسا المکاتبة و کان کثیر المال فأبی فانطلق سیرین إلی عمر فدعاه عمر، فقال: کاتبه، فأبی فضربه بالدرة و تلا:

فَکاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِیهِمْ خَیْراً [النور: ۳۳] فکاتبه» أ. ه.

۴- إذا خرج الأرقاء من دار الکفر و دخلوا دار الإسلام یصیرون أحرارا، و علی الحکومة الإسلامیة تنفیذ ذلک و مستنده فی السنة معروف، و قد انعکس الأمر فی هذا العصر فصار الأرقاء الذین یخرجون من دار الإسلام إلی دار الکفر أو ما فی حکمها هم الذین یعتقون، و المراد بالکفر هنا غیر الإسلام.

۵- إن من أعتق حصة له من عبد عتق کله علیه من ماله إن کان له مال، و إن کان لغیره حصة فیه فله أحکام، و فی ذلک أحادیث فی الصحیحین و غیرهما، منها حدیث أبی هریرة أن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم قال: «من أعتق نصیبا أو شقیصا فی مملوک فخلاصة علیه فی ماله إن کان له مال و إلا قوم علیه فاستسعی «۲» به غیر مشقوق علیه»، و حدیث ابن عمر مرفوعا أیضا: «من أعتق نصیبا له فی مملوک أو شرکا له فی عبد فکان له من المال ما یبلغ قیمته بقیمة العدل فهو عتیق»، و الشقیص کالنصیب وزنا و معنی.

۶- من عذّب مملوکه أو مثّل به أو أخصاه عتق علیه، فقد روی الإمام أحمد أن زنباعا أبا روح وجد غلاما له مع جاریة له فجدع أنفه وجبه، فشکاه إلی النبی صلّی اللّه علیه و سلّم فسأله فاعترف و ذکر ذنبه فقال النبی صلّی اللّه علیه و سلّم للغلام: «اذهب فأنت حر»، و یؤخذ منه: أن الجب و الخصاء حرام و موجب لعتق العبد، و ینفذه الحاکم علیه، فکل ما کان یخصی من الممالیک ففیه مخالفة للشرع الإسلامی بخصائصهم و بعدم عتقهم.

و فی روایة له (الإمام أحمد) أخرجها أبو داود و ابن ماجة: و جاء رجل إلی النبی صلّی اللّه علیه و سلّم صارخا فقال له: «ما لک؟»، قال: سیدی رآنی أقبل جاریة له فجب مذاکیری، فقال النبی صلّی اللّه علیه و سلّم «و علیّ بالرجل»، فطلب فلم یقدر علیه فقال صلّی اللّه علیه و سلّم للغلام: «اذهب فأنت حر»، و فی جامع الأصول من حدیث سمرة ابن جندب و أبی هریرة أن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم قال: «و من مثل بعبده عتق علیه».

۷- إیذاء المملوک بما دون التمثیل و التعذیب الشدید حرام و لا کفارة لذنبه إلا عتقه، فقد

---

(۱) هو والد محمد بن سیرین العالم التابعی المشهور و أخوته.

(۲) أی کلف المملوک أن یسعی فی جمع المال الباقی من ثمنه بما لا مشقة علیه فیه، فیا لله ما أعجب هذه الرحمة فی الإسلام.

الوحی المحمدی، ص: ۲۴۷

روی أحمد، و مسلم، و أبو داود عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم یقول:

«من لطم مملوکه أو ضربه فکفارته أن یعتقه»، و للشیخین و الترمذی عن سوید بن مقرن قال: «کنا بنی مقرن علی عهد رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم لیس لنا إلا خادمة واحدة فلطمها أحدنا فبلغ ذلک النبی صلّی اللّه علیه و سلّم فقال: «أعتقوها». و قیل له إنه لیس لبنی مقرن خادم غیرها فرخص لهم باستخدامها ما دامت الحاجة و إطلاقها إذا زالت».

و روی مسلم و غیره عن أبی مسعود البدری قال: «کنت أضرب غلاما بالسوط فسمعت صوتا من خلفی: «اعلم أبا مسعود» فلم أفهم الصوت من الغضب، قال: فلما دنا منی إذا هو رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم فإذا هو یقول: «اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود» فألقیت

السوط من یدی، و فی روایة فسقط من یدی السوط من هیبته فقال: «اعلم أبا مسعود أنّ اللّه أقدر منک علی هذا الغلام»- و فی روایة علیه- فقلت: یا رسول الله هو حر لوجه الله فقال: «أما لو لم تفعل للفحتک النار، أو لمستک النار».

فهذا و ما قبله بعض هدی الرسول فی الرحمة و معاملة الرقیق الذی لا یزال یصفه رجال الکنیسة و رجال السیاسة من الإفرنج و تلامیذهم بما علم القاصی و الدانی من الکذب و الإفک و البهتان، کیف لا و هو الرحمة العامة للعالمین.

۸- التدبیر عتق لازم، و ینعقد بقول السید لعبده: أنت مدبر، و أنت حرّ عن دبر منی، أی بعد أن أدبر عن هذه الدنیا، و کذا أنت حرّ بعد موتی، إذا قصد به التدبیر، فإن أطلق و لا قرینة، فبعض العلماء یرجح أنه تدبیر تقویة لجانب العتق الذی هو من مقاصد الشرع الأساسیة و منهم من یرجح جانب الوصیة.

و من أحکام التدبیر أنه لازم فی الحال لا یجوز الرجوع عنه کالوصیة، و أنه لا یجوز للمدبر (بالکسر) بیع المدبر (بالفتح) عند مالک و أبی حنیفة و أن من دبر بعض مملوکه و هو مالک له کله سری العتق إلی باقیه، و قال جمهور العلماء: إن أولاد الجاریة المدبرة تابعون لها فی العتق و الرق فإذا عتقت عتقوا معها.

۹- عتق أمهات الأولاد- و هو أنّ الجاریة التی تلد لسیدها ولدا تصیر حرّة من رأس ماله بعد موته فلا تدخل فی ملک الورثة و لا یجوز له بیعها فی حیاته عند جمهور السلف و الخلف و أولهم عمر و عثمان رضی الله عنهما.

ففی حدیث عمر عن الإمام مالک: «أیّما ولیدة ولدت من سیدها فإنه لا یبیعها و لا یهبها

و لا یورثها و هو یستمتع منها فإذا مات فهی حرّة» و لو أن أم الولد تورث لورثها أولادها فکانت ملکا لهم، و هذا مناف لمقاصد الشرع و أصوله و آدابه.

۱۰- إن ملک أحد أحدا من أولی القربی عتق علیه، و أعم ما ورد فیه حدیث ضمرة بن جندب مرفوعا: «من ملک ذا رحم محرم فهو حر» رواه أحمد، و أصحاب السنن إلا النسائی و الحاکم و صحّحوه و هذا بمعنی ما قبله من عتق أمهات الأولاد.

النوع الثانی من وسائل تحریر الرقیق الموجود: الکفارات

و المراد بها القربات التی تمحو الذنوب و أعظمها عتق الرقاب و هی ثلاثة أقسام:

(أحدها) واجب حتم علی القادر علی العتق بملک الرقبة أو ثمنها ککفارة قتل النفس خطأ، و کفارة الظّهار- و هو تشبیه الرجل زوجته بأمّه- و کان طلاقا فی الجاهلیة و کفارة إفساد الصیام عمدا بشرطه و قیده المعروفین فی الفقه.

(ثانیها) واجب مخیر فیه، و هو کفارة الیمین فمن حلف یمینا و حنث فیها فکفارته إطعام عشرة مساکین، أو کسوتهم، أو تحریر رقبة، کما قال الله تعالی و حکمة التخییر ظاهرة.

(ثالثها) مندوب، و هو العتق لتکفیر الذنوب غیر المعینة، و هو من أعظم مکفراتها.

النوع الثالث من وسائل إلغاء الرق الموجود

جعل الله أحد السّهام الثمانیة من مصارف الزکاة الشرعیة المفروضة (فی الرقاب) بنص القرآن هو یشمل العتق و الإعانة علی شراء المملوک نفسه (الکتابة) و من المعلوم أن زکاة الأمة الإسلامیة قد تبلغ مئات الألوف و ألوف الألوف من الدراهم و الدنانیر فلو نفذت أحکام الإسلام فیها وحدها لأمکن تحریر جمیع الرقیق فی دار الإسلام.

النوع الرابع منها العتق الاختیاری لوجه الله تعالی (أی ابتغاء مرضاته و مثوبته)

قد ورد فی الکتاب و السنة و آثار السلف من الترغیب فی العتق ما یدخل تدوینه فی سفر

الوحی المحمدی، ص: ۲۴۹

کبیر، و مما یدلّ علی أنه فی أعظم العبادات و أصول القربات آیة البر من سورة البقرة (۱۷۷).

و من أشهر أحادیث الترغیب فی العتق؛ قوله صلّی اللّه علیه و سلّم: «أیما رجل أعتق امرأ مسلما «۱» استنقذ الله بکل عضو منه عضوا من النار»، متفق علیه من حدیث أبی هریرة، و فی روایة:

«عضوا من أعضائه من النار حتی فرجه بفرجه»، و حدیث أبی ذر قال: سألت رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم أی العمل أفضل؟ قال: «إیمان بالله، و جهاد فی سبیله»، قلت: فأی الرقاب أفضل؟

قال: «أغلاها ثمنا و أنفسها عند أهلها» إلخ متفق علیه.

و من اشهرها أیضا حدیث أبی موسی الأشعری: «أیّما رجل کانت له جاریة أدّبها فأحسن تأدیبها، و علّمها فأحسن تعلیمها، و أعتقها و تزوجها فله أجران»، رواه البخاری و مسلم و غیرهما. و فی الصحیحین أیضا أن أبا هریرة لما روی قوله: «للمملوک الصالح أجران»، قال: و الذی نفسی بیده لو لا الجهاد و الحج و بر أمی لأحببت أن أموت و أنا مملوک.

علاوة فی عتق غیر المسلم

من الدلائل علی أنّ تحریر الرقیق فی الإسلام قربة مقصودة لذاتها لأنها من حقوق البشر العامة، أنه یشمل المؤمن و الکافر و من البدیهی أن حق المؤمن علی المؤمن أعظم و مقدّم علی غیره، و لما کان استرقاق الإنسان قتلا لحریته التی لا تتم إنسانیته بدونها جعل الله العتق کفارة للقتل فی حال عدم القصاص، و قد اشترط فی کفارة القتل عتق رقبة مؤمنة، لأن المؤمن فی الشرع الدینی أکمل، و مثله کفارة الظهار لأنه من الأحکام الزوجیة الدینیة. و قال الله تعالی فی کفارة الیمین أَوْ تَحْرِیرُ رَقَبَةٍ و لم یقل مؤمنة، فقال بعض العلماء: هو علی إطلاقه، فیکفی فیه رقبة غیر مؤمنة. و قال بعضهم: یحمل المطلق علی المقید و اشتراط کونها مؤمنة و الأول أظهر.

و من دلائل السنّة ما رواه البخاری فی (باب عتق المشرک) عن هشام أخبرنی أبی (أی عروة بن الزبیر) أنّ حکیم بن حزام رضی الله عنه أعتق فی الجاهلیة مائة رقبة و حمل علی مائة بغیر فلما أسلم حمل علی مائة بعیر و أعتق مائة رقبة قال: فسألت رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم فقلت: یا رسول الله أ رأیت أشیاء کنت أصنعها فی الجاهلیة کنت أتحنث بها- یعنی أتبرر بها؟ قال: فقال رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم: «أسلمت علی ما سلف لک من خیر»، و فی صحیح مسلم: «أسلمت علی ما أسلفت من خیر».

---

(۱) اتفق العلماء علی شرعیة عتق الکافر، و أنه قربة. و إنما اختلفوا فی عتقه فی الکفارة.

الوحی المحمدی، ص: ۲۵۰

فقول البخاری: «عتق المشرک» یحتمل أن یکون من الإضافة إلی الفاعل لأن حکیما سأله عما أعتقه و هو مشرک، و أن یکون من الإضافة إلی المفعول لأن الذین أعتقهم کانوا مشرکین، و جواب النبی صلّی اللّه علیه و سلّم له أنه أسلم علی ما کان یفعله من الخیر معناه أنه کمل له الخیر و البر بالإسلام، و إذا کان الإسلام یجب ما قبله من الشرک و أعماله، و یطهر النفس منها فأجدر به أن یزید فاعل الخیر السابق خیرا و تزکیة لنفسه إذا کان مستعدا لهما، و لو لم یسلم لما کان هذا ینجیه فی الآخرة و لکنه کان یکون أمثل ممن لم یفعل مثله.

الوصیة بالمماليک

أضف إلی ما تقدم کله وصایا الله و رسوله بالمماليک، و منها تخفیف الواجبات علیهم، و جعل حدّ المملوک فی العقوبات نصف حد الحر، و قد قرن الله تعالی الوصیة بهم بالوصیة بالوالدین و الأقربین، و نهی النبی صلّی اللّه علیه و سلّم عن قول السید: «عبدی و أمتی»، و أمره أن یقول:

«فتای و فتاتی و غلامی»، و أمر بأن یطعموهم مما یأکلون و یلبسوهم مما یلبسون، و یعینوهم علی خدمتهم إن کلفوهم ما یغلبهم کما فی حدیث أبی ذر فی الصحیحین و غیرهما الذی تقدم و المناسب منها هنا: أن المعرور بن سوید قال: رأیت أبا ذر بالربذة و علیه حلّة و علی غلامه حلة فسألته عن ذلک»، و ذکر ما تقدم من الحدیث و تتمته هی قوله صلّی اللّه علیه و سلّم فی المماليک:

«إخوانکم خولکم جعلهم الله تحت أیدیکم، فمن کان أخوه تحت یده فلیطعمه مما یأکل، و لیلبسه مما یلبس، و لا تکلفوهم ما یغلبهم فإن کلفتموهم فأعینوهم» أی: عاملوهم معاملة الأمثال، و فی الصحاح أیضا أنه صلّی اللّه علیه و سلّم کان یوصی النساء و ما ملکت الأیمان حتی فی مرض موته إلی أن التحق بالرفیق الأعلی صلّی اللّه علیه و سلّم. و سأله ابن عمر: کم أعفو عن الخادم؟ قال: «اعف عنه کل یوم سبعین مرة»، و هذه مبالغة معناها اعف عنه کلما أذنب.

و قد تفلسف بعض المتنطعین فیما یسمونه النقد التحلیلی فقال: إن محمدا صلّی اللّه علیه و سلّم کان یوصی بالرقیق لأنه ربی فی حجر أمه- قیل یعنی به إرضاع ثویبة مولاة عمه أبی لهب- و أن هذا التعلیل لجهل عمیق بالتاریخ و علم النفس و الفلسفة جمیعا، و الأولی أن یعنی أم أیمن حاضنته و کانت جاریة لأمه فورثها و أعتقها، و لکنّ هذا التشریع العظیم الذی جاء فی کهولة الأمیة فوق جمیع شرائع البشر و فلسفتهم و آدابهم شیء آخر لا ینبغی لعاقل أن یعلله بما علله به هذا المتنطع المتحذلق، و ما کان هذا التشریع وحده هو الذی یعلو هذا التعلیل و یحکمه بل کل نوع من شریعته مثله، ثم ما ذا یقال فی مجموعها و جملتها؟.

الوحی المحمدی، ص: ۲۵۱

و لهذا کان المسلمون فی الصّدر الأول یبالغون فی تکریم الرقیق و معاملتهم بالحلم حتی صاروا یقصرون فی الخدمة، و لعمر الحق إنّ العبد المملوک فی حکم الإسلام الأول کان أعزّ نفسا و أطیب عیشا من جمیع الأحرار الذین ابتلوا فی هذه العصور بحکم دول الإفرنج من غیرهم أو نفوذهم.

الوحی المحمدی، ص: ۲۵۲

خلاصة البحث فی تحریر الدلالة علی إثبات الوحی و حجة الله به علی جمیع الخلق

راجع ما تقدم من الکلام علی الوحی و النبوة و آیات الأنبیاء عندنا و عند النصاری، و من الکلام فی تفنید شبهة الوحی النفسی، و الکلام فی إعجاز القرآن اللغوی و العلمی و ما أحدثه من الثورة العالمیة و الانقلاب الإنسانی من کل وجه، ثم أضف إلیها تلک العشرة أنواع من مقاصد القرآن، و فی إصلاح البشر و تکمیل نوع الإنسان، من جمیع نواحی التشریع الروحی و الأدبی و الاجتماعی و المالی و السیاسی، و هی التی اشتدت حاجة الشعوب و الدول إلیها فی هذا العصر، موضحة بما بیّناه من أصول و قواعد فی الإسلام، هی أصحّ و أکمل و أکفل للمصالح العامة، و دفع المفاسد القدیمة و الطارئة من کل ما سبقها من تعالیم الأنبیاء، و فلسفة الحکماء و قوانین الملوک و الحکام، علی اختلاف العصور، مع العلم القطعی من تاریخ محمد صلّی اللّه علیه و سلّم أنه کان أمیا یؤثر بطبعه عیشة العزلة، فلم یتفق له الاطلاع علی کتب الأنبیاء و لا غیرها من الکتب و القوانین، و أنه لم یعرف عنه أنه کان یبحث فی شیء من العلوم، و لا أنه نطق بشیء من مسائلها، و لا أنه عرف بالبلاغة و الفصاحة، أو عنی بالشعر أو الرجز أو الخطابة، و العلم القطعی بأنه إنما جاء بها فی هذا القرآن بعد استکمال سن الأربعین و هی سن لم یعرف فی استعداد أنفس البشر و مدرکات عقولهم و لا فی تاریخهم أن

صاحبها یأتنف مثلها ائتنافا لم یسبق له البدء بشیء منه فی أنف عمره، و آنفه شبابه و شرخه.

راجع هذا کله و تأمّل جملة واحدة تجد عقلک مضطرا إلی الجزم بأن هذا فی جملته و تفصیله فوق استعداد بشر أمی أو متعلم، و أنه لا یعقل إلا أن یکون وحیا من الله تعالی اختصه به.

فإذا فرضنا أنه یحتمل أن یکون شیء منها من تأثیر الوراثة و البیئة و التربیة، و أن یکون قد تسرب إلی ذهنه بعض مسائلها من أفواه عقلاء قومه أو غیرهم ممن لقی فی أسفاره القلیلة، أو أنه فکر فی حاجة البشر إلی مثلها بما أدرکه بذکائه الفطری من سوء حالهم، فهل یعقل أن تکون تلک الفلتات الشاردة، و هذه الخطرات الواردة، تبلغ هذا الحد من التحقیق و الوفاء بحاجة الأمم کلها، و أن تظل کلها مکتومة من سن الصبا و عهد حب

الوحی المحمدی، ص: ۲۵۳

الظهور إلی أن تظهر فی سن الکهولة بهذه الروعة من البیان، و سلطان البلاغة علی القلوب، و قوة البرهان فی العقول، فتحدث هذه الثورة العربیة المغیرة لطباعها، و المبدلة لأوضاعها، بحیث تسود بها شعوب المدنیة کلها، و یتلو ذلک ما قصه التاریخ من الانقلاب فی العالم کله بها؟

و أعجب من هذا کله أن یظهر فی هذا العصر أنّ أمم العلم و الفنون الواسعة و الحضارة العجیبة أشد حاجة إلیها ممن قبلهم؟ کلا. إن هذا لم یعرف مثله فی البشر، فلم یبق إلا أنه علم موحی به من الله عزّ و جلّ مفروض علی کل عاقل بلغته دعوته أن یتبعه و یهتدی به لتکمیل إنسانیته، و هدایة أمته، و إعدادها لسعادة الدنیا و الآخرة. فإن اعترضته شبهة علیه فلیبحث عنها أو لینبذها، فما کان لعاقل ثبت عنده نفع علم الطب أن یترک مراعاته فی حفظ صحته، أو مداواة مرضه، لشبهة فی بعض مسائله، أو خیبة الأطباء فی بعض معالجاتهم للمرضی. فهو أعظم أطباء الأرواح و الاجتماع فیهم.

قال الله تعالی: قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداکُمْ أَجْمَعِینَ [الأنعام: ۱۴۹].

***

الوحی المحمدی، ص: ۲۵۵

الخاتمة فی تجدید التحدی بتعالیم الوحی المحمدی، و دعوة شعوب الحضارة إلی الدین الإسلامی

اشارة

تلک عقائد دین محمد و قواعد تشریعه، و أصول إصلاحه الدینی و الاجتماعی و المالی و السیاسی، مسرودة بالإجمال، مؤیدة بشواهدها من آیات القرآن، مجرّدة من حلل المبالغات الخطابیة، و عاطلة من حلی الخلابة الشعریة، و نحن المسلمین نتحدّی الفلاسفة و المؤرخین من جمیع الأمم، و لا سیما أحرار الإفرنج، بأن یأتونا بمثلها أو بما یقرب منها من تاریخ الأنبیاء، و أشهر الحکماء، و أبلغ الأدباء، و أنبغ ساسة الأولین و الآخرین مع صرف النظر عن کونه صلّی اللّه علیه و سلم کان- کما بینا أولا و آخرا- أمیا، و جاء بذلک کله بعد استکمال السن التی صرح علماؤهم بأن الإنسان یستحیل أن یبتدئ فیها علما أو فنا، أو یسن فیها شرعا أو یضع قانونا، أو أن ینهض فی العالم بانقلاب عظیم أو عمل خطیر، مما لم یکن قد ظهر استعداده له و أخذ بمقدماته فی ریعان الصبا، و شرخ الشباب، و قد بینا الفرق العظیم بینه و بین موسی و عیسی أعظم أنبیاء بنی إسرائیل صلوات الله و سلامه علیه و علیهم أجمعین.

نتحداهم بهذا القرآن تحدیا علمیا إصلاحیا سیاسیا فی أرقی عهد للبشر فی العلم الکسبی، مع صرف النظر عما کان من تحدی سلفنا بإعجاز عبارته و أسلوبها و بلاغتها العربیة فی أرقی عصورها، و نتحداهم به تحدیا عملیا من حیث إن تنفیذ محمد صلّی اللّه علیه و سلم لإصلاحه فی تأثیره و سرعته و عمومه من أکبر المعجزات التی تفوق استعداد البشر، فکیف و قد اجتمع العلم و العمل.

و بیانه أن العلم مما یصلح به حال البشر فی أفرادهم و جماعاتهم و شعوبهم علم واسع یقل فی الأذکیاء من یتقن المدون منه فی الکتب الذی یلقن فی المدارس، ثم یقل من یستطیع تنفیذ ما یتعلمه منه فی أمة یتولی أمر سیاستها و إدارة الأحکام فیها، فهل فی الإمکان أن یوجد إنسان یضع هذا العلم ذا الشّعب الکثیرة، بل العلوم العالیة، ثم یکون هو الذی یتولی تنفیذها و إصلاح أمة کبیرة بها، و یتم له النجاح فی ذلک بنفسه فی عصره؟.

إن هذا لیس فی استطاعة أحد من البشر، و لم یقع من أحد منهم فیما غیر، و أصول هذا الإصلاح و فروعه محفوظة إلی الیوم و قد فسد أکثر البشر لترکهم الاهتداء بها!!

الوحی المحمدی، ص: ۲۵۶

و أما تنفیذ محمد صلّی اللّه علیه و سلم لهذه التعالیم فقد تم فی عشر سنین من تاریخ الهجرة الذی کان بدء حیاة الحریة له و لمن آمن به، و قد ظل قبلها یدعو إلی أصولها المجملة عشر سنین أولا بالسر، ثم بالجهر مع احتمال الاضطهاد و الإیذاء و التعذیب و التهدید بالقتل و النفی الذی اضطر المؤمنین إلی هجرة بعد هجرة، و بعد الهجرة بالتبع له صلّی اللّه علیه و سلم صار لهم قوة فکان المشرکون یعتدون علیهم و یقاتلون فی دار هجرتهم فکانوا فی حالة الحرب و قتال مع المشرکین کافة، و کذا أهل الکتاب المجاورین له، و کان صلّی اللّه علیه و سلم عقد للیهود معاهدة بتأمینهم علی دینهم و أنفسهم و أموالهم بشرط ألا یظاهروا المشرکین علیه، فنقضوا عهده المرة بعد المرة، و ظاهروهم بل أغروهم بقتاله، فاضطر إلی قتالهم و إجلائهم من جواره فی الحجاز، و ظل المسلمون فی نضال مع المشرکین مدة ست سنین، مدافعین عن أنفسهم فی کل قتال دفاع الضعیف- المؤید من اللّه- للأقویاء المخذولین، و فی أواخر السنة السادسة عقد معاهدة الحدیبیة مع المشرکین علی وضع القتال عشر سنین، ثم غدر المشرکون و نقضوا العهد، فعادت حالة الحرب، و فتح المسلمون مکة عاصمة قریش الدینیة و الدنیویة، و مثابة جمیع الأمة العربیة، فی سنة ثمان من الهجرة، و حج النبی صلّی اللّه علیه و سلم حجة الوداع فی آخر سنة عشر، و أنزل اللّه تعالی علیه فی یوم عرفة منها: الْیَوْمَ یَئِسَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ دِینِکُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی وَ رَضِیتُ لَکُمُ الْإِسْلامَ دِیناً [المائدة: ۳].

ففی عشر سنین تم توحید الأمة العربیة التی کانت أعرق أمم الأرض فی الشقاق و التفرق و العداء، و إنما کان ذلک بتأثیر کتاب اللّه و تأییده عزّ و جلّ لرسوله کما قال اللّه تعالی: هُوَ الَّذِی أَیَّدَکَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِینَ (۶۲) وَ أَلَّفَ بَیْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً ما أَلَّفْتَ بَیْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لکِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَیْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِیزٌ حَکِیمٌ [الأنفال: ۶۲، ۶۳]، و بما أعدّه اللّه تعالی له من إتمام مکارم الأخلاق، و ما وفقه و أرشده إلیه من حسن السیاسة المبنیة فی قوله تعالی:

فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ کُنْتَ فَظًّا غَلِیظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِکَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَ شاوِرْهُمْ فِی الْأَمْرِ [آل عمران: ۱۵۹]، و ذلک أن العرب کانت أعصی خلق اللّه علی الخضوع و الطاعة و الانقیاد، لعراقتهم فی الحریة و شدّة بأسهم و عدم ابتلائهم بالملوک المستبدین القاهرین، و الرؤساء الروحیین المسیطرین الذین یذللون الأمم و یخضعونها لکل ذی سلطان قوی.

فلیدلنا علماء التاریخ العام علی نبی من الأنبیاء أو حکیم من الحکماء، أو ملک من

الوحی المحمدی، ص: ۲۵۷

الملوک الفاتحین و المشرعین، ربّی أمة من الأمم فی عشر سنین أو عشرین، فجعلها أهلا لفتح الأمصار، و السیادة علی الأمم الحضریة، و سیاستها بالعدل و الرحمة، و تحویلها عن أدیانها و لغاتها بالإقناع و حسن القدوة، و لا نشترط أن تکون هذه الأمة التی علمها و هذبها و وحدها رجل واحد کالأمة العربیة فی عتوها و لا أن یکون هذا الرجل أمیّا کمحمد صلّی اللّه علیه و سلم.

فأین الوحدة الجرمانیة و الوحدة الطلیانیة فی عصر العلوم و الفنون و الفلسفة و الحضارة و القوانین و نظم الاجتماع و الحرب، من الوحدة العربیة المحمدیة فی عهد الأمیة و الجاهلیة؟

بل أین الوحدة الإسرائیلیة، فی عهد الآیات و العجائب الکونیة من الوحدة العربیة الخاصة، ثم الوحدة الإسلامیة العامة فی عهد آیات

القرآن و علومه الإلهیة؟.

ثم نفّذ ذلک التشریع الأعلی، و الهدایة المثلی، خلفاء محمد الراشدون، و کثیر من ملوک المسلمین الصالحین، بما شهد لهم به تاریخهم، و اعترف لهم به المؤرخون المنصفون من الإفرنج و غیرهم، بالجمع بهما بین العدل و الرحمة، و بأنهم جدّدوا بهما الحضارة الإنسانیة و رقوها، و أحیوا العلوم و الفنون المیتة و هذّبوها و استثمروها، و کانوا أساتذة العالم فیها.

ثم کان من قوة هذا الدین فی الحق و الفضائل أن عادته جمیع أمم الإفرنج و حاربته بجمیع قواتها الصلیبیة- الهمجیة منها و المدنیة- ثم بعلومها و فنونها و نظمها المدهشة، و لا تزال تحاربه و تبذل الملایین من الدنانیر لتحویل أهله عنه، بعد زوال قوة دوله، و غلبة الجهل علی شعوبه، بجمیع أسالیب الدعوة المسماة بالتبشیر، و بجمیع وسائل القوة و النظام، و بمساعدة الملحدین فیه کالقادیانیة، و تقترف دولهم و جمعیاتهم الدینیة فی ذلک من رذائل الظلم و البغی و الکذب ما یتبرأ من مثله شرار المجرمین، و لم یستطیعوا له هدما، و لا أن ینصروا مسلما واحدا عرف الإسلام «۱».

قال الله تعالی: یُرِیدُونَ أَنْ یُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ یَأْبَی اللَّهُ إِلَّا أَنْ یُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ کَرِهَ الْکافِرُونَ (۳۲) هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدی وَ دِینِ الْحَقِّ لِیُظْهِرَهُ عَلَی الدِّینِ کُلِّهِ وَ لَوْ کَرِهَ الْمُشْرِکُونَ [التوبة: ۳۲، ۳۳].

---

(۱) هذا ما نقله الدکتور ماردیس المستشرق الفرنسی فی مقدمة تفسیره عن إجماع المبشرین کما تقدم فی مقدمة الطبعة الأولی.

الوحی المحمدی، ص: ۲۵۸

نتیجة التحدی بالوحی المحمدی: دعوة شعوب المدنیة: أوروبا و أمریکا و الیابان، بلسان علمائها إلی الإسلام لإصلاح فساد البشر المادی و تمتیعه بالسلام، و الإخاء الإنسانی العام

إذا عجز حکماء هذا العصر و الحیاة و الاجتماع و الأخلاق و المؤرخون من أحرار الإفرنج و غیرهم عن إخبارنا بوجود رجل مثل محمد صلّی اللّه علیه و سلم فیما علم من تاریخه المعروف و المشهور بمثل هذا القرآن فی خصائصه، و لا سیما التعالیم التی لخصنا کلیاتها فی هذا الکتاب، و قدر أن ینفذها و یربی بها أمة کالأمة العربیة حتی کان لها بها من الأثر الدینی و المدنی فی العالم مثل أثرها- و أنهم لعاجزون عن ذلک قطعا- أ فلا یکون عجزهم هذا برهانا علی أن دین محمد، و کتاب محمد، و هدی محمد، و تربیة محمد للأمة العربیة، بما قلب به نظام العالم الإنسانی کلها، و حولها إلی ما هو خیر منها- کل أولئک من خوارق العادات، و ما لا یقبل المرء الظاهر من المعجزات؟ بلی.

و إذا کان حقا واقعا ما له من دافع، فما المانع من عدّ هذه التعالیم وحیا من رب العالمین، العلیم الحکیم؟ و ما معنی کونها وحیا إلا أنها علم أفاضه الله تعالی علی روح محمد و قلبه، بطریقة خفیة غیر طرق العلم الکسبیة المعروفة للبشر عامة، و فوق الإلهامات النفسیة القلیلة التی تؤثر عن بعض الخاصة؟ و ما معنی کونها معجزة إلا أنها جاءت علی غیر المعهود فی علم البشر الکسبی و النفسی، و خلاف المقرر فی علم النفس و الفلسفة العقلیة و سنن الاجتماع، و تواریخ الأمم، و سیر الحکماء و العلماء و الملوک، و فوق المعروف عن الأنبیاء أیضا، و إن کانت من جنسها، فالأنبیاء قد أنبئوا ببعض الغیوب الحاضرة فی عصرهم و العصور التی أتت بعدهم- و أنبأ محمد صلّی اللّه علیه و سلم بما هو أصرح منها و أظهر و أکثر، و بغیوب سابقة کانت قبل نبوته بقرون، و لکن لم یجئ أحد منهم بمثل ما تقدم إجماله فی المقاصد العشرة العالیة من العلم و الحکمة و التشریع.

قد بیّنا لکم أیّها العلماء الأحرار، بطلان ما اخترعته عقول المنکرین لنبوة محمد صلّی اللّه علیه و سلم من العلل و الآراء، لجعل ما جاء به من العلم الإلهی الأعلی، و التشریع المدنی الأسمی، و الحکمة الأدبیة المثلی، نابعا من استعداده الشخصی، و ما اقتبسه فی بیئته و أسفاره من أقوال بعض الأعراب، و هی شوارد ما کان یعنی مثله بحفظها، و آراء أهل الکتاب، و هی أوابد ما کان یثق بها فیحفل

بقیدها، و لا کان هذا من شأنه، و علمتم أن بعض ما قالوه افتراء علی

الوحی المحمدی، ص: ۲۵۹

التاریخ، و أن ما قد یصح منه عقیم لا ینتج ما ادعوه، و علمتم أنه فی جملته مخالف للعلم و الفلسفة و طباع البشر و سنن الاجتماع و وقائع التاریخ.

و نحن نتحداکم الآن بالإتیان بعلل أخری لما عرضناه علی أنظارکم من وحی الله تعالی و کتابه لمحمد صلّی اللّه علیه و سلم مع القطعی من تاریخه- علل یقبلها میزان العقل المسمی بعلم المنطق، و سنن الإنسان، و علم الاجتماع.

فإن لم تستطیعوا- و لن تستطیعوا- أن تأتونا بعلل تقبلها العقول، و تؤیدها النقول فالواجب علیکم أن تؤمنوا بنبوّة محمد صلّی اللّه علیه و سلم و رسالته، و بکتابه المنزل علیه من عند الله تعالی لإصلاح البشر، و أن تتولوا الدعوة إلی هذا الإیمان، و معالجة أدواء الاجتماع الحاضرة به، بعد أن عجزت علومکم الواسعة، و فلسفتکم الدقیقة أن توقف عدوی فساد الإباحة و عبادة الشهوات و فوضی الأفکار فی الأمم، و عجزت عن منع دول حضارتکم أن تنفق معظم أموالها المنتزعة من شعوبها و مستعمراتها فی الاستعداد لحرب البغی و العدوان المدمرة، و تأریث العدوات بین شعوب الأرض کافة، بل زادوا شعوبهم عداوة و شنآنا و بغیا و عدوانا، بما هو شر مما علیه قبائل الهمج و سباع الوحش و الطیر و السمک؛ فقد کان غایة شوط هذه العلوم الواسعة عند هذه الدول أعظم نکبة علی البشر، فإن أبیتم و تولیتم أیها العلماء عن دعوة الإسلام إلی السلام، فعلیکم إثم شعوبکم و دولکم و سائر الناس.

لقد کتب النبی صلّی اللّه علیه و سلم لکل ملک و زعیم دعاة إلی الإسلام: «فإن تولّیت فعلیک إثم من ولّیت أمرهم».

و نقول لکم الیوم: فإن تولیتم فعلیکم إثم البشر کلهم، لأنکم إذا أظهرتم الإیمان و تواطأتم علی نشر الدعوة إلیه، لا- تلبث جمیع الشعوب أن تستجیب لکم، و ترغم حکوماتها علی الأخوة الإنسانیة و السلام، بهدایة الإسلام.

الوحی المحمدی، ص: ۲۶۰

علوم البشر لا تستقل بهدایتهم لأنهم لا یدینون إلا لوحی ربهم

ألا- إنه قد ثبت بالحس و العیان، أن العلم البشری وحده لا یصلح أنفس الناس؛ لأنهم لا یخالفون أهواءهم و شهواتهم الشخصیة و القومیة إلی اتباع آراء أفراد منهم، و إنما یدینون بوازع الفطرة لما هو فوق معارفهم البشریة، و هو ما یأتیهم من ربهم، و لا یوجد فی الأرض دین عام کامل صحیح ثابت إلا دین الإسلام، و قد بینا لکم أصول تشریعه الروحی و السیاسی و الاجتماعی الصالح لکل زمان و مکان، و أنه دین السلام و الحق و العدل و المساواة التی تعطی کل شعب و کل فرد حقه، فبه وحده یمکن البرء من الأدواء المالیة و السیاسیة و الحربیة و الاجتماعیة کلها، فالیهودیّة دین مؤقت خاص غیر عام و انتهی زمانها، و المسیحیة إصلاح روحی للیهودیة لیس فیها تشریع، و لا تصلح وصایاها الزهدیة التواضعیة لحضارة هذا العصر، و إنما کانت موقوتة لإصلاح غلو الیهود و الروم فی الطمع الدنیوی و الشهوات کما تقدم.

و البرهمیة و البوذیة و المجوسیة علی ما تعلمون فیهن من وثنیة و خصوصیة، و خرافات و عداوات، و تفاوت طبقات یدینون الله بجعل بعض من کرمهم من البشر أخساء بالفطرة کالحشرات، أو رجسا من عمل الشیطان، فلا یصلح شیء منها لتثقیفهم بالتوحید و العرفان، و الإخاء الإنسانی العام، فإذن لا ملجأ و لا وزر، و المتحد للبشر، إلا دین الإسلام قال الله تعالی: إِنَّ الدِّینَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْیاً بَیْنَهُمْ وَ مَنْ یَکْفُرْ بِآیاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِیعُ الْحِسابِ [آل عمران: ۱۹]، فلئن اهتدت به أمة قویة منظمة لتصلحن به سائر الأمم، و لتکون لها السیادة العلیا فی جمیع الأرض، و لیدخلن العالم الإنسانی فی طور جدید من الترقی الجامع بین منافع القوی المادیة، و المعارف الروحیة، و هما منتهی السعادة الإنسانیة.

الرجاء فی العلماء المستقلین دون السیاسیین:

بلغنا أنه دعا بعض العلماء منکم إلی عقد مؤتمر من کبار علماء الشعوب کلها للبحث فی الوسائل التی یمکن أن تقی حضارة العصر من غوائل الشحناء القومیة و الدولیة، و لئن

الوحی المحمدی، ص: ۲۶۱

عقد هذا المؤتمر فلن یکون أمثل و لا أرجی من هذه المؤتمرات التی تعقدها الدول فی جامعة الأمم و عواصم السیاسة، و هی لم تزد الأدواء القومیة إلا إعضالا، و الأخطار الدولیة إلا تفاقما، و الشعوب التی تتصرف بثروة العالم إلا فقرا، و إنما الدواء الواقی المضمون بین أیدیهم و هم لا- یبصرون، و حجته البینة تناديهم و لکنهم لا- یسمعون، قال الله تعالی: وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِیهِمْ خَیْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ [الأنفال: ۲۳].

و أما أنتم أیّها العلماء المستقلو العقول و الأفکار، فالمرجو منکم أن تسمعوا و تبصروا، و أن تعلموا فتعلموا، فإن کانت دعوة القرآن لم تبلغکم حقیقتها الکافلة لإصلاح البشر، علی الوجه الصحیح الذی یحرککک النظر، بما ضرب دونه من الحجب أو لأنکم لم تبحثوا عنها بالإخلاص مع التجرد من التقالید المسلمة عندکم و الأهواء، و لأنّ الإسلام لیس له زعامة و لا جماعات تثبت دعوته، و لا دولة تقیم أحکامه و تنفذ حضارته، بل صار المسلمون فی جملتهم حجة علی الإسلام و حجابا دون نوره، إلی غیر ذلک من الحجب و الأسباب، التی بینتها فی مقدمة هذا الکتاب فأرجو أن یکون هذا الکتاب کافیا فی بلوغ الدعوة إلیکم بشرطها المناسب لحال هذا العصر، فإن ظهر لکم بها الحقّ فذلک ما نبغی و نرجو لخیر الإنسانیة کلها، و إن عرضت لکم شبهة فیها، فالمرجو من حبّکم للعلم، و حرصکم علی استبانة الحق، أن تشرحوها لنا لنعرض علیکم جوابنا عنها، و الحقیقة بنت البحث کما تعلمون.

و لا أراکم تعدون من الشبهات الصادرة عن الإسلام (بعد أن ثبتت أصوله بما ذکرنا) أن فیه أخبارا عن عالم الغیب الذی وراء المادة لا دلیل علیها عندکم، فإنما مصدر الدین عالم الغیب، و لو کان مما یعلمه البشر بکسبهم، و یدینون به لما کانوا فی حاجة إلی تلقیه من الوحی، و قد بیّنا أنّ تعالیم القرآن قد أثبتت أنه وحی من عالم الغیب، و قامت برهانا علی وجود الله علمه و حکمته، فوجب أن تؤخذ أخباره بالتسلیم، و حسبکم أنه لیس فیه منها ما یقوم البرهان علی استحالته، و إنّ منها ما کان یعدّ من وراء إدراک العقل، ثم کان من ثمرات العلم أن أثبت وجود مثله بالفعل، کتخاطب أهل الجنة و أهل النار و ترائیهم و هم فیهما علی ما بینهما من البعد، و لا تکونوا ممن قال الله تعالی فیهم: ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ حاجَجْتُمْ فِیما لَکُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِیما لَیْسَ لَکُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ اللَّهُ یَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ [آل عمران: ۶۶].

الوحی المحمدی، ص: ۲۶۲

معجزات القرآن الطبیعیة و الفلکیة:

و أما أخبار القرآن عن عالم الغیب المادی من تکوین و تاریخ، فمن معجزاته الإیجابیة أنه جاء فیه کثیر من التعبیرات التی کشف العلم و التاریخ فی القرون الأخیرة من معانیها ما لم یخطر فی بال أحد من أهل العصر الذی نزل فیه. و من معجزاته السلبیة: أنه لم یثبت علی توالی القرون بعد نزوله شیء قطعی شیئا من أخباره القطعیة، علی أن تکون أخباره هذه إنما جاءت لأجل الموعظة و العبرة و التهذیب، و یکفی فی مثل هذا أن تکون الأخبار علی المألوف عند الناس، و لا ینتقد علیها إذا لم تشرح الحقائق الفنیة و الوقائع التاریخیة لأنها لیست مما یبعث الرسل لبیانه، و منها ما لا- یمکن الوقوف علیه إلا بالتعمق فی العلم أو الاستعانة بالآلات التی لم تکن معروفة عند المخاطبین الأولین بالوحی، بل لا یصح أن یأتی فیها ما یجزمون بإنکاره بحسب حالتهم العلمیة لئلا یکون فتنة لهم، و قد قال نبی الإنسانیة العام:

«أنتم أعلم بأمور دنياكم»، رواه مسلم فی صحيحه.

و من دقائق تعبير القرآن فی النوع الأول (التكوين) التی اختلف فی فهمها الناس أن مادة الخلق «دخان» و هو عين ما يسمی السديم، و أنّ السّماوات و الأرض كانتا رتقا (أی مادة واحدة متصلة) ففتقهما الله و جعل كلا منهما خلقا مستقلا، و بث فيهما أنواع الدواب، و لم يكن أحد يعتقد أو يتصور أن فی شیء من هذه الأجرام السماوية حيوانا، و أنه جعل من الماء كل شیء حی، و أنه خلق جميع الأحياء النباتية و الحيوانية أزواجا، فجعل فی كل منهما ذكرا و أنثی، و أنه جعل كل نبات موزونا، يعنی أن عناصره متوازنة علی نسب مقدرة، و أنه أرسل الرياح لواقح، و أنه يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ و التكوير هو اللف علی الجسم المستدير، و هو صريح فی كروية الأرض و دورانها اللذين كانا موضوع الجدال و النضال بين العلماء إلی عهد قريب بعد الإسلام، و أمثال هذا فيه كثير حتی إن بعض آياته فی الشمس و القمر و النجوم و سبحها فی أفلاكها و جريانها إلی أجل مسمی، و فی تناثر الكواكب عند خراب العالم لا تفهم فهما صحيحا إلا فی ضوء علم الفلك الحديث.

و أعجب منه إثباته أنّ للخلق سننا لا تتبدل و بيانه لكثير منها، و من سنن الاجتماع التی لم يهتد البشر إليها بالبحث العلمی إلا بعد بيان القرآن لها بقرون، و لم أوردها فی هذا البحث، لأنها قد يقال إنها مما يعرف بالعقل، و ليس من موضوع الوحی. و سأفصلها فی الجزء الثانی المتمم لهذا الكتاب.

الوحی المحمدی، ص: ۲۶۳

و اختم دعوتی هذه بتلاوة قول الله عزّ و جلّ فی آخر سورة فصلت: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِی شِقاقٍ بَعِيدٍ (۵۲) سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِی الْآفاقِ وَ فِی أَنْفُسِهِمْ حَتَّی يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلی كُلِّ شَیْءٍ شَهِيدٌ (۵۳) أَلا إِنَّهُمْ فِی مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَیْءٍ مُحِيطٌ (۵۴).

اللهم إنی قد بلغت، اللهم إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، اللهم أشهد فأنت خير الشاهدين، و الحمد لله رب العالمين.

*****

الوحی المحمدی، ص: ۲۶۵

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة علی سبيل التقديم ۳

مقدمة الطبعة الأولی ۷

فاتحة الطبعة الثانية ۱۷

الفصل الأول: تعريف الوحی لغة و شرعا ۲۵ النبی ۲۸

حاجة البشر إلی الرسالة ۲۹

عصمة الأنبياء ۳۱

العقل و العلم البشری ۳۴

الفصل الثانی: فی إقامة الحجّة علی مثبتی الوحی المطلق ۳۷ تعريف الوحی و النبوّة و الأنبياء عند النصاری ۳۹

بعض ما يرد علی نبوتهم ۴۰

امتياز نبوة محمّد علی نبوة من قبله ۴۳

صد الكنيسة عن الإسلام ۴۵

الآيات و العجائب ۴۷

العجائب و ما للمسیح منها ۴۹

آیة نبوة محمّد العقلیة العلمیة ۵۳

تأثیر العجائب فی الأفراد و الأمم ۵۴

ثبوت نبوة محمّد بنفسها و إثباتها لغیرها ۵۵

درس علماء الإفرنج للسیرة المحمدیة ۵۷

الفصل الثالث: فی شبهة منکری عالم الغیب علی الوحی الإلهی ۵۹ شبهة علی الوحی ۶۰

جواب المنار ۶۱

الوحی المحمدی، ص: ۲۶۶

تفصیل الشبهة و دحضها بالحجة ۶۴

المقدمة الأولی: لشبهة الوحی النفسی ۶۵

المقدمة الثانیة: دعوی الأخذ عن ورقة بن نوفل ۶۵

المقدمة الثالثة: دعوی انتشار الیهودیة و النصرانیة ۶۶

المقدمة الرابعة: حدیث إسلام سلمان الفارسی ۶۷

المقدمة الخامسة: رحلتا الشتاء و الصیف لتجار قریش ۶۷

المقدمة السادسة: ما قیل من وجود یهود و نصاری بمکة ۶۸

المقدمة السابعة: ما زعمه من سبب نشوء محمد صلّی اللّه علیه و سلّم أمیا ۶۸

المقدمة الثامنة: تصویر مجامع قریش بمکة ۶۹

المقدمة التاسعة: موت أبناء محمد ۷۰

المقدمة العاشرة: ضعف الوثنیة فی العرب ۷۲

نتیجة تلک المقدمات العشر ۷۳

باب کیف کان بدء الوحی إلی رسول الله صلّی اللّه علیه و سلّم ۷۷ الوحی المحمدی ۲۶۶ فهرس الموضوعات

ط ما یصورون به الوحی النفسی لمحمد صلّی اللّه علیه و سلّم ۸۱

تفنید تصورهم للوحی النفسی ۸۳

القول الحق فی استعداد محمد صلّی اللّه علیه و سلّم للنبوة و الوحی ۸۹

الأمثال النورانیة لفطرة محمد صلّی اللّه علیه و سلّم و روحه ۹۲

آیة الله الکبری القرآن العظیم ۹۴

الفصل الرابع: فی إعجاز القرآن بأسلوبه و بلاغته ۹۹ الثورة و الانقلاب الذی أحدثه القرآن ۱۰۲

اعتبار الموازنة بین تأثیر القرآن فی العرب و التوراة فی بنی إسرائیل ۱۰۴

فعل القرآن فی أنفس الأمة العربیة ۱۰۹

فعل القرآن فی أنفس مشرکی العرب ۱۱۱

فعل القرآن فی أنفس المؤمنین ۱۱۵

الفصل الخامس: فی مقاصد القرآن فی تربیة نوع الإنسان ۱۱۹ المقصد الأول من مقاصد القرآن ۱۲۱

الرکن الأول للدین: الإیمان بالله تعالی ۱۲۱

الرکن الثانی للدین: عقیدة البعث و الجزاء ۱۲۶

الوحی المحمدی، ص: ۲۶۷

البعث الإنسانی جسمانی روحانی ۱۲۹

الرکن الثالث للدین: العمل الصالح ۱۳۲

سنة القرآن فی تهذیب الأخلاق ۱۳۵

سنة القرآن فی الإرشاد إلی العبادات ۱۳۸

ترجیح فضائل القرآن علی الإنجیل ۱۳۹

شبهة فلسفیة علی عمل الخیر لمرضاة الله تعالی ۱۴۱

المقصد الثانی من مقاصد القرآن ۱۴۳

بحث فی الآیات الکونیة التی أید الله بها رسله ۱۴۹

الخوارق الحقیقیة و الصوریة عن الأمم ۱۵۲

الفرق بین المعجزة و الکرامة ۱۵۴

الکافرون بالآیات ۱۵۷

علاج خرافة تصرف الأولیاء فی الکون ۱۵۸

المنکرون للمعجزات ۱۵۹

عبادة بعض الناس للمسیح ۱۶۴

ختم النبوة و انقطاع الخوارق بها ۱۶۶

لا یمکن إثبات معجزات الأنبیاء إلا بالقرآن ۱۶۷

الإیمان بالقدر و السنن العامة ۱۶۹

المقصد الثالث من مقاصد القرآن: إکمال نفس الإنسان ۱۷۳

الحکمة و الفقه ۱۸۰

دحض شبهة و إقامة حجة ۱۸۴

المقصد الرابع من مقاصد القرآن: الإصلاح الإنسانی ۱۸۷

المقصد الخامس من مقاصد القرآن ۱۹۴

المقصد السادس من مقاصد القرآن ۱۹۹

أصول التشریع فی الإسلام ۲۰۲

قواعد الاجتهاد من النصوص ۲۰۳

العدل و المساواة فی الإسلام ۲۰۳

حظر الظلم فی الإسلام ۲۰۶

قواعد مراعاة الفضائل فی الأحکام و المعاملات ۲۰۷

الوحی المحمدی، ص: ۲۶۸

المقصد السابع من مقاصد القرآن ۲۰۹

القطب الأول: القاعدة العامة فی المال ۲۰۹

القطب الثانى: ذم طغيان المال ۲۱۲
القطب الثالث: ذم البخل بالمال ۲۱۳
القطب الرابع: مدح المال و الغنى ۲۱۴
القطب الخامس: ما أوجب الله من حفظ المال ۲۱۷
القطب السادس: إنفاق المال فى سبيل الله ۲۱۹
القطب السابع: فى الحقوق المفروضة و المندوبة فى المال ۲۲۱
المقصد الثامن: من مقاصد القرآن ۲۲۴
أهم قواعد الحرب و السلام: القاعدة الأولى ۲۲۶
القاعدة الثانية: فى الغرض من الحروب ۲۲۷
القاعدة الثالثة: إيثار السلم على الحرب ۲۲۹
القاعدة الرابعة: الاستعداد التام للحرب ۲۲۹
القاعدة الخامسة: الرحمة فى الحرب ۲۳۰
القاعدة السادسة: الوفاء بالمعاهدات ۲۳۰
القاعدة السابعة: الجزية ۲۳۱
المقصد التاسع من مقاصد القرآن ۲۳۴
المقصد العاشر من مقاصد القرآن ۲۴۰
هداية الإسلام فى تحرير الرقيق و أحكامه (الطريقة الأولى) ۲۴۲
(الطريقة الثانية) ما شرعه لتحرير الرقيق ۲۴۵
علاوة فى عتق غير المسلم ۲۴۹
الوصية بالمماليك ۲۵۰
خلاصة البحث: فى تحرير الدلالة على إثبات الوحى ۲۵۲
الخاتمة: فى التجديد التحدى بتعاليم الوحى المحمدى ۲۵۵
نتيجة التحدى بالوحى المحمدى ۲۵۸
علوم البشر لا تستقل بهدايتهم ۲۶۰
الفهرست ۲۶۵

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – "رَحِمَهُ اللهُ" – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و

بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة "للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ– فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جهةٍ أُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثُلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِع أُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائى/ "بناية "القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵–۲۳۵۷۰۲۳– (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹